المعجم الجغرافي

للقطر العربي السوري

المجلد الأول

القسم العام



مركز الدراسات العسكرية

شارك في إعداد مواد المعجم ومراجعتها

آ ــ في اللجان المركزية بدمشق :

الدكتور أحمد طربين
الأستاذ أحمد دباس
الأستاذ أسعد الزين
الأستاذ أسامة المرعشلي
الدكتور أمين طربوش
الدكتورة أمينة البيطار
الأستاذ بسام حميدة
الأستاذ بشير زهدي
السيدة تميمة دوجي
الدكتور جمعة عبد الكريم
الدكتور جودة شحادة
السيدة جهاد السيد
الدكتور حسن أمين الفتوى
الأستاذ حسن كمال
الأستاذ رئيف الحاج
الدكتورة رجاء دويدري
السيدة رجاء المنجد
السيدة رداد باغ
السيدة رقية عثمان
الأستاذ رياض قولي
الأستاذ زهير ناجي
الدكتور سلطان محيسن
الأستاذ سليمان ترياقي
السيدة سميرة صباغ
الدكتور سهيل زكار
الدكتور شاهر جمال آغا
الدكتور شوقي شعث
العميد الركن صبحي الجابي
الأستاذ صبحي النشاوي
الأستاذ طلال خضور
الدكتور عبد الرحمن حميدة
الأستاذ عبد الرحمن بدر الدين
الدكتور عبد الكريم رافق
الأستاذ عبد الكريم محلمي
الأستاذ عبد الله دندن
الأستاذ عبد الحليم يازجي
الأستاذ عدنان الجندي
الدكتور عدنان البني
الدكتور عفيف بهنسي
الدكتور علي أبو عساف
الدكتور علي حسن موسى
الدكتور عماد الدين الموصلي
السيدة فايزة العابد

الأستاذ قاسم طوبر
السيدة ليلى القائد
الأستاذ ماجد اللحام
الأستاذ محمد أمين النشواتي
الدكتور محمد حرب فرزت
الأستاذ محمد خير الحلو
الأستاذ محمد الخولي
الأستاذ محمد سالم جبري
الأستاذ محمد الشهابي
الأستاذ محمد عادل الناشد
الأستاذ محمد قاسمية
الأستاذ محمد قدور
الأستاذ محمد محفل
الأستاذ محمد وليد الحموي

الأستاذ محمد وحيد خياطة
الدكتور محمود رمزي
الأستاذ محمود عصام الميداني
الدكتور مفيد العابد
الأستاذ مصطفى الحاج إبراهيم
المهندس ميشال خوري
العقيد موفق القصار
الأستاذ ناظم كلاس
الأستاذ نديم شمسين
الأستاذ نديم المرعشلي
الأستاذ نسيب صليبي
الأستاذ هاني المبارك
السيدة هيام الحمصي
الأستاذ وجيه الخيمي

ب ـ في المحافظات

الأستاذ إبراهيم حلمي الغوري
الأستاذ إبراهيم فوزي
الأستاذ إبراهيم النجم
الأستاذ أبو بكر بارسباي
الأستاذ أحمد الحييني
الأستاذ أحمد خضور
الأستاذ أحمد خطاب
الأستاذ أحمد العيسى
الأستاذ أحمد ناجي
الأستاذ أحمد نصر
الأستاذ أسعد المحمود
الدكتور اسكندر لوقا
الأستاذ إسماعيل العلي

الأستاذ إسماعيل مرعي
الأستاذ الياس قوج
الأستاذ بركات الراضي
الأستاذ تاج الدين زينو
الأستاذ توفيق عبد الرزاق
الأستاذ جان سيمون
الأستاذ جبرائيل سعادة
الأستاذ جرجس عبود
الأستاذ جميل عرنوق
الأستاذ حامد الحلبي
الأستاذ حسن صقر
الأستاذ حسن قبلان
الأستاذ حسن قطريب
الأستاذ حسن مهيوب

الأستاذ خالد نجوم
الأستاذ خلف الدرويش
الأستاذ داود جميل
الأستاذ داود النمر
الأستاذ ديب عرموش
الأستاذ سامي صمون
الأستاذ سجيع نصور
الأستاذ سعيد البني
الأستاذ سليمان سفور
الأستاذ سهيل الآغا
الأستاذ صبحي زخور
الأستاذ صبحي الطاهر
الأستاذ عبد الحليم العلي
الأستاذ عبد الرحيم كمون
الأستاذ عبد الرزاق الأصفر
الأستاذ عبد الرزاق عبد الحميد
الأستاذ عبد اللّه حياني
الأستاذ عبد القادر مشرف
الأستاذ عبد المالك مالك
الأستاذ عبد الهادي نصري
الأستاذ عثمان طالب يعقوب
الأستاذ عدنان دردري
الأستاذ عدنان سليم
الأستاذ عدنان قنباز
الأستاذ عدنان قيطاز
الأستاذ عصام قمشري

الأستاذ علي عكاشة
الأستاذ غالب عامر
الأستاذ غسان إسماعيل
الأستاذ غسان الصوفي
الأستاذ غياث القاسمي
الأستاذ فهمي الدالاتي
الأستاذ فوزي الباسط
الأستاذ فيصل زغيب
الأستاذ كمال الكوا
الأستاذ ماجد الموصلي
الأستاذ محمد البقاعي
الأستاذ محمد رئيف هيكل
الأستاذ محمد محروس بركات
الأستاذ محمود بدور
الأستاذ محمود خرابة
الأستاذ محمود زيفا
الأستاذ محمود صبري يوسف
الدكتور محمود علي عامر
الأستاذ محمود يوسف
الأستاذ محي الدين كوسا
الأستاذ مصطفى علواني
الأستاذ مصطفى التمر
الأستاذ نديم القرة
الأستاذ نزيه معمر
الأستاذ نصوح الجمالي
الأستاذ وليد دندشي

بلدية: فوق ٣٠٠٠ نسمة مع القرى التابعة
مجلس قرية: فوق ٥٠٠٠ نسمة .

التسميات الإدارية المستخدمة في وزارة الإدارة المحلية

ناحية قرى مركز المحافظة	قرى ترتبط إدارياً مباشرة بمركز المحافظة دون أن ترتبط بمركز الناحية أو بمركز المنطقة .
قرى مركز المنطقة	قرى ترتبط إدارياً بمركز المنطقة دون أن ترتبط بمركز الناحية .
ناحية مركز المحافظة	ناحية ترتبط مباشرة بمركز المحافظة دون أن يكون لها ارتباط بمركز المنطقة .
المزرعة	التجمع السكاني الذي يقل عدد سكانه عن ٥٠٠ نسمة والتسمية إدارية وليست وظيفية ، وقد تكون وظيفة المزرعة غير زراعية .
القرية	مركز عمراني يتراوح عدد سكانه بين ٥٠٠ — ١٠٠٠٠ نسمة وقد يتبعها مزرعة أو أكثر .
البلدة	كل مركز ناحية أو كل مركز عمراني يتراوح عدد سكانه بين عشرة آلاف وعشرين ألف نسمة .
المدينة	كل مركز محافظة أو منطقة أو كل مركز عمراني يزيد عدد سكانه على عشرين ألف نسمة . أو مركز أثري (أفاميا) أو سياحي (معلولا) بغض النظر عن عدد سكانها
الناحية	أصغر وحدة إدارية وتضم مجموعة من القرى والمزارع ولها مركز إداري يدعى مركز الناحية أو البلدة .
المنطقة	الوحدة الإدارية التي تلي الناحية ولها مركز إداري يدعى مركز المنطقة ويتبعها غالباً عدد من النواحي .
المحافظة	أكبر وحدة إدارية تضم عدداً من المناطق ومركزها مركز المحافظة .
محافظة دمشق	وحدة إدارية خاصة بالعاصمة ويتبعها أحياء مدينة دمشق والمراكز العمرانية الأخرى الداخلة في نطاق حدودها الإدارية .
محافظة ريف دمشق	وحدة إدارية تتبعها المناطق الواقعة خارج الحدود العمرانية للعاصمة ومركزها مدينة دمشق .

الجمهورية العربية السورية
الموقع، الحدود، المساحة

أ. مصطفى الحاج ابراهيم

تمهيد

لم يعرف أصل تسمية **سورية**، على وجه التأكيد، فيما إذا جاء تحريفاً لكلمة «أسيريا»، التي هي «آسور»، أو جاء من كلمة صور، المدينة الفينيقية الكنعانية، أو من «سيريون» أو «سيرياناز»، الذي أطلق على مجموعة من أبرز جبالها وهي: جبال لبنان الشرقية وحرمون، والتي عُرفت أيضاً باسم «سِنّير». ويكاد يكون من المؤكد، أن سورية عُرفت بهذا الاسم زمن السلوقيين، ورثة «الإسكندر المقدوني»، واستمرت على ذلك في العصرين الروماني والبيزنطي.

أما **عرب شبه الجزيرة**، فلم يكونوا يعرفون هذا الاسم قديماً، والذي كان ينطبق ـــ على ما يبدو ـــ على قسمها الشمالي أكثر منه على قسمها الجنوبي، ولم يرد اسم سورية في مراجعهم لأول مرة إلا رواية عن قول «هرقل»، إمبراطور بيزنطة لدى هزيمته أمام العرب المحررين، فعندما بلغت جيوش العرب المسلمين «قنسرين»، خرج يريد القسطنطينية وصعد على مرتفعٍ مشرف بين أرض سورية وأرض الروم وقال: «**سلام عليك يا سورية، سلام مودع لا يرجو أن يرجع إليك أبداً**». ووردت هذه الرواية في معجم البلدان لـِ «ياقوت الحموي» تحت مادة «سورية»، نقلاً عن كتاب الفتوح. وورد اسم سورية في معجم البلدان أيضاً، على أنها موضع بين «خناصرة وسلمية»، والصحيح أنها شمال الرصافة على الفرات (عند قرية الحْمام)، وكانت تدعى أيضاً «سورى» في العصر الروماني. لكن من المستبعد أن يكون اسم سورية تعميماً له **لعدم شهرة تلك المدينة**، ومع ذلك، يذكر ياقوت في مادة «شام» إن اسم الشام **الأول** «سورى»، ولم يورد توضيحاً له.

أما تسمية بلاد الشام، التي استعملها العرب للدلالة على سورية، فلهم في أصولها مذاهب شتى، فمن قائل: إنها من الشامات، وهي جمع شامة؛ أي كل شيء يختلف لونه عن سائر ما حوله، ويقال إن ذلك للدلالة على كثرة قراها. وهناك من يذكر أن التسمية جاءت من موقع البلاد على شمال الحجاز (أو على يسارها) في الجهة المعاكسة لليمن، الواقعة على يمين الحجاز، بينما يذكر آخرون أن كلمة «شام» محرفة عن سام بن نوح، وأنها تطلق أيضاً على دمشق قاعدة تلك البلاد، جرياً على ما درج عليه العرب من إطلاق الكل على الجزء والعكس بالعكس.

استمرت تسمية بلاد الشام متداولة من قبل العرب والمسلمين حتى أواخر العصر العثماني، في الوقت الذي غلبت فيه تسمية سورية لدى الأوروبيين، نقلاً عن اليونان والرومان والبيزنطيين، إلى أن احتلها الإنكليز والفرنسيون بعد الحرب العالمية الأولى، فجُزئت سياسياً، وتضاءل استعمال تسمية بلاد الشام نتيجة لذلك، وبدأت تبرز المسميات الإقليمية التي تدل على تلك الأجزاء، مثل: فلسطين، لبنان، شرقي الأردن، مع تبديل وتحوير تحكمي في مدلولاتها، وقصر اسم سورية على الجزءين الأوسط والشمالي منها، كما سنرى فيما بعد.

موقع سورية وأهميته

لو نظرنا إلى الموقع المحلي الجغرافي السياسي لما يُطلق عليه حالياً اسم سورية، لوجدنا أنها تمتد من البحر المتوسط غرباً إلى العراق شرقاً، ومن تركيا شمالاً إلى الأردن وفلسطين جنوباً، ولبنان في الغرب. وضمن هذا الإطار العام تبلغ مساحة سورية الحالية ١٨٥ ألف كم٢. أما إذا نظرنا إلى امتداد سورية من خلال مقياس موقعها الفلكي على خريطة العالم، فهي تمتد على نحو خمس درجات عرض من ١٩َ، ٣٢° إلى ٢٠َ، ٣٧° شمالاً تقريباً، وذلك من أقصى جنوب جبل العرب جنوباً إلى أقصى شمال شرقي الجزيرة شمالاً، عند ملتقى الحدود الشمالية السورية ـــ التركية مع نهر دجلة، كما تمتد على نحو ستٍ من درجات الطول من ٤٣َ، ٣٥° إلى ٢٥َ، ٤٢° شرق غرينتش.

موقع سورية الفلكي

ويغطي هذا الامتداد المسافة بين رأس إبن هانىء على البحر المتوسط، ونقطة التقاء الحدود الشرقية السورية مع نهر دجلة.

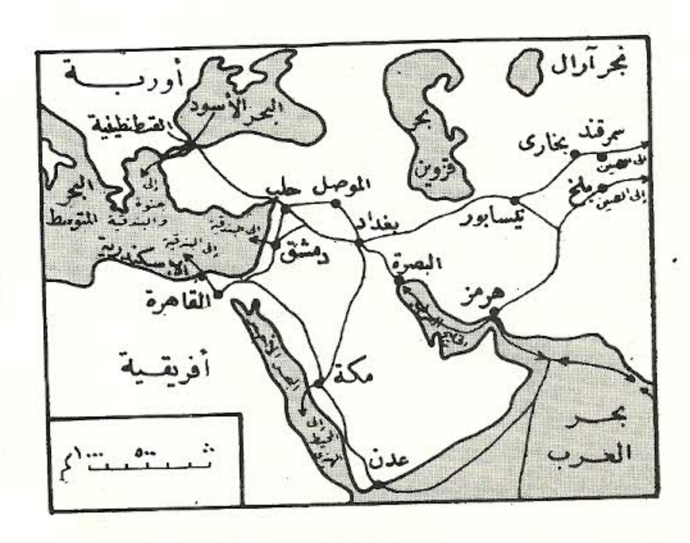
لا يعبر موقع سورية عن أهميته العظيمة، إلا إذا نظرنا إليه من خلال أبعاده الكاملة الحقيقية، والمدى الذي بلغه خلال التاريخ في المجالين العربي والعالمي، إذ يكاد يكون هناك إجماع عالمي على أهميته. وقد برز ذلك بشكل واضح وجدّي في التاريخ المعاصر، بعد الحرب العالمية الأولى، عندما انهارت الإمبراطورية العثمانية، التي كانت سورية قلبها النابض، وعندما حدثت المجابهة بين حركة الاستقلال والوحدة العربية، التي اتخذت من سورية مقراً لها، وبين الحلفاء الطامعين في تلك البقعة الخطيرة من العالم، والذين كانوا أيضاً على موعد مشبوه مع الحركة الصهيونية العالمية، لتحقيق تلك الأطماع. ففي ذلك الوقت، وفي صيف عام ١٩١٩ صدر تقرير لجنة «كنغ — كرين» الأميركية، يعبر عن الأفكار التي كانت سائدة آنذاك بالنسبة إلى أهمية موقع سورية، وقد ورد في هذا التقرير ما يلي:

«لما كانت سورية جزءاً من رأس الجسر، الذي يربط بين أوروبا وآسيا وإفريقيا — حيث يلتقي الشرق والغرب بصورة فريدة — فإن موقعها ذو أهمية استراتيجية، وسياسية، وتجارية. كما أن له أهمية من زاوية الحضارة العالمية، لهذا يجب أن تتصف التسوية التي توضع لهذه المنطقة بالعدالة، بحيث تبقى على الأقل، ذات نتائج حسنة، لها صفة الاستمرار بالنسبة لقضية نمو حضارة خيّرة في العالم».

هناك إذن مجموعة من العوامل الجغرافية والتاريخية التي شكلت في المكان والزمان عبر التاريخ أهمية موقع سورية، ويمكن تلخيصها فيما يلي:

١ — لو نظرنا إلى مصور طبيعي للقارة الآسيوية لوجدنا أن سورية تطل بنافذتها الغربية على البحر المتوسط، وقد ترجم ذلك خلال التاريخ، طريق الحرير، التي تبدأ من الصين وتنتهي إلى حلب عبر آسيا الداخلية، وهي في الوقت نفسه أقصر وأيسر طريق بين شرقي آسيا وغربيها. ويكمل هذا المجاز البري، عبر العالم القديم، بين قارتيه الباقيتين: إفريقيا وأوروبا، معبرٌ بحري يتمثل في البحر المتوسط، الذي تنفذ بواباته، إلى جميع الاتجاهات، وحتى الغرب الأقصى القديم المتمثل في المحيط الأطلنطي، أو بحر الظلمات، مثلما كان المجاز البري ذا بوابات تنفذ إلى جميع الاتجاهات، وحتى الشرق الأقصى المتمثل في الصين.

٢ — في إطار ما تقدم يمكن أن ندرك، لماذا أصبحت سورية، البؤرة المركزية الجغرافية الحتمية لهذا المعبر البري البحري:



موقع سورية بين البحار الخمسة وشبكة الطرق القديمة

آ ــ لو أمعنا النظر مرة أخرى إلى خريطة آسيا وفي غربيها بالتحديد، لوجدنا أن الطريق الطبيعية القادمة من أواسط آسيا تدخل في برزخ، إذا صح التعبير، بين بحر قزوين ورأس الخليج العربي عبر إيران، ثم بين البحر الأسود وآسيا الصغرى شمالاً والصحراء العربية ورأس البحر الأحمر جنوباً، عبر العراق وسورية، لتبلغ شواطىء البحر المتوسط، محاذية للذراع الغربي من الهلال الخصيب، ولأمكننا أن ندرك لماذا أصبحت حلب، الواقعة عند رأس محدب الهلال الخصيب، نهاية طريق الحرير، وأصبحت سورية ملتقى الطرق الطبيعية الأخرى عامة، المتجهة إليها أيضاً من الخليج العربي والذراع الشرقية للهلال الخصيب، ومن سواحل البحر الأحمر في الجزيرة العربية، في اتجاه آسيا الصغرى وأوروبا وإلى شواطىء البحر المتوسط، وكذلك من وادي النيل عبر سيناء وفلسطين.

ب ــ أما من الجهة الغربية، حيث البحر المتوسط الذي يطل عليه الشاطىء السوري، فواضح للمتجه شرقاً، عبر هذا البحر، وجود الفجوة، أو الخليج الواسع المتعمق شرقاً، بين دلتا النيل وسيناء، من جهة وآسيا الصغرى، من جهة أخرى، حيث تمتد جبهة الساحل السوري المواجه للغرب، مما لا نجده في أي جزء من سواحل البحر المتوسط، والتي يجد سكانها في موانئه أيسر وأقرب الطرق إلى الشرق، بل إن الأندلسيين أطلقوا على البحر المتوسط اسم **بحر الشام** أو البحر المؤدي إلى الشام، أو الذي تبرز فيه النشاطات البحرية المتصلة بساحل بلاد الشام، والتي ارتبطت بها أيضاً نشاطات أهم مينائين أوروبيين في العصور الوسطى وأوائل العصر الحديث وهما: البندقية وجنوة وهما الحوض الشرقي والحوض الغربي للبحر المتوسط على التوالي.

ج ــ في هذا الموقع، الذي يمثل قعر الزجاجة من جهة القارة ومن جهة البحر، وجدت أكبر بوتقة لتفاعل العلاقات البشرية بين الشرق والغرب، في العالم القديم والوسيط والحديث، من اقتصادية وثقافية واجتماعية وسياسية، في السلم وفي الحرب، على السواء، وإذا جاز لنا أن نجاري بعض علماء الجغرافية الاجتماعية والسياسية (جيوبوليتية) فيما ذهبوا إليه: **من أن الطريق هي التي تصنع التاريخ**، فإن الجذور التاريخية للحضارة البشرية وجدت شروطها المثلى على ملتقى هذه الطرق ــ أي على أرض سورية وما حولها ــ. ولم تكن المدن العديدة، التي قامت في سورية وبلاد الشام إلا المظهر الحضاري لتلك التفاعلات، على بدايات الطرق أو نهاياتها أو تقاطعها، أو على امتداد مراحلها سواء في الاتجاه البري أو في الاتجاه البحري. فالطريق صنعت المدينة، والمدينة صنعت الحضارة. ويتبين لنا ذلك من استعراض شبكات المدن والطرق.

٣ ــ شبكات المدن والطرق: نشأت سلاسل من المدن والموانىء على نسق وبأعداد كبيرة لا نجد مثيلاً لها في أية بقعة من الأرض، متوضعة على جبهتين: داخلية وساحلية، أهمها: في الجزيرة العليا وكيليكية: جزيرة ابن عمر وديار بكر، وماردين، وتل حلف، وحران والرها، وجرابلس وعين تاب ومرعش والاسكندرونة وأذنة وطرسوس ومرسين .... إلخ. وإلى الجنوب منهما: في وادي الفرات وهضبة حلب ووادي العاصي الأدنى: ماري وإيبلا وحلب وقنسرين، وإدلب وأنطاكية والسويدية، وأوغاريت واللاذقية.

ويلي ذلك جنوباً عبر البادية السورية وفي حوض العاصي الأعلى والأوسط: تدمر وحمص وحماة وقَدَس (قادش) وطرطوس وأرواد وطرابلس الشام.

ثم قامت في سورية الجنوبية: دمشق والجابية وبصرى الشام وأذرعات (درعا) وجرش وعمان والبتراء، ينفذ منها غرباً نحو البحر مباشرة، أو بصورة غير مباشرة، عبر عنجر وبانياس: بيسان ونابلس والقدس والرملة، ثم تنتهي إلى موانىء بيروت وصور وعكا وحيفا ويافا وغزة، على البحر المتوسط، أو إلى إيلة على البحر الأحمر.

هذا فيما عدا المدن الواقعة على طرق شمالية جنوبية، أو عند تقاطع الشمال والجنوب بالشرق والغرب، مما يصعب حصره. مثل: معان، الكرك، بئر السبع، الخليل، أريحا، مجدو، طبرية، بعلبك، شيزر، مصياف، أفاميا، معرة النعمان، جسر الشغور، الأندرين، مسكنة، منبج، الرصافة، الرقة، دير الزور، الصالحية، قرقيسياء (البصيرة حالياً)، وشمالاً حتى ديار بكر وحران وكلس وغيرها... إلخ. لعبت كل من هذه المدن وغيرها من المدن السورية دوراً مهماً في التاريخ على طريقٍ ما، من شبكة الطرق التي يصعب حصرها أيضاً في هذه البقعة من حيث محطاتها واتجاهاتها ووظائفها. ولكن مما يجدر التنويه به هو أن تلك الشبكة مرت خلال ازدهارها بعصور ذهبية تلقي أضواء على المرتبة الرفيعة، التي بلغتها استراتيجياً واقتصادياً، تبعاً للتطورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي أحاطت بالمنطقة، وكان أولها:

العصر الروماني: اشتهر الرومان في التاريخ القديم برصف الطرق وتعبيدها وإنشاء الجسور على الأنهار، وقد مكنتهم طبيعة الهضاب الداخلية في سورية وسهولة الحصول على الحجارة فيها، وسطحها المنبسط، من تعبيد تلك الطرق، وكان لهم من موقع سورية الجغرافي والاستراتيجي، بين البحار



بقايا جسر من العصر الروماني يصل بين جبلي شكاك والكرد فوق نهر عفرين

الخمسة، وعلى تخوم الإمبراطورية الفارسية المنافسة ما يشجعهم أو يدفعهم إلى القيام بذلك، لا سيما بعد أن قضوا على دولة الأنباط العربية، منافستهم التجارية في الجنوب، وبلوغهم البحر الأحمر، ومنافذ شبه الجزيرة العربية والمحيط الهندي. فقد كانت ٢٢ طريقاً رومانية في سورية تصلها بالأناضول وأرمينيا شمالاً، وبلاد الرافدين والجزيرة العربية ومصر في الشرق والجنوب والجنوب الغربي. وكانت تلك الطرق تتلاقى في مراكز المدن الهامة مثل: أنطاكية، وكلس، وقنسرين، ومنبج، وأورفة وسورى، ودورا أوروبوس (الصالحية) على الفرات، والرصافة، وتدمر، وأفاميا، ودمشق، وبصرى. وفي هذه الأخيرة وحدها كانت تلتقي خمس طرق معبدة، تصلها بكافة الجهات. ومن أشهر تلك الطرق طريق ديوقليسيان، المُحاذي للبادية السورية بين دمشق وسورى على الفرات عبر تدمر، في مواجهة الطريق الملكية الفارسية، التي كانت تنطلق من سوزا وتحاذي في بعض مراحلها الضفة اليسرى للفرات حتى الرقة وحران. وكان بعض تلك الطرق الشمالية يصل حتى ديار بكر على الدجلة في الجزيرة العليا، كما نذكر الطريق الساحلية التي تبدأ من اللاذقية وتنتهي إلى الاسكندرية بمصر. وكان أجمل تلك الطرق، تلك التي كانت تنطلق من أنطاكية (عاصمة سورية في ذلك العصر).



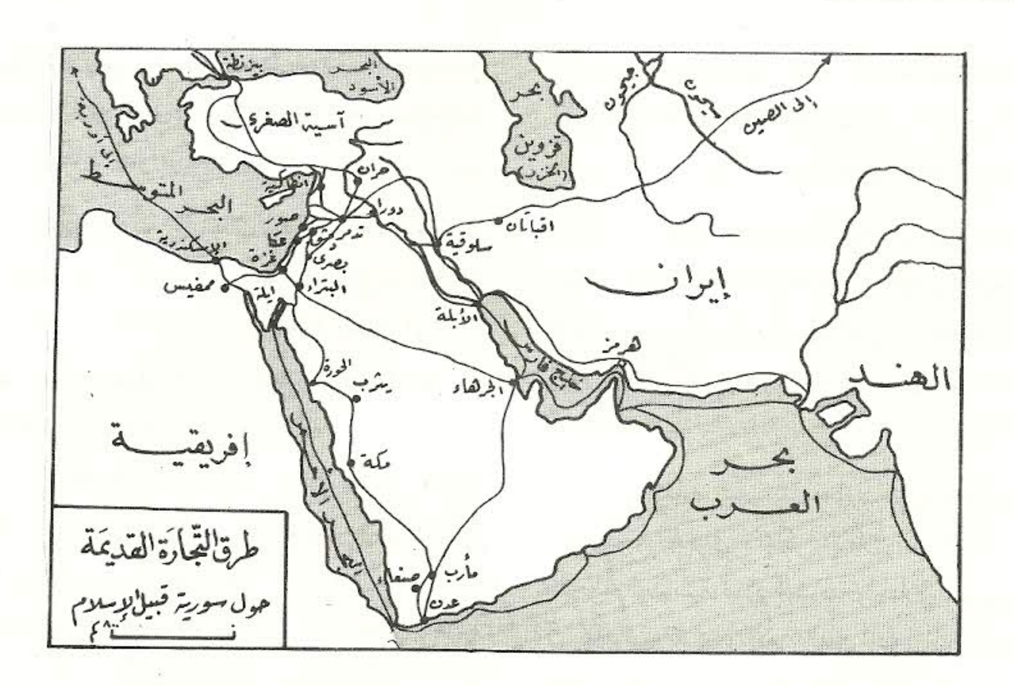
صورة طريق من العصر الروماني في محافظة إدلب

فعلى تلك الطرق كانت تُنقل التوابل والبخور والذهب من شبه الجزيرة العربية، والمنسوجات من إيران، واللآلىء من الخليج، والحرير من الصين، والطيوب والجواهر والعاج من الهند، والمعادن من آسيا الصغرى، والخشب والملح والحبوب من سورية.

العصور العربية الإسلامية: بعد الفتح العربي الإسلامي لبلاد الشام بقليل، لم تلبث أن أصبحت عاصمتُها دمشق، قاعدة الدولة العربية الكبرى، التي حررت مساحات واسعة من نير الإمبراطوريتين المتنازعتين: **الفارسية**، والبيزنطية

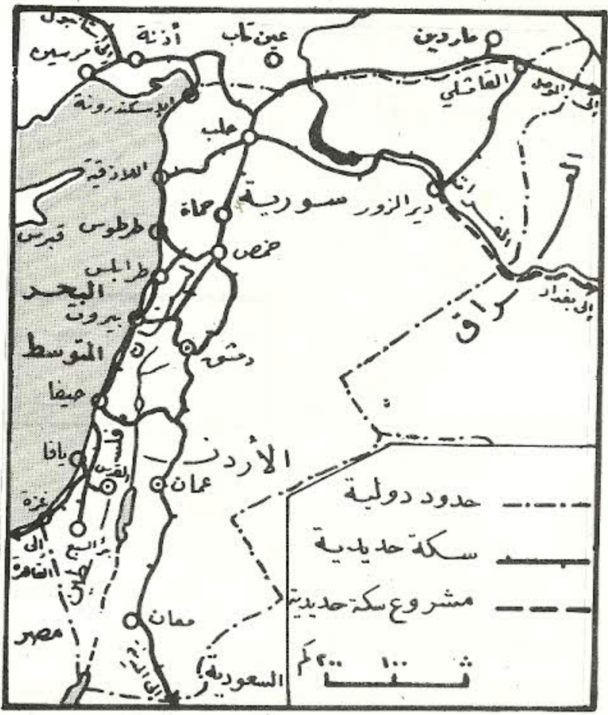
قلب آسيا وشرقيها إلى غربي آسيا عامة وسورية خاصة، ومنها طريق الحرير، كما كانت الثانية تسيطر على الطرق المتجهة إلى شرقي أوروبا وآسيا الصغرى، وكذلك على الطرق البحرية المتوسطية التي تربط كافة بلدان الحوض. وقد كانت معركة **ذات السواري** في عهد معاوية، بداية لانحسار النفوذ البيزنطي عن ذلك البحر. ومن هنا أخذت الطرق، العابرة لسورية في ذلك العصر، مداها الكبير في جميع الاتجاهات، في السلم وفي الحرب على السواء. ووجدت طرق جديدة أو تطورت وظائف الطرق، التي أشرنا إليها فيما سبق، وتواصلت طرق البر والبحر في الدولة العربية الكبرى، من بحر الصين والمحيط الهندي حتى البحر المتوسط والمحيط الأطلنطي.

ولعب انتشار الدين الإسلامي دوراً كبيراً في ذلك التواصل، ورافقه تطور متطلبات الحياة الاقتصادية والاجتماعية في العالم آنذاك، والازدهار الكبير للزراعة والصناعة في سورية،



وما كانت تنتجه من حبوب وفاكهة ومنسوجات وأسلحة خفيفة وزجاج وورق وزيوت ... إلخ . وكان من الطرق الجديدة التي نشطت في سورية : طريق الحج ، وطرق طلاب العلم إلى العواصم العربية ، وطريق البخور عبر الحجاز ، وطريق الذهب عبر الصحارى العربية ... إلخ . وأُقيمت على جميع تلك الطرق وفي مواقع محددة ، ذات أهمية طبيعية وبشرية من بلاد الشام ، مراكز ذات نشاطات مختلفة ، عند الممرات الجبلية أو الشعاب والأبواب ، والمخاضات النهرية والآبار وموارد المياه ، ومفارق الطرق ، خانات ومزارات ورباطات ، ومواقع لأسواق تجارية ... إلخ . هذا إضافة إلى الطرق العسكرية ، التي كانت تتبعها الجيوش في تحركاتها السريعة على التخوم بين الإمبراطوريات ، حول سورية وعبرها ، سواء كانت معبدة أو غير معبدة . وما زال الطريق الذي اتبعه خالد بن الوليد في انتقال جيشه من العراق إلى دمشق عبر بادية الشام لغزاً عسكرياً محيراً . هذا ولم يقلل من أهمية موقع سورية ونشاطاتها ، انتقال عاصمة الدولة العربية الكبرى من دمشق إلى بغداد والقاهرة ، بل إن فتح مدينة القسطنطينية عام ١٤٩٢م ــ التي أصبحت عاصمة الدولة العثمانية قبيل استيلاء العثمانيين على معظم الأراضي العربية ــ قد زاد من أهمية موقع سورية ، في نواحٍ عديدة جغرافية وسياسية واقتصادية ، حيث زالت الحدود بينها وبين آسيا الصغرى ، تلك التي كانت ميدان صراع بين العرب والبيزنطيين ، وفُتحت أمامها طريق البحر الأسود وشرقي أوروبا وأواسطها ، وأصبحت سورية الجسر الإلزامي المتوسط : بين قاعدة الدولة العثمانية وأطرافها المترامية في آسيا وإفريقيا ، لذا لم تتبدل أهمية الطرق عبر سورية ، وإن تأثرت في العصور الحديثة ، بازدياد أهمية الطرق البحرية عبر رأس الرجاء الصالح ، أو عبر البحر الأحمر وبرزخ السويس ، ثم من بعد ، قناة السويس في النصف الثاني من القرن التاسع عشر .

غير أن الطرق شهدت من ناحية أخرى ، تطوراً في وظائفها ، حسب تطور النشاطات البشرية العالمية ، ومظاهرها الحضارية ، انتهاءً إلى سورية ، أو انطلاقاً منها أو مروراً فيها . وإن



شبكة السكك الحديدية في سورية الطبيعية وأقطارها

قسماً كبيراً منها كان يلقي رحاله في مدن سورية الداخلية، أو يجد منطلقاً جديداً له في الموانىء السورية، عبر البحر المتوسط، حيث يقوم على نشاطاتها تجار من كافة موانئه.

ولو ألقينا نظرة حديثة على تلك الطرق، بعد التغييرات الكبيرة التي طرأت على الحدود السياسية من جراء التجزئة الخطيرة لبلاد الشام أو سورية الطبيعية، لوجدناها تتمثل في:

آ ــ سكة حديد الشرق السريع التي مُدت لتربط بين أوروبا والخليج العربي مارة بشمالي سورية والعراق.

ب ــ السكة الحديدية الحجازية، التي تصل دمشق بالمدينة المنورة، وهي تتصل شمالاً بسكة حديد الشرق السريع السابقة عن طريق حلب، وتتصل بمصر وبفلسطين عن طريق حيفا، وكان مقرراً أن تمتد هذه الطريق حتى عدن جنوبي الجزيرة العربية.

ج ــ الطريق البرية للسيارات الشاحنة الكبيرة بين أوروبا وسورية عبر آسيا الصغرى، ومن سورية إلى أقطار شبه الجزيرة العربية والعراق.



أنابيب النفط المتجهة إلى سواحل سورية

د ــ الطرق المتمثلة في أنابيب نقل النفط، من العراق ومنطقة الخليج العربي من شبه الجزيرة العربية، بما في ذلك الأنابيب المتجهة إلى خليج الاسكندرونة من العراق عبر الأراضي السورية، التي اغتصبتها تركيا، وتتجه إيران إلى الاستفادة من هذه الطريق الطبيعية أيضاً، في نقل غازها ونفطها إلى خليج الاسكندرونة السوري. كما أن أنابيب النفط، التي مدها العدو الإسرائيلي، تتبع الطريق الطبيعية التي تنفذ من البحر الأحمر إلى البحر المتوسط على الساحل الجنوبي الفلسطيني من سورية.

هـ ــ مجموعة طرق السيارات التي تصل بين دمشق والمدينة المنورة. هذا بالإضافة إلى الطرق المحورية، كتلك التي تصل دمشق بجزيرة ابن عمر على نهر دجلة، عبر تدمر ودير الزور والحسكة، والطريق الواصلة بين حلب وبغداد، مسايرة لوادي الفرات.

مما تقدم يتبين أن معابر سورية وطرقها الطبيعية، وفي إطار الموقع الجغرافي لا يمكن الإقلال من أهميتها، بسبب ظروف التجزئة السياسية لبلاد الشام، واحتلال الصهاينة، لقسم منها في الجنوب الغربي، الأمر الذي أدى إلى تعطيل خط السكة الحديدية الممتدة من بلاد الشام حتى مصر، والذي يتصل به خط دمشق درعا، عدا طريق السيارات، بين دمشق وحيفا والقاهرة.

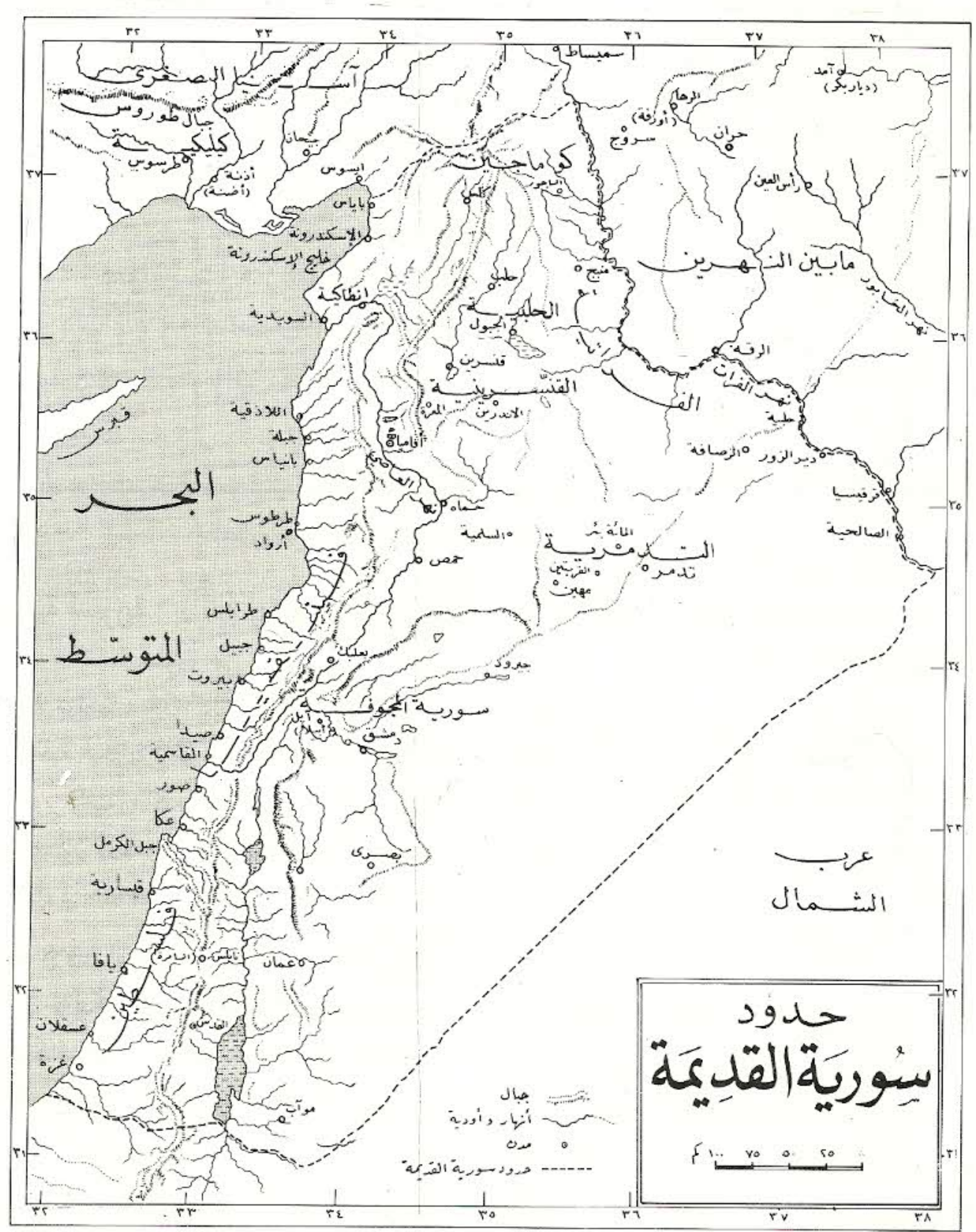
حدود سورية الطبيعية

الحدود الطبيعية: هناك كتّاب كثيرون خلطوا بين سورية وآشور، وأطلقوا تسمية سوريين، على سكان المنطقة الممتدة من بابل حتى خليج الاسكندرونة، ومنه حتى البحر الأسود. وكان «سترابون Strabon» من أوائل من وضع سورية ضمن حدودها الطبيعية، عندما ذكر أنها تمتد من كيليكية وجبال الأمانوس (ويقصد جبال طوروس الداخلية، أو أنتي طوروس) حتى مصر. وقد قسّمها إلى كوماجين (شمال حلب وسلوقية «منطقة أنطاكية») وسورية المجوفة (أي سورية الوسطى)، وفينيقية على الساحل، واليهودية في القسم الذي يلي الساحل الفلسطيني الجنوبي.

هذا التحديد لسورية، مطابق للتحديد الذي عرفه العرب لبلاد الشام نفسها، عندما ذكروا أن حد الشام الأول، من ملطيه (عند نهايات طوروس الداخلية) إلى العريش، وعرضه الأقصى المعمور من منبج (عند الفرات، الذي كان يعد أحد حدود سورية أو بلاد الشام) إلى طرسوس؛ أي أن هذا التحديد يعني الرقعة الممتدة من نهر الفرات إلى غربي كيليكية. كذلك ذكر المقدسي في كتابه: **أحسن التقاسيم في**

معرفة الأقاليم [أن إقليم الشام يمتد من تخوم مصر إلى بلد الروم. ويقع هذا الإقليم بين بحر الروم (البحر المتوسط) وبادية العرب، وتتصل البادية وبعض الشام بجزيرة العرب].

هذا ولم يتغير مدلول الحدود الطبيعية لسورية، حتى لدى الأوروبيين المستعمرين في العصور الحديثة، وحتى نهاية الحرب العالمية الأولى، وكانوا على وعي كامل بالوحدة الإقليمية لسورية الطبيعية، سواء في المصورات التي كانوا ينشرونها في كتبهم، أو في التقارير التي كانوا يرفعونها عن أوضاع تلك البلاد، وعن أهمية

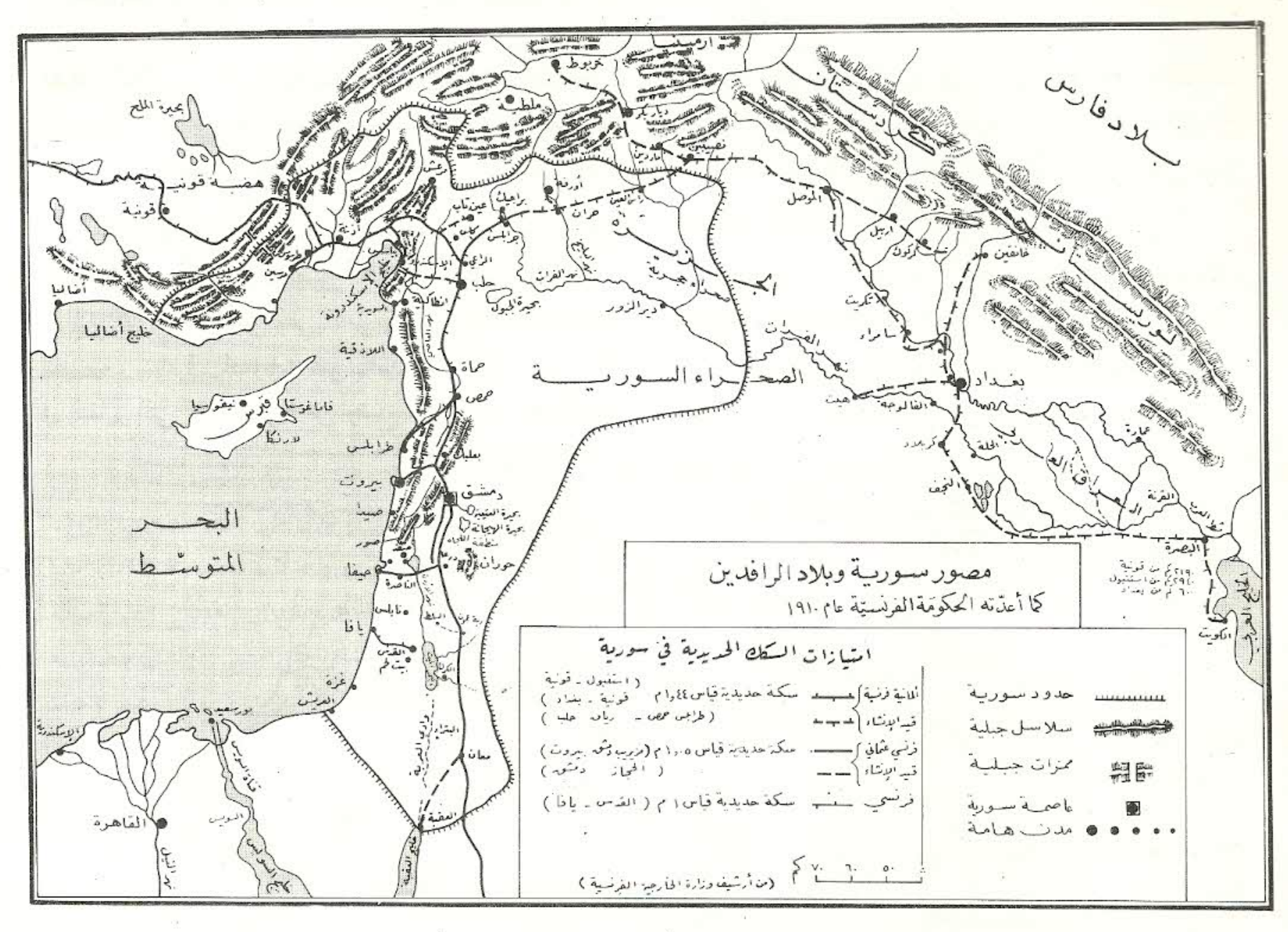


موقعها الجغرافي والاقتصادي في ميدان العلاقات الدولية والتجارة الخارجية. ونقدم للقارئ فيما يلي نماذج من تلك المصورات، والتقارير، التي يستدل منها على مدى تأثيرها على الحكومات الأوروبية، عندما قامت برسم حدود سياسية لسورية لأول مرة بعد الحرب العالمية الأولى، على أنها تمتد من طوروس حتى مصر (سيناء أو العريش)، وتُقسم فيها الجزيرة بين سورية والعراق:

ــ مصور مأخوذ من كتاب سورية القديمة والحديثة، المنشور في فرنسا عام ١٨٤٨.

ــ مخطط سورية وبلاد الرافدين، وثيقة من وثائق محفوظات وزارة الخارجية الفرنسية لعام ١٩١٠.

ــ مصور للولايات والسناجق في سورية، كما تركها العثمانيون في نهاية الحرب العالمية الأولى.



مصور سورية وبلاد الرافدين كما أعدته الحكومة الفرنسية عام ١٩١٠

الوحدة الطبيعية لسورية : إن التأكيد على حدود سورية الطبيعية ، كما وردت سابقاً ، ينطوي على تأكيد وحدة سورية الطبيعية ، وعلى أهمية موقعها ، وإن كان لا يفصل في مقومات تلك الوحدة من الناحية البشرية ، غير أن هذه المقومات ينوه بها نص مأخوذ من تقرير لجنة « كنغ ــ كرين » ، التي عينها الرئيس الأميركي « ويلسون » عام ١٩١٩ ، للتحقيق في رغبات أهالي سورية ، وقد جاء في هذا التقرير ما يلي :

« إن الوحدة الاقتصادية والجغرافية والجنسية لسورية ، من الوضوح ، بحيث لا يمكن تبرير تقسيم البلاد ، خاصة وإن لغتها ، وثقافتها ، وتقاليدها ، وعاداتها عربية ، في جوهرها . وإن توحيد سورية ، يتمشى مع أماني السكان ، ومبادئ عصبة الأمم .. » .

كذلك حبذت اللجنة ضم فلسطين إلى الدولة السورية الموحدة ، كما نصحت ، في ضوء ذلك ، بما يتعلق بالموضوعين اللذين يهددان تلك الوحدة بما يلي :

موضوع أطماع الصهيونية : إذ نصحت في توصيتها الخامسة ، بإجراء تعديل كبير على البرنامج الصهيوني ، الذي يستهدف فتح أبواب الهجرة غير المحدودة إلى فلسطين أمام اليهود ، وإقامة دولة يهودية فيها ، وتجريد سكان فلسطين الطبيعيين مما يملكونه ، واعتبرت ذلك عدواناً قاسياً على حقوق الشعب فيها ، وتجاهلاً للمبادئ التي أعلنها الحلفاء ، ومبادئ الرئيس ويلسون ، عدا عن أن ٩٠٪ من سكان فلسطين ، وهم من غير اليهود ، يرفضون البرنامج الصهيوني .

موضوع الاستقلال الذاتي للبنان : أوصت اللجنة بإعطائه قسطاً من الاستقلال الذاتي ، وذكرت اللجنة أنه إذا كان من الممكن أن يكون لبنان أكثر سعادة في ظل دولة سورية وطنية حديثة ، فإن مصلحته تتحقق في أن يكون عضواً تأسيسياً في تلك الدولة السورية ، لا في استقلاله عنها استقلالاً تاماً . وضماناً لوحدة البلاد ، تلك ، الحقيقية والفعّالة ، أشارت اللجنة في توصيتها الثالثة ، إلى ضرورة تولي ، دولة منتدبة واحدة

فقط، المسؤولية للأخذ بيد سورية. وكان واضحاً من تقرير اللجنة أن تحديد اسم الدولة المنتدبة يجب أن يتم وفق رغبات السكان.

هذا وكان المؤتمر السوري، الذي عقد في أوائل تموز عام ١٩١٩ بدمشق، والذي حضره فيصل الأول والقوميون العرب، قد أكد على وحدة سورية الطبيعية، من خلال حدودها الطبيعية، وذلك في الوقت الذي كانت فيه لجنة كرين تجوب سورية، وقبل أن تصدر توصياتها، إذ أصدر المؤتمر لائحة بيان مؤرخ في ٢/٧/١٩١٩ جاء فيها:

«**إننا نطلب الاستقلال السياسي التام لسورية العربية، التي يحدها شمالاً جبال طوروس، وجنوباً خط رفح.. العقبة ــ جنوب الجوف، وشرقاً نهر الفرات والخابور، عند خط يمتد بشرقي البوكمال، وغرباً البحر المتوسط**». وفي هذا الإطار رفض الاعتراف بأي حق يدعيه المستعمر في سورية، ورفضت مطالب الصهيونية في إنشاء وطن قومي في فلسطين، وعدم فصل فلسطين ولبنان عن سورية، ثم من بعد صدور تقرير لجنة «كنغ ــ كرين»، تأكد هذا المطلب في قرار مؤرخ في ٧/٣/١٩٢٠، صدر عن المؤتمر السوري العام، الذي يعلن استقلال سورية بحدودها الطبيعية. وهذا نصه: «**إن المؤتمر السوري العام، الذي يمثل سورية العربية بمناطقها الثلاث: الساحلية، والداخلية، والجنوبية (فلسطين) تمثيلاً تاماً، والمنعقد يوم ٧/٣/١٩٢٠ يضع القرار الآتي:**

... **فأعلنا بإجماع الرأي، استقلال بلادنا السورية، بحدودها الطبيعية، استقلالاً تاماً، لا شائبة فيه...**».

والجدير بالذكر أن سكان جبل لبنان وفلسطين وباقي سورية، كانوا يطلقون على أنفسهم اسم: سوريين، أو شاميين، أو «شوام»، حيثما حلوا في بلد عربي أو أجنبي، حيث كانت تنضوي جمعياتهم تحت اسم **الجمعيات السورية**. كذلك من المعروف أن الجامعة الأميركية، عندما أنشئت لأول مرة في بيروت، أُطلق عليها اسم: «الكلية الإنجيلية السورية». ولم يحدث الفصل بين سوري ولبناني وفلسطيني، إلا في ظل الاحتلال وبواسطة سلطاته، بعد تجزئة سورية وتقطيع أوصالها بتخطيط القوى الاستعمارية الغربية، المتآمرة مع الصهيونية. فكيف تمت تلك التجزئة؟

تجزئة سورية

بدأت النوايا السيئة للحلفاء الغربيين تظهر منذ أوائل الحرب العالمية الأولى، فعمدوا إلى الخداع وإلى الاتفاقات السرية، التي أخفوها عن العرب لتنفيذ مآربهم، ولاستغلال الثورة العربية الكبرى على الأتراك العثمانيين، لخدمة مجهودهم الحربي. وتتجلى بوادر تلك الخطط الاستعمارية الماكرة في: **مراسلات حسين ــ مكماهون** المشهورة، وفي ادعاءات فرنسا بمصالح وحقوق لها في سورية الشمالية بزعم أن بعض سلاطين آل عثمان، قد منحوها إياها في بلادنا، وظهرت الإشارة إلى تلك المصالح في الاتفاق **الإنكليزي ــ الروسي عام ١٩١٥**، ثم في اتفاق **سايكس ــ بيكو** بين بريطانيا وفرنسا **عام ١٩١٦**. ولقد استهدفت بريطانيا الاحتفاظ بالطرق البحرية المؤدية إلى الهند، بعيداً عن تهديد العثمانيين والألمان باحتلال قناة السويس، والوصول إلى رأس الخليج العربي، لذا احتلت جنوبي العراق المطل عليه منذ أوائل الحرب، وحددت دائرة مصالحها في غربي الهلال الخصيب في اتفاقاتها مع حلفائها، بأنها سورية الجنوبية (فلسطين) المتصلة بسيناء، فقناة السويس، وبخليج العقبة.

هذا في الوقت الذي اقتصر فيه اهتمام روسيا القيصرية، على سلامة الأماكن المقدسة في فلسطين. وأمام هذا الوضع من تضارب المصالح بين الحلفاء بالنسبة لفلسطين، اتُفق على تدويل الجزء الجنوبي من سورية، وجاء اتفاق سايكس ــ بيكو تتويجاً أولياً لتلك الاتجاهات.

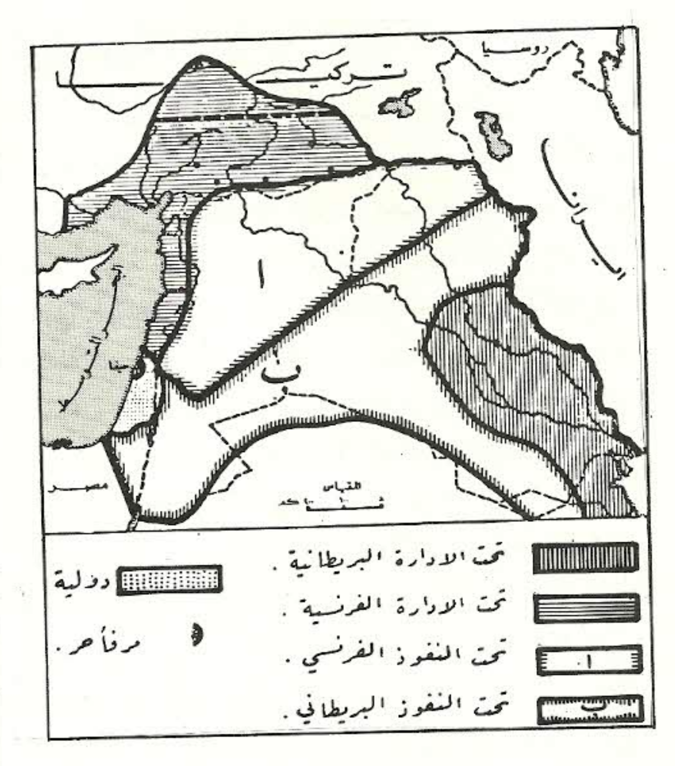
اتفاقية سايكس ــ بيكو: وكانت بين بريطانيا وفرنسا وجُزئت بموجبها سورية إلى خمسة أجزاء متباينة الأوضاع الإدارية والسياسية:

ــ **الجزء الساحلي من سورية الشمالية**، اعتباراً من رأس الناقورة جنوباً حتى الحدود الطبيعية الشمالية، وضع تحت الإدارة الفرنسية.

ــ **الجزء الداخلي من سورية الشمالية**، عُدَّ منطقة نفوذ فرنسية (آ).

ــ **الجزء الساحلي من سورية الجنوبية**، أو فلسطين، جُعل تحت إدارة دولية.

ــ **الجزء الداخلي من سورية الجنوبية**، أي شرق الأردن، جعل منطقة نفوذ بريطانية (ب) تتصل بمنطقة النفوذ البريطانية في العراق.



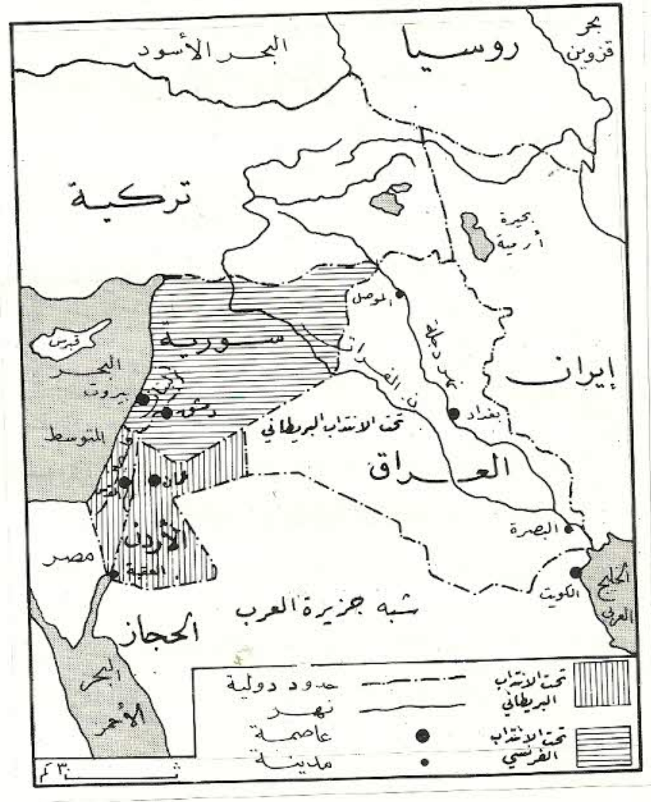
تقسيمات إتفاقية سايكس — بيكو عام ١٩١٦

— مرفأ عكا وحيفا، أُعطيا لبريطانيا، مع حق المرور الحر للتجارة الفرنسية عبر المرفأ الأخير، إلى جنوبي سورية الشمالية؛ أي إلى منطقة حوران، أو إلى فلسطين. وفي المقابل أُعطي حق المرور الحر للتجارة البريطانية في مرفأ الاسكندرونة، إلى سورية الشمالية، وهو المرفأ المدار من قبل فرنسا.

وعد بلفور: طرأ تعديل جوهري على اتفاق سايكس — بيكو، بعد انسحاب روسيا من الحرب عام ١٩١٧، وخلا المسرح لكل من بريطانيا وفرنسا، فأصدرت بريطانيا وعد بلفور، الذي تتعهد فيه بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، لكسب تأييد اليهود في روسيا، حيث قامت الثورة البلشفية، وفي مناطق أوروبا الوسطى والشرقية. وفي الوقت نفسه، تتخلص من الوضع الدولي لفلسطين، كما ورد في اتفاق سايكس — بيكو، واعتبرت نفسها مطلقة اليد في شؤونها.

مراحل الاحتلال: وهكذا وفي ظل اتفاق سايكس — بيكو، ووعد بلفور، وبرغم كل الوعود التي منحها الحلفاء للعرب، وبرغم ما انطوى عليه تقرير لجنة «كنغ — كرين» من توصيات، تتعلق بتأييد وحدة سورية ورغبات سكانها، طبقت بريطانيا إدارتها على فلسطين، واحتلت القوات الفرنسية المنطقة الساحلية وأنزلت العلم العربي عن مدينة بيروت، وتُرك للحكومة العربية في دمشق، وعلى رأسها الملك فيصل بن الحسين، المنطقة الداخلية الممتدة من العقبة إلى شمال مدينة حلب.

وعندما رد السوريون بإعلان استقلال سورية بحدودها الطبيعية في ٨ آذار عام ١٩٢٠ وتتويج فيصل ملكاً عليها، قام الحلفاء، الذين اجتمعوا في **سان ريمو** في نيسان من ذلك العام باتخاذ قرارات بتطبيق الانتداب على كامل سورية وعلى العراق أيضاً، ووضُع ملحق يتضمن تعهد السلطة المنتدبة على فلسطين بتطبيق وعد بلفور.



حدود سورية حسب إتفاقية سان ريمو (نيسان ١٩٢٠) واتفاق أنقرة ١٩٢١

لقد كان واضحاً أن تطبيق الانتداب على سورية يتعذر دون القضاء على حكومتها العربية المركزية في دمشق، وهو ما تولته القوات الفرنسية المتمركزة في بيروت والمنطقة الساحلية، حيث زحفت على دمشق ودخلتها بعد موقعة ميسلون في ٢٤ تموز عام ١٩٢٠، وقضت على حكومتها العربية، وأصبحت فرنسا بالتعاون مع حليفتها بريطانيا، مطلقة اليد في العمل على تجزئة سورية وتمزيقها، وإعطاء أجزاء كبيرة منها لقمة

سائغة لتركيا، بينما بدأت بريطانيا التمهيد لتسليم فلسطين، فيما بعد، لقمةً سائغة للصهيونية.

التمزيق الشامل: لم تقف فرنسا عند الحدود التي رسمتها الاتفاقات السابقة، وصكوك الانتداب، من تقسيم سورية بينها وبين بريطانيا، بل قامت في مستهل حكمها المباشر للبلاد، بتحطيم وحدتها، على النحو التالي:

ـــ إنشاء دولة لبنان وتضم: سنجق جبل لبنان وما ضُم إليه من ولاية بيروت (المدينة ولواء طرابلس وقضاء صيدا) والأقضية الأربعة بوادي البقاع (راشيا وحاصبيا والبقاع وبعلبك)، التي كانت تتبع ولاية دمشق.

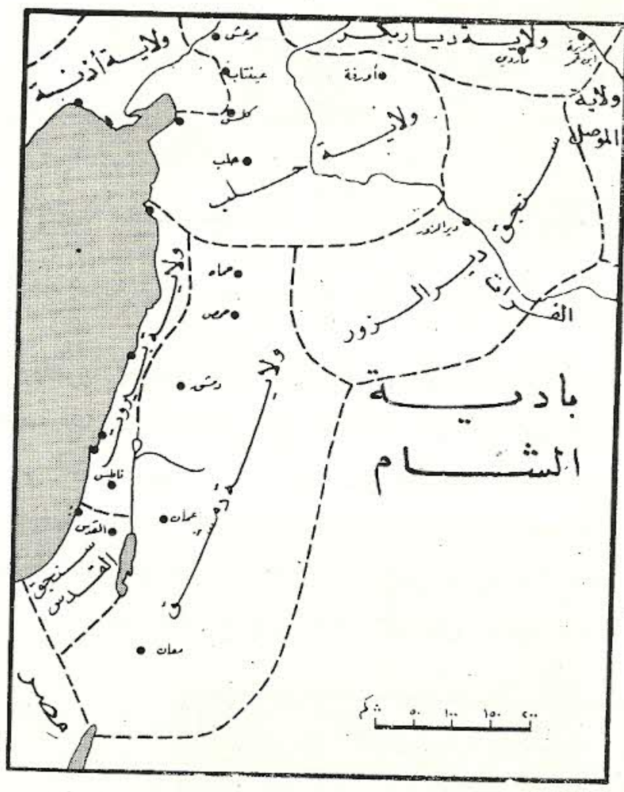
ـــ إنشاء دولة العلويين في منطقة اللاذقية.

ـــ إعطاء لواء الاسكندرونة نظاماً إدارياً خاصاً به، منفصلاً عن إدارة حلب.

هذا في المنطقة الساحلية من سورية الشمالية الممتدة من خليج الاسكندرونة حتى رأس الناقورة. أما في المنطقة الداخلية، فجعلت من كل من دمشق وحلب دولة منفصلة، كما أقامت في جبل العرب دولة ثالثة، مقرها السويداء تحت اسم دولة جبل الدروز.

ومع أن فرنسا عادت فجمعت بين ولايتي دمشق وحلب في دولة واحدة، سمتها «دولة سورية»، إلا أنها استمرت في سياسة تجزئة الأرض، والتفريق بين فئات السكان وطوائفهم في جميع المجالات. غير أن أخطر ما قامت به فرنسا من تمزيق لسورية كان على حدودها الخارجية الشمالية، حيث سلمت كيليكية وقسماً من الجزيرة العليا، ولواء الاسكندرونة إلى تركيا، وأصبحت سورية محرومة من حدودها الشمالية الطبيعية الأزلية، التي كانت عليها في العصر العثماني.

كانت سورية أو بلاد الشام عصرئذٍ، تؤلف وحدات إدارية ضمن الإمبراطورية العثمانية، وكانت الوحدة الإدارية الكبرى هي «الولاية»، وتسمى الوحدة الإدارية الأصغر «متصرفية» أو «سنجق». كانت مدينتا دمشق وحلب، في ذلك العصر، مركزي الولايتين الرئيستين الداخليتين، أما الإقليم الساحلي الرئيسي الأوسط، إلى الغرب من ولاية دمشق، فقد تبدلت عواصمه الإدارية، تبعاً للتطورات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، بين مدن طرابلس وصيدا وعكا وبيروت مع بعض التبدلات في الحدود الإدارية. وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر تركزت التقسيمات الإدارية لبلاد الشام مع الجزيرة في خمس ولايات كبرى هي: دمشق، وبيروت، وحلب، وأذنة (أضنة)، وديار بكر، يُضاف إليها ثلاث متصرفيات هي: القدس، وجبل لبنان، ودير الزور.



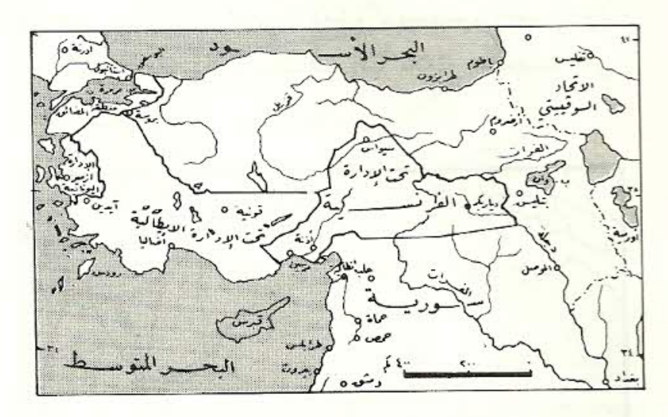
تقسيمات سورية الإدارية كما تركها العثمانيون بنهاية الحرب العالمية الأولى

ويتضح من هذه التقسيمات الإدارية أن الحدود الشمالية لولايات حلب وديار بكر وأذنة (أضنة)، هي التي كان ينبغي أن ترسم الحدود بين سورية وتركيا، إثر انفصالها عن الإمبراطورية العثمانية، وهي تتماشى إلى حدٍ كبير مع الحدود الطبيعية التاريخية لسورية. غير أن ما طرأ على الحدود السورية من تغييرات كان شيئاً آخر، بعيداً كل البعد عن الواقع الجغرافي التاريخي.

حدود سورية السياسية

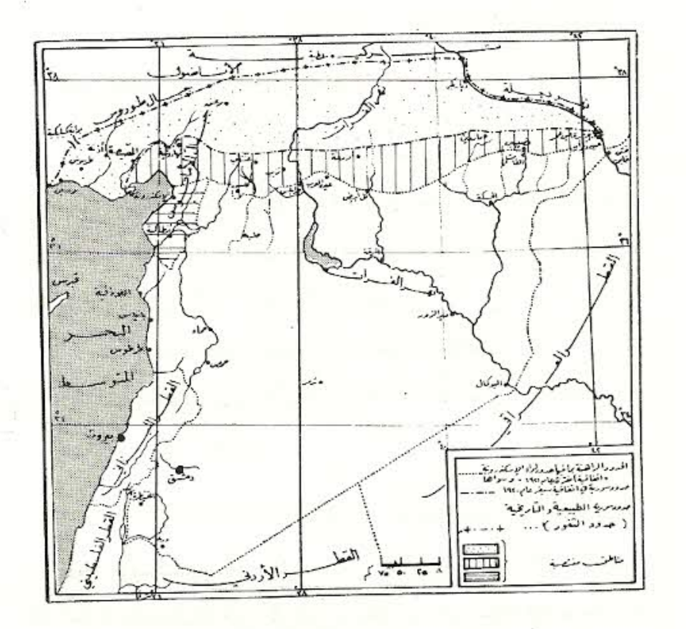
الحدود السياسية السورية ـــ التركية: تم رسم الحدود، بين سورية وتركيا لأول مرة في إطار معاهدة «سيفر» بين الحلفاء وتركيا بتاريخ ١٠ آب عام ١٩٢٠، التي حلت محل اتفاقية لندن عام ١٩١٥، واتفاق سايكس ـــ بيكو عام ١٩١٦، وأُخذ بهذه الحدود في الاتفاق الثلاثي، الذي عُقد

بين الحلفاء (فرنسا وبريطانيا وإيطاليا) في التاريخ نفسه، حين تقاسموا مناطق النفوذ والامتيازات التجارية في الأراضي المنتزعة من

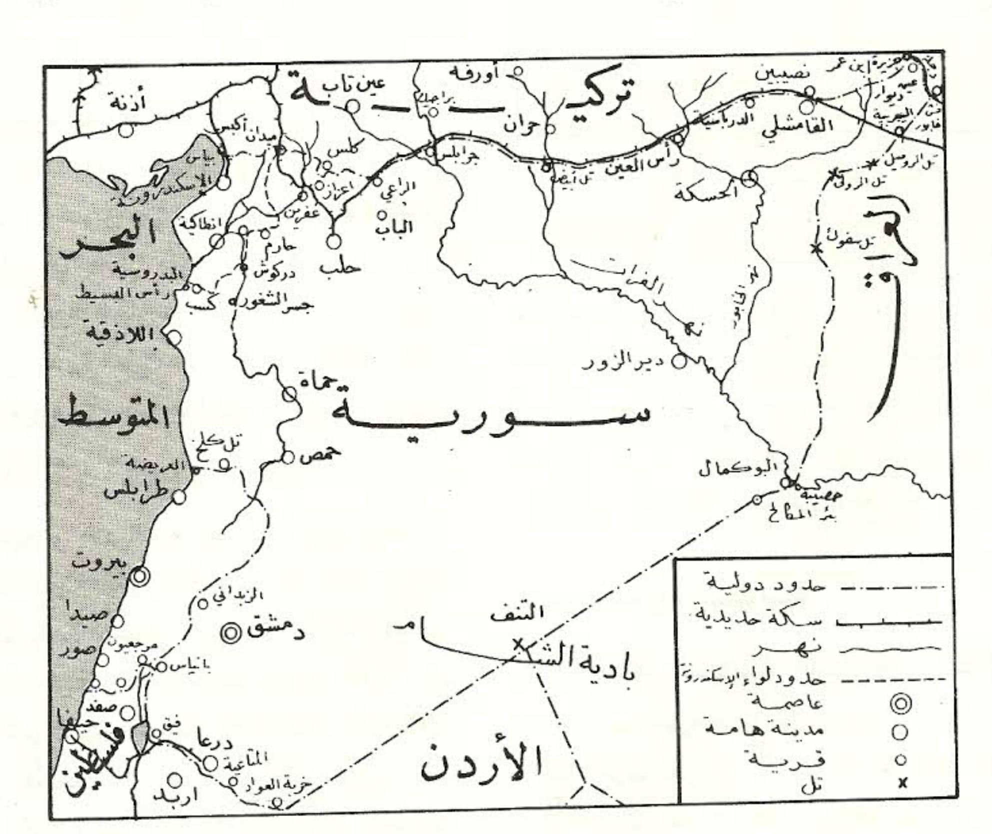


الحدود السورية ــ التركية حسب الاتفاق الثلاثي (١٠ آب ــ ١٩٢٠)

الإمبراطورية العثمانية. وتبدأ تلك الحدود السورية ــ التركية من غرب دلتا نهر جيحان في شرقي كيليكية، ثم تساير مجرى النهر حتى شمال الهارونية، ومن ثم تتجه شرقاً بخط شبه مستقيم حتى جزيرة ابن عمر، على دجلة، بحيث تُركت أجزاء كبيرة من ولايات ديار بكر وحلب وأذنة ضمن الأراضي الملحقة بتركيا، بما فيها مدن: ديار بكر، مرعش، أذنة، طرسوس، مرسين، بينما ترك لسورية باقي مدن الجزيرة العليا: جزيرة ابن عمر، نصيبين، ماردين، أورفة، ومن مدن شمال حلب: نزيب، عين تاب، كلس، ومن مدن ولاية أذنة وثغورها التاريخية: الهارونية، العثمانية، كامل خليج الاسكندرونة ومدنه.



تطورات حدود سورية الشمالية بعد الحرب العالمية الأولى



مصور الحدود السياسية في سورية

ومما تجدر الإشارة إليه بالنسبة لهذه الحدود، بالرغم من إجحافها، أنها أخذت بعين الاعتبار، إلحاق معظم أعالي الأنهار الرافدة للفرات والعاصي ضمن الأراضي السورية، منها: الخابور، البليخ، الساجور، قويق، عفرين، الأسود، وهذا يتفق مع الاتجاه الاقتصادي لمناطق الحدود الجنوبية.

غير أن فرنسا عادت، وفي اتفاق ثنائي بينها وبين تركيا، وهو اتفاق أنقرة عام ١٩٢١، فأدخلت تعديلاً كبيراً على حدود معاهدة سيفر، وتخلت تماماً عن فكرة الحدود الطبيعية، وجعلت من سكة حديد قطار الشرق السريع خطّاً لرسم الحدود الجديدة، وسلمت جميع المدن الرئيسة الواقعة إلى الشمال منه، في الجزيرة العليا، إلى تركيا وهي مدن: نزيب، عين تاب، كلس، الهارونية والساحل الشمالي الغربي لخليج الاسكندرونة، ثم جرى تثبيت الحدود على طول ٧٠٠ كم، في عدد من البروتوكولات، كان آخرها عام ١٩٣٠، وفي هذا العام أيضاً ألحقت فرنسا بتركيا ١٢ قرية عربية، تقع إلى الجنوب من مدينة كلس، وجعلت الحدود في ثلاثة أقسام:

القسم الأول: ويبدأ من جنوب باياس، في صدر خليج الاسكندرونة، حتى محطة الراعي (جوبان بك سابقاً) على سكة حديد حلب ــ جرابلس، ماراً بمحطة سكة الحديد في ميدان إكبس بجبل الكرد، وبين المحطتين يمر خط الحدود بين أعزاز وكلس.

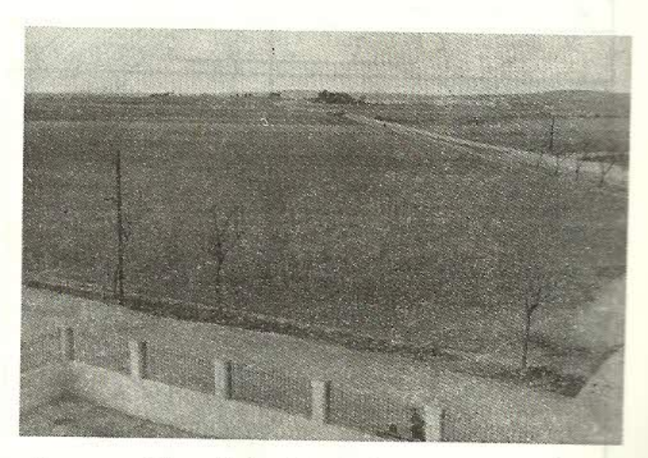
القسم الثاني: ويمتد بين محطة الراعي ونصيبين، وفيه اتخذت السكة الحديدية دليلاً تسايره الحدود من الجنوب، بحيث تبقى السكة ومحطاتها داخل الأراضي التركية، وحيل بينها وبين المدن السورية الواقعة عند الحدود، وهي مدن: جرابلس، عين العرب، تل أبيض، رأس العين، القامشلي المقابل لبلدة نصيبين، مما لا مثيل له لدى رسم الحدود بين دولةٍ وأخرى. وهكذا غنمت تركيا بهذه الحدود قسماً كبيراً من أراضي الجزيرة العليا الخصيبة.

القسم الثالث: ويمتد بين نصيبين وجزيرة ابن عمر على نهر دجلة وفيه تسير الحدود في الأرض السهلية إلى الجنوب الشرقي من جبال ماردين، كما تقطع كتلة قره تشوك البركانية، وتتجه إلى شمال بلدة عين ديوار، قرب نهر دجلة، بحيث تترك جزيرة ابن عمر داخل الأراضي التركية، مثلما تركت نصيبين أيضاً داخل تلك الأراضي. ثم تساير الحدود مع تركيا مجرى نهر دجلة على طول ٣٢ كم، حتى النقطة المقابلة لمصب الخابور على الضفة اليسرى لنهر دجلة.



منظر آخر من الحدود الغربية التي قطعت مدينة تل أبيض إلى قسمين (سوري وتركي) عبر هذا الحقل الذي تمثل الحدود فيه الحاجز الظاهر في وسط الصورة

ولم تكتف فرنسا وتركيا بتلك المظالم، التي ألحقتاها بسورية، بل قامتا بسلخ لواء الأسكندرونة عنها في ١٩٣٩/٦/٢٣، بموجب الاتفاق الفرنسي ــ التركي، قبيل نشوب الحرب العالمية الثانية، وبذلك أصبحت الحدود تبدأ على الساحل بين مصب نهر العاصي ورأس البسيط من شمال قرية البدروسية، ثم تصعد السفوح الجنوبية لجبل الأقرع في اتجاه الجنوب الشرقي، حتى شمال كسب وشمال ممر بداما، ثم تتجه نحو الشمال الشرقي حتى شمال دركوش على نهر العاصي، حيث تقطعه إلى الضفة الشرقية، لتترك النهر داخل الحدود التركية، فتتجه معه شمالاً حتى منخفض العمق، مارة من غرب حارم،



منظر للأرض السهلة المموجة التي يغطيها خط الحدود الوهمي بين جرابلس وقرقميش (في صدر الصورة تبدو محطة القطار التركي في قرقميش)

ثم شرقاً لتطوق سهل العمق من جنوبيه وشرقيه، وبعد ذلك تساير السفوح الغربية لجبل الكرد حتى غرب بلدة ميدان إكبس

الحدود السورية ـــ العراقية: وهي تشكل الحدود الشرقية للقطر، وتساير في بدايتها الضفة اليمنى لنهر دجلة، المقابلة في ضفته اليسرى للمسافة بين مصب خابور دجلة وبلدة فش خابور العراقية، والبالغة ١٧ كم، حيث تبتعد، بعدها عن النهر في اتجاه الجنوب الغربي، مارة باليعربية (تل كوجك سابقاً)، وعندما تقترب من جبل سنجار، تنحرف نحو الغرب، ثم نحو الجنوب لتتفادى اجتياز الجبل المذكور، ثم تجتاز الحدود، في الجزيرة السفلى، بين شرقي بحيرة الخاتونية وشرقي البوكمال على الفرات، مجموعة من الممالح والسبخات منها: البوارة والطويلة. أما بين البوكمال وجبل التنف، فتجتاز الحدود مع العراق بادية الشام في خط مستقيم نحو الجنوب الغربي، مارة من بئر المكالخ. كما تعبر منطقة جبل تنف طريق السيارات بين دمشق وبغداد.

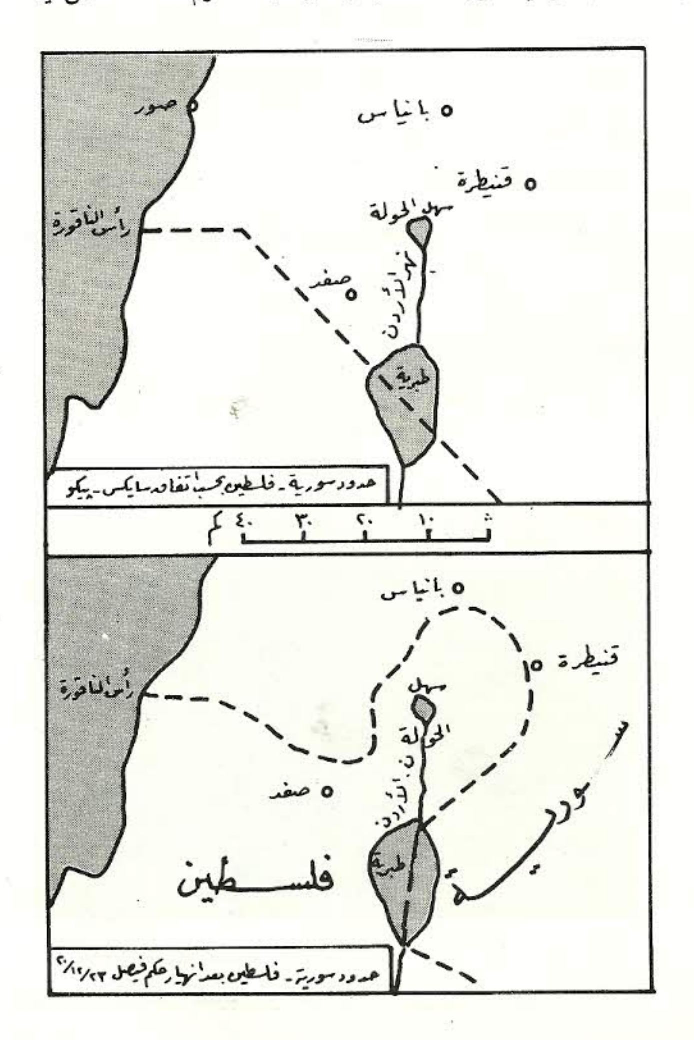


منظر للحدود السورية العراقية عند البوكمال، حيث يشاهد مخفر الأمن العام وخلفه بلدة حصيبة العراقية

يبلغ طول الحدود مع العراق ٥٩٦ كم، وكان رسمها من قبل الدولتين الاستعماريتين، إيذاناً بفرض التجزئة على القطرين العربيين اللذين كانا ينادياں بالوحدة فيما بينهما.

الحدود السورية ـــ الأردنية: وهي امتداد للحدود العراقية في الاتجاه الجنوبي الغربي عبر البادية، بين التنف وجنوب جبل العرب مارةً من خربة العواد، جنوب بلدة أمتان، ثم تتخذ مساراً شمالياً غربياً إلى جنوب قرية المتاعية، ثم جنوب وغربي مدينة درعا، يصبح بعدها وادي اليرموك حداً مميزاً، إلى جانب سكة حديد درعا ـــ حيفا سابقاً، وتنتهي الحدود في الأردن عند الحمة. وبذلك يبلغ طول الحدود ٣٥٦ كم واستند في رسم حدودها في الأصل إلى ما رسمه اتفاق سايكس ـــ بيكو من تقسيمات بين فرنسا وبريطانيا، ثم بلورت في الاتفاق بينهما في عام ١٩٢٠، ثم في بروتوكول باريس عام ١٩٣١.

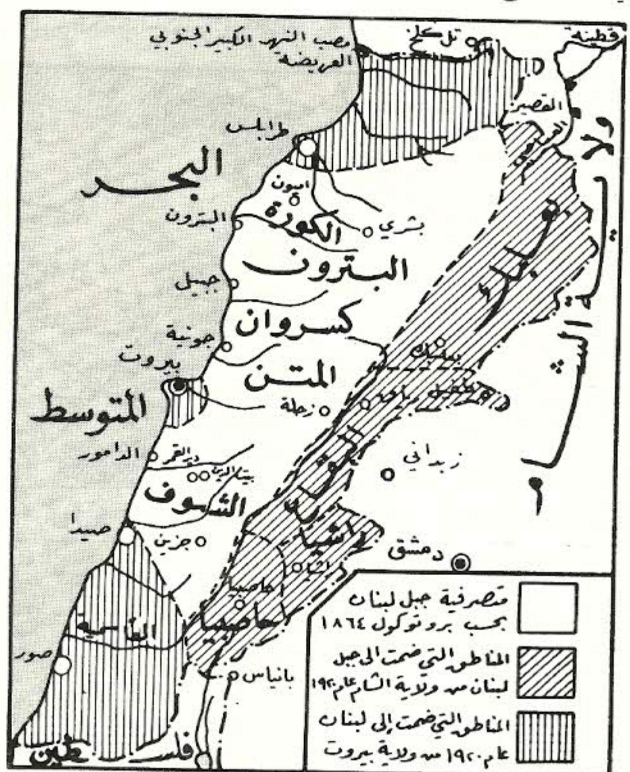
الحدود السورية ـــ الفلسطينية: وتبدأ من شرق وشمال الحمة، مسايرةً للحافات السفلى لوادي اليرموك ونجود الزوية والجولان، المطلة على الحفرة الانهدامية، التي تتوسطها بحيرة طبرية ونهر الأردن، فتأخذ اتجاهاً شمالياً عاماً، حتى جنوب بلدة بانياس عند سفوح جبل الشيخ، ومن ثم غرباً حتى مجرى نهر الحاصباني، الذي يمثل أعالي نهر الأردن. ويبلغ طول هذه الحدود ٧٤ كم، وهي على قصرها تعرضت لتعديلات كثيرة. وكان أول تعديل فيها قد تناول حدود سايكس ـــ بيكو وكانت تفصل بين فلسطين وباقي سورية الشمالية بما فيها لبنان. وتم هذا التعديل في



الاتفاق الفرنسي ـ البريطاني بتاريخ ٢٢/١١/١٩٢٠ . فبعد أن كانت الحدود تقطع بحيرة طبرية على خط اتجاه : جنوبي ـ شرقي ـ شمالي ـ غربي ، مارةً من جنوب صفد وغربها حتى رأس الناقورة ، تاركةً منطقة الحولة بكاملها داخل الأراضي السورية ، الواقعة تحت الانتداب الفرنسي ، أصبحت تقطع البحيرة في منتصفها باتجاه جنوبي ـ شمالي ، وتدخل قسماً من الجولان حتى غربي القنيطرة وجنوب بانياس ، إضافة إلى كامل سهل الحولة ضمن الأراضي الواقعة تحت الانتداب البريطاني ، المكلف بتنفيذ مآرب الصهيونية . وفي عام ١٩٢٢ جرى اتفاق على تعديل الحدود مرة أخرى ، أُلحق بموجبه الشريط المحاذي للنصف الجنوبي من ساحل طبرية الشرقي بفلسطين . وتُركت مسافة عشرة أمتار لتفصل بين الحدود السورية ومياه البحيرة ، فيما تبقى من الساحل . وكذلك حالت أيضاً بينها وبين القرى العربية المنشأة على شاطئها منذ القديم ، مسافة ٤٠٠م بين الحدود ونهر الأردن في المسافة الواقعة بين بحيرتي طبرية والحولة وذلك بهدف توفير كامل المياه للعدو الإسرائيلي ، ثم تساير الحافة المحاذية لسهل الحولة بعيداً عن النهر ، حتى جنوب بانياس ، ومن ثم غرباً حتى تقطع وادي الحاصباني ، حيث تنتهي الحدود مع فلسطين لتبدأ الحدود مع لبنان ، علماً بأن هذا الاتفاق بين الدولتين الاستعماريتين لم يعرض على عصبة الأمم آنذاك .

لقد تعرضت هذه الحدود لبعض التعديلات المؤقتة ، اقتضتها ظروف حرب ١٩٤٨ مع العدو الإسرائيلي في فلسطين ، ففي إثر تلك الحرب وبعد احتلال القوات السورية لبعض رؤوس الجسور على الضفة الغربية لنهر الأردن ، أوجد ما يسمى بخط الهدنة ، حسب الاتفاق المعقود في جزيرة رودس بتاريخ ٢٠/٧/١٩٤٩ ، بحيث أصبح قطاع الحمة وجنوب شرق بحيرة طبرية ومثلثان صغيران : الأول إلى الغرب من نهر الأردن جنوب بحيرة طبرية ، عند جسر بنات يعقوب ، والثاني : إلى الغرب من بانياس ، في الجهة السورية من خط الهدنة ، مناطق مجردة من السلاح ، مساحتها ١٠٠ كم٢ .

الحدود السورية ـ اللبنانية : لم تنص الاتفاقات السابقة بين الحلفاء ، على إيجاد دولة لبنانية منفصلة عن سورية ، لذا كان إنشاؤها من نسج فرنسا لوحدها ، بالتعاون مع بريطانيا . كان جبل لبنان متصرفية صغيرة ، تشغل القسم الأوسط من جبال لبنان الغربية ، وذات استقلال إداري منذ عام ١٨٦١ ،



الحدود السورية اللبنانية ، ومراحل تشكل دولة لبنان

وهو نظام ألغته الدولة العثمانية، إبان الحرب العالمية الأولى، ثم لم تلبث فرنسا أن حولته في أيلول عام ١٩٢٠ إلى دولة لبنان الكبير، بما ضمته إليه من أراضي ولاية بيروت ومن أراضي ولاية الشام (دمشق).

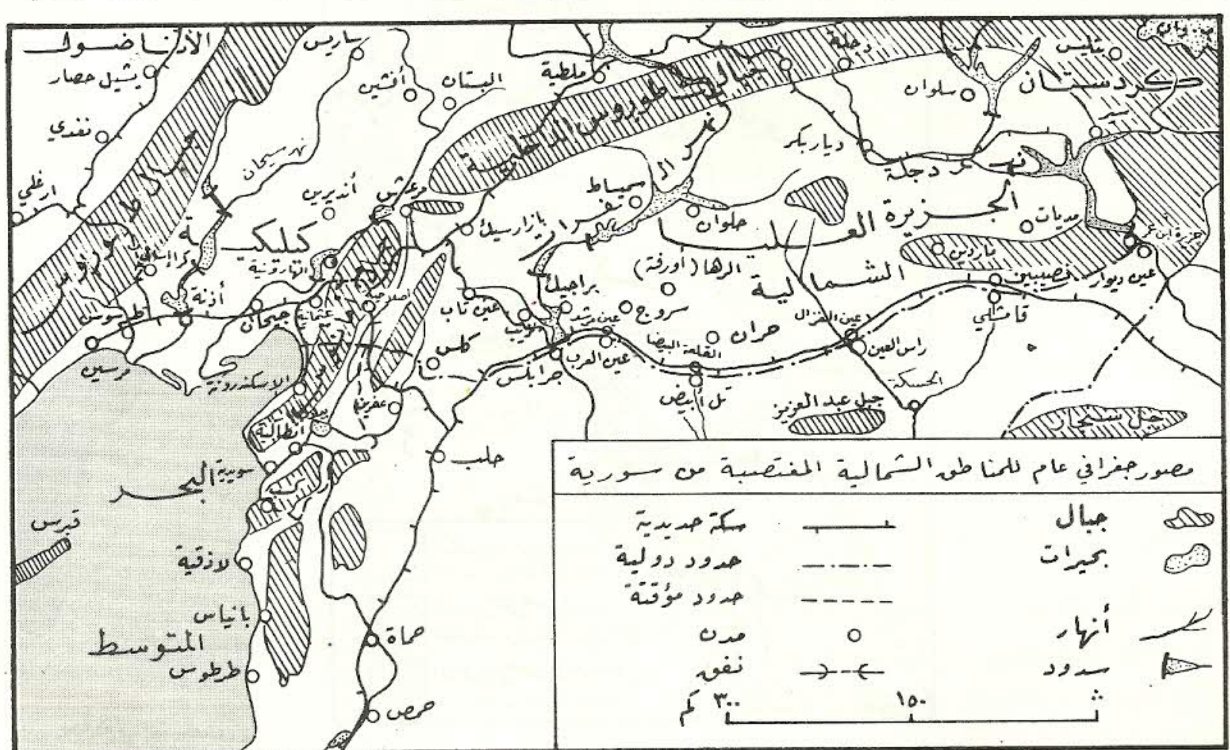
وبالإضافة إلى مدينتي بيروت وطرابلس، فقد تناول الضم أقضية: صور، وصيدا، ومرجعيون، وحاصبيا، وراشيا، والبقاع، وبعلبك، وعكار. وفي ضوء ذلك أصبحت حدود سورية مع لبنان تحاذي الأقضية الخمسة الأخيرة. فهي تبدأ من ضفة نهر الحاصباني في غربي بانياس، ثم ترتقي قمم جبل الشيخ (حرمون)، وجبال لبنان الشرقية، مع انحراف بينهما نحو الغرب يمكّن من إبقاء منطقة الزبداني داخل سورية. وبعد انتهاء جبال لبنان الشرقية عند حسياء، تنحرف الحدود نحو الغرب الشمالي لتقطع وادي البقاع، ونهر العاصي، وتمر من جنوب غرب بحيرة قطينة وغربها حتى أعالي النهر الكبير الجنوبي، ثم تساير النهر الكبير في سهل عكار حتى مصبه في البحر المتوسط عند قرية العريضة. وبذا يبلغ طول الحدود السورية ـــ اللبنانية ٣٥٩ كم.

الحدود البحرية

أما الساحل السوري، المتبقي على البحر المتوسط، فيبلغ طوله ١٨٣ كم، وهو يمتد من النهر الكبير الجنوبي إلى شمال قرية البدروسية. ومن الملاحظ أن هذا الساحل أصبح قصيراً جداً بالقياس إلى طول الجبهة الساحلية الطبيعية لسورية بين كيليكية وسيناء، والتي تزيد على ٨٠٠ كم، إذ توزعتها: فلسطين على طول ٢٤٠ كم، ولبنان على طول ٢٢٠ كم، والباقي يمتد حتى رأس خليج الاسكندرونة، هذا إذا لم تُضف إليها الجبهة الساحلية لكيليكية، التي تمتد على نحو ٢٠٠ كم، وبذلك تبدو فداحة الحيف الذي لحق بسورية من قبل فرنسا وتركيا وبريطانيا، فقد حيل بين مناطقها الداخلية وبين المنافذ البحرية، التي كانت قريبة المنال، مثل حيفا وبيروت: فكانتا ميناءين لدمشق، وطرابلس: ميناء لحمص، والاسكندرونة: ميناء لحلب. ونتيجة لذلك فقد أصبحت سورية، وهي التي ما زالت تشمل أوسع مساحة من بلاد الشام، أقل تلك البلاد سواحلاً، باستثناء القطر الأردني. ففي سورية يقابل الكيلومتر الواحد من الساحل مساحة تزيد على ١٠٠٠ كم٢، في حين يقابل الكيلومتر الواحد من الساحل في لبنان أقل من ٥٠ كم٢ من المساحة، وفي فلسطين يقابل نحو ١٠٠ كم٢ من المساحة.

المناطق المغتصبة الشمالية

تؤكد الروابط التاريخية والجغرافية، أن الأجزاء المغتصبة من سورية، والواقعة على التخوم الشمالية للوطن العربي ولسورية



المناطق الشمالية المغتصبة من سورية

في وقت واحد، والمتمثلة في كيليكية والجزيرة العليا ولواء الاسكندرونة، هي جزأ لا يتجزأ من سورية، منذ أقدم العصور.

تمتد المناطق المغتصبة من جنوب الحاجز الطبيعي الجبلي بين دجلة شرقاً وشمال شرق البحر المتوسط وطوروس غرباً، في مساحة تزيد على ١٠٠ ألف كم٢، كان يقطنها عند الاستيلاء عليها نحو مليون وربع نسمة. وتقسم من الناحية الجغرافية إلى أربعة أقسام:

منطقة الجزيرة العليا: وهي الواقعة بين دجلة والفرات وتعتبر امتداداً شمالياً للجزيرة العليا السورية الحالية حتى جبال كردستان، ثم جبال طوروس الداخلية، التي تفصلها عن حوض ملطيه، التي كانت من أكبر الثغور في أعالي الفرات.

ومن المعروف أن هذه المنطقة كانت من أهم الولايات العربية، إبان العصرين الأموي والعباسي (ولاية الجزيرة). وكان العرب يقسمون الجزيرة إلى ديار بكر في الشمال (مركزها ديار بكر) وديار ربيعة في الجنوب ومركزها (الموصل ونصيبين)، والرها وحران في الجهة الغربية وهي ديار مضر، ولقد أسهمت حران والرها وغيرهما في حركة الترجمة من السريانية واليونانية إلى العربية. والوجود العربي في الجزيرة قديم، فقد كانت تحكم الرها (أورفة حالياً) أسرة من أصل عربي في الفترة بين ١٣٢ ــ ٢١٤م، قبل أن تدخل تحت سيطرة الفرس والبيزنطيين. ويعتبر حوض دجلة في الجزيرة وفيه مدينة ديار بكر، قليل الأهمية نسبياً بسبب طابعه الجبلي وعمق واديه، لذا تتركز الأجزاء الهامة منه عند نقاط العبور على دجلة، كما في ديار بكر وجزيرة ابن عمر، وكلتاهما على يمين النهر؛ أي جهة الجزيرة.

ويفوق حوض الفرات في الأهمية كثيراً حوض دجلة، إذ يتألف من سهول سفحية، تنحدر من جبال ماردين جنوباً نحو ١٢٠٠م، وهضاب أورفة أكثر من ٥٠٠م في اتجاه الفرات، وتعد أوسع السهول اللحقية في سورية، حيث أعالي رافدي الفرات الرئيسين: الخابور والبليخ، إضافة إلى الجداول الكثيرة والينابيع الغزيرة، الواقعة عند الحدود الراهنة بين سورية وتركيا. ويلاحظ هنا أن خط الحدود يسير وسط السهول، حتى أنه يفصل في الحقل الزراعي الواحد بين جزءٍ منه وآخر، وهي حال لا يكاد المرء يجد لها مثيلاً في العالم.

تعد الجزيرة أهم منطقة لزراعة الحبوب، ولا سيما القمح لملاءمة التربة السوداء له، كما أنها تزرع الأشجار المثمرة المتوسطية في الأودية وعند الينابيع وفي الهضاب وعلى سفوح الجبال. ونتيجة لقيام تركيا بالسيطرة على أكبر قسم من مياه الفرات وجرها لإرواء سهول الجزيرة، أورفة وسروج، وذلك بإنشاء مجموعة من السدود عليه، كما سبق لها أن احتجزت المياه المتجهة إلى الجزء السوري من الجزيرة وحلب (جغجغ، الساجور، قويق). وإذا ما أضيف إلى ذلك اتساع المراعي السهلية والجبلية للأغنام والماعز، والتي ظلت مرتعاً للقبائل العربية والكردية، ووجود ثروات معدنية ونفطية في منطقة ماردين وديار بكر، بدت أهميتها التجارية وعوامل توزع المدن الهامة فيها: مديات، ماردين، ديار بكر، سروج، أورفة، إضافة إلى المدن المقابلة في الحدود السورية: نصيبين، رأس العين، تل أبيض، عين العرب. وتعبر الجزيرة سكة حديد الشرق السريع، وطرق السيارات، وأنابيب نقل النفط المحلي والعراقي، التي تعبر الجزيرة من شمال العراق وتزيد في الأهمية الاستراتيجية للجزيرة.

هضبة عين تاب ومرعش: وتقع بين الفرات شرقاً وجبال الأمانوس وامتداداتها نحو طوروس الداخلية، غرباً وشمالاً حتى مرعش، وفي الجنوب تتصل بهضبة حلب الأقل ارتفاعاً، وفي الشمال الشرقي تنتهي إلى حوض ملطيه وإلى كوع الفرات وخانقه الشهير لدى اجتيازه جبال طوروس، ويتراوح ارتفاعها عن سطح البحر بين ٥٠٠ ــ ١٠٠٠م، ويقع أخفض أراضيها في وادي الفرات شرقاً، وفي الحفرة الانهدامية المحاذية للأمانوس من الشرق، حيث تقل عن ٥٠٠م. وتتمتع المنطقة بمناخ متوسطي جبلي وفير الأمطار، ومنها يتغذى نهر جيحان برافديه: كشيش وأندرين، المنحدرين من هضبة مرعش، وأنهار الساجور وقويق وعفرين والأسود، المنحدرة من هضبة عين تاب. وهي تشتهر بزراعة أشجار الزيتون والكروم والتين والفستق الحلبي والحبوب والقطن، وتغطي غابات الصنوبر والسرو مساحات كبيرة منها، كما أنها تعتبر غنية بمراعيها ومواشيها، وتضم أراضيها ثروات باطنية عديدة: الفضة والحديد في مرعش، والمرمر في عين تاب، والكروم والمنغنيز والفحم في جبال الأمانوس الشمالية. وكان ارتباط المنطقة بمدينة حلب من الناحيتين الاقتصادية والإدارية شديداً، حيث توجهها الجغرافي، ولأنها كانت تتبع لولاية حلب في معظم الأحيان.

ويلاحظ أن المنطقة مغلقة من جهة الشمال، واتصالها بكيليكية يتم بممر العثمانية الجبلي، عبر شمالي الأمانوس، حيث

تعبر السكة الحديدية بين حلب وجيحان وأذنة ، كما تعبرها أنابيب النفط المتجهة من منطقة ديار بكر ، ومن العراق نحو خليج الاسكندرونة . أما من الناحية البشرية والتاريخية ، فتجتمع فيها المؤثرات العربية مع المؤثرات القادمة من الشمال مع شعوب الجبال : الحثيين قديماً والأكراد والأرمن حديثاً ، يضاف إليهم الأتراك في العصر العثماني ، علماً بأن مرعش قد بنيت في عهد الحمدانيين ، وكانت من أكبر الثغور ، وإلى الجنوب الغربي منها ، يقع ثغر الهارونية ، الذي أنشأه هارون الرشيد ، هذا عدا ثغور الحدث والكنيسة والمثقب والمرعى . وتقوم في المنطقة اليوم مدن عديدة ، ففي الشرق قرب الفرات ، توجد سميساط وقلعة الروم ونزيب ، ثم في وسط الهضاب : مرعش وعين تاب وكلس . وبصورة عامة يفصل هذه المنطقة عن محافظة حلب الأم ، الحد السياسي الذي يصل بين ثلاث محطات للسكة الحديدية هي ، من الغرب إلى الشرق ، ميدان إكبس ، الراعي ، قرقميش ، ماراً

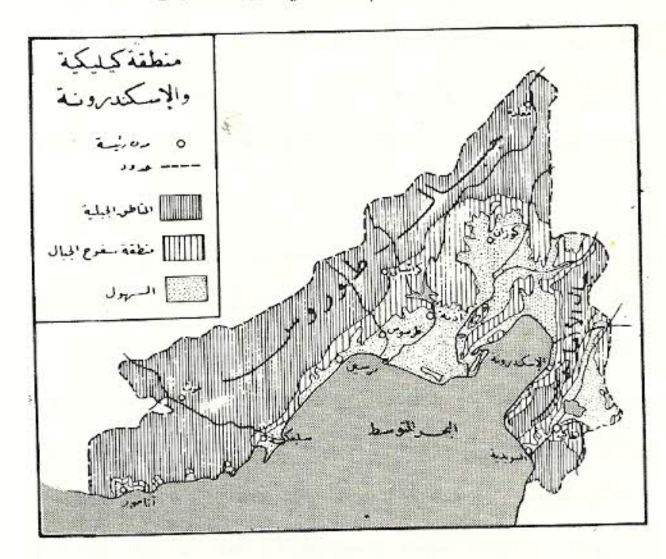
١ — الظهير التجاري لحيفا ويافا .
٢ — الظهير التجاري لدمشق وبيروت .
٣ — الظهير التجاري الرئيس لحلب والإسكندرونة .
٤ — الظهير التجاري لحلب بعد فتح قناة السويس .
٥ — الظهير التجاري الشمالي لحلب والبحر الأسود .
٦ — البادية .

نفوذ حلب التجاري في الجنوب الشرقي من آسيا الصغرى في العهد العثماني .

بين كلس واعزاز . وبعد تخطيط الحدود السورية — التركية بعدة أعوام ، عادت تركيا لإثارة موضوع الحدود مجدداً مع فرنسا في عام ١٩٣٠ ، وهي الدولة المنتدبة على سورية ، فوافقت على أن تضم تركيا إليها ١٢ قرية سورية ، تقع إلى الجنوب من كلس . وهكذا رسم خط الحدود ، جيباً جديداً في المنطقة لحساب تركيا .

كيليكية : تشمل هذه التسمية المنطقة الواقعة إلى الغرب من جبال الأمانوس وخليج الاسكندرونة ، وإلى الشمال من خليج مرسين ، حيث تمتد حتى جبال طوروس ، التي تنعت هنا « بالكيليكية » ، في مساحة تزيد على مساحة لبنان وتأخذ شكلاً مثلثياً كـ « جزيرة » أخرى مصغرة ، محاطة بالبحر المتوسط من جهة والإطار الجبلي من باقي الجهات . وكانت تسمى قديماً « أرمينيا الصغرى » .

تتألف أرض كيليكية من سهل واسع ومنخفض ، كونته اللحقيات التي حملتها أنهار : جيحان ، سيحان ، أرزين إلى دلتاواتها . يحيط بالسهل إطار جبلي يرتفع إلى أكثر من ٢٠٠٠م في الأمانوس (٢٢٢٢م) ، وإلى أكثر من ٣٠٠٠م في طوروس (جبل الأعلى ٣٧٣٤م) ، ولا يمكن النفوذ إلى كيليكية عبر هذا الإطار ، إلا من ممرات عسيرة ، أيسرها ممر بيلان (٦٨٧م) في القسم الجنوبي من الأمانوس ، وممر ياغنجة أو العثمانية (٩٠٠م) في القسم الشمالي من الأمانوس .



منطقة كيليكية والاسكندرونة

أما في طوروس ، فيوجد ممر واحد قابل للاجتياز وهو أصعبها : بوابة كيليكية (١٣١٠م) ، وحتى الممر الساحلي بين

خليجي مرسين وأنطاكية، يعتبر عسيراً لوصول الجبال فيه حتى البحر. ومع أن هناك أودية كثيرة في طوروس، إلا أنها عميقة جداً (٣٠٠ ــ ٤٠٠م)، ولا تؤدي إلى منفذ.

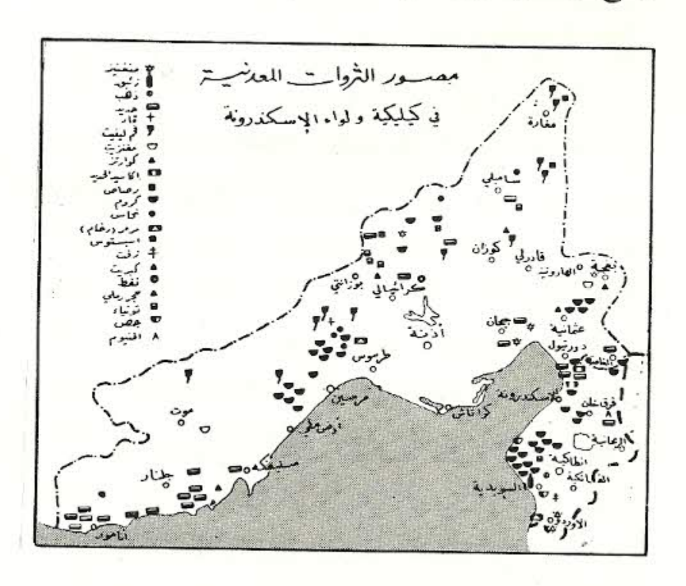
ومع أن المناخ متوسطي في كيليكية، فإن الأمطار تهطل شتاءً وتغزر على المرتفعات، التي تكثر ثلوجها أيضاً، إلا أن السهل متوسط المطر (أذنة ٦٠٠مم)، وشديد الحرارة صيفاً (قد تزيد على ٤٠°) بسبب الانخفاض، والانعزال عن الرياح الشمالية الملطفة، وأثر الحاجز الجبلي في انغلاق المنطقة على نفسها، مما يزيد في حرارتها، عدا عن انفتاح أرضها على الجنوب، وميلها نحوه.

أدى هذا الوضع الطبيعي إلى كثرة الغابات في الجبال، حيث تصل إلى ارتفاع ١٨٠٠م فوق سطح البحر، وتكثر بينها الصنوبريات ومنها: السرو والشوح، ومن الأشجار النفضية: البلوط، السنديان الفليني. وتنتشر أشجار الحور في الأودية، والأعشاب في السهل وفي المناطق الخالية من الغابات.

أما من الناحية المائية، فإن المنطقة ملائمة لنشوء أنظمة نهرية وفيرة المياه، تنحدر من الجبال المثلجة المطيرة نحو السهل وأهمها: نهر جيحان، الذي ينبع من جبال طوروس وهضبتي مرعش وعين تاب، ويصب في دلتا خليج الاسكندرونة، ماراً بمدن كثيرة أهمها مدينة جيحان، ونهر سيحان، الذي ينبع من طوروس ويمر بأذنة، قبل أن يصب في المتوسط إلى الشرق من مرسين، ثم نهر أرزين في الجهة الغربية وينبع أيضاً من طوروس ويصب في المتوسط إلى الغرب من دلتا سيحان بعد أن يمر من طرسوس.

توفر البيئة في كيليكية شروطاً مناسبة للزراعة البعلية والمرواة؛ فهي تزرع الحبوب ولا سيما الأرز والأشجار المثمرة: الكروم في الغرب والحمضيات في الشرق، أما الآن فقد توسعت زراعة القطن وقصب السكر. وكان للعرب من سوريين ومصريين، منذ حكم إبراهيم باشا بن محمد علي، دور كبير في ذلك، وفي تطوير أساليب الري. كذلك نشطت صناعة الرعي التقليدي بالانتجاع بين السهل شتاء، والجبل صيفاً واشتهر التركمان بتربية الماعز والأبقار والأغنام وتبعاً لذلك كانت كيليكية تشتهر بشعر الماعز والأصواف.

وقد قام في المنطقة نشاط صناعي متنوع، بين استغلال الثروة الباطنية في الجبال من فحم وحديد وكروم ورصاص ونحاس ومنغنيز ... إلخ، عدا أنواع الصخور النارية (الغنيس)، والمرمر والكلس، وتوليد طاقات كهربائية من السدود على الأنهار (سد سيحان)، وازدهار الصناعات الزراعية من حلج، وغزل، ونسج، وطحن حبوب، وصناعة سكر.



الثروات المعدنية في كيليكية ولواء الاسكندرونة

قُطنت كيليكية، منذ العصر الحجري القديم، وكان التأثير الثقافي الحضاري الأكبر عليها قادماً من الجنوب: من سورية وبلاد ما بين النهرين والدليل على ذلك، التأثير العموري الآرامي في «قره تبة» المعلم الأثري، الواقع إلى الشمال من ثنية نهر جيحان (مجراه الأوسط) إلى الشرق من موقع الهارونية، وهو الثغر الذي بناه هارون الرشيد. وامتد إلى المنطقة الحكم الآشوري، والحكم التدمري في عهد زنوبيا، والحكم العربي في العصرين الأموي والعباسي. وفي مرات قليلة وصلتها إمبراطوريات من خارج المنطقة العربية، إذ كانت موضع تنازع بين الفرس واليونان، والروم والبيزنطيين. وفيما عدا الفرس، فالباقون عبروا إلى المنطقة من الشمال وكذلك العثمانيون، وعلى أية حال تعتبر كيليكية ممراً إلزامياً بين بلاد الشام وآسيا الصغرى، عبرته حركات بشرية في تنقلها من إحداهما إلى الأخرى. ودارت فيها عبر التاريخ معارك فاصلة منها معركة «إبسوس» إلى الشمال من الاسكندرونة، التي تغلب فيها الإسكندر على الفرس.

وفي العصر الحديث، ترجم الممر الإلزامي إلى سكة حديد قطار الشرق السريع، التي تعبر بوابة كيليكية، في

مجموعة من الأنفاق آتيةً من استانبول، ثم تنتقل عبر السهل الكيليكي، إلى الممر الثاني، ياغنجة في الأمانوس، في اتجاهها إلى حلب. وينطبق القول نفسه على طريق السيارات ويتفرع عن كل منهما خط إلى الاسكندرونة. هذا ويتركز معظم سكان كيليكية في السهل، وعند السفوح الجبلية، ويقلون في الجبال. وأهم المدن هي:

ــ **أذنة** (**أضنة**): وتعتبر قاعدة كيليكية وأهم مركز صناعي وتجاري فيها. وهي تقع على نهر سيحان وقد تطورت كثيراً بعد إنشاء سد سيحان قربها. يقطنها أكثر من ربع مليون نسمة. يعبرها قطار الشرق السريع، الذي يضفي عليها أهمية خاصة. يعود تاريخ بنائها حسب المصادر العربية إلى عهد هارون الرشيد وفيها قلعته، وآثار عربية أخرى.

ــ **طرسوس**: وكانت منافسة لأذنة بصفتها محطة للقوافل البرية، المتجهة لعبور بوابة كيليكية، وذلك قبل مد سكة حديد قطار الشرق السريع، يخترقها نهر أرزين، ثالث أنهار كيليكية أهمية في منطقة غنية بمزروعاتها. بناها الرشيد وسوّرها وأكملها عام ١٧٢هـ. ولها عدة أبواب: أحدها باب الشام، وثانيها باب البحر، وثالثها باب الجهاد... وغيرها وهي مع أذنة ثغران هامان، فيما وراء جبال طوروس، وبها دُفن الخليفة المأمون بن الرشيد، خلال إحدى غزواته.

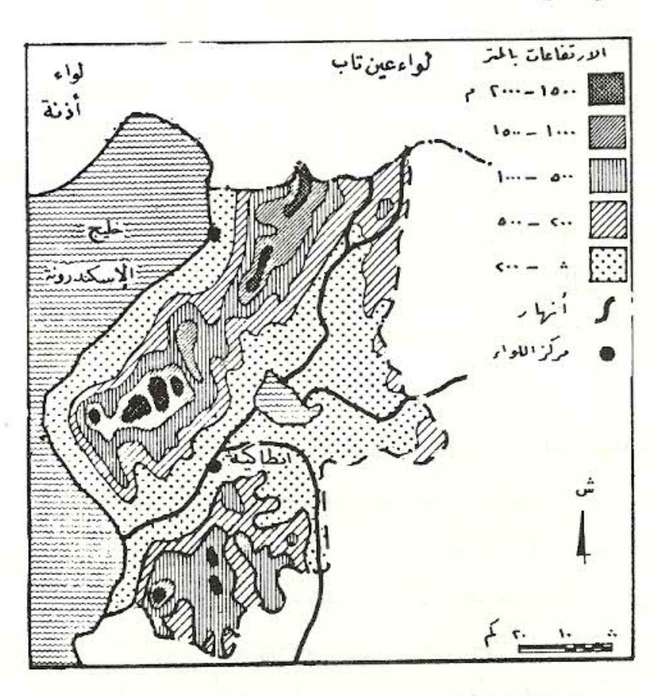
ــ **مرسين**: بناها إبراهيم باشا المصري، سكنها سوريون ومصريون. وقد سُمي الخليج باسمها، وهي ذات نشاط بحري وسياحي، ومحطة على الطريق الساحلية نحو أنطاكية، أو المتجهة نحو الداخل إلى قونية، وفيها صناعة للإسمنت.

ــ **جيحان**: أهم عقدة مواصلات في القسم الشرقي من كيليكية. تقع على الضفة الشرقية لنهر جيحان، تمر بها سكة قطار الشرق السريع المتجهة إلى العثمانية.

ومن الثغور المشهورة في كيليكية: المصيصة، الكنيسة، عين زربة، وجميعها تقع بين المصيصة والهارونية. ويلاحظ أن معظم المراكز البشرية في كيليكية كانت ثغوراً عربية؛ أي مواقع متقدمة، مؤدية إلى أرض العدو في بلاد الروم. أما تعبير العواصم، فيعني مواقع خلفية كبرى حصينة، وكانت أنطاكية قاعدتها، ويذكر أن هارون الرشيد جمعها كلها في تنظيم إداري واحد. ونظراً لهذا الواقع التاريخي الجغرافي لكيليكية، فقد أُخذ بعين الاعتبار في معاهدة «كوتاهية» بين إبراهيم باشا المصري والسلطان العثماني عام ١٨٣٣م، إذ أُدخلت كيليكية في نطاق الدولة العربية، التي شُكلت من بلاد الشام ومصر. كما وجعلت معاهدة «سيفر» الحدود السورية تساير نهر جيحان. غير أن فرنسا بعد الحرب العالمية الأولى سلمت كيليكية بكاملها، بما فيها القسم السوري إلى تركيا بموجب اتفاق أنقرة عام ١٩٢١.

لواء الاسكندرونة: يشكل إلحاق لواء الاسكندرونة بتركيا في حزيران عام ١٩٣٩، ذروة المطامع التركية في الاستيلاء على أرض عربية سورية، بالتواطؤ مع فرنسا. وسبقت ذلك مؤامرة تركية ــ فرنسية، استهدفت سلخ لواء الاسكندرونة عن سورية الأم، يمكن إيجاز أحداثها بما يلي:

ــ انتهزت تركيا فرصة عقد المعاهدة السورية ــ الفرنسية في ٩ أيلول عام ١٩٣٦، التي يبقى اللواء بموجبها تحت السيادة العربية السورية، فهاجمت بشدة تلك المعاهدة، يدفعها لذلك حقدها على العرب، الذين وقفوا ضد العنصرية التركية في الحرب العالمية الأولى، وأثارت مشكلة حقوق لها في اللواء.



لواء الاسكندرونة طبيعياً

ــ في تشرين الثاني عام ١٩٣٦، نقلت تركيا مسألة اللواء إلى عصبة الأمم في غياب سورية صاحبة العلاقة، التي نابت عنها فرنسا بصفتها الدولة المنتدبة عليها، ودافعت عن موقفها بأن نظام الانتداب لا يسمح لها بالمساس بالأرض

السورية، وأن النظام الخاص بالحكم الذاتي في اللواء، الممنوح له ضمن نطاق الدولة السورية بموجب المادة الثامنة من اتفاق أنقرة عام ١٩٢١، الذي وافقت عليه تركيا، وتأكد في اتفاق لوزان، حيث أيد ما جاء في اتفاق أنقرة السابق.

ــ شكلت عصبة الأمم لجنة من أعضاء محايدين، أرسلتها في مطلع عام ١٩٣٧ للوقوف على أحوال اللواء، إلا أن الأحداث أخذت منحىً آخر. ففي ١١ كانون الثاني عام ١٩٣٧، أرسلت تركيا مذكرة إلى فرنسا بشأن اللواء، ردت عليها فرنسا بتاريخ ١٨ منه وقبلت بإبرام اتفاق معها يقوم على:

آ ــ الاعتراف بمبدأ الاستقلال الذاتي للواء بكفالة عصبة الأمم.

ب ــ نزع السلاح من اللواء.

ج ــ إعطاء تسهيلات لتركيا في ميناء الاسكندرونة.

وفي ضوء ذلك انفردت تركيا بوضع نظام جديد للواء، وقانون أساسي يحكم وضعه، وافق عليه مجلس عصبة الأمم في ٢٩ أيار عام ١٩٣٧ وهو ما يسمى باتفاق جنيف وبموجبه:

ــ تكون اللغة التركية لغة رسمية في اللواء على قدم المساواة مع اللغة العربية.

ــ يكون للمفوض السامي الفرنسي حق الفيتو لمدة معينة، قبل عرض الخلاف على عصبة الأمم.

ــ تمنح حرية العقيدة والمساواة بين المواطنين دون تمييز في العنصر أو الدين.

ــ تشكل هيئة تنفيذية مؤلفة من رئيس مجلس تنفيذي، يعين من قبل رئيس الهيئة التشريعية وأربعة أعضاء يعينهم رئيس المجلس.

ــ لا يكون للواء جيش ولا قلاع، بل قوى للأمن العام فقط.

وتقرر تنفيذ النظام الجديد في تشرين الثاني عام ١٩٣٧، غير أن هذا لم يكن إلا ستاراً، إذ قامت فرنسا وتركيا بعقد معاهدة بينهما تحت ستار ضمان سلامة اللواء، تقرر بموجبها إجراء انتخابات في اللواء في أواسط عام ١٩٣٨. وفي شهر آذار من العام المذكور جرى تعديل قانون الانتخابات واتفقت فرنسا مع تركيا على إعطاء ٢٢ مقعداً للسكان الأتراك من أصل ٤٠، وعلى الرغم من الضغوط، التي مارسها الجانب التركي، بلغت نسبة الأصوات ٤٠٪ لتركيا في استطلاع عام لرأي السكان، أشرفت عليه لجنة معينة من قبل عصبة الأمم. لكن سرعان ما اتفقت الدولتان على تأجيل الانتخابات ونقل السلطات الإدارية إلى السلطات العسكرية، برغم احتجاج لجنة المراقبة الدولية. وتلا ذلك اتفاقات جديدة بين فرنسا وتركيا لإبرام معاهدة صداقة بينهما بتاريخ ٤ تموز عام ١٩٣٨، نصت على قيام تعاون عسكري بينهما لضمان سلامة اللواء، وسمحت فرنسا لتركيا بموجبها بإدخال ٢٥٠٠ جندي تركي للواء، مقابل دخول ١٠٠٠ جندي فرنسي. وقد تم ذلك في الشهر نفسه، برغم أن عصبة الأمم كانت قد أقرت أن يكون اللواء بلا جيوش. وهكذا أصبح اللواء محتلاً بجيوش أجنبية دخلت إلى اسكندرونة، وأنطاكية، وبيلان. وفي ظل هذا الاحتلال أجريت الانتخابات وضمنت تركيا لنفسها ٢٢ مقعداً ووزعت الباقي، نال العرب منها ١٣ مقعداً والأرمن ٥ مقاعد. واجتمع المجلس التشريعي المزور وانتخب رئيساً له، وشُكل مجلس وزراء، وأُطلق اسم «هاتاي» على اللواء، واتخذ العلم التركي، علماً له مع فارق، هو أن نجمة مخططة بالبياض، بدلاً من أن تكون بيضاء برمتها.

كل ذلك كان تمهيداً لضم اللواء إلى تركيا، وهو ما حدث في حزيران عام ١٩٣٩، بعد أن انسحب الفرنسيون منه نهائياً، في ظروف دولية مواتية لتركيا، فأمام نُذر الحرب العالمية الثانية، خطب ودها كل من بريطانيا وفرنسا وجعلتا سورية تدفع الثمن وهي غائبة ترزح تحت وطأة الاستعمار الفرنسي. لذا كان سلخ اللواء عن سورية، عملاً مخالفاً للقانون الدولي، دعاها لعدم الاعتراف به.

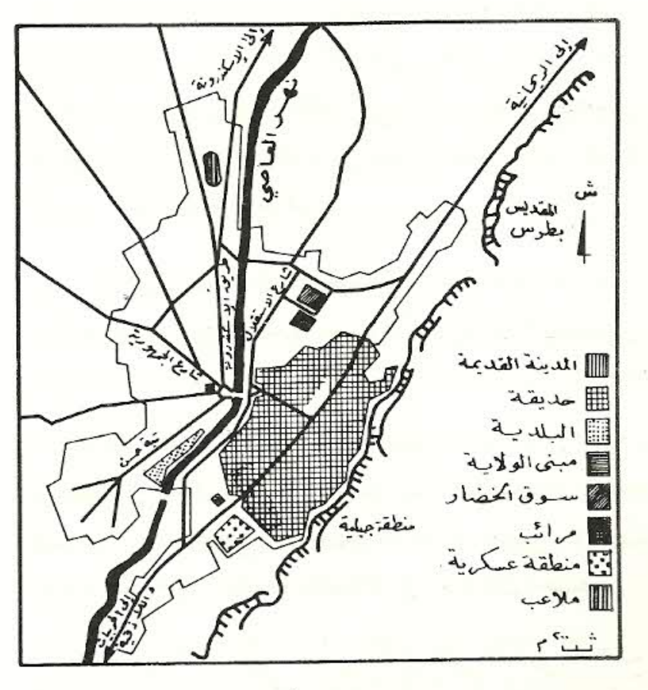
الأهمية الجغرافية والتاريخية للواء: على الرغم من صغر مساحة اللواء، التي لا تتجاوز ٤٠٠٠ كم٢، إلا أن أهميته تتعدى حدوده:

ــ فهو منفذ على البحر المتوسط ليس لحلب وشمالي سورية، بل ولشمالي العراق وإيران، وهو ذو قيمة استراتيجية، باعتباره أقرب ساحل متوسطي إلى حدود الاتحاد السوفييتي. (حيث يستغله الأمريكيون كقاعدة للانطلاق في اتجاه تلك الحدود).

ــ يحتوي اللواء على الحوض الأدنى لنهر العاصي، ومجمع مياهه التي تنفذ إلى البحر في خليج السويدية، كما أنه مجمّع ترب خصيبة تتمثل في سهل العمق، لإنتاج القطن والخضار والثمار.

الموارد الاقتصادية للواء الاسكندرونة .

— يتمتع بتركيب جيولوجي ساعد على تنوع المعادن ، مثل الكروم ، الحديد ، الذهب ... إلخ . إلى جانب غناه بالغابات والأشجار (الشوح والأرز والسنديان الفليني والزان) بسبب موقعه المناخي أيضاً ، مما ساعد على قيام نشاط صناعي معدني وزراعي .



مخطط مدينة أنطاكية .

تعتبر مدينة أنطاكية المؤلفة من سبع مناطق إدارية عاصمة اللواء . فقد كانت عاصمة سياسية وروحية ، لعبت دوراً كبيراً في تاريخ البلاد قبل الإسلام وبعده .

— تتنوع عناصر السكان فيه ، شأن كل المناطق الحدودية في العالم ، فسكانه على الرغم من قلة عددهم ، دون ٣٠٠ ألف نسمة ، فإن القسم الأكبر منهم سوريون من العرب والقلة من الأتراك . ولقد تضرر سكانه من فصلهم عن سورية ، لأن علاقاتهم الاقتصادية مرتبطة فيها وبمدينة حلب بشكل خاص .

الدستور ونظام الحكم

بعد انهيار الحكم العربي في سورية عام ١٩٢٠ وفرض الانتداب الفرنسي عليها ، وبعد سلسلة من الثورات والمقاومة المستمرة ، وُضع أول دستور جمهوري لسورية عام ١٩٣٠ في ظل الاحتلال الفرنسي ، وقد أعلنت أول جمهورية وفق ذلك الدستور عام ١٩٣٢ . وفي عام ١٩٣٦ أبرمت مع فرنسا معاهدة قامت بموجبها أول حكومة وطنية في سورية ، ثم لم تلبث أن ألغت فرنسا تلك المعاهدة ، وتواطأت مع تركيا وقامت بسلخ لواء الاسكندرونة في حزيران عام ١٩٣٩ . وبعدها تلاحقت الأحداث ، فبعدما نشبت الحرب العالمية الثانية ، اختلت الأوضاع الدستورية في سورية حتى عام ١٩٤٣ ، عندما انتخب شكري القوتلي رئيساً جديداً للجمهورية ، أُلفت في عهده الحكومة الوطنية الثانية . وفي أواخر تلك الحرب ، في أيار عام ١٩٤٥ وأمام مطالبة سورية القومية بالجلاء والاستقلال الكامل ، باشرت فرنسا عدواناً على سورية للاحتفاظ بالسيطرة عليها ، إلا أنها مُنيت بالخيبة وحدث الجلاء الناجز للقوات الأجنبية عن سورية في ١٦ نيسان عام ١٩٤٦ .

ومنذ الجلاء اختط النظام الجمهوري في سورية نهجاً ثابتاً ، وهو السعي إلى الوحدة العربية من منطلق أن سورية جزء من البلاد العربية ، وأن شعبها جزء من الأمة العربية . ونصت على ذلك في الدساتير ، التي وُضعت منذ ذلك الحين . غير أن الدستور الحالي في سورية ، والذي أُقر في استفتاء شعبي في ١٢ / ٣ / ١٩٧٣ ، تميز بمنطلقات جديدة ومتقدمة بالنسبة للدساتير السابقة ، من خلال النص على ما يلي :

— **الاشتراكية** : إن الجمهورية العربية السورية دولة ديمقراطية شعبية اشتراكية .

ــ **البعد الجغرافي للوحدة :** وهو أن القطر العربي السوري جزء من الوطن العربي ، إضافةً إلى أن الشعب العربي في سورية جزء من الأمة العربية .

تحديد أشكال الملكية (ملكية الشعب ، الملكية الجماعية ــ الملكية الفردية) .

ــ **الفقه الإسلامي :** مصدر رئيسي للتشريع .

ــ **حزب البعث العربي الاشتراكي :** هو الحزب القائد في المجتمع والدولة ويقود جبهة وطنية تقدمية .

ــ **النظام الرئاسي للجمهورية :** يقوم على توزيع السلطات إلى : تشريعية ، وتنفيذية ، وقضائية .

فالسلطة التشريعية يتولاها مجلس الشعب ، المنتخب لمدة أربعة أعوام ، ويختص بما يلي :

ترشيح رئيس الجمهورية ــ مناقشة سياسة الوزارة ــ إقرار القوانين ــ إقرار الموازنة العامة وخطط التنمية ــ إقرار المعاهدات والاتفاقات الدولية ــ إقرار العفو العام ــ قبول استقالة أحد أعضاء المجلس أو رفضها ــ حجب الثقة عن الوزارة أو عن أحد الوزراء .

أما السلطة التنفيذية ، فيتولاها رئيس الجمهورية ، الذي ينتخب باستفتاء شعبي لمدة سبعة أعوام ، بناء على اقتراح من القيادة القطرية للحزب ، وترشيح من مجلس الشعب ، ويشارك رئيس الجمهورية في وضع السياسة العامة للدولة وتنفيذها : مجلس وزراء ، يسمي رئيسه وأعضاءه رئيس الجمهورية ، وهم مسؤولون أمامه .

وأما السلطة القضائية فمستقلة ، ونص الدستور على إنشاء محكمة دستورية عليا ، تنظر وتبت في دستورية القوانين .

بالإضافة إلى السلطات الآنفة الذكر ، أوجد الدستور مجالس الإدارة المحلية ، وهي هيئات شعبية تنتخب ديمقراطياً ، وتمارس سلطاتها في الوحدات الإدارية ، في إطار التخطيط العام والقوانين ، والأنظمة ، التي تقرها السلطة المركزية في الدولة .

الدراسات العامة التاريخية

تاريخ بلاد الشام منذ عصر ما قبل الإسلام وحتى الوقت الحاضر

د. سهيل زكار

يعتبر تاريخ بلاد الشام صفحة من تاريخ البشرية منذ أقدم عصورها . فقد كشفت الدراسات الآثارية وتنقيباتها في أنحاء بلاد الشام ، أنها من أقدم بلاد العالم ، التي شهدت حياة الإنسان . ففيها كهوف إنسان العصور الحجرية ، وتوالت عليها عصور من الحضارات العربية القديمة ، التي ازدهرت على أرضها وتركت بصماتها في الحضارة الإنسانية ؛ فكانت أول أبجدية على أيدي أبنائها الكنعانيين في الساحل ، كما تقدمت على أيديهم صناعة الزجاج والفخار ، وعرفت ازدهاراً في النشاط الزراعي والتجاري على أيدي سكانها الآراميين ، الذين أصبحت لغتهم لغة التجارة العالمية آنئذٍ ، وعلى أرضها امتزجت حضارة الشرق بحضارة اليونان ؛ فازدهرت حضارة هيلنيستية كان لها فلاسفة وعلماء ما تزال آثارهم بين أيدي الباحثين والدارسين إلى اليوم . ومن أرضها انطلقت الفتوحات العربية الإسلامية ؛ فحملت إلى المشرق والمغرب رسالة إنسانية حضارية ، انتشرت علومها ومكتباتها من حدود الصين شرقاً إلى المحيط الأطلنطي غرباً . وكانت معارفها سبباً من أسباب خروج أوروبا من ظلامها وتخلفها في عصورها الوسطى إلى ما عرفته تلك القارة من تحرر فكري وتقدم علمي في عصر النهضة .

بلاد الشام هذه أو سورية الطبيعية ، لا سيما ما يسمى منها اليوم الجمهورية العربية السورية ، جديرة بأن تكون ميداناً للدراسة والبحث وأن يطلع الراغب في الثقافة الإنسانية على تاريخها وكأنه بذلك يطلع على حلقات التاريخ البشري ، من أقدم عصوره وحتى وقتنا الحاضر .

سورية في عصور ما قبل التاريخ

في مقدمة مصادر دراسة تاريخ سورية في عصور ما قبل التاريخ ما خلفه إنسان ذلك العصر، منذ نحو مليون عام قبل الميلاد حتى ابتكار الكتابة في صورتها البدائية في نحو ٣٢٠٠ق.م. ففي العصر الحجري القديم (١٠٠٠٠٠٠ عام ق.م — ١٠٠٠٠٠ عام ق.م)، بدأ الإنسان القديم المنتصب القامة «الهوموإركتوس» بصنع أدواته الحجرية وتنظيم شؤون حياته وفق متطلباته. وقد عثر على نماذج من أدواته في ترسبات سرير النهر الكبير الشمالي وحوض العاصي. ويعتبر موقع اللطامنة في شمال حماة من أهم مواقع ذلك العصر، كما تميزت ملاجىء وادي سكفتا في يبرود بأدوات حجرية يبرودية. ثم ظهر الإنسان العاقل، الذي أقام في مغاور يبرود وكهوف تدمر. وفي العصر الحجري الوسيط (١٠٠٠٠٠ — ٣٥٠٠٠عام ق.م)، بدأ الإنسان ببناء الأكواخ والتجمع والتفنن في صناعة الأدوات المناسبة والقيام بفعالية اقتصادية واجتماعية وروحية وفنية، في يبرود والكوم (شمال تدمر) والمريبط في محافظة الرقة وفي نحو ١٠٠٠٠ق.م، انتشرت الحضارة النطوفية. وفي العصر الحجري الحديث (٣٥٠٠٠ق.م — ١٢٠٠٠ق.م)، تميز الإنسان بإنتاج الغذاء والمهارة في زراعة الحبوب وتربية الحيوانات وإقامة التجمعات السكنية في المريبط وتل الرماد، بالقرب من مدينة قطنا، وإبداع تماثيل الربة الأم، والإيمان بمعتقدات وتكريم الأجداد بالمحافظة على جماجمهم وإبداع الرسوم المختلفة.

وفي بداية الألف السادس قبل الميلاد، تميز الإنسان بإبداع الأواني الفخارية المختلفة الجميلة. كما عرف الإنسان معدن النحاس في بداية الألف الخامس قبل الميلاد، فأخذ يصنع منه أسلحته وأدواته وتميز هذا العصر الحجري النحاسي بمنجزات حضارية، تجلت في الرغبة في معرفة كل ما يتعلق بالكائنات وخالقها، والحرص على تشييد المعابد، وتطوير الزراعة والإفادة من الري واستخدام الدولاب والفرن في صناعة الأواني الفخارية، وحفر الأختام المبسطة وتنمية التبادل التجاري. وإن إتقان سكان موقع تل حلف (قرب رأس العين) صناعة الفخار وتجميله، أعطى اسم هذا الموقع للحضارة، التي ازدهرت في الألف الخامس قبل الميلاد. وقد أصبحت صناعة الفخار من أهم السمات الحضارية، وبدت الوحدة الحضارية تشمل مناطق واسعة، وجسدت روائع الفن، المعتقدات وتأسست التجمعات السكنية على امتداد الطرق التجارية الهامة (مثل موقع حبوبة الكبير في حوض الفرات الأوسط) وابتكر الإنسان رموزاً حسابية وشارات كتابة تصويرية، شكلت المرحلة السابقة لابتكار الكتابة المسمارية في نهاية الألف الرابع قبل الميلاد، فبدأت العصور التاريخية في سورية وتشكلت أقدم الممالك، كمملكة إيبلا في تل مرديخ ومملكة ماري في تل الحريري ومملكة أوغاريت في رأس شمرا ومملكة قطنة في المشرفة ومملكة الآلاخ في تل عطشانة.

مملكة إيبلا: ورد أقدم ذكر لاسم مملكة إيبلا في نص من عهد ملك الأكاديين (سرجون ٢٣٤٠ — ٢٢٨٤ق.م) بمناسبة حربه ضدها، كما ذكر حفيده (نارام سين ٢٢٦٠ — ٢٢٢٣ق.م)، أنه هدم إيبلا مع مدينة «أرمانو / حلب» ويتفاخر بكونه قد استولى على هذه المملكة، التي كانت من القوة بحيث حالت دون استيلاء أحد قبله عليها منذ وجدت الخليقة ولكن إمكاناتها الاقتصادية، أتاحت لها استئناف فعالياتها. وفي القرن الثاني والعشرين قبل الميلاد، ذكر ملك لاغاش (جوديا) عمليات استيراده الأخشاب منها. كما تابعت استئناف فعالياتها المختلفة في القرن الواحد والعشرين قبل الميلاد في عهد مملكة أور الثالثة. كما ورد اسم إيبلا في نص من وثائق سلالة إيسين الأكادية العمورية. وفي عهد حمورابي — في نهاية القرن الثامن عشر قبل الميلاد — توحدت إيبلا مع مملكة حلب. وهناك ذكر تزاوج ومصاهرة بين الأسرتين الحاكمتين في إيبلا وآلاخ لأسباب سياسية وغيرها. وفي حوالي ١٦٠٠ق.م، ضعفت مملكة إيبلا ولم تستطع الصمود في حربها ومقاومتها لغزوات الحثيين في عهد الملك الحثي «حتوشيل الأول» و «مورشيل الأول»، مما أدى إلى هزيمتها والقضاء عليها. وفي القرن الخامس عشر قبل الميلاد، ورد ذكر اسم إيبلا في عهد تحوتمس الثالث على عمود في معبد الكرنك في الأقصر.

إن دراسة نصوص الرُقم المكتشفة في إيبلا، توضح أهمية هذه المملكة السياسية والدبلوماسية وفعالياتها الاقتصادية المختلفة. وإن قوة إيبلا أتاحت لها القدرة على الهيمنة على ممالك مختلفة، مثل ماري في حوض الفرات الأوسط، وحلب في الشمال، كما أتاحت فعالياتها الاقتصادية لتجارها القيام بالسفر إلى بلاد عديدة كالأناضول وفلسطين ومناطق الساحل وبلاد

ما بين النهرين، مما يفسر ذكر أسماء المدن العديدة في نصوص رُقَم إيبلا، التي أسهمت في إغناء معلوماتنا عن الجغرافيا القديمة، كما يوضح أسباب المنازعات بين مملكتي إيبلا وماري، والحروب بين مملكتي إيبلا والأكاديين في سبيل معادن الأناضول وأخشاب غابات جبال الساحل السوري.

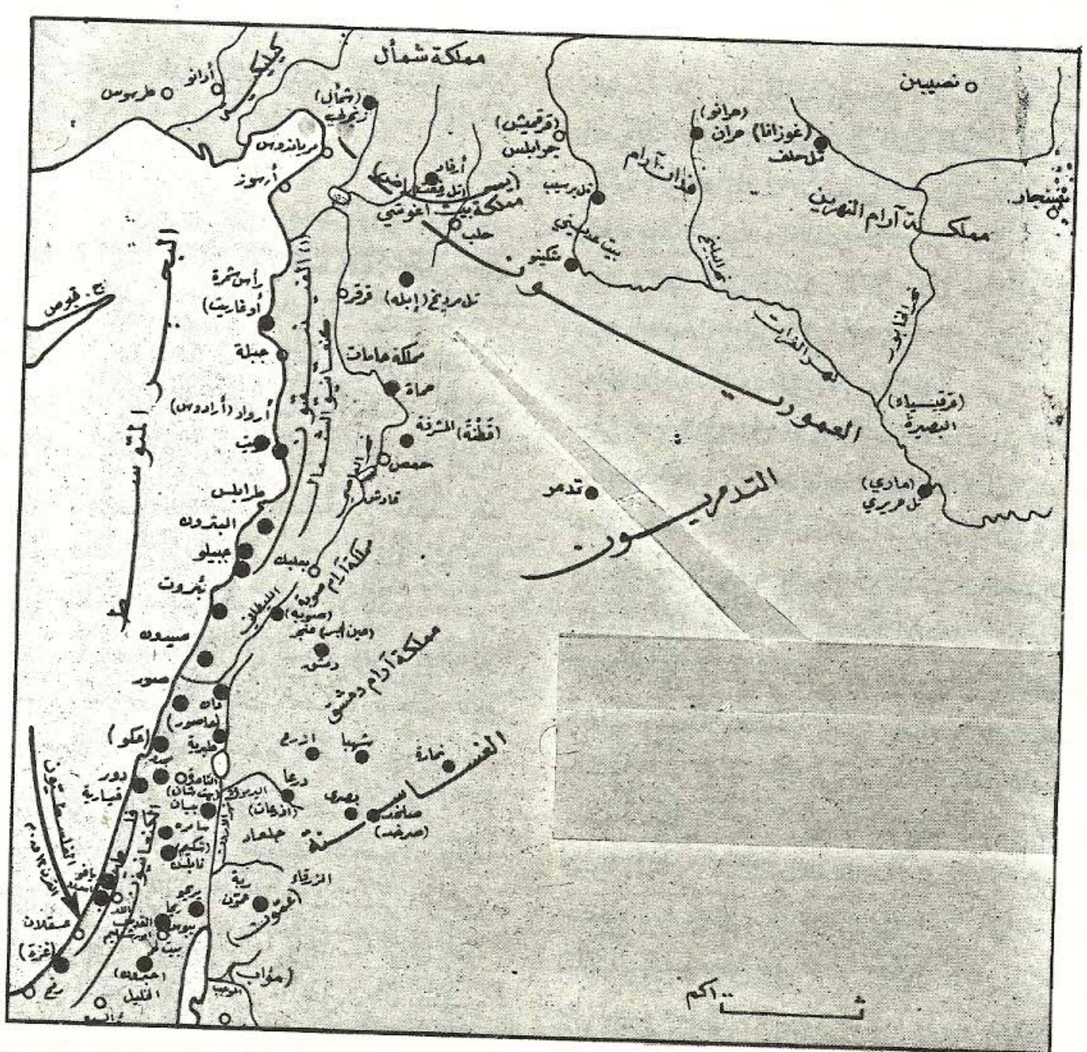
العموريون وممالكهم: إذا كانت أول إشارة إلى أرض

وكان أشهر ملوكها، السياسي الذكي «ياريم ليم» (١٧٩٢ ــ ١٧٥٠ق.م).

ــ مملكة حران الشهيرة في شمال سورية (أعالي حوض البليخ).

ــ مملكة قطنة / المشرفة شمال شرق حمص.

وبلغ نفوذ العموريين درجة، جعلت البحر المتوسط نفسه يعرف باسم «بحر عمورو العظيم»، مما يدل على سعة



قدماء العرب العموريين ظهرت في عصر سرجون الأكادي (٢٣٤٠ ــ ٢٢٨٤ق.م)؛ فإن سورية أصبحت في القرن العشرين قبل الميلاد كلها عمورية بسكانها وحضارتها. وكانت أشهر ممالكهم في سورية:

ــ مملكة ماري في حوض الفرات الأوسط.

ــ مملكة يمحاض في حلب، والألاخ / تل عطشانة.

أراضيهم وتزايد نفوذهم الممتد من ساحل البحر المتوسط غرباً، حتى مرتفعات عيلام في إيران شرقاً. وقد اعتبر اسم مدينة عمريت، قرب طرطوس، إسماً عمورياً، كما أن أسماء بعض المناطق اعتبرت نهايتها عمورية (مثل: عسقلان). وكان قدماء العرب العموريون يبدون بالنسبة لغيرهم كالعمالقة، مما جعل قاماتهم توصف بطول أشجار الأرز، كما وصفت قوتهم بصلابة شجر السنديان.

مملكة ماري: تميزت ماري بموقعها الاستراتيجي وإمكاناتها الاقتصادية وفعالياتها الحضارية وصلاتها المختلفة بممالك الشرق القديم (مثل: أور، كيش، إيسين، لاريسا، أوروك، نيبور، أشنونا، بابل، إيبلا، أكاد، آشور، يمحاض). واشتهرت ماري كعاصمة للسلالة العاشرة بعد الطوفان، مما يدل على قدمها. وكان من أشهر ملوكها «آنسود»، الذي ربما كان مؤسس هذه السلالة الحاكمة، التي حكمت نحو ١٣٦ عاماً. وتجدر الإشارة إلى هدية ملك أور (ميسانيبادا) إلى حليفه ملك ماري (آنسود)، التي اكتشفت في ماري، وهي محفوظة في المتحف الوطني بدمشق، تجسد العلاقات الودية بين ملوك هاتين المملكتين.

وكان التنافس الدولي ورغبة ملك أوروك «لوجال زاجيزي» في التوسع، مما أساء إلى العلاقات بين مملكتي ماري وأوروك، بل وأدى ذلك إلى حرب عنيفة، انتهت بقضاء «لوجال زاجيزي» على مملكة ماري وازدهارها الحضاري، فغدت مدينة عادية. ولكن إمكاناتها الاقتصادية وصلاتها الودية الدائمة بعرب البادية والموجات العربية، يفسر لنا سرعة تحررها من النفوذ السومري واستئناف فعالياتها المختلفة من جديد. وقد أصبح الأكاديون عصرئذٍ قوة هامة في المنطقة وشكلوا إمبراطورية هامة وتوسع ملكهم سرجون الأكادي، حتى وصلت حملته الحربية إلى غابة الأرز في لبنان. وعرف «ميجير دجن»، حاكماً لمدينة ماري في ذلك العصر، ثم ظهر نارام سين بفتوحاته الحربية، التي خلد أحدها بنصب حجري هام محفوظ في متحف اللوفر. ولكن حكم الأكاديين في ماري لم يدم طويلاً، وينسب بعضهم ذلك إلى غزوات القوطيين، وأثرها الكبير في تغيير الوضع الدولي السائد في ذلك العصر، وظهور اضطرابات في عهد سلالة أوروك الرابعة والخامسة. وفي عهد سلالة أور الثالثة، استطاع قواد ماري الموهوبون أن يظهروا كحكام هذه المدينة وعرفوا بلقب «شاكاناكو»، واستمر حكمهم من نحو ٢٢٨٥ق.م حتى نحو ١٧٥٥ق.م.

وبعدما أصبح للعموريين أهمية كبيرة في بداية الألف الثالثة قبل الميلاد، شكلوا ممالكهم العمورية وازدادت فعالياتهم، التي تتحدث عنها نصوص الرُقم الطينية المكتشفة في ماري وغيرها. وكان أشهر ملوك العموريين، ياجيد ليم، الذي اتخذ ماري عاصمة له، وتنازع مع إيلاكابكابو وشمش حدد، واشتهر ملك ماري «يهدون ليم» بقوته، التي جعلته يعرف كملك حرب وقتال، قاد حملات حربية وحقق مشاريع ري مفيدة. وعندما استولى الآشوريون على ماري، عهد الملك «شمش حدد» إلى إبنه «يسمع حدد» بحكم ماري. وكانت الاضطرابات والفتن المختلفة قد جعلت «زمري ليم» يلجأ إلى قصر «ياريم ليم»، الذي أدرك بذكائه أهمية موقع ماري، عاصمة الفرات الأوسط وطاقات شعبها وإمكاناتهم المختلفة، وفائدة تأكيد الصلات الودية بين مملكتي ماري ويمحاض. كل ذلك يفسر دعمه للأمير «زمري ليم»، بل وزواج هذا الأمير لأسباب سياسية من إبنة ملك يمحاض. واستفاد «زمري ليم» من الظروف الدولية المستجدة في ذلك العصر، ومن ضعف مملكة أشنونا، ووفاة الملك الآشوري «شمش حدد»، وضعف وتردد إبنه «يسمع حدد»، الذي هرب من ماري، مما جعله يستغل الدعم العسكري الكبير، الذي قدمه له ملك يمحاض «ياريم ليم». فاستطاع زمري ليم أن يحرر بلاده ويطرد المحتلين منها، بعدما دام حكمهم فيها نحو ٢٨ عاماً، من عام ١٢٦٠ق.م حتى عام ١٢٣٢ق.م، ثم أخذ ينصرف إلى تنظيم مملكته من رواسب الفتن والاضطرابات، فتطلب ذلك منه نحو عام أو عامين وقد زودته الحياة بتجارب وخبرات جديدة، مفيدة وهامة في ميادين السياسة والعلاقات الدولية والعمران والاقتصاد والفنون، مما جعله يحقق لبلاده الإزدهار الاقتصادي والنهضة الفنية، التي تجلت في فنون العمارة والنحت والتصوير الجداري والحفر والفنون الصناعية وفن الكتابة على الرُقم الطينية. واستطاع بعد خمسة أعوام من حكمه أن يحقق انتصاراً حربياً على مملكة أشنونا، مما يفسر قوله المأثور بأنه (انتزع من بلاده ظفر أشنونا)، التي كانت حليفة ملك الآشوريين «شمش حدد»، كما استطاع «زمري ليم» أن يفرض هيبة الحكم ويأمر الولاة بإرسال تقاريرهم إليه ويحرص على حسن اختيار حكام المناطق في بلاده، مثل تعيينه «ماري لاناسوم» حاكماً على توتول (تل البيعة قرب الرقة حالياً). وإن المراسلات المتبادلة بين حمورابي وزمري ليم، توضح الظروف الدولية عصرئذٍ. واستطاع ملك بابل «حمورابي» أخيراً أن يحقق انتصاراً حاسماً على «زمري ليم» ويقضي نهائياً على مملكة ماري وسلالتها الحاكمة، التي استطاع بعض أفرادها الوصول إلى ترقا / تل العشارة ومتابعة الحياة فيها.

وفي عهود الآشوريين كانت ماري مدينة صغيرة، تابعة لإمبراطورية الآشوريين يحكمها «شمش رش أوزور»، كما يحكم

بلاد سوهو (ترقا). وبعدما قضى الكلدانيون والميديون على إمبراطورية الآشوريين نهائياً عام ٦٠٩ق.م، شكل «نابو بولاصر» قيادة في ماري وبلاد سوهو. وفي العصر الهلنيستي، انتقلت شعلة الحضارة في حوض الفرات إلى مدينة «دورا»، قرب قرية صالحية الفرات. وعندما قضى الفراتيون على مدينة «دورا» عام ٢٥٦م، كانت مدينة ماري قليلة الأهمية قرب «تل مدكوك»، الذي لفت نظر الرحالة إلى حوض الفرات، وقد نسيت الأجيال مملكة ماري حتى تاريخ اكتشافها عام ١٩٣٣م.

مملكة أوغاريت الكنعانية: تقع مدينة أوغاريت شمال اللاذقية، وتبعد عنها نحو ٩كم ويفيد اسمها معنى الحقل. عُثر فيها على رُقم طينية، تتضمن معلومات عن هذه العاصمة الكنعانية وتاريخها وآدابها وفعالياتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية. وقد احتفظ ملوكها بختم جدهم «نقمد» واستخدموه في التوقيع على النصوص والصكوك. وكان «نقمد الثاني»، معاصراً للملك الحثي «شوبيلوليوما» (١٣٨٠ق.م ــ ١٣٤٠ق.م) وفرعون مصر «أمينحوتيب الرابع»/أخناتون (١٣٧٠ق.م ــ ١٣٤٩ق.م). وقد ورد اسم ملك أوغاريت «اميستامري» في إحدى رسائل تل العمارنة. وقد تزوج لأسباب سياسية من الأميرة العمورية «أحاب ميلكو»، إبنة الملك الآموري «بنتسينا»، وكان الملك الحثي «شوبيلوليوما» يشعر بخطر نفوذها وتأثيرها على زوجها، مما جعله يضغط عليه لطلاقها في فترة ضعف مملكة أوغاريت وتخلي حليفها أخناتون عنها. وإن اسم ملكها «حمربي بن بيرانا»، يدل على وحدة نسب العموريين مع الكنعانيين، الذين قدموا معاً من شبه الجزيرة العربية واستقروا في سورية الساحلية والداخلية.

وكانت مملكة أوغاريت من أهم حلفاء ملوك مصر، الذين كانوا يرسلون إليها الهدايا. ويختارون لها أفضل السفراء، ويفيدون من أخشاب غابات جبال الساحل السوري في صناعة السفن وغيرها. وقد تمكن الهكسوس من تشكيل حلف قوي، مؤلف من نحو خمسين وثلاثمائة أمير من أمراء البلاد المحليين، وقفوا معاً في وجه فرعون مصر «تحوتمس الثالث»، الذي قاد ست عشرة حملة حربية. وبعدما دارت الحرب تحت أسوار «مجدو» الحصينة ــ التي دام حصارها سبعة أشهر ــ تمكن ملك مصر من فتحها والاستيلاء عليها عام ١٤٦٨ق.م. وفي حملته الخامسة، استولى على مملكة أرواد، فقطع أشجارها المثمرة ونقل منها الخمور والحبوب والعسل والزيتون والخيول والمواشي والتحف الفنية المختلفة. مما يؤكد أهمية مملكة أرواد الكنعانية، التي كانت بمثابة مخزن محاصيل بلاد زاهي، التي تضم السهل الفينيقي وبلاد فلسطين الخصبة. وفي حملته السادسة فتح ملك مصر مدينة سيميرا قرب طرطوس، ومدينة آلازا. وأخيراً استولى على مدينة قادش، التي كان أميرها رئيس الحلف. وعندما اعتلى عرش مصر «أمينحوتيب الرابع»/أخناتون (١٣٧١ ــ ١٣٥٨ق.م)، انصرف إلى حياة التأمل والقضايا الدينية، متخلياً عن حلفائه الكنعانيين في أوغاريت وغيرها، مما زاد من نفوذ أعدائه الحثيين

في عهد «شوبيلوليوما»، الذي استطاع أن يقضي على كيان المملكة الميتانية في الشمال، ويلتفت إلى مملكة أوغاريت، التي استطاعت أن تحافظ على استقلالها وازدهارها، وتتابع ممارسة فعالياتها في عصرٍ كان فيه ملك جبيل «رب عدي»، قد أرسل بدون جدوى خمسين رسالة إلى ملك مصر لنجدته، واستطاع فيه الأمير العموري «عبد أشيرتا» ومن بعده عزيزو أن يفرض كل منهما نفوذه على مناطق واسعة. ويتضمن نص الرقيم المكتشف في أوغاريت اتفاقاً بين ملك أوغاريت «نقمد» وملك عمورو «عزيزو». وفي عهد السلالة المصرية التاسعة عشر، قدم الملك «سيتي الأول» (١٣١٧ق.م ــ ١٣٠١ق.م) إلى المدن الكنعانية وحصل منها على الأخشاب اللازمة له، فمر بمدينة «سيميرا» الكنعانية قرب طرطوس، وعقد صلحاً مع الحثيين أنفسهم، مما جعل موقف الكنعانيين حرجاً. واستغل الملك الحثي «موفاتاليش» (١٣٣٩ق.م ــ ١٣٠٦ق.م) الهدنة، مما جعل «رعمسيس الثاني» (١٢٩٠ ــ ١٢٢٣ق.م)، يتجه إلى قادش، التي أصبحت بمثابة قلعة أمامية للحثيين، الذين فاجأوه بكمين، كاد يقضي على جيش رعمسيس، الذي تمكن بشجاعته أن يحافظ على معنويات جيشه. وكانت الحروب سجالاً بين الحثيين والمصريين، انتهت بمعاهدة عقدت بين الطرفين في عهد الملك الحثي «حتوشيل الثالث» (١٢٧٥ ــ ١٢٥٠ق.م) ورغم أن مملكة أوغاريت كانت بمثابة قلعة للفراعنة، لكن يبدو أن الفراعنة فقدوا احترامهم في أوساط الكنعانيين، ويدل على ذلك تقرير «ون آمون»، بعث به من جبيل إلى سيده ملك مصر، حدثه فيه عن المعاملة غير

المتوقعة، التي لقيها من أميرها «زكر مبل». وفي أواخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد، ظهرت تحركات شعوب البحر، التي كانت تبحث لها عن موطن تستقر فيه. وكانت أوغاريت — بعدما نكبت بكارثة زلزال — أخذت تعيد بناءها وتستأنف نشاطها وفعالياتها، ولكن غزوة شعوب البحر، قضت عليها نهائياً في نحو ١١٩١ق.م. وفيما بعد أقام عدد من الإغريق حيهم الصغير «لوكوس ليمن Leukos Limen» فيها لفترة بسيطة، ثم تناست الأجيال المتعاقبة أوغاريت وتاريخها وحضارتها. حتى تاريخ اكتشافها عام ١٩٢٩م.

الممالك الآرامية في سورية: في نهاية النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد، ظهرت جماعات الأخلامو والآراميين في شمال شبه الجزيرة العربية، متجهةً نحو الشمال إلى سورية وبلاد ما بين النهرين. ثم أخذت تدريجياً تستقر وتمارس الزراعة وغيرها. وتحدث الآشوريون عن انتصاراتهم على الآراميين، كما شعر الحثيون بخطر الآراميين عليهم، فأرسل ملك الحثيين «حتوشيل الثالث» إلى الملك البابلي، «كادش مان الثالث» في نحو عام ١٢٧٥ق.م رسالة يشرح له فيها خطر استقرار هؤلاء الآراميين على سلامة الطرق التجارية في حوض الفرات. كل ذلك جعل الملك الآشوري «تبكولتي نينورتا» (١٢٥٥ق.م — ١٢١٨ق.م)، يقود حملة حربية ضد الآراميين في منطقة جبل البشري، كما شعر الملك الآشوري «آشور بل كالا»، بقوة الآراميين المتزايدة، مما جعله يتحالف مع ملك بابل «مردوخ شابيك زرماتي» لصد الآراميين. ولكن هذا الملك البابلي نفسه، قد أُبعد عن العرش وحل محله الآرامي «حدد ابان دين» (١٠٨٣ — ١٠٦٢ق.م)؛ فوجد الملك الآشوري من مصلحته الاعتراف به والتقرب منه، فتزوج ابنته لأسباب سياسية. وخاض الملك الآشوري «تغلات فلاسر الأول» (١١١٦ق.م — ١٠٩٠ق.م) حرباً ضد الآراميين، الذين كانوا قد وصلوا إلى منطقة كركميش (جرابلس)، وخلد حملاته الحربية ضدهم. وكان الآراميون في بلاد بابل يدعمون البابليين، الذين كانت لهم معهم صلات قومية وثيقة، حتى أنه ورد في إحدى وثائق تل العمارنة في عهد الملك أخناتون (١٣٧٠ق.م — ١٣٤٩ق.م) والملك البابلي «كاردونياش»، نبأ استيلائهم على المدن برضى حكامها المحليين، مما يفسر صلة الآراميين بالسكان المحليين. ويعتبر القرن الحادي عشر قبل الميلاد بمثابة ذروة انتشار الآراميين في مناطق شمال بلاد ما بين النهرين. وكان انتشارهم في المقاطعات العديدة، مطابقاً لتقسيماتهم وتنظيماتهم القبلية، وقد تحولت هذه المقاطعات إلى ممالك آرامية ومختلفة من حيث الأهمية والنفوذ. وقد شكلت طوق حصار حول الآشوريين، الذين أصبحوا محرومين من منفذ لهم، كما دفعت الكنعانيين من المناطق الداخلية إلى جهات الساحل؛ فاتخذ الكنعانيون بدورهم من أنفسهم عائقاً دون توسع الآراميين إلى مناطق الساحل.

أقام الآراميون إلى جانب السكان المحليين العموريين في حوض العاصي، الذي أسموه «أورونت»، ولم يلاقوا أية صعوبات في مناطق سورية الجنوبية، التي كان يسكنها العموريون والكنعانيون. وكان الآراميون يتحالفون مع العمونيين الذين كانت عمان عاصمتهم. وكانت تدمر كمركز لتجمع الآراميين. وفي مناطق غرب الفرات، اصطدم الآراميون ببقايا الحثيين ولا سيما في كركميش (جرابلس) وتمكن الآراميون من انتزاع بعض المدن (مثل بيترو جنوب جرابلس، وموتكينو على ضفة الفرات اليسرى)، والانتشار في مناطق واسعة خصبة، تحدها أرمينيا شمالاً وجبال طوروس والأمانوس وحوض العاصي وفلسطين غرباً، والصحراء العربية جنوباً وبلاد بابل وآشور شرقاً. وأسسوا ممالكهم، التي من أشهرها:

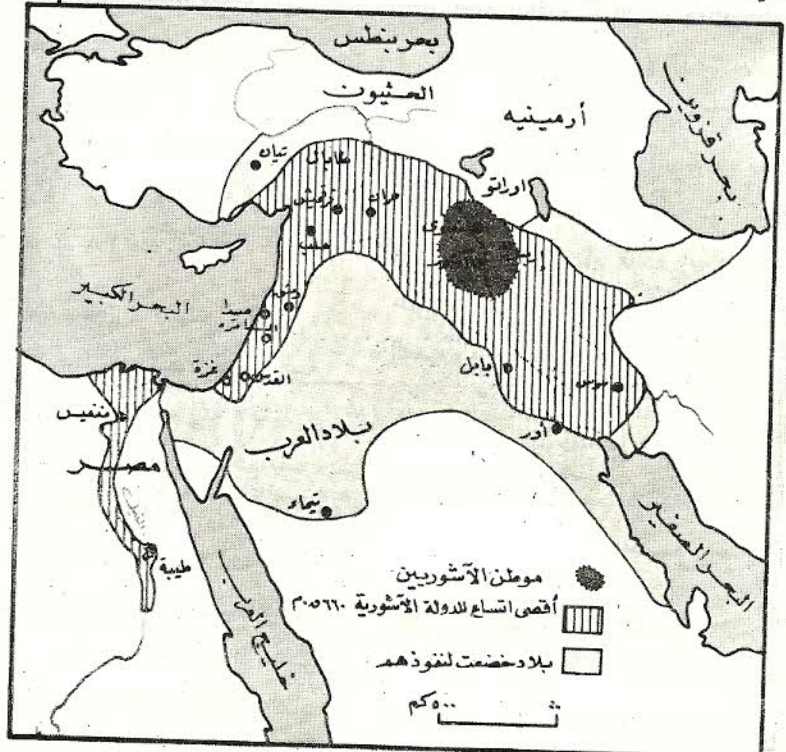
— مملكة فدان آرام: عاصمتها حران التي يفيد اسمها معنى طريق. وكانت من أعظم مراكز الحضارة الآرامية.
— مملكة صوبا في سهل البقاع.
— مملكة آرام نهرين (أي نهري الفرات والخابور).
— مملكة بيت باحياني في حوض الخابور: عاصمتها «غوزانا/تل حلف» قرب رأس العين. وكان من أشهر ملوكها كابارا.
— مملكة بيت عديني: عاصمتها تل برسيب، واتسعت هذه المملكة حتى نهر البليخ، وكان من أشهر ملوكها آخوني.
— مملكة بيت آجوشي: عاصمتها «أروباد/تل رفعت»، كانت تشمل أراضي منطقة حلب.
— مملكة شمأل عند سفوح جبال الأمانوس وفي حوض قره صو.
— مملكة حماة: كان من أشهر ملوكها أرخوليني، وزاكر.
— مملكة بيت رحوب: عند مجرى نهر الليطاني الأوسط.
— مملكة آرام ماعاكا: في الجولان: وتضم منطقة دان/تل القاضي.

ــ مملكة جشور بين دمشق ونهر اليرموك .

ــ مملكة دمشق الآرامية ، التي كانت أمل الممالك الآرامية وعقلها المفكر وقلب مقاومتها وصمودها .

اتبع الآشوريون سياسة قتال الآراميين وإخضاعهم والقضاء عليهم ، مما جعل الملك الآشوري ، آشور دان الثاني (٩٣٢ ــ ٩١٢ق . م) يقاتل الآراميين المقيمين في المنطقة الشمالية الغربية . كما قاد ابنه « حدد ميراري الثاني » (٩١١ ــ ٨٩٠ق . م) حملاته الحربية ضدهم . فهاجم مملكة « غوزانا » قرب رأس العين ومملكة قطنة / المشرفة . كما قاتل الملك الآشوري آشور بانيبال الثاني (٨٨٣ ــ ٨٥٩ق . م) الآراميين . ومع ذلك فقد استطاعت مملكة بيت عديني الآرامية أن تحافظ على كيانها .

وبعدما كانت مملكة صوبا أقوى الممالك ، دب الضعف فيها ، مما جعل القائد الآرامي « رزون بن اليدع » ، ينفصل عن ملك صوبا « حدد عزر بن رحوب » ، ويجمع حوله رجاله ويؤسس مملكة آرامية جديدة في نهاية الألف الثاني قبل الميلاد . كان في انتظارها أمور جسام وأحداث كبرى . فقد قادت الممالك الآرامية في مواجهة الجيوش الآشورية في معركة « قرقر » على نهر العاصي في منتصف القرن التاسع قبل الميلاد ومعارك عام ٨٤٩ق . م و ٨٤٨ق . م و ٨٤٥ق . م و ٨٣٨ق . م . ففي عام ٨٣٨ق . م ، توجه « شلمنصر الثالث » من جديد بجيشه لقتال ملك دمشق « حزائيل » ، الذي كان يتمتع بمواهب عسكرية وعزيمة قوية ، جعلته من أعظم المحاربين الآراميين . فقد صمد وأجبر الملك الآشوري أن يعود من حيث أتى . وبلغ من شدة سيطرة « حزائيل » على الممالك المجاورة ، درجة ، جعلته يحد من تسلحهم . ووصفت شدة ضغطه عليهم بأنه جعلهم « كالتراب المتصاعد على الأرجل » . ووصفه بعض المؤرخين بأنه « أعظم محارب في التاريخ الآرامي » . وفي عهد آخر ملوك دمشق الآراميين « رصين » (٧٣٢ق . م) سقطت دمشق في أيدي الآشوريين ؛ فدخلها الملك الآشوري « تغلات فلاسر الثالث » ؛ فقتل ملكها « رصين » ونفى كثيراً من سكانها ، وقضى على استقلالها وازدهارها وجعلها إحدى المقاطعات الآشورية . وبسقوط دمشق عام ٧٣٢ق . م ، زالت دعامة كبرى من دعائم مقاومة الآراميين وانتهى عز سيادتهم فيما استمر نشاطهم الاقتصادي ونفوذهم الثقافي ، وغدت لغتهم لغة الأدب والتخاطب ، بل واللغة الرسمية في الولايات الفارسية في عهد « دارا الكبير » (٥٢١ق . م ــ ٤٨٦ق . م) . وكان الآشوريون يعتمدون الكتّاب الآراميين في كتابة وثائقهم . وقد عثر على منحوتة آشورية من عهد تغلات فلاسر الثالث ، تمثل كاتباً آرامياً



توسع الآشوريين حتى مصر

يسجل الغنائم بقلمه على ملفات البردي، في حين أن زميله الكاتب الآشوري كان يكتب على رُقيم طيني النص بالكتابة المسمارية.

سورية في عهود الكلدانيين: تحالف «نابو بولاصر»، مؤسس الدولة الكلدانية (أو البابلية الحديثة) مع الميديين وأسهم معهم في القضاء نهائياً على حكم الآشوريين وتدمير عاصمتهم نينوى عام ٦١٢ق.م. وعندما انسحبت فلول الآشوريين إلى منطقة حرّان طاردتها قوات الكلدانيين وتمكنت من القضاء عليها نهائياً عام ٦٠٩ق.م. وكان ملك مصر «نيخاو» ٦٠٩ — ٥٩٣ق.م يحلم بالتوسع، فقام بحملة حربية إلى سورية، فجرت معركة حربية بينه وبين «نبوخذ نصر» (٦٠٥ — ٥٦٢ق.م) في منطقة كركميش (جرابلس) عام ٦٠٥ق.م، انتهت بهزيمة ملك مصر وانسحابه من سورية، بعدما أقام فيها نحو أربعة أعوام. ثم اتجه نبوخذ نصر إلى إخضاع سورية والقضاء على المدن الثائرة فيها. وعندما وصل إلى صور عام ٥٧٢ق.م، لقي مقاومة دامت نحو ثلاثة عشر عاماً. وبعدما حقق الكلدانيون حلمهم في التوسع مالوا إلى الترف؛ فأصابهم الضعف في فترة ظهر فيها خطر الميديين والفرس، الذين قضوا على مملكة الكلدانيين في آذار ٥٣٨ق.م في عهد آخر ملوكهم «نابونيدس» (٥٥٦ — ٥٣٨ق.م).

سورية في عهود الأخمينيين: اتبع «قورش» (٥٦٠ق.م — ٥٢٩ق.م) سياسة التوسع، فضم إليه البلاد التي كانت خاضعة للكلدانيين، ثم تابع إبنه «قمبيز» (٥٢٩ — ٥٢١ق.م) سياسة أبيه في التوسع، فهاجم مصر ولكن شعبه ثار ضده؛ فانتحر عام ٥٢١ق.م. وظهر «داريوس بن هستاسيس» (٥٢٦ق.م — ٤٨٦ق.م)، الذي اعتبر أعظم ملوك الأخمينيين بفضل ما كان يتمتع به من خبرة حربية ومهارة إدارية. سك دنانير ذهبية عرفت باسم «النقود الدارية» وسمح بسك نقود فضية محلية، أهمها، نقود مدينة صور الفينيقية الفضية، وأفاد من خبرة الملاحين الفينيقيين في الملاحة وصناعة السفن وعالم التجارة. وتميزت هذه الفترة بازدهار الأدب الآرامي.

وتعتبر قصة «آحيقار»، أو حكمة «آحيقار» من روائع الأدب. وفي عهد الملك الأخميني «أرتحشستا الثالث» (٣٥٩ق.م — ٣٣٨ق.م)، اندلعت الثورات وازدادت نقمة المواطنين المحليين. وكانت صيدا التي عرفت بشدة مقاومتها للملك الآشوري «أسر حدون» عام ٦٧٧ق.م، قد أصبحت من جديد، مركز الثورة الوطنية ومقر المقاومة الشعبية في عهد ملكها تينيس. فصار الأخمينيون يلاقون الطرد في كل مكان. فجهز الملك الأخميني جيشاً كبيراً، ولكن المواطنين أعلنوا استقلالهم وأحرقوا السفن تعبيراً عن عزمهم على الصمود حتى الموت، فهلك منهم نحو ٤٠٠٠٠ مواطن، كما لقي كثيرون عذاب النفي والتشريد والاضطهاد والجوع. وشهدت سورية فترة انحطاط الصناعات المحلية وغزو المنتجات اليونانية ولا سيما الخزف الأتيكي وانتشرت النقود اليونانية، وتأسست مكاتب تجارية يونانية في الساحل (مثل لوكوس ليمن/أوغاريت وتل سوكاس قرب جبلة). وبعدما كان الأخمينيون يستخدمون الأسطول الفينيقي في غزوهم بلاد اليونان، بدأ الإغريق في عهد الإسكندر المقدوني يهاجمون الأخمينيين في آسيا الصغرى وسورية. وعندما استولى القائد اليوناني، «بارمينيو» على دمشق وجد فيها أسرة الملك الأخميني «داريوس الثالث» (٣٣٦ — ٣٣٠ق.م)، الذي خاض معارك «إبسوس» عام ٣٣٣ق.م، و «أربيل» عام ٣٣١ق.م، ثم فر إلى «أقبتان»، حيث اغتاله متآمران من أعوانه في معسكره عام ٣٣٠ق.م. وباستيلاء الإسكندر المقدوني على الشرق ووفاته في بابل عام ٣٢٣ق.م، واقتسام قواده إمبراطوريته، بدأ عصر جديد، عُرف باسم «العصر الهلنيستي»، تميز بتفاعل حضارات الشرق القديم مع حضارة الإغريق.

سورية
من عهد الإسكندر حتى الفتح العربي

د. مفيد العابد

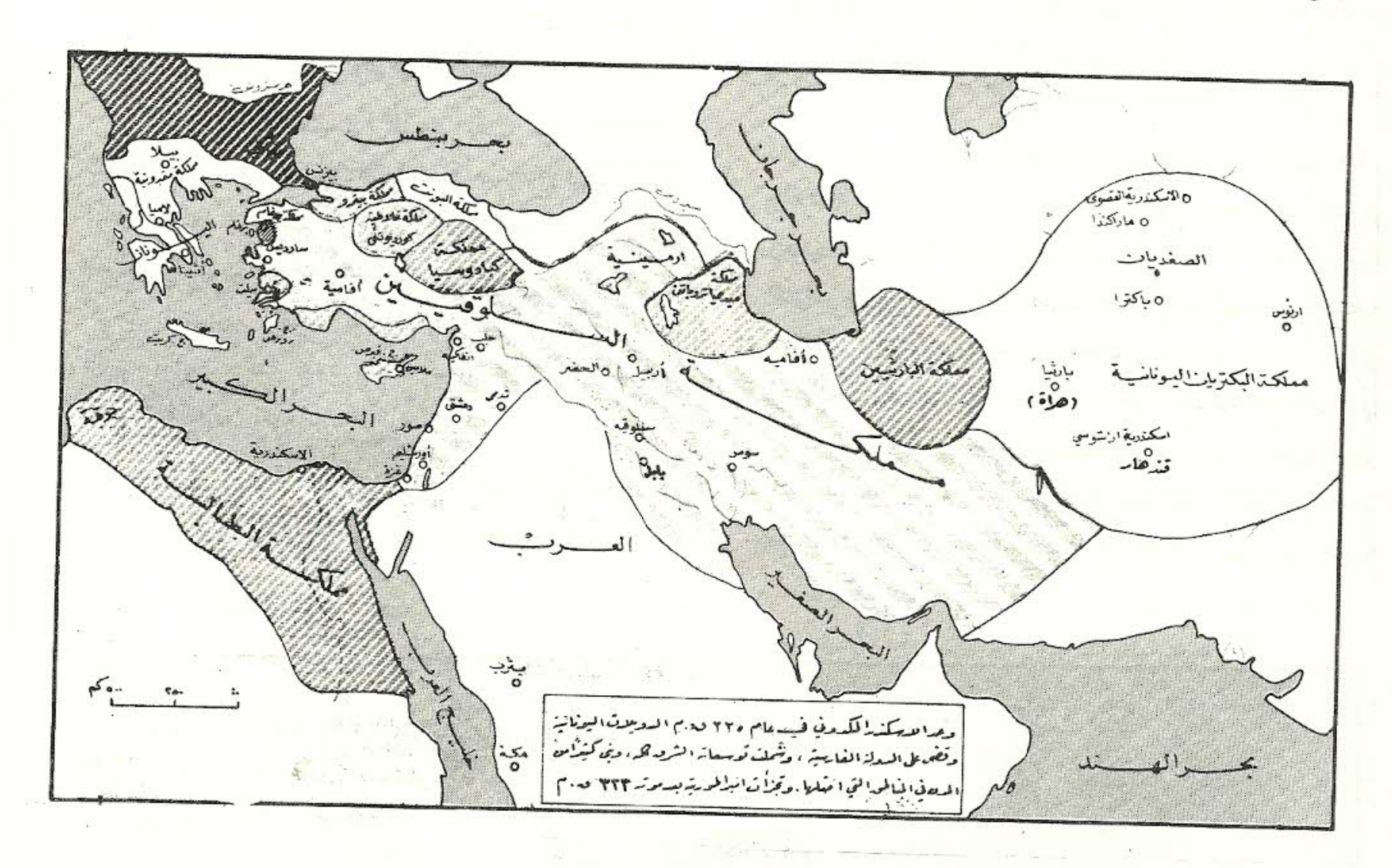
في عام ٣٣٣ق.م جرت معركة «إبسوس»، شمال غرب سورية، في منطقة بحيرة العمق بين الإسكندر المقدوني والملك الفارسي «دارا الثالث»، انتهت بانتصار الإسكندر وتقدمه في سورية جنوباً، بعد بنائه مدينة عرفت باسمه «الإسكندرونة» في أقصى شمال الساحل السوري. واستسلمت له المدن الساحلية والداخلية في سورية، باستثناء مدينتي صور وغزة. فقد قاومته صور ببطولة سبعة أشهر قبل أن تخضع له

أخيراً في نهاية عام ٣٣٢ق . م ، كما قاومته غزة شهرين بقيادة « باطيس » . وبعد استسلام مصر ، ومعركة أربيل في شمال العراق ، انتهى نهائياً عصر السيادة الفارسية في المنطقة وبدأ العصر المقدوني .

كان الانتصار المقدوني ، مرتبطاً بشخصية القائد الشاب الإسكندر ، الذي ما كاد يقود حملته الشرقية للاستيلاء على الهند ، ويعود منها إلى بابل في ربيع عام ٣٢٣ق . م ، حتى فاجأه مرض ، أودى بحياته ؛ فانقسمت الإمبراطورية التي أسسها في

وجزر بحر إيجة ، يضاف إليها سورية المجوفة . وقنع أنتيجونوس بما آل إليه وبخاصة بلاد اليونان وبعض جزر بحر إيجة .

كان سلوقس معجباً بسياسة قائده الإسكندر ، القائمة على بناء مستوطنات لطبع البلاد بالطابع الإغريقي ، فأنشأ في إمبراطوريته الممتدة من الهند إلى آسيا الصغرى ، ومن البحر الأسود إلى الصحراء العربية ، عدداً من المدن بدأها بمدينة سلوقية على نهر الدجلة ، عندما كان والياً على بابل عام ٣١٢ ــ ٣٠٢ق . م . وبعدما آلت إليه منطقة غرب آسيا بعد



الأعوام العشر السابقة . وبالرغم من غنى معظم مقاطعات إمبراطورية الإسكندر بالموارد والمقومات الاقتصادية والبشرية ، فإن سورية كانت أهمها . وشهدت المنطقة أحداثاً كان لها آثارها على تاريخها السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي ، فترة امتدت حتى الفتح العربي .

بعد موت الإسكندر ظهرت طموحات قادته وآمالهم ؛ فقسمت الإمبراطورية بين القادة سلوقس وبطليموس وأنتيجونوس . إذ استولى سلوقس على آسيا الغربية باستثناء « سورية المجوفة » ، واستولى بطليموس على مصر وليبيا وقبرص

حرب ضد أنتيجونوس ، أنشأ في شمال غرب سورية أربع مدن هي سلوقية (السويدية) ، وأنطاكية وأفاميا ، ولاوديسية (اللاذقية) وغدت سلوقية ثم أنطاكية ، عاصمتين على التوالي للإمبراطورية في عهده ، واستمرت أنطاكية مزدهرة .

وفي عهد الملوك السلوقيين ، الذين خلفوا سلوقس ، خاضت إمبراطوريتهم عدداً من الحروب ، أهمها ضد البطالمة في مصر . وقد عرفت هذه الحروب بالحروب السورية .

وظهر العرب الأنباط في جنوب بلاد الشام ، قوة هامة في المنطقة وصلت حدود مملكتهم حتى دمشق وتأسست سلالة

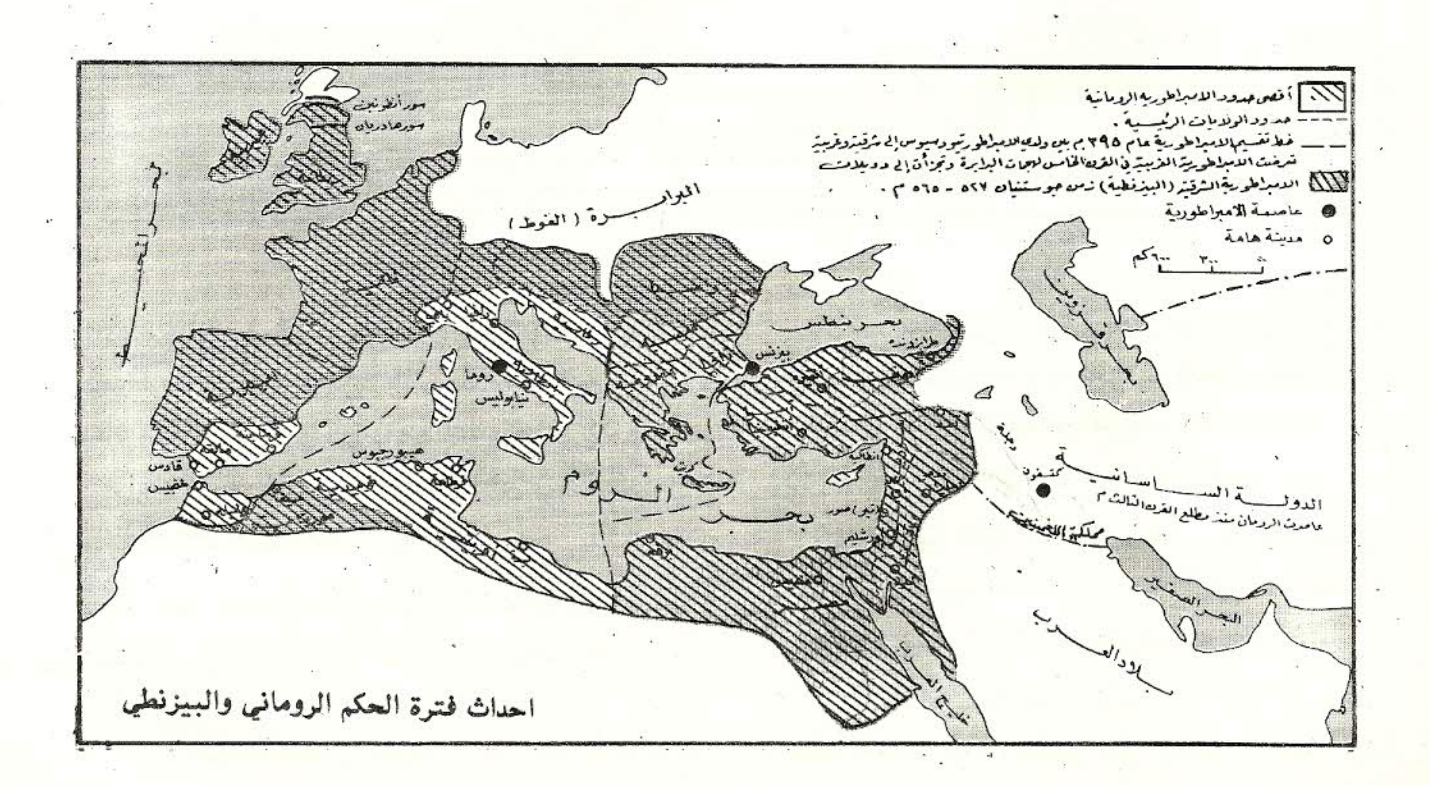
عربية ـــ آرامية في الرها، كما تأسست سلالة «شمسيغرام» العربية في حمص.

وتمكن البارثيون عام ١٣٠ق.م، من اكتساح معظم إمبراطورية السلوقيين حتى الفرات. كما تمكنت مملكة أرمينيا من احتلال كيليكية عام ٨٣ق.م، وكانت المنازعات الداخلية بين أفراد الأسرة السلوقية قد أضعفت البلاد. وعلى الرغم من ذلك فقد أنجبت سورية عدداً من أعلام التاريخ والفلسفة والشعر والطب. مثل المؤرخ «بوسيدونيوس» الأفامي (١٣٥ ـــ ٥١ق.م) والشاعر «آنتيباتروس» الصيداوي والشاعر «فيلوديموس» و «ميلياغر» من مدينة جدرة/أم قوس.

وفي العصر الهلنيستي الذي أعقب موت الإسكندر، تقدمت الزراعة في سورية. وكان القمح أهم إنتاج فيها، وانتشرت زراعة الكروم وتحسنت أنواعها. كما اشتهرت بزراعة الزيتون واستخراج الزيت، ومن النباتات التي أدخلها المزارعون في سورية أشجار الفستق. وتميزت بإنتاج أجود أنواع الزجاج والأصباغ والنبيذ والزيت (قدر عدد سكان سورية في العصر الهلنيستي بنحو ستة ملايين نسمة).

وفي عام ٦٤ق.م قضى الرومان على حكم السلوقيين في سورية، وضمها القائد بومبي إلى الإمبراطورية الرومانية، كما ضمت مصر إلى الإمبراطورية الرومانية بعد معركة «أكتيوم» عام ٣١ق.م. وكان الزعماء العرب، حكاماً محليين في تدمر وحمص وبلاد الأنباط. وأسست بعض المدن فيما بينها اتحاداً كاتحاد المدن العشرة (ديكابوليس). وأفادت سورية من السلم العالمي الذي حققه الرومان في زمن الأباطرة الخمسة من عهد نيرفا ٩٦ ـــ ٩٨م، حتى زمن «ماركوس أوريليوس» ١٦١ ـــ ١٨٠م. وعرفت قمة ازدهارها في عهد تراجان (٩٨ ـــ ١١٧م) وهادريان (١١٧ ـــ ١٣٨م) وتأكدت ذروة قوتها، حين تمكنت الفرق الرومانية في سورية من رفع قائدها «فيسبازيان» إلى العرش الإمبراطوري عام ٦٩م.

وازدهرت المدن السورية (مثل أنطاكية وضاحيتها دفنة، واللاذقية وأفاميا، وحمص ودمشق وبيروت وبعلبك، وتدمر وبصرى، وشهبا والقنوات، ودورا). وقد اشتهرت أنطاكية بحياة الترف والمدرجات والحمامات والحدائق والطرق المرصوفة والمضاءة ليلاً والمهرجانات الرياضية. وكانت اللاذقية مركز مسرات يتردد عليه كبار الأغنياء، وقد اشتهرت بنبيذها الذي كانت تصدره إلى عواصم الولايات الرومانية على شواطئ البحر المتوسط. وكانت أفاميا ذات أهمية كبيرة فيها مدرسة الفلسفة. وتطورت دمشق من عاصمة آرامية، قديمة منسية، إلى مدينة



احداث فترة الحكم الروماني والبيزنطي

ذات فعاليات ونشاطات اقتصادية. وكانت بيروت أهم مدينة ساحلية، فيها مدرسة حقوق واستمرت أهمية بعلبك (هليوبوليس مدينة الشمس) ومنبج (هيرابوليس مدينة الربة هيرا).

وفي الجنوب، كان معظم مدن فلسطين وشرقي الأردن القديمة، قد تأثر بالطابع الإغريقي. وفي بيت لحم ولد السيد المسيح، الذي دعا إلى دين جديد متميز بأخلاقية إنسانية، فأخذت الديانة المسيحية تنتشر في سورية وتلفت أنظار العالم بجهود الرسل وعلى رأسهم القديس بولس. وكانت أنطاكية أول مركز لانتشار المسيحية في سورية وخارجها.

وتمكنت سلالة سورية أن تعتلي عرش الإمبراطورية الرومانية وكان من أباطرتها «كاراكالا» (٢١١ — ٢١٧م) وإيلا جبال (٢١٨ — ٢٢٢م) وانتهى حكمها بموت «إسكندر سيفيروس» (٢٢٢ — ٢٣٥م)، كما تمكن القائد السوري فيليب العربي من اعتلاء عرش روما وحكم الإمبراطورية من عام ٢٤٤م إلى ٢٤٩م. ومارس الاقتصاديون السوريون نشاطاتهم في الولايات المختلفة. وكانت سفنهم في القرن الثاني والثالث، تنتقل بين موانئ البحر المتوسط. وكانت جزيرة ديلوس وصقلية من المراكز الرئيسة للتجارة السورية. وكانت بضائعهم التجارية تتألف من الحبوب والخمور والزجاج والمنسوجات والمجوهرات والتوابل وغيرها. وقد أسهمت نشاطاتهم الفكرية في نشر الديانة المسيحية وانتصارها على الوثنية. ثم جرى تحول كبير من الغرب إلى الشرق، وتزايدت أهمية القسم الشرقي من الإمبراطورية من الناحية البشرية والاقتصادية والثقافية، حين غدت سورية تابعة لهذه الإمبراطورية الرومانية الشرقية بيزنطة. وقد قسمت إدارياً إلى ثلاث مقاطعات هي: سورية وفينيقية وفلسطين. وقسمت مقاطعة سورية بدورها إلى: سورية الأولى وعاصمتها أنطاكية وأشهر مدنها، سلوقية واللاذقية وجبلة وحلب. وكانت عاصمة سورية الثانية أفاميا وأشهر مدنها إبيفانيا/حماة وأرتيوسة/الرستن ولاريسا/شيزر.

كما قسمت مقاطعة فينيقية إلى جزئين: فينيقية الأولى وعاصمتها صور وأشهر مدنها عكا وصيدا وبيروت وجبيل. أما فينيقية الثانية (فينيقية المجاورة للبنان)؛ فكانت عاصمتها حمص وأشهر مدنها دمشق وبعلبك وتدمر.

وقسمت مقاطعة فلسطين إلى ثلاثة أقسام: الأولى وهي الوسطى الساحلية وعاصمتها قيسارية وأشهر مدنها: بيت المقدس ونابلس ويافا وغزة وعسقلان، والثانية وهي الشمالية الساحلية ومركزها سكيتوبوليس/بيسان، وأشهر مدنها: طبرية وجدرة/أم قوس، والثالثة وهي الجنوبية الشرقية وعاصمتها البتراء. وضمت هذه كل مواقع الولاية العربية، التي تأسست بعد قضاء الرومان على مملكة الأنباط وجعلت بصرى عاصمتها.

تابعت سورية دورها الصناعي والتجاري الرائد. واستطاعت بنشاطات أبنائها أن تنشر مؤثراتها الحضارية في أنحاء الإمبراطورية. وحافظت أنطاكية على مستواها الفكري، المتميز وأنجبت واحتوت عدداً من المفكرين الوثنيين والمسيحيين، وازدهرت في فلسطين كل من قيسارية وغزة. ونافست بيروت العاصمة في المجال الفكري.

وكان لانتشار المسيحية في سورية وبلاد شرق البحر المتوسط، أثر كبير في تطور العالم المسيحي في اتجاهين: إغريقي في المدن الساحلية، وسرياني في الداخل. وفي القرنين الثاني والثالث الميلاديين، بدأ تحول جديد إلى الآرامية الأصلية، التي تعتبر الكتابة السريانية فرعاً رئيساً منها. وقد عبر هذا التحول عن يقظة جديدة ووعي قومي بين السوريين.

وفي أوائل القرن السادس الميلادي، تعرّضت سورية لخطر التوسع الفارسي. وحاول أباطرة بيزنطة، الوقوف ضد هذا الخطر في عهد الإمبراطور جوستنيان (٥٢٧ — ٥٣٢م). وقد دوّن المؤرخ السوري «بروكوبيوس» من قيسارية معلومات هامة عن تلك الأحداث، التي بلغت ذروة خطرها في عهد كسرى أنوشروان (٥٣١ — ٥٧٩م). وفي عهد كسرى الثاني، تجددت سياسة الهجوم الفارسي، عندما اكتسح سورية الشمالية وخرب مدنها عام ٦٠٨م وتابع زحفه، فاتجه القائد هرقل إلى القسطنطينية، التي توج فيها في ١٥ تشرين الأول عام ٦١١م في فترة حرجة، تمكن فيها القائد الساساني «شهر برز» من الاستيلاء على أفاميا وهدمها عام ٦١٣م ومهاجمة أنطاكية والاستيلاء عليها، ثم الاتجاه إلى دمشق وإلى بيت المقدس، التي أقام فيها حامية من جنوده. ولكن المواطنين، فتكوا بهذه الحامية، مما أثار غضب «شهر برز» وجعله يعود إليها من جديد، ويفتك بسكانها وينفي بطريرك بيت المقدس، ويسلب خشبة الصليب، التي كانت تعتبر أثمن شيء فيها.

كان كسرى الثاني، قد وجه إلى هرقل رسالة تتصف بالغرور، مما جعل هرقل يقسم أن يسير بنفسه إلى ميدان القتال على رأس قواته. فاهتم فعلاً بقتال الفرس الساسانيين منذ عام ٦٢٢م، وقاد ست حملات حربية دامت حتى عام ٦٢٧م، وانتهت بهزيمة الساسانيين وانسحابهم إلى بلادهم للدفاع عن عاصمتهم، في وقت استطاع فيه هرقل، أن يحرق معابد النار في عاصمة ميديا ومدينة زرادشت.

كانت الأنظار تتجه إلى عاصمتي الإمبراطوريتين البيزنطية والساسانية، وكانت التساؤلات تدور: أيهما ستكون سيدة الشرق من جديد. ولم يكن هناك من يتوقع أن القبائل العربية المتنازعة فيما بينها، ستوحدها دعوة النبي العربي محمد ﷺ في فترة بلغ فيها استياء الجميع درجة، جعلت المواطنين يعتبرون أعمال الساسانيين والبيزنطيين بمثابة أعمال قطاع طرق. فوجد السوريون في قوة أبناء عروبتهم في شبه الجزيرة العربية خلاصاً لهم. وعندما تقابل الجيش العربي الإسلامي مع الجيش البيزنطي في معركة اليرموك، كان الجيش العربي الإسلامي، يبدو متحمساً للاستشهاد في سبيل انتصار مثل عليا آمن بها.

ولقي العرب المسلمون من أبناء بلاد الشام كل تأييد. فحرر العرب المسلمون مدينة بصرى بقيادة «أبي عبيدة بن الجراح» ومساعدة أبنائها الناقمين على الحكم البيزنطي. وفشل البيزنطيون في استرجاعها في معركة «أجنادين» الشهيرة، مما جعل هرقل يشعر باليأس ويهزم أمام جيوش التحرير العربية.

العرب في بلاد الشام قبل الإسلام

د. سهيل زكار

الأنباط

يشكل تاريخ الأنباط فصلاً مهماً في تاريخ العرب قبل الإسلام وشبه الجزيرة العربية. وقد ازداد الاهتمام بدراسة تاريخهم بعد اكتشاف آثارهم في البتراء، وقراءة كتاباتهم، ومعرفة ما تضمنته من معلومات تاريخية، تدعم ما جاء في كتابات الإغريق والرومان عنهم.

اعتبر بعض الباحثين اسم «الأنباط» من استنباط الماء وأنهم هاجروا من شبه الجزيرة العربية إلى بلاد الشام، واتخذوا من الآرامية أبجديتهم، التي أفاد منها فيما بعد عرب الحيرة ومكة، مما جعلها من أصول الأبجدية العربية الحالية. وعُرفت عاصمتهم باسم البتراء الذي يفيد معنى الصخر. واشتهرت منطقة البتراء بكهوفها المنقوبة في الصخر، ومساكنها ومدافنها وهياكلها. ويرى بعض الباحثين أن هذه المنطقة قد سكنها قديماً عرب ثمود، الذين جابوا الصخر بالواد (القرآن الكريم ـ سورة الفجر ١٩) أو الآدوميون الذين استعاروا خط ثمود. وأن «سترابون» الذي رافق حملة القائد الروماني «إيليون غالوس» وصف عام ٢٤ق. م موقع البتراء بأنه حصن الآدوميين.

وكان الأنباط قد قدموا إلى المنطقة في نهاية القرن الخامس قبل الميلاد، فعاشوا فيها وفي المنطقة الصحراوية المجاورة. وقد ساعدت طبيعة الأرض الصخرية على الاحتفاظ بمياه السيول في صهاريج محفورة في الأرض، ولكنها لم تساعد على الزراعة. وكان اعتمادهم الرئيسي على لحوم الإبل والغنم والألبان. واستطاعوا أن يحصلوا على ثروات كبيرة من عمليات التجارة مع الشرق الأقصى (عطور وبخور وتوابل)، مروراً بشواطئ اليمن إلى مصر، كما كانوا ينقلون إلى مصر القار، الذي كان الفراعنة يستخدمونه في عمليات التحنيط. وقد تأثر الأنباط بالحضارة الهلنيستية. وتدل على ذلك الألقاب، التي اتخذوها والنقود، التي سكوها وجعلوها تحمل أسماءهم. مثل: الحارث، عبادة، مالك.. وكانت نقودهم تحمل على أحد الوجهين صورة جانبية لرأس الملك وزوجته، وعلى الوجه الآخر صورة قرني الخصب وفوقهما كتابة عربية نبطية، تذكر اسمي الملك وزوجته. وقد أسهمت النقوش النبطية المكتشفة في إعطاء مزيد من المعلومات الدينية والدنيوية عن الأنباط، تتضمن عبارات تبريك ووصايا وأسماء أصحاب القبور مثل: وائلة وكليبة، وعائد وقسي، ووهب، واللات، وعُبد وعُبادة. وأسماء أرباب الأنباط مثل: ذو الشراة، واللات، ومناة، وقيس، وهبل، وحدد. وكان ذو الشراة رب الأنباط القومي.

وكان الأنباط يقدسون الحرية ويحاربون بشدة، دفاعاً عن حريتهم ويتمتعون بالقدرة على تحمل شظف العيش وقساوة الحياة الصحراوية، ومن وقائعهم المشهورة، انتصارهم على القائد «آنتيجون» وابنه «ديمتريوس» عام ٣١٢ق. م. ولكنهم منذ حصولهم على الأرباح الطائلة، وتأثرهم بحضارات عصرهم، أخذوا يرغبون في حياة الترف، وتبني كثير من مظاهر حياة الإغريق، مما أدى إلى ضعفهم وزوال ازدهار عاصمتهم البتراء

والقضاء نهائياً على دولتهم عام ١٠٥م، حين حلت محلها الولاية العربية وعاصمتها بصرى، ومملكة تدمر في قلب بادية الشام.

تدمر

بعدما قضى الرومان على مملكة الأنباط عام ١٠٥م، وفقدت البتراء أهميتها السياسية والاقتصادية، نتيجة تحول طرق التجارة العالمية عنها، ظهرت أهمية تدمر على طرق التجارة العالمية بموقعها المهم في واحة قلب بادية الشام، كمحطة تجارية عالمية، تصل بين أقطار الخليج والعراق ومناطق الفرات والشام والبحر المتوسط، وكمركز حضاري كبير تتلاقى فيه منجزات الشرق والغرب.

لا يعرف بدقة تاريخ بدء بناء مدينة تدمر، ولكن اسمها ورد في نصوص مسمارية، مكتشفة في كابا دوكيا وماري وعصر الملك الآشوري «تغلات فلاسر الأول». ولعل إسم تدمر عائد إلى اشتهارها بنخيل التمر وقد غلب عليها اسم «بالميرا Palmyra». اختلف المؤرخون في اسم مؤسسها وتاريخ البدء ببنائها، فيما اتفقوا على أهمية هذه المدينة العظيمة من خلال أطلالها والنقوش، التي اكتشفت في منتصف القرن الثامن عشر، ومبانيها مثل: المعابد، المسرح، الساحة العامة، مجلس الشيوخ، قوس النصر والشارع الرئيسي وأروقته، والأبراج والمدافن. وإن الكتابة التذكارية، التي تتضمن اسم أذينة والكتابة الأخرى، التي تتضمن اسم زنوبيا على حجرين بارزين في أعلى عمودين من أعمدة الشارع الرئيسي، تدلان على مدى وفاء الجيش التدمري للملك أذينة ومن بعده للملكة زنوبيا.

وتبرهن النقوش التدمرية على أن سكان تدمر كانوا عرباً، كتبوا بحروف مشتقة من الآرامية، المنتشرة في بلاد الشام وشبه الجزيرة العربية، والتي كانت لغة التجارة العالمية والدبلوماسية الدولية.

وكانت تدمر بموقعها على طرق المواصلات، مركزاً حضارياً كبيراً بين حضارات الشرق والغرب. وشهدت تدمر خلال تاريخها القديم أحداثاً مختلفة منها حملات الملك الآشوري «تغلات فلاسر الأول» وحروب الإسكندر المقدوني، وحكم السلوقيين في سورية، وحملة القائد الروماني مارك أنطوان ضدها لسلب سكانها ثرواتهم ولمتابعة حروبه ضد خصومه. وقد زارها الإمبراطور هادريان وأعرب عن اهتمامه بها. وأفادت تدمر من حكم الأباطرة السيفيريين السوريين في عام ١٩٣م، حتى ٢٣٥م حين أصبحت إحدى عواصم الشرق القديم المهمة. ولكن الفترة الأكثر أهمية في تاريخ تدمر كانت تلك، التي عاشتها بين قوتين سياسيتين هما: إمبراطورية الفرس في الشرق وإمبراطورية الرومان في الغرب، إذ كانت القوى العربية المحلية في بادية الشام وشبه الجزيرة العربية ذات أهمية كبيرة سياسية واقتصادية وعسكرية، حققت من خلالها المال الوفير للتدمريين. وعندما تعرضت تدمر لمحاولات الاستيلاء عليها من قبل أعدائها الطامعين بها، اتبع التدمريون سياسة توازن بين الفرس والرومان، وتم تأسيس جيش وطني للدفاع عن البلاد وحماية القوافل التجارية. ومن أشهر الأسر التي حكمتها أسرة أُذينة بن حيران، الذي كافأته الإمبراطورية الرومانية بلقب زعيم الشرق وذلك بعدما انتصر على الفرس، الذين تمكنوا من أسر الإمبراطور الروماني غاليانوس، وأذلوه وقتلوه.

وبعد اغتيال أُذينة ملك تدمر وولده في عام ٢٦٧م، أصبحت زوجته زنوبيا وصية على عرش ابنها القاصر «وهب اللات». واعتمدت زنوبيا في حكمها على عدد من القواد واختارت الفيلسوف لونجينوس الحمصي، وزيراً لها وكبيراً لمستشاريها. واتبعت سياسة فعالة، أسهمت في اتساع أراضي مملكتها، وتزايد فعالياتها الاقتصادية، بالإفادة من موقع بلادها على طريق الحرير. كما عُرفت زنوبيا بحماية الذين اعتنقوا المسيحية، وسكت نقوداً لمملكتها في كل من أنطاكية والإسكندرونة، تحمل صورتها وصورة ابنها «وهب اللات» وألقابهما، مما أثار الإمبراطور أورليان وجعله يقرر القضاء على هذه المملكة العربية التدمرية، متابعاً في ذلك سياسة الإمبراطورية الرومانية. وجرت معارك بين الجيش الروماني والجيش التدمري في أنطاكية، ثم حمص وأخيراً في بادية الشام. وكان وجود زنوبيا على رأس جيشها يشجع جنودها على القتال وإحراز الانتصارات. وذكر «هومو Homo» أحد المؤرخين أن الإمبراطور أورليان، أُصيب أثناء هجومه على مملكة تدمر بجرح فوقع على الأرض، وردد متحسراً «**إن الشعب الروماني يتحدث باستهزاء عن الحرب التي أشنها ضد امرأة، ولكنه يجهل شخصية زنوبيا وقوتها**».

وبعد انضمام جيش القائد الروماني بروبوس إلى جيش الإمبراطور أورليان، انهزم الجيش التدمري ومات وهب اللات في القتال، فتأثرت أمه كثيراً، وقررت العمل على تأسيس قوة

جديدة من أبناء البادية لمتابعة القتال والدفاع عن تدمر. ولم يطل بها الأمر، إذ تمكن جنود الرومان من اعتقالها فور وصولها إلى الفرات ونقلها أسيرةً إلى روما. وبعد مضي نحو شهرين على إقامتها في تيفولي قرب روما، ماتت زنوبيا حزينةً على مجدها وبعدها عن شعبها ووطنها. وكان الإمبراطور أورليان قد قضى في حمص بالموت على كبير مستشاريها لونجينوس الحمصي.

وبعدما سقطت تدمر في أيدي الرومان عام ٢٧٢م، اندلعت فيها ثورة جديدة، قضت على الحاكم الروماني وعلى الحامية الرومانية، مما جعل الإمبراطور أورليان يعود من جديد إلى تدمر، ليهدمها ويقضي على ازدهارها، ويقتل الكثير من سكانها. ولما أدرك الإمبراطور ديوكلسيان أهمية موقعها، شيد فيها معسكره الكبير، المعروف حالياً باسمه، وأحاط المدينة بسور جديد يعرف باسمه أيضاً.

وبقيت مكانة تدمر فيما بعد مصدر وحي وإلهام للشعراء العرب مثل النابغة الذبياني، كما أن الغساسنة كانوا يترددون عليها. ومن الأحداث المهمة، التي يذكرها تاريخ الفتح الإسلامي، مرور خالد بن الوليد بها وفتحها عام ١٣هـ/٦٣٤م. وقد بقيت تدمر مدينة ثانوية في صدر الإسلام وبعده عندما تحولت عنها طرق التجارة العالمية وظهور مراكز مدنية واقتصادية كبيرة أخرى غيرها في بلاد الشام والرافدين.

الغساسنة

ينتسب العرب الغساسنة إلى قبائل الأزد، التي هاجرت من اليمن إلى بلاد الشام بعد خراب سد مأرب وذكرهم حسان ابن ثابت في شعره قائلاً:

إمّا سألت فإنا معشر نجب
الأزد نسبتنا والماء غسان

وعندما وصل الغساسنة إلى جنوب بلاد الشام، أقاموا عند قوم من عرب قضاعة عرفوا باسم بني سليخ. وقيل أن قسماً منهم أقام عند ماء يدعى غسان، فعرفوا منذئذٍ باسم الغساسنة. ويذكر المؤرخون والرواة العرب أن أول ملك غساني كان عمر بن جفنة، الذي اشتهر بانتصاراته، وبلغ عدد الملوك الغساسنة ثلاثين ملكاً، كان آخرهم جبلة بن الأيهم.

امتد نفوذ الغساسنة حتى الرصافة قرب الرقة، التي كانت بمثابة عاصمتهم الشمالية. وتورطوا في الصراع القائم بين البيزنطيين والفرس، مما جعلهم يخوضون معارك ضد خصومهم المناذرة حلفاء الفرس. وأدرك البيزنطيون أهمية قوة العرب الغساسنة، وأنعم الإمبراطور البيزنطي جوستنيان على الحارث بألقاب عظيمة مثل «فيلارك أبطريق» ودعاه إلى قصره في القسطنطينية، فاستقبله فيها استقبالاً لائقاً بالملوك بحضور زوجه المنبجية الأصل «تيودورا»، فتركت هذه الزيارة أثرها الكبير في أوساط القصر البيزنطي.

وكان تزايد نفوذ الغساسنة، وحمايتهم أتباع عقيدة «الطبيعة الواحدة»، قد أدى إلى نزاعهم ضد البيزنطيين وهذا يفسر محاولات البيزنطيين إعطاء السلطات الكافية لحاكم سورية البيزنطي للقضاء على نفوذ الغساسنة.

وكان العرب الغساسنة يحاربون إلى جانب البيزنطيين ضد الفرس في الحرب، التي انتهت عام ٥٣١م بهزيمة الروم وأسر أحد قادة العرب (عمرو) قرب قنسرين شمال بلاد الشام. وبعد معركة قنسرين بمدة قصيرة، تجددت الحرب بين ملك الغساسنة الحارث بن جبلة وملك المناذرة «المنذر بن ماء السماء» بسبب التنافس على سيادة قبائل بادية تدمر، مما أشعل من جديد الحرب بين بيزنطة وفارس.

كان الحارث بن جبلة عام ٥٤١م، يحارب في العراق إلى جانب الروم البيزنطيين بقيادة بليساريوس. وفي عام ٥٤٤م تجددت الحرب بين المنذر، ملك الحيرة والحارث بن جبلة، ملك الغساسنة. وقد أسر أحد أولاد الحارث، وقدم قرباناً للربة «العزى/أفروديت» وكانت الهدنة بين البيزنطيين والساسانيين، قائمة وقتئذٍ. وفي عام ٥٤٤م حدثت معركة كبرى بين الخصمين، عُرفت باسم يوم حليمة.

كان الغساسنة قد تأثروا بالديانة المسيحية، واشترك ملوكهم في الخلافات الكنسية حول طبيعة السيد المسيح. وكانوا من أتباع عقيدة الطبيعة الواحدة (المنوفيزيين)، ويعود إلى الغساسنة فضل تعيين يعقوب البرادعي وغيره، أسقفاً في ولاية الشام، مما دعم موقف القائلين بالطبيعة الواحدة.

نال الحارث بن جبلة شهرة كبيرة، ونسب إليه الرواة كل عمل عظيم، وقد امتد حكمه حتى وفاته عام ٥٦٩م أو ٥٧٠م

نحو أربعين عاماً، فخلفه إبنه المنذر بن الحارث، الذي بدأ حكمه بصدّ غارات المناذرة عن بلاده، فهزم المناذرة وملكهم قابوس في معركتين عام ٥٧٠م، إحداهما قرب الحيرة عاصمة المناذرة وذلك في فترة جفاء بين الغساسنة والروم البيزنطيين، مما جعل البيزنطيين يعقدون صلحاً مع المنذر في مدينة الرصافة. وفي عام ٥٨٠م، قام المنذر بزيارة رسمية إلى القسطنطينية استُقبل فيها استقبالاً لائقاً وقد أنعم الإمبراطور عليه بتاج ملكي.

ولكن العلاقات بين الغساسنة والبيزنطيين ساءت من جديد، وتمكن البيزنطيون من خداع المنذر واعتقاله في قرية حوارين قرب حمص، ونفيه مع زوجه وبعض أفراد أسرته إلى العاصمة القسطنطينية، ثم إلى صقلية عام ٥٨٢م، بعدما حكم مدة ثلاثة عشر عاماً، مما جعل أولاد المنذر الأربعة يثورون في بصرى. ولكن الحاكم البيزنطي تمكن من الانتصار عليهم، ونفي النعمان بن المنذر إلى القسطنطينية، وانتهت حياته في ظروف غامضة.

بعدما ضعفت مملكة الغساسنة، وقضي على أواخر ملوكها، انقسم عرب الشام إلى خمسة عشر قبيلة، متنازعة فيما بينها، يعمل بعضها في خدمة الروم البيزنطيين وبعضها الآخر لمصلحة الفرس. وقد توطن قسم كبير من العرب في مدن بلاد الشام وقراها، وكان لهم في دمشق نفسها قصور هامة، تغنى الشعراء بأحدها (قصر البريص). وإذا كانت المصادر السريانية والبيزنطية قد أهملت ذكر ملوك الغساسنة، فإن الشعراء ــ مثل النابغة الذبياني وحسان بن ثابت ــ تحدثوا عن أولئك الملوك منهم: الحارث الأصغر وإبنه النعمان.

امتد نفوذ الغساسنة إلى مناطق جبل الشيخ، بل وحتى مناطق وادي عربة. وكانت أهم مراكزهم في الجولان وفي حوران وجلق (دمشق)، وبقي نفوذهم في مناطق البادية ولا سيما حول تدمر والرصافة. والجدير بالذكر أن هرقل بعدما تمكن من استرداد بلاد الشام من الفرس، حاول تنظيم إمارة الغساسنة. وفي كتب السيرة النبوية أن النبي محمد ﷺ راسل ملك غسان، شرحبيل بن عمرو الغساني. وفي عهد الخلفاء الراشدين، كان ملك الغساسنة، جبلة بن الأيهم يدعم الروم في حروبهم ضد العرب المسلمين، ثم دخل الإسلام، ولكنه ارتد بعدئذٍ في عهد الخليفة عمر بن الخطاب (رضي اللّه عنه)، وهرب إلى الإمبراطورية البيزنطية، حيث توفي فيها.

وانتهت إمارة غسان بالفتوحات العربية الإسلامية لبلاد الشام.

مملكة الرها / أديسا

في منتصف الألف الثاني قبل الميلاد، وصلت بلاد الشام من شبه الجزيرة العربية، موجة العرب الآراميين، تمكنت فيما بعد من تأسيس ممالك ــ مثل: مملكة صوبا، ومملكة دمشق ومملكة حماة، ومملكة أرباد.

وفي العصر الهلنيستي (٣٣١ ــ ٦٤ق.م) ظهرت سلالة عربية آرامية، أسست مملكة في الرها، التي عرفت بالسريانية باسم «أديسا» وتعرف حالياً باسم مدينة أورفة. وكانت هذه المملكة مشهورة كمركز تجاري مهم ومنطقة زراعية غنية، وكان معظم ملوكها باسم «أبجر» تعاقب منهم ثمانية ملوك دام حكمهم من عام ١٣٢ق.م حتى ٢١٦م. ومن هؤلاء الملوك آريو، وعبده، وبوخرو، وسوموقو، وأوموقو. وحفظت الآثار أسماء بعض أسرها مثل معن (معنو)، وبكر (بكرو)، وعبد (عبدو) وكانت أسماء أربابها عربية مثل: عزيزو، منعم.

وازدهر في الرها الأدب السرياني العربي، مما جعلها من أهم مراكز الإشعاع الحضاري عصرئذٍ. وتذكر التقاليد أن ملكها يعتبر أول الملوك الذين اعتنقوا المسيحية، وقد أرسل دعوة إلى السيد المسيح، فشكره السيد المسيح وبارك له بمملكته. وفي القرنين الرابع والخامس الميلاديين، تأسست فيها أديرة كثيرة تمثل نهضة معمارية محلية مهمة.

إمارة حمص

كانت الأراضي الواسعة الممتدة في حوض العاصي حتى حوض الفرات ــ المعروفة عند قدماء اليونان باسم «بارابوتاميا» ــ بمثابة أراضي مملكة عربية واسعة، مستقلة، يقيم فيها العرب ويمارسون فيها سيادتهم، وبعدما جذب انتباههم موقع حمص على طرق القوافل وخصوبة أرضها وكثرة مياهها، مما يساعد على الاستقرار والازدهار.

واستطاع «شمسيغرام» من زعماء القبائل العربية في

المنطقة أن يفرض احترامه على الجميع ويجعل الملوك السلوقيين أنفسهم في العصر الهلنيستي، يتقربون منه ويستعينون به ويعتمدون عليه، مما ساعده جدياً في تأسيس سلالة عربية حاكمة في حمص في بداية القرن الأول قبل الميلاد حتى نهاية القرن الأول الميلادي؛ أي في عهد الإمبراطور «دوميسيان» (٥١ ــ ٩٦م).

وكان شمسيغرام في بادئ الأمر، كبير سدنة معبد الشمس في حمص، يتمتع بسلطة روحية ومدنية، تحدث عنه سترابون في حديثه عن حصار أفاميا. وقد حكم حمص وقلعة الرستن، التي كانت بمثابة حصن لحمص. وأتاحت له قوته الحربية، قمع فتنة داخلية في العاصمة السلوقية أنطاكية في عهد ملكها السلوقي «أنطيوخس» الآسيوي الذي طلب منه النجدة والمعونة.

وبعدما قضى الرومان نهائياً على حكم السلوقيين في سورية عام ٦٤ق.م أدركوا أهمية قوة العرب في المنطقة، وإمكانات الأمير العربي شمسيغرام، وحاجتهم إلى الهدوء في هذه المنطقة، مما جعلهم يتقربون من هذا الأمير العربي، ويعترفون بسيادته على هذه المنطقة العربية الواسعة. وبلغ الأمر بسكان روما، درجة، جعلتهم يلقبون هذا الأمير الشجاع بلقب «صديق روما».

كان شمسيغرام الأول معاصراً للخطيب الروماني «شيشرون» (١٠٧ ــ ٣٣ق.م) الذي ذكره في إحدى رسائله. وبعد وفاة شمسيغرام الأول خلفه ابنه «جامبليق» الذي تطلبت ظروف عصره انضمامه إلى «ماركوس أنطونيوس» في نزاعه ضد خصمه «أوكتافيوس». ويبدو أن ماركوس أنطونيوس، خشي جانب جامبليق، مما دفعه إلى القضاء عليه والتخلص منه عام ٣١ق.م؛ فتولى حكم حمص إسكندر بن شمسيغرام الأول، الذي كان موضع ثقة ماركوس أنطونيوس، حتى أنه أوفده بمهمة مقابلة هيرود (٣٩ ــ ٤ق.م). وعمل كل ما من شأنه إبعاده عن خصمه أوكتافيوس. ولكن نزاع «أنطونيوس و أكتافيوس»، انتهى بانتصار أوكتافيوس، الذي عرف باسم «أوغست». وكان انتصار أوكتافيوس (أوغست) على أنطونيوس وكليوباترا، في معركة «أكتيوم» عام ٣١ق.م، قد أثار قلق «إسكندر بن شمسيغرام الأول» وفعلاً، فقد قضي عليه بنفيه إلى روما واغتياله فيها.

ظلت حمص بدون حاكم وطني محلي حتى عهد الإمبراطور «تيبريوس» (١٤ ــ ٣٧م)؛ فأصبح جامبليق الثاني بن جامبليق الأول، حاكم حمص عام ٢٠م، فوجد من الضروري اتخاذ موقف جديد ومناسب، مما أسهم في جعل مملكته تنعم بالازدهار والاستقرار في عهده، الذي اعتبر بمثابة العصر الذهبي لمملكة حمص. ثم تولى الحكم بعده «شمسيغرام الثاني» الذي تصفه كتابات أثرية بصفات الملك العظيم والمجيد. ويبدو أن الظروف المختلفة تطلّبت القيام بعدة لقاءات مع حكام وملوك المنطقة في طبرية وغيرها. وينسب إليه فضل تشييد قصر في ضاحية حمص الغربية، اشتهر موقعه فيما بعد باسم «الصومعة»، ثم تولى الحكم «عزيز بن شمسيغرام الثاني» ومن بعده «سهيم بن شمسيغرام الثاني» الذي عاصر الإمبراطورين «نيرون» (٣٧ ــ ٦٨م) و «فيسبازيان» (٦٩ ــ ٧٩م) وهناك كتابة أثرية في بعلبك تشير إلى الملك الكبير «جايوس / يوليوس» سهيم الملك الكبير شمسيغرام، محب القيصر الروماني.

وكانت سياسة روما تهدف إلى ضم الممالك المحلية العديدة إلى الإمبراطورية الرومانية. وقد استطاعت مملكة حمص أن تحافظ على سيادتها واستقلالها بفضل ذكاء ملوكها ودهائهم. وفي عهد الإمبراطور «دوميسيان» (٥١ ــ ٩٦م) قضى الرومان نهائياً على سلالة شمسيغرام العربية الحاكمة في حمص في نهاية القرن الأول الميلادي.

عرب الصفا

أقامت في حوران أقوام عربية، عُرفت باسم «عرب الصفا» نسبة إلى المنطقة الصحراوية، التي استقروا عليها ودافعوا عنها، وتفاعلوا مع طبيعتها. وقد تميز هذا الموقع بكثرة كتاباتهم الأثرية العربية الصفوية، التي تعتبر أقرب الكتابات إلى لغة عرب شمال شبه الجزيرة العربية، التي تبناها القرآن الكريم. ومن أهم نماذج هذه الكتابة نقش النمارة المشهورة والمؤرخ بتقويم مدينة بصرى، الذي يبدأ عام ١٠٥م. وقد جاء في هذا النقش الأثري الذي يعود إلى عام ٣٢٨م:

«هذه نفس امرئ القيس بن عمرو ملك العرب كلهم الذي عقد التاج وملك الأزد ونزار..».

وهناك نقوش عربية أخرى لها موضوعات شخصية،

ويشير بعضها إلى وقائع حربية مع الفرس. والجدير بالذكر أن الكتابة العربية الصفوية غطت منطقة واسعة، امتدت من حماة إلى شمال الحجاز وكان من أسماء قبائل منطقة الصفا: جعبر، حمد، نمرت، نميرة، عويد.

الفتح العربي
الحكم الراشدي ــ الدولة الأموية

د. سهيل زكار

يتصف تاريخ بلاد الشام بصفات وسمات في غاية الأهمية، وتتصدر هذه السمات سمة عراقة هذا التاريخ وقدمه والتواصل الحضاري والعطاء في كافة الميادين. فقد هيأها موقعها للانفتاح على الحضارات الإنسانية على الرغم من خضوعها أحياناً لحكم أجنبي. وفي مجريات حوادث ماضي الشام الطويل، كان للفتح العربي الإسلامي أعظم الآثار عليها، من ذلك ترسيخ عروبتها وتبديل البنى الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعمرانية فيها. فعلى صعيد السياسة الداخلية والخارجية، تحول دور القبائل العربية من الهامش إلى الصميم، وعلى صعيد التمدن: تقدمت مكانة مدن، مثل دمشق وحلب ومعرة النعمان وغيرها، وظهرت مدن جديدة مثل الرملة وغيرها، ولا بد في استعراضنا لتاريخ بلاد الشام في عصر صدر الإسلام، من الحديث عن حركة الفتوحات وما لحق ذلك من أحداث العصر الراشدي ومن ثم الوقوف طويلاً مع قيام الخلافة الأموية، وما حققته هذه الخلافة من إنجازات.

كانت الصلات قبل الإسلام بين عرب شبه الجزيرة وبلاد الشام قوية جداً. فإلى الشام كانت تتجه إحدى رحلتي أهل مكة كل عام، وإلى الشام توجهت أنظار الرسول الكريم ﷺ، فكانت قبلته الأولى تتجه نحو بيت المقدس، وإلى الشام وجه الرسول الدعاة وبعث حملة خارج شبه الجزيرة العربية بقيادة أسامة بن زيد، بعد أن كان أبوه زيد بن حارثة قد استشهد على أرض الشام في حملة سابقة إلى جانب جعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة في موقعة مؤتة. وتوقفت حملة أسامة بسبب مرض النبي ﷺ ثم وفاته، فأمر خليفته أبو بكر بتنفيذ أمر الرسول ﷺ، ومضى أسامة لوجهته نحو بلاد الشام. وفي أثناء غيبة أسامة حدثت ردة بعض قبائل العرب، وبدأت حروب الردة، وما إن فرغ أبو بكر من هذه الحروب حتى جهز الجيوش لتحرير الشام من حكم الروم البيزنطيين. وفي عام ١٣هـ/٦٣٤م، استنفر الخليفة أبو بكر العرب في بقاع شبه الجزيرة، وشكل أربعة جيوش وعين لقيادتها أبا عبيدة بن الجراح ووجهته مدينة حمص، ويزيد بن أبي سفيان ووجهته مدينة دمشق، وشرحبيل ابن حسنة ووجهته شرقي نهر الأردن، وعمرو بن العاص ووجهته فلسطين. ويبدو أن مهمة أبي عبيدة أيضاً كانت العمل بمثابة ضابط ارتباط وتنسيق لهذه الجيوش وصلة وصل لها بالخلافة.

كان أبو بكر كغيره من رجالات قريش، يعرف الشام معرفة جيدة ويعيش وسط آمال تحرير هذه البلاد من سيطرة بيزنطة، وكان مما يشجع على ذلك عروبة سكان الشام ونزعاتهم الاستقلالية، مع ما كانت تعانيه بيزنطة من مشاكل داخلية وانقسامات سياسية وكنسية. دفع الخليفة أبو بكر، (رضي الله عنه) القوات، وفق خطة عسكرية واضحة تستهدف تحرير الشام أولاً، ثم متابعة الفتوحات في بقية أقطار الأرض انطلاقاً من وضع الشام الاستراتيجي والجغرافي. وكانت تأخذ في اعتباراتها طبيعة المقاتل العربي وأحواله من حيث التسليح والتموين والمقدرة القتالية وطرائق القتال. اصطدمت هذه القوات العربية بجيوش بيزنطة فهزمتها، وكان الإمبراطور هرقل في حمص، عندما بلغته أخبار زحف الجيوش العربية وأنباء انتصاراتها وهزائم قواته، فحرك قوات ضخمة بقيادة أخيه تيودور. وصلت أخبار التحرك البيزنطي إلى القادة العرب، فكتب أبو عبيدة إلى الخليفة أبي بكر، يطلب منه المدد، وكتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد، قائد جبهة العراق، أن ينجد قواته في بلاد الشام، وقال له في نهاية رسالته: **فإذا التقيتم فأنت أمير الجماعة**.

اجتاز خالد بن الوليد الصحراء بسرعة مدهشة، وكان عمله من أعظم الأعمال العسكرية شجاعة ومغامرة، ونتج عن ذلك نتائج كبيرة. فقد ظهر خالد مع قواته بشكل مفاجئ للروم في بلاد الشام، واستسلمت له بعض المواقع وهو في طريقه إلى حوران التي سيطر عليها، بعد أن سقطت بيده مدينة بصرى. وقد بعثت أعماله وانتصاراته النشاط والحماسة بين أفراد القوات العربية، وأرسل إلى قادة الجيوش العربية، طالباً منهم أن يلاقوه في منطقة أجنادين ــ على أرض فلسطين ــ. وفي أجنادين أنزلت القوات العربية، المجتمعة بقيادة خالد، الهزيمة بالقوات التي كانت تفوق العرب بعددها وعُدَّتها، وفرَّ تيودور إلى أخيه الإمبراطور، يحمل إليه أخبار الهزيمة، مما جعله يرحل من حمص نحو أنطاكية لجمع الجيوش وإعداد ما يلزم لمنع العرب المسلمين من التقدم شمالاً.

لقد حررت معركة «أجنادين» عام ١٣هـ/٦٣٤م فلسطين من الحكم البيزنطي، وأصبح الطريق بعدها مفتوحاً أمام العرب المسلمين للتوجه نحو دمشق، فتحركت قواتهم نحوها وضربت الحصار عليها بعد أن عزلتها بشكل كامل باحتلالها منطقة ثنية العقاب لمنع وصول نجدات بيزنطية من الشمال، واحتلت المناطق الواقعة على الطريق المؤدية إلى البقاع. وفي أثناء حصار العرب لدمشق وصلتهم أخبار وفاة الخليفة أبي بكر، وبيعة المسلمين بعده لعمر بن الخطاب خليفةً له. وافتتح عمر عهده برسالة، يعزل فيها خالد بن الوليد عن القيادة العامة للقوات العربية في بلاد الشام، ويعهد بها إلى أبي عبيدة بن الجراح. لم يحدث هذا العزل تأثيراً على وضع القوات، وبقي خالد القائد المؤثر والفعال، حيث بقي أبو عبيدة لا يقدم على عمل إلا بعد مشورة خالد. وسقطت دمشق بعد حصار طويل عام ١٤هـ/٦٣٥م. وكان لخالد بن الوليد اليد الطولى في تحريرها. وتحركت بعدها القوات العربية شمالاً، فتجاوزت مدينة حماة، وبدأت عملية تطهير بلاد الشام من القوات البيزنطية، لكن هرقل استنفر كل طاقات إمبراطوريته، وأعد جيشاً عظيماً يضم الجنسيات المختلفة. وزحفت هذه القوات البيزنطية جنوباً بهدف تحطيم القوة العربية، ووصلت أخبار التحرك البيزنطي إلى أبي عبيدة، وكان في منطقة حمص، فعقد مجلساً حربياً ضم كبار القادة وتباحث معهم، فقر رأيهم على الانسحاب إلى موقع مناسب، يمكنهم من مواقعة الروم في معركة فاصلة، ويسمح لهم بالتراجع عند الضرورة نحو شبه الجزيرة، كما أنهم قرروا الكتابة بذلك إلى الخليفة عمر، يصفون له حالهم ويطلبون المدد.

قامت القوات العربية بعملية انسحاب عام من كافة المدن والمناطق، التي كانت قد أخذتها، وتجمعت كلها في منطقة اليرموك، وقد ولد هذا الانسحاب الغرور في نفوس قادة الروم. تم اللقاء الحاسم على أرض حوران، وكان ظهر القوات العربية باتجاه الصحراء، بينما كانت قوات الروم محصورة بين وادي الرقاد ونهر اليرموك، ونشط خالد بن الوليد في إعداد خطط المعركة نشاطاً واسعاً، وتجلت في هذه المعركة عبقريته العسكرية، وتم فيها تحطيم القوات البيزنطية، وكان ذلك في صيف ١٥هـ/٦٣٦م. ومما لا شك فيه أن معركة اليرموك كانت إحدى معارك التاريخ الكبرى، لما نجم عنها من نتائج، فقد استعاد العرب بعدها جميع المناطق التي حرروها من قبل، وتابعوا زحفهم شمالاً حتى جبال طوروس، وانسحب هرقل مردداً قوله: «**وداعاً يا سورية، وداعاً لا لقاء بعده**».

لقد حررت معركة اليرموك بلاد الشام من الحكم البيزنطي ورسخت طابعها العربي. وتم للعرب بعد انتصارهم في اليرموك تطهير بلاد الشام من بقايا الروم البيزنطيين، وحرروا بقية المراكز والمدن ومنها مدينة بيت المقدس، التي نالت عهداً خاصاً من الخليفة عمر بن الخطاب الذي عقد مؤتمراً في الجابية — قرب نوى في حوران — تقررت فيه خطة التحركات العسكرية والإدارية والسياسية المقبلة. وعلى إثر ذلك قامت قوات عربية بقيادة عمرو بن العاص بالزحف نحو مصر لتحريرها من الروم، وزحفت قوات أخرى نحو أعالي بلاد الرافدين — الجزيرة، وبعد تحريرها تابعت زحفها في أرض أرمينيا فاستولت على معظمها.

جعل عمر بن الخطاب بلاد الشام ولايتين، عهد بهما إلى يزيد بن أبي سفيان ومركزه في دمشق، وأبي عبيدة بن الجراح ومركزه في حمص، وجعل الجزيرة ولاية قائمة بذاتها. أما من الناحية العسكرية فقد قسمت بلاد الشام إلى أربع مناطق عسكرية، عرفت بأسماء جند دمشق، وجند حمص، وجند الأردن، وجند فلسطين. وكان جند حمص أكبرها، وقد قسمت فيما بعد إلى قسمين هما: جند حمص وجند قنسرين.

بدأ العرب المسلمون ينزلون في مدن فلسطين ومناطق الشام بعد تحريرها. وفي عام ١٨هـ/٦٣٩م، انتشر وباء الطاعون، وأدى إلى وفاة عدد كبير من العرب، منهم أبو عبيدة ابن الجراح ويزيد بن أبي سفيان، فقام الخليفة عمر بتولية معاوية ابن أبي سفيان مكان أخيه يزيد، وعندما أصبح عثمان بن عفان خليفة بعد اغتيال عمر بن الخطاب، أضاف إلى معاوية حكم جميع مناطق بلاد الشام بما في ذلك منطقة الجزيرة.

معاوية وإقامة الدولة الأموية

معاوية هو إبن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية، كان أبوه من مشاهير رجالات قريش وأحد كبار قادة قوافلها التجارية. وكان أبو سفيان قد تزعم مشركي قريش في حربهم للإسلام، وشعر بالإخفاق يوم فتح مكة؛ فأعلن اعتناقه للإسلام، واعتُبر وأمثاله من المؤلفة قلوبهم، وعرفوا باسم الطلقاء بعد أن أصدر الرسول ﷺ العفو عنه وأطلق سراحهم،

وقد أسلم ابنه معاوية أيضاً يوم فتح مكة، وتقرب من الرسول ﷺ وأصبح من كتبة الوحي، وتدرج في خدمة الدولة الجديدة. وكان معاوية أحد أفراد الجيش، الذي وجهه الخليفة أبو بكر لفتح الشام بقيادة يزيد بن أبي سفيان، وخلف معاوية أخاه يزيداً في ولاية الشام وبقي والياً عليها مدة عشرين عاماً وإلى أن أصبح خليفة المسلمين بعد اغتيال الخليفة الراشدي الرابع علي بن أبي طالب (رضي الله عنه).

أتاحت المشاكل والأزمات، التي شهدتها دولة الخلافة في عهد الخليفتين عثمان وعلي، أن ينفرد معاوية في تصريف أمور الشام كحاكم مستقل، فأعاد تشكيل الجيش وعمل على ربط ولائه به، وأحسن استغلال الوضع القبلي وتصاهر وتحالف مع قبيلة كلب، وهي من أقوى قبائل جنوبي بلاد الشام، واستغل حادثة مصرع الخليفة عثمان بن عفان لصالحه، وتصدى للخليفة الجديد علي بن أبي طالب وتزعم جماعة المطالبين بدم عثمان، فكانت بينه وبين الخليفة علي موقعة «صفين»، ثم حادثة «التحكيم». وبقي النزاع بينهما دون حل حاسم. وشغل الخليفة علي بأمور العراق والخارجين على حكمه إلى أن اغتاله أحد رجال الخوارج، وتنازل ابنه الحسن عن حقوقه في الخلافة إلى معاوية، الذي استحوذ بذلك على مركز الزعامة في ديار الإسلام، وتهيأت له الظروف لإقامة حكم وراثي في أسرته.

كان معاوية يتميز بالحلم والدهاء وحسن السياسة والكرم، وقد أعطت مواهبه ثمارها خلال الفترة الطويلة، التي حكم فيها بلاد الشام والياً، وهي فترة امتدت عبر عهد ثلاثة من الخلفاء الراشدين، استطاع خلالها ترسيخ سلطانه. ولحسن حظه كانت بلاد الشام تنعم بمجتمعات عربية مستقرة وقبائل قوية ولم تدخلها قبيلة من قبائل الردة.

رفع معاوية مكانة الجند الشامي وضاعف أعداد جنوده، مما اقتضى مضاعفة نفقاته وأعطياته وبخاصة بعد أن أصبح معاوية خليفةً، وانتزع هذا المنصب وسط معارضة شديدة، ثم زادت المعارضة، عندما جعل الحكم وراثياً في أسرته وعين إبنه يزيد ولياً للعهد، وأخذ له البيعة بالترغيب والترهيب. كل ذلك جعل معاوية بحاجة للاعتماد على جند بلاد الشام وتفضيلهم على جند الأمصار بالأعطيات، وتسخير موارد الدولة لدعم هذه السياسة. وكانت حاجته الدائمة للمال وراء عدد من الثورات. وأثر ذلك على عدم تشجيع الشعوب، التي فتحت بلادها على اعتناق الإسلام. وأصبحت مهمات جند الشام القضاء على الفتن والثورات الداخلية أكثر من القيام بأعمال الفتوح الخارجية. ولما كان هؤلاء الجنود من قبائل عرب بلاد الشام، فقد ازدادت قيمة هذه القبائل ونفوذ رؤسائها وأصبحوا يشكلون طبقة متميزة. وقام بينهم تناحر وصراع على السلطة والنفوذ، تجلى بصورة صراعات قبلية.

إن اعتماد الأسرة الأموية على الجند في بقاء حكمها ودعمه لم يكسبها الصفة الشرعية، بل جعل حياتها مرتبطة بقوة الجند الشامي وإخلاصه وتماسكه ورضاه، وسوف يتنبه لهذا الوضع الشاذ بعض خلفاء بني أمية وبخاصة الخليفة عمر بن عبد العزيز. لكن ترسخ نظام الحكم وقوة رجالاته سيحول بين الخليفة الصالح عمر بن عبد العزيز وبين نجاح برنامجه السلمي، القائم على إحلال رباط الدين محل بقية الروابط، وإقامة المجتمع الواحد للأمة الإسلامية المتمازجة، دون طبقات أرستقراطية عسكرية متحكمة.

لقد اتخذ بنو أمية من بلاد الشام قاعدةً لهم. لكن الملاحظ أن دمشق، رغم اعتبارها عاصمة للدولة الأموية، فإن الكثيرين من خلفائها لم يجعلوا منها مركزاً دائماً لإقامتهم، بل كان بلاطهم متنقلاً وكأنهم ظلوا أشبه بشيوخ القبائل البدوية. وهذا أدى إلى منع قيام طبقة واسعة من الإداريين البيروقراطيين. دفعت السياسة المعتمدة على القوة العسكرية واضطهاد المعارضين وعدم الاستقرار السياسي الدولة، إلى إرضاء كبار القادة ومنحهم إقطاعات كبيرة ودفعت بصغار الملاك للالتجاء إلى هؤلاء القادة والسير بركابهم؛ فأدى ذلك إلى قيام طبقة إقطاعية.

كانت المدينة المنورة عاصمة الدولة العربية الأولى، ثم انتقلت مع الخليفة الراشدي علي بن أبي طالب إلى الكوفة وأصبحت دمشق بعد ذلك العاصمة الجديدة لبني أمية، مما ألحق أضراراً بالعراق وبالحجاز ولم يمر ذلك دون ردات فعل دموية.

لقد جاء تأسيس الدولة الأموية على يد معاوية في أعقاب حرب أهلية أصابت وحدة الأمة في الصميم. وانتشرت الفوضى في كل مكان وتفجر الصراع بين القبائل، وجاهر بعضها بالعداء للحكم الجديد وللمركزية في السلطة، مما جلب المتاعب واستدعى اتخاذ إجراءات صارمة.

لعل أبرز التغييرات التي شهدتها الدولة في عهد معاوية هي مسألة تحويل نظام الحكم فيها من نظام قائم على نوع من الشورى إلى نظام وراثي (ملكي). لقد كان معاوية حريصاً على إيجاد حل لمسألة الحكم يضمن الاستقرار بعد ما رآه من تجارب الماضي، وما عانته الدولة العربية من فتن وحروب أهلية بسبب الخلافة. وهو يعلم أن هذا الأمر ليس أمراً سهلاً لتنفيذه. ولعل مما كان يشجع معاوية على اعتماد مبدأ التوريث إخلاص جند الشام له وقوة هذا الجند. وقرر أن يجعل إبنه يزيد، وريثه في الحكم دون غيره من أفراد الأسرة الأموية. واستطاع معاوية بحنكته أن يهيىء إبنه ليكون خليفةً له، فأشركه منذ وقت مبكر في «الصوائف والشواتي» وفي حمل بعض المسؤوليات وأرسله عام ٥٠هـ/ ٦٧٠م على رأس حملة كبرى لفتح القسطنطينية، ومعه معظم أبناء الصحابة، وأيده وساعده في تنفيذ مشروعه «المغيرة بن شعبة» في الكوفة و «زياد بن أبيه» في البصرة. ولجأ معاوية إلى تهديد كبار أبناء الصحابة في الحجاز وأشهرهم الحسين بن علي، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمر، وعبد الرحمن بن أبي بكر إذا عارضوا دعوته لبيعة يزيد كولي للعهد. ونتيجة لتلك الجهود العظيمة، التي بذلها معاوية نجح في جعل ابنه يزيد ولياً لعهده وخليفةً من بعده.

كان معاوية رغم حداثته بالحكم يعرف كيف يستقطب الرجال من حوله ويرضيهم، فكان يجتمع برؤساء القبائل ويتشاور معهم، واستحدث معاوية بعض مظاهر الأبهة، منها: بناء قصر في دمشق سماه «قصر الخضراء» والجلوس على سرير الملك واستخدام الحجاب. وكان أول من أقام الحرس من الشرطة لحراسته، وانعزل أثناء الصلاة في مقصورة خاصة تحجبه عن بقية المصلين في الجامع، ويعتقد أن هذا التدبير جاء بعد تعرضه لمؤامرة اغتياله على أيدي بعض الخوارج.

اعتمد معاوية في تنظيم إدارته على الأسس العامة، التي طوّرها الخليفة عمر بن الخطاب وأبقى في الوقت نفسه، الجهاز الإداري القديم السائد في بلاد الشام قبل الفتوحات العربية بموظفيه من نصارى الشام يكتبون باليونانية، وهي اللغة التي بقيت وقتاً غير قصير لغة الدواوين في بلاد الشام. وقد اتخذ معاوية لنفسه مستشاراً مالياً وإدارياً من نصارى الشام وهو سرجون بن منصور الرومي، وكذلك بقي الناس يتداولون العملة نفسها، التي سادت في الشام قبل الفتح إنما مع بعض التعديلات العربية.

لكن معاوية وإن اعتمد في سياسته الإدارية والمالية على تنظيمات الخليفة عمر بن الخطاب، إلا أنه أضاف كثيراً من التجديدات، التي اقتضاها الحال لضبط الأمور والإشراف فعلياً على إدارة الدولة. فكان من هذه التجديدات «ديوان الخاتم» وهو من أهم الدواوين وأكبرها. ظهر هذا الديوان لمنع تزوير كتب الخليفة، حيث تطوى الرسالة وتختم بالشمع والطين الأحمر ويطبع عليه بخاتم الخليفة ويترك حتى يجف، فلا تفتح إلا بتمزيق الخاتم، أما ختم الرسالة في أدناها، فقد عرف ذلك منذ عهد الرسول العربي محمد ﷺ.

وكان معاوية أول من وضع نظاماً للبريد في الدولة الإسلامية بغية الوقوف على أخبار الولايات بالسرعة الممكنة، فأقام محطات على الطرق وضع فيها الخيل المضمرات ليسهل أمام صاحب الخبر تغيير فرسه إذا تعبت. وقد اقتبس نظام البريد من دول المنطقة وبخاصة من الإمبراطورية الساسانية وطوره لخدمة دولته. وكان البريد في أيام معاوية مؤسسة رسمية، تخدم مصالح الدولة وكان باستطاعة أي مواطن أن يرسل إلى الخليفة ما يريده عن طريق بريده. وتتجلى عبقرية معاوية الإدارية في نجاحه بإعادة الوحدة إلى جميع ولايات الدولة وذلك باعتماده على شخصيات من ذوي الكفاءات والخبرة في شؤون الحكم، وعرف كيف يكسب إخلاصهم له وتفانيهم في خدمة دولته، ومن هؤلاء «المغيرة بن شعبة» المعروف بدهائه وقد اختاره معاوية لحكم الكوفة وهي من أهم مراكز المعارضة، ومنهم أيضاً زياد بن أبيه والذي ألحقه معاوية بنسبه، فصار يعرف باسم زياد بن أبي سفيان وقد عهد إليه بولاية البصرة وضم إليه ولاية الكوفة بعد وفاة المغيرة. وعهد معاوية إلى داهية آخر بولاية مصر وهو عمرو بن العاص، كما اعتمد في حكم الحجاز، باعتباره من أهم معاقل المعارضة، على بعض أقاربه من رجالات البيت الأموي، أمثال مروان بن الحكم وسعيد بن العاص.

بالنظر لما تمتعت به دولة الخلافة من استقرار في عهد معاوية، فقد استأنف العرب المسلمون أعمال الفتوحات حتى اتسعت الدولة العربية في العهد الأموي في المشرق، فوصلت إلى هراة وكابل وبخارى، ووصلت في المغرب شواطئ الأطلنطي. أما على جبهة الروم البيزنطيين، فقد استمرت الحروب دون انقطاع. وقد وضع العرب نظاماً خاصاً لحملاتهم، فهي تخرج بانتظام في الشتاء وفي الصيف، وعرفت باسم حرب الشواتي والصوائف. واستمر العمل بهذا النظام الحربي طوال العصر

الأموي، ثم خلال العصر العباسي. وغالباً ما كانت هذه الحملات حملات تأمين للحدود وتدريب لجند الشام أكثر منها للفتح والتوسع.

لقد كان معاوية رجل حرب كما كان رجل سياسة وإدارة؛ فمنذ استقراره والياً، ثم خليفة في بلاد الشام نشطت الحملات العسكرية ضد البيزنطيين، كما بنى معاوية أسطولاً فتح به جزيرة قبرص وغيرها من جزر البحر المتوسط، وقد حقق المسلمون بهذا الأسطول في عهد الخليفة عثمان، نصراً عظيماً على أسطول الروم في معركة ذات الصواري عام ٣٦هـ/٦٥٧م، وكان معاوية ما يزال والياً على الشام. ونجح معاوية بمهادنة الروم البيزنطيين، أثناء صراعه مع علي بن أبي طالب إلى أن انتهت الحرب الأهلية وتفرغ معاوية، فعاد إلى نشاطه العسكري. وكانت ذروة أعماله ضد الروم إرساله لحملة كبيرة بقيادة إبنه يزيد لفتح القسطنطينية. وبرغم حصارها لعاصمة الروم براً وبحراً، إلا أنها أخفقت باختراق أسوار المدينة لشدة مناعتها ولفتك النار الإغريقية بسفن العرب. وتم انسحاب هذه الحملة دون أن تحقق أهدافها.

توفي معاوية عام ٦٠هـ/٦٨٠م، فتولى الخلافة إبنه يزيد وأخذت له البيعة العامة في الولايات المختلفة، وتخلف عن بيعته الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير، حيث غادرا المدينة واعتصما بمكة، وبعث الحسين إبن عمه «مسلم بن عقيل» إلى الكوفة، وهي أحد معاقل أنصاره، لكنه قتل فيها على يد عبيد الله بن زياد (والي البصرة والكوفة) وكان الحسين في طريقه إلى الكوفة مع مجموعة من أنصاره وأفراد أسرته — لا يزيد على التسعين بين رجل وامرأة وطفل — وفي موقع كربلاء جرى اللقاء بين قوات إبن زياد وبين الحسين وجماعته ونشبت معركة غير متكافئة وكان لهذه الفاجعة من النتائج الشيء الكثير والمستمر.

تفجرت إثر هذه الحادثة المؤلمة الثورة في الحجاز، حيث ثار أنصار الحسين في المدينة، كما ثار إبن الزبير في مكة، فوجه يزيد بن معاوية، جيشاً بقيادة مسلم بن عقبة المُرِّي، فاقتحم المدينة بعد موقعة الحرة واستباحها، ومات وهو في طريقه إلى مكة، فخلفه الحصين بن نمير، الذي حاصر مكة وضربها بالمنجنيق ورفع الحصار عنها، وعندما وصله خبر وفاة الخليفة يزيد، عاد مع قواته إلى الشام وبقي إبن الزبير معتصماً في مكة.

المرحلة المروانية في الدولة الأموية: بعد وفاة يزيد خلفه إبنه معاوية الثاني، لكنه ما لبث أن تنازل عن الخلافة ثم توفي إثر ذلك في ظروف غامضة، فحدث اضطراب في أنحاء الدولة، ووصل إلى الشام مروان بن الحكم شيخ بني أمية، وقويت حركة إبن الزبير والدعوة له. أسرع أفراد البيت الأموي إلى عقد مؤتمر في الجابية (قرب نوى في حوران) وناقشوا مسألة الخلافة وتم إتفاقهم على استبعاد تولية «خالد بن يزيد بن معاوية» لصغر سنه، وجرى اختيار مروان بن الحكم وبويع بالخلافة وكان ذلك عام ٦٤هـ/٦٨٤م. اتجه مروان إلى دمشق، حيث تمت له الغلبة على المعارضين من قبائل قيس بقيادة «الضحاك بن قيس الفهري» في معركة مرج راهط (شرقي بلدة جوبر) وقتل فيها الضحاك، وتم لمروان والأمويين الاحتفاظ بالخلافة، التي انتقلت إلى فرع آخر من البيت الأموي هو الفرع المرواني، وتعاقب خلفاء مروان على الحكم حتى سقوط الدولة الأموية.

توفيَ مروان قبل أن يوطد الأمر في الحجاز والعراق، حيث كانت الدعوة لابن الزبير تسود فيها، وخلفه إبنه عبد الملك الذي نجح باسترداد العراق بعد أن قتل مصعب بن الزبير وألحق الهزيمة بقواته. ودخل عبد الملك مدينة الكوفة وجاءته وفود القبائل، تعلن ولاءها وبيعتها له. وعين الخليفة أخاه بشراً والياً على العراق. كان عبد الملك قد اكتشف مواهب أحد قادة جيشه، أثناء حربه لمصعب بن الزبير في العراق، وهو الحجاج بن يوسف الثقفي؛ فعهد إليه في العام التالي لانتصاراته في العراق؛ أي عام ٧٢هـ/٦٩١م بمهمة القضاء على عبد الله بن الزبير، المتمرد في الحجاز والمعتصم في مكة، فحاصره الحجاج فيها ورماها بالمنجنيق. واشتد الأمر على إبن الزبير وتخلى عنه معظم رجاله؛ فخرج بمن بقي معه وقاتل ببطولة حتى قتل عام ٧٣هـ/٦٩٢م. واطمأن عبد الملك بعد القضاء على أخطر تمرد كان يهدد حكم بني أمية. ولمع خلال ذلك إسم الحجاج كشخصية لها المكانة الأولى، إلى جانب الخليفة، والتفت عبد الملك بعد استقرار حكمه إلى تطوير إدارة الدولة واستئناف الفتوح في الخارج.

لعل أبرز ما قام به عبد الملك في مجال الإصلاح والتطوير، في إدارة الدولة، قيامه بتعريب تلك الإدارة وتعريب النقود، فقد عرب ديوان الطراز فأصبحت العبارات التي توشى بها الثياب الرسمية والستور والأوراق عبارات عربية إسلامية. وكان لعملية التعريب أوسع الآثار في توحيد الدولة وإزالة جميع الفوارق

الموروثة من الماضي البيزنطي والفارسي واليوناني، ووفرت هذه الحركة إداريين من العرب وتجربة إدارية عربية محضة.

شغلت الثورات الداخلية، وبخاصة من الخوارج، الدولة أعوام طويلة كان الحجاج خلالها يعمل على قمعها ومطاردة أصحابها. وبعد أن اطمأن عبد الملك إلى استقرار الأوضاع الداخلية، التفت إلى الاهتمام بالسياسة الخارجية واستأنفت الدولة في عهده أعمال الفتوح، التي شهدت في عهد عبد الملك وإبنه الوليد أعظم توسع عرفته الدولة العربية.

وفي عام ٨٠هـ/٦٩٩م، تولى المهلب بن أبي صفرة ولاية خراسان. وبدأ نشاطه العسكري وعبر نهر بلخ (نهر جيحون وهو آمو داريا في الاتحاد السوفييتي الآن). وفي عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك (٨٦هـ/٧٠٥م)، كان قد تسلم ولاية خراسان «قتيبة بن مسلم الباهلي»؛ فقام هذا القائد الشهير بالفتوح في منطقة ماوراء النهر (جيحون) وفتح مدينة بخارى ووصل بفتوحاته إلى واحة خوارزم ونهر سيحون (سرداريا) ومن ثم إلى كاشغر على تخوم الصين عام ٩٦هـ/٧١٤م وهو العام الذي توفي فيه الخليفة الوليد بن عبد الملك. وتوقف قتيبة عن المضي في فتوحاته. في الوقت نفسه كانت الفتوحات في غاية نشاطها في بلاد سجستان (أفغانستان) والسند بقيادة «محمد بن القاسم الثقفي»، الذي احتل مدينة الديبل (كراتشي حالياً). وكان قد وصل بزحفه إلى كشمير، عندما وصله خبر وفاة الوليد؛ فتوقف عن الزحف. وهناك جبهة أخرى، حيث نشطت الجيوش العربية داخل أراضي بيزنطة وداخل أوروبا الشرقية؛ فتوغلت في أراضي الخزر حتى وصلت إلى أعالي نهر الفولغا. وأعظم الفتوحات في عهد الوليد، شهرةً وتأثيراً، هي التي جرت في غربي أوروبا وتجلت بفتح الأندلس وجعلها ولاية عربية، ومتابعة التوسع في جنوب فرنسا. وكانت هذه الفتوح بقيادة موسى بن نصير ومولاه طارق بن زياد، وبذلك يكون العرب قد تحكموا تحكماً تاماً، بمضيق جبل طارق؛ فازدادت هيمنتهم وسيادتهم على البحر المتوسط.

خلف الوليد أخوه سليمان بن عبد الملك، الذي أراد أن يحقق لنفسه شرف الاستيلاء على عاصمة الروم «القسطنطينية»، مستفيداً من فترة الاستقرار والقوة، التي تعيشها دولته، فضلاً عما كانت تعانيه دولة الروم من اضطراب وصراع على العرش، كان آخر أحداثه قيام «ليون» حاكم عمورية بانقلاب استولى فيه على العرش باسم ليون الثالث، وفي عهده قام العرب بحصار القسطنطينية.

قام الخليفة سليمان بما يشبه التعبئة العامة في إعداد حملة كبيرة، عهد بقيادتها إلى أخيه مسلمة، ولم يقتصر الأمر على الجيوش البرية، بل شاركت في حصار القسطنطينية، القوات البحرية لمصر والشام وعسكر مسلمة أمام أسوار المدينة، بعد أن عبر بقواته مضيق الدردنيل، وعسكر الخليفة قرب حلب في مرج دابق، يتابع أخبار الحملة ويمدها بما تحتاج إليه. واستمر مسلمة في حصاره للمدينة رغم الظروف المناخية السيئة من برد الشتاء القارس والعواصف العاتية، وأثر النار الإغريقية بسفن العرب، ومناعة المدينة واستماتة الروم بالدفاع عنها ونقص المؤن وانقطاع طرق الإمداد، إلى أن أتاه خبر وفاة أخيه سليمان عام ٩٩هـ/٧١٧م وتلقى من الخليفة الجديد عمر بن عبد العزيز، الأمر بالانسحاب وانتهت بذلك آخر محاولة عربية للاستيلاء على القسطنطينية.

يعتبر وصول عمر بن عبد العزيز إلى الحكم وعهده حدثاً متميزاً لا في تاريخ الأسرة الأموية فحسب، بل في تاريخ العرب والإسلام عبر العصور، فقد كان رفيع المكانة في الأسرة الأموية، متميزاً بأخلاقه وسلوكه، وحين شعر سليمان بن عبد الملك بدنو أجله ــ وهو في مقتبل العمر ــ تأثر بنصيحة رجل صالح هو «رجاء بن حيوة» بأن يستخلف رجلاً صالحاً وأثنى له على عمر بن عبد العزيز؛ فجعله ولياً لعهده وجعل الولاية من بعده ليزيد بن عبد الملك إرضاءً لأفراد البيت الحاكم.

بايع الناس بالخلافة عمر بن عبد العزيز، فكان عهده بدء فترة جديدة متميزة، استهدفت إحداث تبديل جذري يتناول المفاهيم والأسس السياسية والاقتصادية والاجتماعية، التي سادت المجتمع الأموي، وأراد عمر بسياسته الجديدة تقويم الانحراف الذي ساد الدولة. ولسوء الحظ فقد انتهت هذه التجربة الإصلاحية بموت صاحبها المبكر، فعادت الأمور سيرتها الأولى، بل أوغلت في الانحراف والاستهتار، فأدى ذلك بالحكم الأموي إلى النهاية المحتومة.

كان عمر بن عبد العزيز معروفاً بنزعته الإنسانية وبإيمانه العميق بمبادئ الإسلام وبالجرأة على الجهر، بما يعتقد مهما اشتدت المواقف وصعبت الظروف. تولى في عهد الوليد بن عبد الملك ولاية المدينة، فخفف كثيراً مما في نفوس سكانها من نقمة

وكراهية للبيت الأموي، حتى غدت المدينة ملاذاً للفارين من اضطهاد الحجّاج وطغيانه، وكان ذلك سبباً لعزله بتدخل وإلحاح من الحجاج، مما زاد في محبة الناس له وثقتهم به. عندما ولي الخلافة اتجهت إليه الأنظار وبخاصة من المعارضين للسياسة الأموية ليقوم بدور المصلح من الفساد والانحراف، فاتجه إلى سياسة الحوار والإقناع بدلاً من سياسة الحرب وسفك الدماء وأمر بسحب الحملة المحاصرة للقسطنطينية وعزل معظم الولاة وعين بدلاً منهم رجالاً من ذوي الكفاءة والصلاح، وعمل على إحقاق الحق أياً كان صاحبه، ورفع الظلم ونشر العدل، وعمل على إلغاء العصبية القبلية، وإصلاح الإدارة بمحاربة جميع أوجه الفساد، واتبع سياسة مالية تقوم على العدل وعدم إرهاق الرعية قائلاً: إن الله بعث محمداً هادياً ولم يبعثه جابياً. وقد لقيت سياسته كل تأييد من قبل الرعية، لكنها لقيت معارضة من أفراد البيت الأموي ومن قبل المنتفعين من السياسة الأموية.

بوفاة عمر بن عبد العزيز عام ١٠١هـ/٧٢٠م، بدأ عصر الانهيار في الدولة الأموية، وانتقلت الخلافة إلى يزيد الثاني ابن عبد الملك، ومما رفع مكانته لدى الأمويين أنه يجمع النسب إلى فرعي البيت الأموي، فهو مرواني من جهة أبيه، وسفياني من جهة أمه. وعاد يزيد الثاني للانغماس في خضم العصبية القبلية، متحيزاً للقبائل المضرية (القيسية) ضد القبائل اليمانية، وعاد المجتمع العربي إلى التمزق وكثرت الثورات ضد يزيد الثاني كثورة يزيد بن المهلب في العراق والتي انتهت على يد مسلمة بن عبد الملك، بسحقها وقتل قائدها وملاحقة أفراد أسرة آل المهلب لإبادتهم، بالرغم مما كان لهذه الأسرة من دور كبير في خدمة الحكم الأموي وحمايته، وانفجرت الثورات أيضاً في الشمال الإفريقي، وفي الأندلس، خاصة بعد أن شعر البربر وغيرهم بالظلم من فرض الجزية عليهم بالرغم من إسلامهم. وحدث مثل ذلك في بلاد الترك وفي بلاد ما وراء النهر، وفي بلاد الخزر وأنزل الثوار هزائم منكرة بالقوات الأموية. وعاد الخوارج إلى نشاطهم المعادي للدولة بعد هدوئهم في عهد عمر، وتوقفت نهائياً أعمال الفتوح بعد أن شغلت الدولة بالثورات والاضطرابات الداخلية.

تمثل خلافة يزيد بن عبد الملك مرحلة دقيقة في تاريخ الدولة الأموية، فقد رسمت خط النهاية لهذه الدولة، ذلك أن الخليفة الجديد هشام بن عبد الملك، الذي بويع له بعد وفاة أخيه كان عاجزاً عن القيام بإصلاح ما فسد وترميم ما انهار وإيقاف عجلة التدهور، فقد أصبح الأمر فوق طاقته وخرج عن إرادته بالرغم من اتصافه بالحزم وحسن الإدارة والتدبير، وبالرغم من الجهود، التي بذلها للحفاظ على وحدة الدولة وترميم الحكم الأموي، ومن الإنصاف الإشارة إلى أن الخلافة الأموية استردت في عهد هشام الكثير من حيويتها ومهابتها، ويمكننا أن نعتبر الفترة الطويلة، التي تسلم فيها هشام زمام المسؤولية تشبه صحوة ما قبل الموت.

تسلم هشام الحكم وهو في حوالي الرابعة والثلاثين من عمره، وأقام في الرصافة شمالي بلاد الشام وكان حازماً، حليماً، طيب السمعة، انجرف كغيره من خلفاء بني أمية في تيار التعصب القبلي، لكن مصلحة الدولة عنده فوق الاعتبارات القبلية، وكان الجهاز الإداري في عهده انعكاساً لشخصيته، حيث عهد بالحكم إلى رجال مخلصين وأصحاب كفاءة، محاولاً بذلك إصلاح ما أفسده أخوه دون جدوى.

توفي هشام بن عبد الملك في الرصافة عام ١٢٥هـ/٧٤٢م، وانطوت بوفاته مرحلة مهمة من التاريخ الأموي، ظلت فيها الخلافة مهابة مصانة، وبويع بعده للوليد بن يزيد المعروف باسم «الوليد الثاني» وفي عهده دخلت الدولة الأموية عهد الاحتضار.

كانت العلاقات بين هشام وولي عهده الوليد بن يزيد سيئة جداً. وكان هشام قد حاول دفع الوليد إلى خلع نفسه من ولاية العهد ــ بعد أن رآه لا يصلح للخلافة ــ لكنه أخفق في محاولته وزاد ذلك في التباعد بينهما وفي حقد الوليد على عمه هشام، ولهذا بدأ الوليد الثاني عهده بمصادرة آل هشام وسجنهم وتعذيبهم؛ فزاد في تمزيق البيت الأموي والتعجيل في نهاية حكم بني أمية.

كان الوليد الثاني ماجناً، محباً لحياة العبث واللهو وانغمس كأبيه في حمأة الصراع القبلي، متعصباً للقيسية ضد اليمانية، ورماه خصومه بالزندقة تارةً، وبالكفر، تارةً أخرى، وأشيع عنه أنه استهان بالقرآن بعد استهانته بتعاليم الإسلام وارتكابه للمحرمات، كل ذلك زاد في قوة المعارضة ورأى بعض العقلاء من بني أمية شدة الخطر المحدق بالخلافة من وراء أعماله، التي شملت سجن الكثيرين من الأمويين وقتل الكثيرين منهم، فحاولوا وضع حد لتصرفاته وحكمه ونظموا حركة انقلابية للتخلص منه. التف الناقمون من بني أمية وأنصارهم حول يزيد

ابن الوليد بن عبد الملك ، الذي كان يرى في نفسه القدرة على القيام بدور يشبه الدور الذي قام به الخليفة الصالح عمر بن عبد العزيز ، وتم تنفيذ هذه الحركة ، حيث توجه زعيمها يزيد إلى دمشق ودخلها مع أتباعه ليلاً ووضعوا يدهم على بيت المال واعتقلوا كبار الموظفين ورجال الدولة ، وفتحت دمشق أبوابها للانقلابيين ؛ فدخلتها مجموعات الثوار من قبائل كلب وغسان ولخم وكندة والسكاسك وغيرها من اليمانية ولم يجدوا مقاومة تذكر ، وفي اليوم التالي تمت في دمشق البيعة ليزيد الثالث ، وبدأ العمل كخليفة للتخلص من الخليفة الآخر « الوليد الثاني » .

كان الوليد الثاني في البادية ، أثناء استيلاء يزيد على السلطة وعندما وصلته الأخبار عن سقوط دمشق بيد الثوار والبيعة ليزيد ومجيء حملة للقبض عليه ، التجأ إلى حصن قرب تدمر ، وعندما وصل جنود يزيد إليه قاتل قتالاً شديداً وتخلى عنه معظم رجاله وجنده فأصابه اليأس ودخل إلى غرفة في الحصن وأمسك القرآن بيده وقال : يوم كيوم عثمان ، ودخلوا عليه فقتلوه عام ١٢٦هـ/ ٧٤٤م . يعتبر هذا الانقلاب الداخلي أول تصدع دموي داخل الأسرة الأموية ، فتح باب الفتنة والثورات ولم يغلق هذا الباب إلا بزوال الخلافة الأموية . لقد كان هذا الانقلاب أول ثورة تقوم بها القبائل اليمانية ضد فرع من البيت الأموي ، وجرَّت وراءها ثورات وأصاب بلاد الشام خراب ودمار وقتل ودماء حتى قال بعضهم : إن الخلافة الأموية سقطت بسيوف أهل الشام ولم تسقط بسيوف أهل خراسان الذين أجهزوا عليها فقط .

بدأ يزيد الثالث بن الوليد بن عبد الملك عهده بخطبة أوضح فيها أسباب قيامه بحركته وأنه خرج غضباً لله ورسوله ودينه ليخلص البلاد من ذلك الجبار العنيد ، الذي استحل كل حرمة ، وما كان يصدق بالكتاب ولا يؤمن بيوم الحساب ، ثم وعد الناس بألا يزداد مالاً ولا عقاراً وألا يغلق بابه دون رعيته فيأكل قويها ضعيفها ، وأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

كانت ردات الفعل على مقتل الخليفة « الوليد الثاني » واسعة وعنيفة ، فقد دعا كل جند من أجناد الشام واحداً من أمراء بني أمية لمبايعته بالخلافة ، وبذل الخليفة الجديد « يزيد الثالث » جهوداً كبيرة مالية وعسكرية وسياسية حتى أعاد الهدوء إلى بلاد الشام ، بينما رفض زعماء القيسية في العراق وخراسان بيعة الخليفة الجديد ، وكذلك فعل الشمال الإفريقي والأندلس وعاجلت المنية يزيد الثالث ، الذي توفي بعد ستة أشهر من استلامه للحكم ، وخلفه أخوه إبراهيم وقيل بأن يزيد عهد إليه بولاية العهد ومن بعده لعبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك .

عندما حدث الانقلاب ، الذي أطاح بالوليد الثاني كان أحد أمراء البيت الأموي وهو مروان بن محمد ، والياً على الجزيرة وأرمينيا وأذربيجان ، ويتولى حرب الخزر وتحت إمرته قوات عسكرية كبيرة ؛ فأعلن رفضه لبيعة يزيد الثالث ومطالبته بدم الوليد ، والسعي لبيعة أحد ولديه الحكم أو عثمان ، وتوجه مروان ابن محمد على إثر وفاة يزيد الثالث من الجزيرة ، يريد دمشق لحسم الأمور المضطربة فيها وهزمت قوات الخليفة الجديد إبراهيم ابن الوليد أمام قوات مروان بن محمد ، وعمت الفوضى مدينة دمشق ونهبت أموال بيت المال ، ودخل مروان المدينة وتمت له البيعة بالخلافة عام ١٢٧هـ/ ٧٤٥م ، حيث كان إبنا الوليد الثاني وهما الحكم وعثمان ، قد قتلا في السجن قبيل وصول قوات مروان إلى دمشق .

اتخذ مروان من مدينة حران في أقصى الشمال من بلاد الشام مقراً له بعيداً عن قلب الشام المضطرب ، وقريباً من مكامن الخطر في الشرق ، حيث جعلت الأحداث من الشرق مركزاً للثقل السياسي في الدولة ومسرحاً لأخطر الحركات الاجتماعية والعقائدية . وفي كل الأحوال فقد اعتبر الكثيرون عملية نقل العاصمة إلى حران إساءة كبيرة لأهل الشام ، عامة ، لأنهم خسروا المركز الممتاز الذي كان لبلدهم ، والخيرات العميمة التي تتدفق عليهم ؛ فقد كان الخليفة يعيش بينهم ويعتمد عليهم ويقدمهم على غيرهم ، لهذا عمت النقمة بلاد الشام وأنكر بعضهم على مروان استلامه للخلافة وهو إبن أمة ، ولم يتعود أهل الشام أن توكل الخلافة إلا إلى صريح النسب من جهة الأب والأم ، واتهموا مروان بأنه مغتصب للحكم وليس له وراثة في الخلافة ولا بيعة شرعية . كل ذلك زاد في خلق الأجواء المضطربة والقلاقل المستمرة ، مما سيستهلك معظم طاقات مروان وجهوده العسكرية والمالية ويشغله عما يجري فيما بَعُد من أنحاء الدولة وبخاصة في خراسان .

اتخذت أحداث الشام طابع الصراع الأموي على السلطة ، لأن معظم ثوراتها كانت بزعامة أمير أموي يطالب بالحكم . وتنقل مروان بين حمص وغوطة دمشق وفلسطين وهو يخمد الفتن والثورات ، وكذلك في الرقة والرصافة وتدمر ، ونجح

مروان بإخماد هذه الثورات ولكن الخطر لم يقف عند هذه الحدود، فقد عمت الفوضى والثورات بلاد العراق وعظم خطر الخوارج واستولوا على بعض بقاع شبه جزيرة العرب.

كان مروان بن محمد قائداً جديراً بمنصب الخلافة، الذي تولاه، لكنه جاء في وقت متأخر نخرت فيه عوامل الضعف جسم البيت الأموي. وفي الوقت الذي شغلت فيه مروان بن محمد أحداث الشام والعراق كان الصراع القبلي على أشده في خراسان، حيث نشط دعاة الحركة العباسية واجتهدوا في استغلال مساوئ الحكم الأموي، والصراع القبلي، ونقمة القبائل اليمانية على حكم بني أمية وتفسخ الأسرة الأموية والنزاع القائم بين أفرادها، والحرب الأهلية هنا وهناك، استغلوا كل ذلك أوسع استغلال وفجر رجلهم في خراسان وحامل لوائهم أبو مسلم الخراساني، الثورة المسلحة وأمسك بزمام المبادهة، وعجز الوالي الأموي نصر بن سيار عن التصدي له. استولى أبو مسلم على خراسان، ثم على الهضبة الإيرانية؛ فالعراق ودخلت قوات الثورة العباسية مدينة الكوفة، حيث جرى فيها الإعلان عن قيام خلافة جديدة، هي الخلافة العباسية وتمت البيعة لأبي العباس السفاح عبد الله بن محمد داخل مسجد الكوفة.

بدأت تصفية الحكم الأموي وأفراد الأسرة الأموية في أنحاء دولة الخلافة وزحف عم الخليفة العباسي، وهو عبد الله بن علي للقضاء على مروان بن محمد، وجرت بين الجيشين معركة الزاب عام ١٣٢هـ/ ٧٥٠م، ونزلت الهزيمة بمروان، الذي فر إلى مصر وتمت مطاردته حتى قتل هناك، وبقتله أسدل الستار على حياة الأسرة الأموية، التي حكمت العرب والمسلمين ما يقرب من قرن من الزمان، وحقق خلفاؤها منجزات عظيمة في ميادين الحياة المختلفة لا تزال صفحات التاريخ والمواقع الأثرية تحفظها لهم حتى اليوم.

بلاد الشام منذ بدء العصر العباسي وحتى القرن العاشر للميلاد

د. أمنية البيطار

انتهت الدولة الأموية بعد معركة الزاب الفاصلة، وهزيمة آخر خلفاء بني أمية «مروان بن محمد» الذي فرَّ إلى مصر وقتل فيها. فتح العباسيون مدن بلاد الشام دون مقاومة تذكر على يد عبد الله بن علي (عم الخليفة أبي العباس) وتلقى البيعة والولاء من وجوه أبناء الشام.

حاول العباسيون تثبيت حكمهم باستغلال الخلافات القبلية بين عرب الشمال وعرب الجنوب، مما أبقى بلاد الشام مسرحاً لهذا الصراع القبلي، فضلاً عن الثورات ضد الحكم العباسي، وقد أدى ذلك إلى تأخر الاقتصاد وخراب البلاد. وإذا وجدنا قلة من الولاة عملت على اتباع سياسة المساواة وعدم التمييز بين القبائل، فإن هذه التصرفات الشخصية لم تمنع من قيام ثورات قبلية، كثيراً ما أدت إلى طرد الوالي أو قتله، مما يدفع بالخلافة العباسية إلى إرسال المزيد من جيوشها لفرض سيطرتها على بلاد الشام.

استاء العرب عامة، وعرب بلاد الشام خاصة، من سياسة بعض الخلفاء العباسيين في اعتمادهم على العناصر الأعجمية، كاعتماد المأمون على الفرس، واعتماد المعتصم على الترك. وكان من نتائج هذه السياسة اشتعال عدد من الثورات منها ثورة «نصر بن شبث العقيلي» وغيرها في أنحاء بلاد الشام المختلفة. كان اهتمام معظم الخلفاء العباسيين متجهاً نحو بلاد العراق عامة، ونحو بغداد بصورة خاصة، مما جعلهم يهملون بلاد الشام، التي خسرت مركزها المتميز، الذي كان لها في العصر الأموي، كما خسرت دمشق مركزها كعاصمة، وفقدت مزاياها، حيث كان يقصدها الكثيرون من أنحاء دولة الخلافة، ويرد إليها الخراج من الولايات المختلفة، وينعكس كل ذلك رخاء على المدينة وسكانها. وجاءت الصراعات القبلية والثورات المتوالية في العصر العباسي لتزيد في تأخر بلاد الشام اقتصادياً وعمرانياً.

عهد أبو العباس (السفاح) لعمه عبد الله بن علي بولاية الشام، ثم أشرك معه عمه الآخر «صالح بن علي»؛ فأعطاه ولاية فلسطين، وأعطى ولاية الجزيرة الفراتية لأخيه عبد الله بن محمد، الذي اشتهر بلقب أبي جعفر المنصور. واعتمد في إدارة البلاد على رجال معظمهم من البيت العباسي. عمل العباسيون على محاولة طمس آثار الأمويين في بلاد الشام، وذكرت أخبار أبي جعفر المنصور، أنه أمر بقلع الصفائح الذهبية والفضية، التي كانت على أبواب المسجد الأقصى وضربها دنانير ودراهم، أنفقت في إصلاحه بعد أن أثرت الزلازل فيه.

نتيجة لضعف الخلافة العباسية، ظهرت دول مستقلة في بعض أقاليمها ومنها:

الدولة الطولونية: وتنسب إلى مؤسسها أحمد بن

طولون، الذي نجح عام ٢٥٧هـ/ ٨٧٠م بتأسيس دولة في مصر، وبعد أن استقرت له الأمور فيها، تطلع إلى حكم بلاد الشام، فتقدم إليها بقواته وأخضع معظم مناطقها دون مقاومة تذكر. أقر إبن طولون ولاة المدن على ولاياتهم بعد أن أعلنوا الولاء له، وأصبحت بلاد الشام ولاية طولونية، تحكم من مركز الدولة في مصر مدينة القطائع (القاهرة). لقيت الدولة الطولونية متاعب كثيرة من قبل خصومها وبخاصة من الموفق أخي الخليفة العباسي المعتمد، الذي لم يبق له من الخلافة إلا اسمها.

في هذه الفترة المضطربة من تاريخ بلاد الشام نشط الإسماعيليون والقرامطة، ويظهر أنهم قدروا أهمية موقع بلاد الشام على طرق التجارة العالمية واستغلوا اضطراب أوضاعها وبخاصة عندما دخلت الدولة الطولونية في مرحلة الضعف. ورغم ارتياح الأهالي وقبولهم للحكم الطولوني، إلا أن هذا لم يمنع من قيام حركات مناوئة، لكنها لم تبلغ قوة الثورات، التي عرفتها بلاد الشام ضد العباسيين ولم يتضح تقدم هذه المنطقة في العهد الطولوني، إلا في مجال البحرية الحربية لحاجتهم إليها في حماية سواحل بلاد الشام وموانئها.

اضطربت أحوال بلاد الشام ثانية بعودتها إلى حكم الخلافة العباسية المباشر، وقوي تنافس الولاة على حكمها وسادتها الفوضى، في هذه الظروف لمع نجم «محمد بن طغج» وكان أبوه طغج أحد القادة الذين اعتمد الطولونيون عليهم في حكم دمشق، ثم ظهرت مواهب إبنه محمد العسكرية وقلده الخليفة «المقتدر» ولاية دمشق. وفي عام ٣٢٣هـ أصدر الخليفة «الراضي بالله» أمراً بولايته على مصر؛ فأقام فيها دولته التي عرفت بالدولة الإخشيدية.

وقع الإخشيد في خلاف شديد مع سيف الدولة الحمداني، حول حكم بلاد الشام واتخذت الخلافة العباسية موقف المتفرج، على الرغم من أن الخليفة كان قد جعل حكم بلاد الشام للإخشيد وأبنائه من بعده. وكان الحمدانيون يرون أنهم لا يقلون شأناً عن أصحاب تلك الدويلات المستقلة ورأوا افتقار شمال بلاد الشام إلى سلطة مركزية قوية، تفرض وجودها أمام خطر الإمبراطورية البيزنطية، التي مرت في الثلث الثاني من القرن الرابع الهجري بفترة من فترات الإحياء، التي كانت تمر بها من وقت لآخر، وبخاصة أن الخلافة العباسية كانت تعاني من الضعف والعجز عن حماية هذه المنطقة أمام الخطر البيزنطي، حتى أن المنطقة الساحلية في بلاد الشام ومنطقة الجزيرة الفراتية، أصبحت بين خاضعة للسيادة البيزنطية، أو مهددة بذلك.

حاول الحمدانيون عام ٣٣٢هـ/ ٩٤٣م ــ ٩٤٤م، ضم بلاد الشام إليهم بعد أن حصلوا على قرار من أمير الأمراء «توزون» بضم البلاد من مدينة الموصل إلى آخر أعمال بلاد الشام إليهم، لكنهم أخفقوا في ذلك، حيث كانت الغلبة للإخشيد. ثم مال الإخشيد إلى المسالمة وعقد صلحاً مع سيف الدولة الحمداني، رغم انتصاره عليه، وذلك لأن الإخشيد كان يخشى الخطر الفاطمي، الذي كان يمتد من المغرب، مهدداً حكمه في مصر، ولأنه رأى في بقاء الحمدانيين في حلب وشمال بلاد الشام سداً يحميه من الخطر البيزنطي، فيتحمل الحمدانيون وحدهم أعباء صد الهجمات البيزنطية. وقد أعطى هذا الصلح للحمدانيين حكم شمال بلاد الشام ومركزهم مدينة حلب، بينما أعطى للإخشيد القسم الجنوبي من بلاد الشام ومركزه مدينة دمشق.

لم يقض هذا الصلح على النزاع بين الحمدانيين والإخشيديين، فقد حاول سيف الدولة دخول دمشق لضمها إلى حكمه على أثر وفاة الإخشيد، كما ساعد الحمدانيون قرامطة البحرين في الهجوم على الإخشيديين لانتزاع جنوب بلاد الشام منهم عام ٣٥٣هـ/ ٩٦٢م. واضطر الإخشيديون إلى دفع مبلغ كبير من المال إلى القرامطة، الذين أعادوا الكرة عام ٣٥٧هـ/ ٩٦٧م ــ ٩٦٨م.

ظهرت على مسرح الأحداث قوة جديدة كان أول ظهورها في المغرب، ثم ضمت إليها مصر وهي الدولة الفاطمية، وقد نجحت بانتزاع بلاد الشام من يد الإخشيديين ودخلت قواتها دمشق عام ٣٥٩هـ/ ٩٦٩م وخطب للخليفة الفاطمي على منابرها. وقد استفاد الفاطميون من أوضاع بلاد الشام المتردية؛ فهناك صراع على النفوذ بين الحمدانيين والإخشيديين، وصراع بين الحمدانيين أنفسهم بعد وفاة سيف الدولة، وهاجم القرامطة البلاد، محاولين السيطرة عليها والحصول على أكبر مكسب مادي منها، وحاول البيزنطيون استغلال هذه الأوضاع فأغاروا على بلاد الشام ونجحوا باقتطاع أجزاء منها.

واجه الفاطميون مقاومة في فتحهم لبلاد الشام. ففي دمشق تزعم الأحداث (ميليشيا بمفهوم العصر الحالي) مقاومة جعفر بن فلاح قائد الفاطميين، ونجح الفاطميون بدخول المدينة

وتكرر خروج الأهالي عليهم . أما حلب وبقية مناطق شمال بلاد الشام ؛ فقد استعصت على الفاطميين لوقوف الحمدانيين ومن انضم إليهم من الإخشيديين في وجه الفاطميين . وكان يؤيدهم البيزنطيون بعد أن عقد قرعويه الحمداني معهم اتفاقية عام ٣٥٩هـ/٩٦٩م . ومما زاد الأحوال اضطراباً استمرار غارات القرامطة ، حيث وصلوا في بعض غاراتهم إلى أبواب القاهرة ، كذلك كانت ثورات الأهالي ضد الفاطميين ، تؤدي إلى عدم الاستقرار واضطراب الأحوال .

كانت اتفاقية البيزنطيين مع الحمدانيين قد فرضت النفوذ البيزنطي في شمال بلاد الشام وهي جزء من السياسة البيزنطية ، التي استهدفت أن يكون على رأس الحكم في مدن الشام المجاورة لحدودهم ، حكام من المسلمين الموالين لهم والخاضعين لنفوذهم ليضمنوا ما يشبه السيطرة على هذه المناطق دون حاجة لاحتلالها . وهكذا نستطيع القول بأن حكم الفاطميين لبلاد الشام كان قلقاً ومضطرباً وتتنازع النفوذ خلاله قوى متعددة من قرامطة ، وحمدانيين ، وبيزنطيين ، ومن ثم الأتراك السلاجقة ، كما حاولت القبائل العربية في وسط بلاد الشام وجنوبها تدعيم قوتها وبسط سيادتها على مناطق نفوذها ، فضلاً عن ثورات أبناء دمشق ضد الحكم الفاطمي أكثر من مرة .

عاشت بلاد الشام هذه الفترة ، في ظل إدارة سيئة ، فقد فرض فيها نظام الضمان ، حيث كانت تضمن بعض مناطقها ضماناً لمن يدفع أكثر ، فقد عقدت فلسطين لنواب كافور بخمسمائة ألف دينار ، وكذلك جند دمشق ، وكثيراً ما كان كافور يطلب من عماله المال على سبيل القرض ، أو مقدماً ، قبل أن يحين موعد الدفع ، ويترك عماله مقابل ذلك يجبون ما يشاؤون من المال ، إرضاء لهم . وكثيراً ما كانت خيرات بلاد الشام وأموالها تنهب إلى خارجها وتحمل مع الثائرين أو مع الروم البيزنطيين في غزوهم للبلاد ، مما أنهك بلاد الشام اقتصادياً . وقد حاول بعض الخلفاء العباسيين اتخاذ بعض الإجراءات لإنقاذ البلاد وتحسين اقتصادها ، من هؤلاء الخليفة المأمون الذي أقام في دمشق شتاء عام ٢١٤هـ/٨٢٩م محاولاً تنظيم الخراج على أراضي بلاد الشام ، أملاً في زيادة الدخل الوارد منها .

لم يطرأ تحسن على الوضع الاقتصادي في بلاد الشام خلال عهد الطولونيين والإخشيديين والحمدانيين والفاطميين بسبب كثرة الاضطرابات والصراع حول السيادة والحكم ، وكثرة الثورات الداخلية والغزوات من خارج الحدود ، وبخاصة ضد حملات الروم البيزنطيين . وبالرغم من كل ذلك فإن بلاد الشام حافظت على زراعة ما توارثت زراعته من المحاصيل وكذلك في مجال الصناعة . وبقيت مياه نهري بردى والفيجة تسقي مدينة دمشق وتصل إلى دورها بشبكة من القنوات في غاية الدقة والتنظيم ، كما تصل إلى حماماتها وتروي أيضاً بساتين غوطتها ، وكانت معظم جبال الشام الساحلية مشجرة وتنتشر فيها القرى والمزارع وعيون المياه .

أما النشاط التجاري الذي اشتهرت به بلاد الشام عبر تاريخها الطويل ؛ فقد أصابه التأخر بعد العصر الأموي وبخاصة في عهد الدول المستقلة لما رافق ذلك من اضطراب وفقدان للأمن ، ولذلك أصبحت تجارتها محلية أكثر من تجارة البلاد العربية الإسلامية الأخرى . وبالرغم من ذلك فقد استفادت بعض المدن الساحلية من موقعها وظروفها ؛ فانتعشت تجارتها البحرية ومنها طرابلس وبيروت وصور .

كانت المعاملات التجارية والمالية تتطلب وسائل للدفع مأمونة من الضياع ، خفيفة الحمل ، بعيدة عن أيدي اللصوص ، ومن هذه الوسائل السفاتج والحوالات وكانت السفاتج محدودة الاستعمال خلال القرنين الأول والثاني من الهجرة ، ثم عم استخدامها ، وقد ورد في أخبار سيف الدولة ، أنه أنفذ سفتجة إلى أحد رجال دولته بقيمة ثلاثة آلاف درهم .

عرفت بلاد الشام كغيرها من البلاد العربية والإسلامية ، تعايشاً بين أبناء الديانات السماوية الثلاث في جو من التسامح وحرية الاعتقاد ، ندر مثيلها لدى الأمم الأخرى . وكان اليهود يعملون خاصة في مهنة الصياغة والصيرفة والدباغة ، بينما اشتهر النصارى في مهنة الطب والكتابة . وازداد عدد الموالي فيها ، نتيجة إدخالهم في الجيوش خلال العصر العباسي ، ومرابطة قسم من هذه الجيوش في بلاد الشام ، وكذلك بسبب إرسال حكام من الموالي لحكم البلاد .

اهتم العباسيون بمنطقة الثغور وهي المنطقة الشمالية من بلاد الشام والمجاورة مباشرة لدولة بيزنطة ، فقد أقام الرشيد خلفها منطقة دفاعية ، تعتبر الخط الدفاعي الثاني وأطلق عليها اسم العواصم ، ترابط فيها قوات من الجيوش الإسلامية لنجدة قوات الثغور إذا لزم الأمر . وأولى الرشيد اهتماماً أكثر لبناء الثغور وتحصينها ، وعمل خاصة على تحصين ثغر طرسوس وبلدة مرعش

وبنى الهارونية. وتابع الخلفاء من بعده هذه السياسة، وكذلك فعل سيف الدولة الحمداني. كذلك قام الخلفاء العباسيون وولاتهم بتحصين موانئ بلاد الشام ومن ذلك تحصين المعتصم لمدينة أنطاكية، لأهمية موقعها على مجرى نهر العاصي قرب الساحل، وحصَّن الطولونيون مدينة عكا.

ومن أوجه النشاط العمراني في العصر العباسي في بلاد الشام ما كان من إقامة بعض المدن كمدينة سَلَمْيَة، التي بناها عبد الله بن صالح العباسي على طرف بادية الشام، وبلدة الرحبة، التي بناها مالك بن طوق أحد قادة الرشيد ونسبت إليه؛ فسميت رحبة مالك. واهتم الولاة ببناء دور لإقامتهم ولا نجد في المصادر وصفاً دقيقاً لها، لكنها وصفت باتساعها وعظمتها وجمالها وهي تدل على وجود حركة عمرانية نشيطة في بلاد الشام.

أما بالنسبة للناحية العلمية؛ فقد عرفت بلاد الشام في هذه الفترة علماء في المناحي العلمية المعروفة آنئذٍ. ففي علم الحديث والفقه لمع إسم الإمام الأوزاعي، الذي اشتهر بالصلاح والتقوى وجرأته بالحق أمام الخلفاء والأمراء، ورويت عنه أخبار في وعظ الخليفة أبي جعفر وغيره. وكان للأوزاعي مذهب فقهي أقرب إلى أصحاب أهل الحديث. ومن الجدير بالذكر أنه لم يقتصر وجود علماء الحديث والفقه المشهورين على المدن الكبرى في بلاد الشام، بل زخرت معظم المدن والمناطق الشامية برجال اشتهروا في مجال العلوم الدينية. أما الثغور وبشكل خاص طرسوس؛ فكانت لها شهرة كبيرة لكثرة من قصدها من العلماء والزهاد ومنهم إبراهيم بن أدهم. إلى جانب علمائها بالذات، وعرف عن الكثيرين من علماء الشام أنهم رحلوا في طلب العلم إلى أنحاء العالم الإسلامي المختلفة، كما كانت بلاد الشام مقصداً لكثيرين منهم.

اهتم بعض علماء الشام خلال العصر العباسي بأخبار فتوح الشام وأحداثها، وكانت أبحاثهم في الفتوح والسير وما إليها نواة كتب تاريخ الشام، فقد روى الشافعي في كتاب الأم ما يتضمن النظام الحربي للمسلمين، كما نقلت عن الأوزاعي بعض الرسائل السياسية، وبذلك يمكن اعتبار الأوزاعي من المهتمين بالتاريخ من الشاميين، وقد خلفه جماعة اهتموا بالتاريخ أيضاً. ومعظم ما كتبه مؤرخو هذه الفترة نقله المؤرخون في القرون التالية إلى كتبهم وظهر ذلك جلياً في كتاب «تاريخ دمشق» لابن عساكر وغيره من الكتب التاريخية التي كتبت مؤخراً.

كانت الحركة الأدبية في بلاد الشام نشيطة في هذه الفترة، وفاقت غيرها من البلاد الإسلامية الأخرى في القرن الثالث الهجري. وفي النصف الأول من القرن الرابع الهجري، ظهرت في عهد سيف الدولة الحمداني، حركة أدبية وعلمية، فاقت ما كان في بغداد وقتذاك. وذكر الثعالبي بأن شعراء الشام كانوا يجمعون بين فصاحة البداوة وحلاوة الحضارة. ولقيت هذه الحركة ورجالها كل تشجيع وإكرام من ملوك آل حمدان. ويمكن القول إن المجالس الأدبية، التي كان يعقدها سيف الدولة في قصره في حلب ضاهت مثيلاتها في أيام الرشيد والمأمون في بغداد؛ فقد ذكرت كتب التاريخ، أسماء أعداد كبيرة من العلماء في الأدب والشعر والفلسفة والطب وغير ذلك، يحضرون مجلس سيف الدولة كل ليلة. واشتهر الحمدانيون أنفسهم بالأدب والشعر وتذكر كتب الأدب شعراً لسيف الدولة وهناك ديوان من الشعر لأبي فراس الحمداني. وأنجبت بلاد الشام في هذه الفترة عدداً من الأطباء والمترجمين ومنهم قسطا بن لوقا البعلبكي، وأبو عثمان الدمشقي، وإبن ناعمة الحمصي وغيرهم.

بلاد الشام
في القرنين الرابع والخامس الهجريين

د. سهيل زكار

خضعت أجزاء من بلاد الشام إلى حكم بعض الأسر والجماعات خلال فترات، طويلة أو قصيرة، معينة من القرنين الرابع والخامس الهجريين، كان أهمها:

الدولة الحمدانية في حلب
٣٣٦ ـ ٣٩٢هـ/٩٤٧ ـ ١٠٠٢م

يعود أصل الحمدانيين إلى قبيلة بني تغلب الشهيرة، التي كانت تقطن الجزيرة العليا، فمن صفوفها ظهرت الأسرة الحمدانية العربية، التي عملت إلى جانب الخلافة العباسية ضد الخوارج والقرامطة وغيرهم. وقد اعتُبر الحسن ناصر الدولة، المؤسس الحقيقي للدولة الحمدانية في منطقة الموصل.

وكان يحكم نصيبين في سورية الأمير الحمداني سيف الدولة علي بن عبد الله (أبي الهيجاء)، الذي تطلع لحكم مدينة حلب، فتمكن من دخولها والاستيلاء عليها في ٨ ربيع الأول ٣٣٢هـ/١٧ تشرين الأول عام ٩٤٤م، بعدما فرَّ حاكمها «يأنس المؤنسي» المعين من قبل الإخشيد صاحب مصر. وبعد مواجهة عسكرية بين قوات سيف الدولة والإخشيد، تمت المصالحة بينهما بمصاهرة غير متوقعة، حين تزوج سيف الدولة بفاطمة بنت الإخشيد، وتم الاتفاق إثر ذلك على بقاء بلاد الشام الشمالية تحت حكم سيف الدولة، فاعتُبر ذلك العام ٣٣٦هـ/٩٤٧م البداية الفعلية لقيام الدولة الحمدانية في حلب.

وطّد سيف الدولة أركان حكمه، وأمضى معظم وقته في إعداد حملات حربية ضد الإمبراطورية البيزنطية حقق خلالها عدة انتصارات، وفاز بالكثير من الأسرى والغنائم، كما قدم جيش سيف الدولة كثيراً من الشهداء والتضحيات، ووقع في الأسر بإحدى المعارك القائد الشاعر أبو فراس الحمداني. وكان سيف الدولة قائداً حربياً متميزاً، يعتمد في تنظيم حملاته على شن غارات هجومية لتحقيق النصر على البيزنطيين، كما أقام حاميات عسكرية قرب مراكز الحدود منها: حصن منصور، وحصن الثنيات، وحصن ثابت بن نصر ... إلخ.

وأنشأ سيف الدولة لنفسه بلاطاً فخماً كان يدعو إليه كبار العلماء والشعراء. كانت حاجة سيف الدولة للأموال كبيرة لتغطية نفقات حملاته الحربية ومتطلبات قصره، فاعتمد على جمع الأموال من الضرائب وأعمال الاحتكار والمصادرة، مما جعل أهل البلاد يشكون من ثقل الضرائب وغلظة الإدارة المالية.

واعتمد سيف الدولة في إعداد جنده على عناصر مقاتلة، تسرب إليها العديد من المرتزقة من الترك وغيرهم، الذين شكلوا قوة فرسان ذات شأن. وفي أواخر عهده، تمكن البيزنطيون من إنزال بعض الضربات المؤلمة بسيف الدولة وقواته، حين استطاعوا في عام ٣٥١هـ/٩٦٢م مهاجمة مدينة حلب وتدميرها بوحشية والعودة عنها بغنائم وأسرى، دون أن يتمكن سيف الدولة من القيام بعمل ناجح يصد به الجيش البيزنطي عن عاصمته حلب، فاندلعت الفتن ضده. وفي صفر عام ٣٥٦هـ/كانون الثاني عام ٩٦٧م، اشتدت وطأة المرض على سيف الدولة؛ فتوفي في حلب ونقل جثمانه إلى مدينة ميافارقين (إحدى مدن الجزيرة وهي تقع داخل الحدود التركية الحالية) ودُفن فيها.

تسلم الإمارة بعد وفاة سيف الدولة إبنه سعد الدولة أبو المعالي شريف، إسمياً وظاهرياً، لأن مقاليد الحكم كانت في يد حاجب أبيه قرعويه ـــ التركي الأصل ـــ.

تعرض عهد سعد الدولة، منذ البدء للفوضى والفتن، فثار ضده في حمص خاله الحارث بن سعيد بن حمدان، كما أن الإمبراطور البيزنطي «نقفور فوكاس» لم يتوقف عن القيام بنشاطات معادية ضد بلاد الشام، ومما أضعف حكم سعد الدولة، أنه حين حاول مباشرة الحكم بنفسه، أبعده قرعويه عن مدينة حلب ومنعه من دخولها عام ٣٥٨هـ/٩٦٨م، فشكل سعد الدولة قوة حاصر بها المدينة؛ فاستنجد قرعويه بالإمبراطورية البيزنطية، التي انتهزت هذه الفرصة وعملت على توسيع بعض ممتلكاتها في منطقة الثغور وأنطاكية، فخاض سعد الدولة بعض المعارك ضد القوات البيزنطية. وفي فترة الفوضى والاضطراب توفي سعد الدولة عام ٣٨١هـ/٩٩١م؛ فخلفه إبنه أبو الفضائل سعيد، الذي لم يكن أوفر حظاً من أبيه، لأن مقاليد الأمور كانت في الواقع في يد أحد غلمان جده وإسمه «لؤلؤ السيفي الكبير». وفي عام ٣٩٢هـ/١٠٠٢م توفي أبو الفضائل سعيد، مسموماً وبوفاته انتهى حكم الحمدانيين في حلب.

حاول لؤلؤ أن يحكم لفترة وجيزة باسم ولدي أبي الفضائل سعيد وهما: أبو الحسن علي وأبو المعالي شريف، ثم شجعته الخلافة الفاطمية؛ فأعلن نفسه حاكماً منفرداً لحلب ونفى الأميرين إلى مصر. وقد ساعده في حكمه إبنه منصور، فكان حكم لؤلؤ ومنصور فترة انتقال من نهاية حكم الحمدانيين وبدء حكم المرداسيين.

الدولة المرداسية في حلب وشمالي سورية
٤١٥ ـ ٤٧٣هـ/١٠٢٠ ـ ١٠٨٠م

في نهاية القرن الرابع الهجري، استولى صالح بن مرداس على الرحبة في حوض الفرات، ثم تطلع نحو حلب في عهد منصور بن لؤلؤ؛ فنشب صراع بين قوات الفريقين، استمر إلى أن تمكن صالح بن مرداس من انتزاع إمارة حلب من خصمه عام

٤١٥هـ/١٠٢٠م وأسس فيها دولة بني مرداس، وأنهى بذلك حكم الفاطميين لمدينة حلب الذي لم يدم طويلاً. تحالف المرداسيون بعد ذلك مع القبائل البدوية في بلاد الشام وتمكنوا من السيطرة على الجزء الشمالي منها. ولم يسلم الفاطميون بذلك، بل أرسلوا جيشاً بقيادة أنوشتكين، التقى بصالح وجيشه عند موقع الأقحوانة شرقي بحيرة طبرية، فقتل صالح وأحد أولاده عام ٤١٩هـ/١٠٢٤م وانهزم جيشه؛ فعاد ولداه نصر وثمال سريعاً إلى حلب.

خشي الإمبراطور البيزنطي رومانوس من سقوط حلب بيد الفاطميين بعد هزيمة الجيش المرداسي ومقتل أميره، فقاد جيشه نحو حلب وعسكر في طريقه إليها في سهل أعزاز. جمع نصر فرسان قبيلة كلاب وانقض بهم بشكل مفاجئ على المعسكر البيزنطي وأوقع بمن فيه القتل والهزيمة وكاد أن يأسر الإمبراطور نفسه. ثم اقتسم الأخوان الدولة، فحكم ثمال الرحبة وبقي نصر في حلب.

وعندما نشأ خلاف بين الأخوين الأميرين، أدى إلى صراعهما على السلطة، اغتنم ذلك حاكم دمشق الفاطمي «أنوشتكين» وقاد جيشه ثانية نحو حلب، فتصدى له نصر بقواته قرب مدينة حماة، حيث هزم وقُتل وتابع أنوشتكين زحفه ودخل مدينة حلب فاتحاً وألحقها بالخلافة الفاطمية لمدة قصيرة، تمكن خلالها الأمير ثمال بن صالح بن مرداس من أن يسترد مدينة حلب ويعيدها للحكم المرداسي.

أقام ثمال في قلعة حلب وعمل على ترميمها وتشييد قاعات حديثة فيها. وحافظ إبان حكمه على علاقات حسنة مع الفاطميين والإمبراطورية البيزنطية. وكان يتحلى بصفات متميزة من الحلم والكرم وتذوقه للشعر والأدب. وفي أواخر عهده تعرضت بلاد الشام والجزيرة لخطر انتشار القبائل التركمانيّة. وعندما توفي ثمال عام ٤٥٤هـ/١٠٦٢م، خلفه بالإمارة أخوه عطية بن صالح ودخل في نزاع على السلطة مع إبن أخيه محمود ابن نصر بن صالح بن مرداس، الذي كانت له الغلبة وتمكن من طرد عطية من الإمارة بمساعدة التركمان، وأوصى بالخلافة من بعده لإبنه شبيب. إلا أن وصيته لم تنفذ؛ فعندما توفي عام ٤٦٧هـ/١٠٧٥م، وقع اختيار رجال دولته وقادته على إبنه الأكبر نصر ليخلفه في الحكم.

وجد نصر أن زيادة انتشار التركمان في صفوف العسكر يهدد الدولة بالخطر؛ فاعتقل مقدمهم أحمد شاه عام ٤٦٨هـ/١٠٧٦م، مصمماً على طرد التركمان من مدينة حلب، إلا أنه أخفق في ذلك ولقي حتفه في العام نفسه. وتولى إمارة حلب من بعده أخوه سابق. وبازدياد تدفق التركمان على بلاد الشام، اضطربت البلاد وبُذلت الجهود لتوحيد القبائل العربية في محاولة للوقوف في وجه التركمان. وتوجه في هذه الأثناء أمير الموصل «مسلم بن قريش العقيلي» نحو مدينة حلب وتمكن بعد معارك عديدة من دخولها والقضاء نهائياً على حكم المرداسيين فيها، وكان ذلك في ربيع الآخر عام ٤٧٣هـ/٢٧ أيلول عام ١٠٨٠م. وهكذا توحدت الموصل مع حلب، وكانت دمشق قد سقطت في أيدي التركمان، حيث تولى أمورها، تتش بن السلطان ألب أرسلان. وباءت محاولات مسلم بالفشل على أبواب مدينة دمشق من أجل تحريرها من الغرباء، نتيجة الضربات القاسية، التي نزلت بقواته.

الحكم الفاطمي في بلاد الشام
٣٦٣ ـ ٤٥٨هـ/ ٩٧٣ ـ ١٠٦٦م

نشأت الدولة الفاطمية في تونس عام ٢٩٦هـ/٩٠٨م، ثم توسعت شرقاً وغرباً، ففي عام ٣٥٨هـ/٩٦٨م، تمكنت من السيطرة على مصر بقيادة جوهر الصقلي، الذي أرسل جيشاً فاطمياً لضم بلاد الشام، مستغلاً ضعف الدولة العباسية. تغلب قائد الجيش الفاطمي «جعفر بن فلاح الكتامي» على بقايا القوات الإخشيدية في فلسطين، وتابع زحفه نحو دمشق؛ ففرَّ حاكمها الإخشيدي واستبسل سكان دمشق في الدفاع عن مدينتهم ثلاثة أيام، تمكن بعدها جعفر بن فلاح من دخول المدينة، فانتقم من سكانها شر انتقام.

علم القرامطة بسقوط مدينة دمشق تحت الحكم الفاطمي؛ فأرسلوا جيشاً من مركزهم في الأحساء بالجزيرة العربية، اصطدم بجيش جعفر بن فلاح وهزمه على أبواب دمشق ولقي جعفر نفسه مصرعه وعين القرامطة حاكماً على دمشق، وتابعوا زحفهم نحو مصر للقضاء على الحكم الفاطمي فيها، ولكنهم أخفقوا؛ فانهزموا ولحقت بهم الجيوش الفاطمية لاستعادة جنوب بلاد الشام.

أعاد القرامطة تنظيم صفوفهم لتجديد محاولتهم، فشكلوا خطراً فعلياً على الحكم الفاطمي، مما جعل الخليفة المعز لدين الله

الفاطمي يتجه من تونس إلى القاهرة للإشراف بنفسه على الدفاع عنها. ولما نجح في إضعاف القرامطة عن طريق الحرب والدعاية والمال، كانت الأمور مضطربة في دمشق؛ فقام الخليفة المعز عام ٣٦٣هـ/٩٧٣م بتعيين «ظالم بن مرهوب العقيلي» والياً عليها، فحكمها بقسوة أثارت سكان دمشق؛ فقاوموا حكمه بزعامة الأحداث، مما اضطر الفاطميين لاستبداله بوالٍ فاطمي آخر هو «جيش بن الصمصامة»، الذي فشل أيضاً في حكم المدينة وقد سيطرت عليها منظمة الأحداث بزعامة إبن الماورد.

وجرت في العام نفسه أحداث سياسية خطيرة، أدت إلى خلع الخليفة العباسي «المطيع لله» وفرار حاجبه القائد التركي «ألب تكين» من بغداد ودخوله مدينة دمشق بالاتفاق مع الأحداث، على أن يتولى الأمور الخارجية فيها، تاركاً أمور المدينة الداخلية للأحداث وكان من أبرز مقدميهم قسّام التراب.

أعاد الفاطميون الكرة لاحتلال دمشق في عهد الخليفة الفاطمي العزيز، الذي وجه قواته بقيادة «جوهر الصقلي» لاستعادة السيطرة عليها فأخفق، وتمكن «ألب تكين» من هزيمة الجيش الفاطمي وصده، مما اضطر العزيز للخروج إلى القتال بنفسه واستطاع العزيز إلحاق الهزيمة بالقائد «ألب تكين» والعودة به أسيراً إلى مصر عام ٣٦٨هـ/٩٧٨م. وبرغم ذلك لم يتمكن الفاطميون من حكم مدينة دمشق وقام زعيم الأحداث «قسام التراب» بمراسلة الخليفة الفاطمي معترفاً بسلطانه إسمياً، فتظاهر العزيز بالموافقة والرضا ولكنه في العام التالي (٣٦٩هـ/٩٧٩م)، أرسل جيشاً فاطمياً لاستعاده دمشق؛ ففشل واضطر للانسحاب. وفي عام ٣٧١هـ/٩٨١م وبعد فشل المحاولات السابقة وإجراءات قطع المؤن عن دمشق وإثارة الأعراب ضد الأحداث فيها، توجه جيش فاطمي من جديد للاستيلاء على مدينة دمشق، فحاصرها مدة طويلة واشتدت مقاومة قسام وأحداثه، ولما اضطر للاستسلام دخل الفاطميون مدينة دمشق، لكن حكمها الفعلي بقي بيد الأحداث حتى عام ٣٨٧هـ/٩٩٧م، حين تمكنت منظمة الأحداث من طرد الوالي الفاطمي من دمشق.

وعندما وصل الجيش الفاطمي إلى دمشق للقضاء على الأحداث نهائياً استقبلوه بالطاعة المشروطة؛ فتظاهر القائد الفاطمي بالرضا وعسكر خارج مدينة دمشق، وأخذ يعد العدة للاستيلاء عليها. وقد تحقق له ذلك أخيراً وخضعت مدينة دمشق للحكم الفاطمي، مدة من الزمن، على غير رضا من سكانها، تعاقب على حكمها عدد من الولاة كانوا يقيمون في قصر يقع غربي مدينة دمشق في منطقة الربوة، وكان آخرهم «بدر الجمالي»، الذي طرد من دمشق عام ٤٥٨هـ/١٠٦٦م وأصبح فيما بعد وزيراً كبيراً في الخلافة الفاطمية.

لم يتمكن الفاطميون من حكم سورية بشكل مستمر، فكانت تتنازع مدنها أطماع القرامطة والأعراب حيناً، وأطماع الفاطميين والأحداث حيناً آخر، وعندما تكون الغلبة والسيطرة لإحدى هذه الفئات، تتفنن في فرض الأتاوات وبالقيام بأعمال السلب والنهب. وهكذا لم ينعم الفاطميون بالاستقرار لاستمرار روح المقاومة بين السكان ضدهم، مما زاد من معاناة أبناء سورية وانهيار اقتصادها وتهديم أجزاء منها، بل وحريق جانب من الجامع الأموي بدمشق، إبان الحكم الفاطمي، الذي انتهى ليبدأ حكم السلاجقة.

دولة السلاجقة د. أمينة بيطار

٤٦٨ ـ ٥٤٩هـ/ ١٠٧٦ ـ ١١٥٤م

السلاجقة مجموعة من القبائل، تنسب تسميتهم إلى أميرهم «سلجوق بن دقاق أو تقاق»، استقروا في خراسان، وإثر انتصارهم في معركة حاسمة مع الغزنويين، جرت في شعبان عام ٤٢٩هـ/أيار عام ١٠٣٨م، قوي أمرهم وولوا زعامتهم إلى «طغرل بن سلجوق»، الذي أعلن سلطنة السلاجقة. ولما بدأت قوتهم بالظهور، اعترفت الخلافة العباسية بدولتهم عام ٤٣٢هـ/١٠٤٠ ــ ١٠٤١م.

تعرضت أراضي الجزيرة وشمال بلاد الشام لغارات السلاجقة منذ عام ٤٣٣هـ/١٠٤٢م، إلا أن محاولاتهم المنظمة لاحتلال بلاد الشام، أتت متأخرة. فلقد شهد عام ٤٦٣هـ/١٠٧١م قيام السلطان السلجوقي «ألب أرسلان» بمحاولة لاحتلال مدينة حلب، غير أن حملته أخفقت على أبواب هذه المدينة؛ فارتد عنها عندما أعلن أميرها محمود المرداسي إعادة الخطبة للعباسيين. وتمكن في العام نفسه «أتسز بن أوق التركماني»، وكان من بين قادة السلاجقة، الذين بقوا في بلاد الشام بعد رحيل سلطانهم عنها، من السيطرة على معظم أنحاء فلسطين، مجدداً الخطبة للخليفة العباسي والسلطان السلجوقي، ثم قام بمهاجمة مدينة دمشق؛ فحاصرها ومنحها الأمان؛

فاستسلمت له عام ٤٦٨هـ/١٠٧٦م. وهكذا أخضع «أتسز» جنوبي بلاد الشام لحكم السلاجقة، ولقب نفسه بالملك المعظم. ولما أخذ يتطلع إلى توسيع ملكه بضم شمالي بلاد الشام، باءت محاولاته بالفشل.

- كان من أبرز قادة السلاجقة «تتش» بن السلطان ألب أرسلان. ففي عام ٤٧١هـ/١٠٧٨م، توجه إلى دمشق ودخلها بقواته وقرر التخلص من أتسز، فقتله، ووطد حكم السلاجقة في دمشق:

أما في شمالي بلاد الشام؛ فقد ازداد تدفق التركمان لدرجة أن أحد أمرائهم «سليمان بن قطلميش» تمكن من تحرير أنطاكية من البيزنطيين، ثم حاول الاستيلاء على مدينة حلب؛ فقاومته واستنجد حاكمها «الحتيتي» بـ «تتش» حاكم دمشق، فوقعت الحرب، ولأول مرة، بين جيشين تركمانيين، انتصر فيها تتش قرب مدينة حلب وقُتل سليمان بن قطلميش وهُزمت قواته وكان ذلك في عام ٤٧٩هـ/١٠٨٦م.

وفي ٣ كانون الأول عام ١٠٨٦م وصل السلطان السلجوقي «ملك شاه» إلى مدينة حلب، ملبياً دعوة مقدم الأحداث فيها وهو الشريف حسن بن وهبة الله حتيتي، فدخل المدينة وتسلم حكمها في شهر رمضان عام ٤٨٠هـ/كانون الأول عام ١٠٨٦م وأصبح شمالي الشام تحت حكم السلاجقة أيضاً، وبذلك وصلت دولة السلاجقة في حينها إلى أقصى اتساعها. وعين «ملك شاه» أحد رجاله المدعو «آق سنقر» قسيم الدولة على حلب وهو والد عماد الدين زنكي، فحكمها قرابة سبعة أعوام، أحسن فيها السياسة والسيرة ووطد الأمن في البلاد، ونشطت في أيامه التجارة وازدهرت الحياة الاقتصادية عامة.

وفي عام ٤٨٢هـ/١٠٨٩م، وجه الفاطميون في مصر حملةً لتحرير بلاد الشام من السلاجقة، تمكنت من استعادة مدن صيدا، وصور، وجبيل، وعكا، وحاصرت مدينة بعلبك؛ فأعلنت مدينة حمص وأفاميا ولاءهما للفاطميين. أمر ملك شاه الأمراء السلاجقة في بلاد الشام بقتال الفاطميين وأنصارهم بقيادة أخيه تاج الدولة «تتش». وعندما دب الخلاف أثناء القتال بين هؤلاء الأمراء، انفصل «آق سنقر» عن جيش تتش وتوجه عائداً إلى حلب. وتقرب من الدولة المنقذية في حماة، وأعطى أميرها نصر بن علي المنقذي مدينة أفاميا، لتصبح فاصلاً بينه وبين تتش، الذي عاد إلى دمشق بعدما أخفق في تحقيق هدفه.

في هذه الفترة العصيبة توفي سلطان السلاجقة «ملك شاه» في شوال عام ٤٨٥هـ/تشرين الثاني عام ١٠٩٢م، فقام صراع على السلطنة بين السلاجقة، وأعلن أخوه تتش نفسه سلطاناً عليهم. وفيما كان يتجه بجنوده شرقاً نحو خراسان، مقر السلطنة، أعلن إبن أخيه «بركياروق بن ملك شاه» نفسه سلطاناً. وعندما وصل تاج الدولة تتش إلى همذان، التقى مع إبن أخيه في موضع قرب الري، فانهزم جيش تتش وقتل هو نفسه في صفر عام ٤٨٨هـ/شباط عام ١٠٩٥م. وتمكن من بعده ولده رضوان من تولي مدينة حلب، فيما حكم إبنه الآخر دقاق مدينة دمشق.

وفي غمرة الخلافات والصراع على السلطنة بين حكام بلاد الشام السلاجقة، وصلت الحملة الصليبية الأولى إلى مدينة أنطاكية واحتلتها وتابعت تقدمها نحو باقي مدن بلاد الشام؛ فاستنجد أهلها بالسلاجقة، الذين هبوا لمساعدتهم، ورد الصليبيين عن ديارهم. ولما مات رضوان أمير حلب، خلفه ولده ألب أرسلان ومن بعده تولى أخوه شاه الذي قُتل عام ٥١٠هـ/١١١٧م. وحكم مدينة حلب من بعده أمير مدينة ماردين المدعو «إيل بن غازي بن أرتق» واستمر حكم الأسرة الأرتقية لمدينة حلب مدةً قصيرة.

أما في دمشق فقد توفي أميرها دقاق عام ٤٩٧هـ/١١٠٤م وتولى الحكم من بعده عدد من أولاده وأحفاده، حتى تمكن نور الدين زنكي عام ٥٤٩هـ/١١٥٤م من إنهاء حكم السلاجقة لمدينة دمشق، واتخذها عاصمةً لدولته.

وفي الوقت الذي أخذت فيه قوة الصليبيين بالازدياد تقلصت قوة الحكام السلاجقة، فضاقت مساحة الأراضي، التي كانوا يحكمونها، وازداد الخلاف والاقتتال فيما بينهم. ولم يتمكن السلاجقة من توحيد بلاد الشام خلال حكمهم، الذي دام قرابة ثلاثة أرباع القرن، إلا في عهد تتش، ولم تنقطع خلال تلك الفترة الهجرة التركمانية إلى البلاد، مما أثر على سكانها العرب الأصليين، فازداد استياؤهم من الغرباء، وتردت بالتالي الأحوال الاقتصادية من زراعة وصناعة وتجارة، بخلافات الأمراء وتسلطهم

وانتشار الفساد في البلاد . ولقد اتصف حكم السلاجقة بسوء الإدارة وإرهاق السكان بالضرائب والأتاوات .

ومن الجدير بالذكر أن السلاجقة ، قد خلفوا عدداً من الآثار العمرانية في بلاد الشام ، فقام تتش بترميم قلعة دمشق وجعلها مقراً للحكم ففيها : دوائر الحكومة ، وثكنات الحرس ، ومخازن الأسلحة ، وبيت المال ، ودار الضرب ، والسجن . كما تم تشييد قلعة الشريف في مدينة حلب .

شهدت البلاد في عهد السلاجقة حركات تمرد على السلطة لرفض الهيمنة والسيطرة حيناً ، والعمل على مهادنتهم ومشاركتهم الحياة السياسية حيناً آخر وبخاصة لدى التصدي للحملات الصليبية .

اتبع السلاجقة في حكمهم نظام الإقطاع العسكري ، فكان كل سلطان يقطع الأمراء أراضٍ تتفاوت مساحتها وغلاتها ، مما شجع الأمراء المقطعين على الاستقلال والانفصال عن الدولة السلجوقية وأدى هذا بدوره إلى ضعف الدولة سياسياً واقتصادياً وعسكرياً .

حكم الأسرة المنقذية

كان يقيم في بلدة كفر طاب في الشمال الغربي من مدينة حماة أسرة « بني منقذ » وقد لعبوا دوراً هاماً في تاريخ بلاد الشام في أواخر القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي . وفي القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي . وكان من أشهر رجالهم علي بن مقلد المنقذي ، الذي كان أخاً بالرضاعة لمحمود بن نصر بن صالح المرداسي ، أمير حلب . وقد أسهم بدور مهم في سياستها وفي دعم حكام طرابلس . وعندما عاد لبلدته كفر طاب واستقر فيها ، أخذ يخطط للاستيلاء على قلعة شيزر ، المتميزة بموقعها الاستراتيجي ، فبنى قلعة الجسر بالقرب منها واتخذها قاعدة في هجومه على قلعة شيزر الحصينة . وفي عام ٤٧٣هـ / ١٠٨٠م ، تمكن علي بن مقلد من الاستيلاء عليها ؛ فأقام فيها حكم الأسرة المنقذية ، التي كان لها دور كبير في تاريخ بلاد الشام زمن الحروب الصليبية .

ازدادت أهمية مدينة حماة القريبة من مركز الإمارة المنقذية ، نتيجة لعدة عوامل منها : قيام حكم أسرة آل منقذ في شيزر ، وسيطرة الصليبيين على بعض المناطق القريبة منها ، ومن ثم استيلاء الإسماعيليين على عدد من القلاع القريبة منها ، وكان من أثر ذلك كله قيام دولة أيوبية مستقلة في حماة ، قامت بدور بارز في سورية خلال العصرين الأيوبي والمملوكي .

الدولة الزنكية والدولة الأيوبية

د. سهيل زكار

قام السلطان السلجوقي بتعيين عماد الدين زنكي عام ٥٢١هـ / ١١٢٧م والياً على الموصل والجزيرة . فأحسن السيرة في ولايته وعمل جاهداً على توحيد دويلات بلاد الشام والتوجه بقواها الموحدة ضد الإمارات الصليبية . وتمكن من ضم مدينة حلب وقلعتها إلى إمارته في عام ٥٢٢هـ / كانون الثاني عام ١١٢٨م ، وكذلك ملك مدينتي منبج وبزاغة . ولم ينشط عماد الدين في قتال الصليبيين وفق خطط منظمة ، إلا بعد أن ثبّت مركزه في إمارته وعزز إمكاناتها الاقتصادية والعسكرية ووحد ما يمكن توحيده من الإمارات الصغيرة المتناثرة . وتمكن من تحرير إمارة الرها في جمادى الثانية عام ٥٣٩هـ / ٢٣ كانون الأول عام ١١٤٤م واتبع مع أهلها سياسة حكيمة ، فرد المسيحيين المحليين إليها وأمّن لهم حماية كنائسهم . وتوجه فيما بعد إلى جعبر على الفرات ، وكانت تابعة لبني عقيل ، فحاصرها بقصد فتحها ، ومالبث أن اغتيل فجأة على يد غلمانه في جمادى الثانية عام ٥٤١هـ / تشرين الثاني عام ١١٤٦م ، فانصرف غالبية قادة الجند وزعماء الموصل لتسليم الإمارة إلى إبنه الأكبر الملقب بغازي ، بينما رأى بعض قادته إعطاء الإمارة إلى إبنه نور الدين محمود . وقد أدى اختلاف الآراء والمصالح حول السلطان ، بعد مقتل عماد الدين الزنكي ، إلى تقسيم إمارته إلى قسمين في حلب والموصل . ولم يكن هذا التقسيم نهائياً ، بل بقي التضامن بين زعماء الزنكيين قائماً ، وقد بدا التضامن في هذه الأسرة في قضية تمتع أبناء الأمير المتوفى بحكم مناطقهم حكماً مستقلاً ، وتبقى للإبن الأكبر مكانة الزعامة ويتعاون الجميع لصد الأخطار المشتركة .

تمكن نور الدين محمود بعد تأسيس إمارته في حلب ، من ضم حمص والرحبة إليها وأتبعها بدمشق وما يحيط بها . وأصبح مجاوراً لأراضي مملكة بيت المقدس الصليبية . كانت المنطقة ، التي خضعت لحكم نور الدين محمود ، محاطة بالأعداء الذين كانوا يترقبون الفرص للانقضاض عليها بمن فيهم الصليبيون ، الذين شددوا هجماتهم بعد مقتل والده عماد الدين الزنكي ،

لكن نور الدين نجح بصدهم حتى ألجأهم إلى التراجع إلى غرب نهر العاصي.

شغل نور الدين في تلك الفترة بمشاكل متعددة داخلية وخارجية. فقد عانت دمشق من وباء انتشر فيها، مات فيه الكثير، كما اضطربت أوضاع حلب وهددت الزلازل المتعددة مدن بلاد الشام بالدمار والخراب، فصرف نور الدين وقتاً وجهداً ومالاً في سبيل مواجهة هذه المحن. وما إن استقرت الأوضاع حتى عمل على إنقاذ مصر ومنع الصليبيين من احتلالها لضعف الحكم الفاطمي فيها، فأرسل ثلاث حملات إليها بقيادة قائده «أسد الدين شيركوه» وبرفقته إبن أخيه صلاح الدين. ونجح شيركوه بعدها بتولي وزارة مصر من الفاطميين في ربيع الثاني عام ٥٦٤هـ/كانون الثاني عام ١١٦٩م. وتلقب بالمنصور، لكنه ما لبث أن توفي بعد شهرين، فخلفه في الوزارة إبن أخيه صلاح الدين، الذي تلقب بالناصر. وهكذا أُتيح لصلاح الدين أن يصبح وزيراً للفاطميين وقائداً لنور الدين في آنٍ واحد. وينتسب صلاح الدين إلى أيوب بن شادي، وهو أول من برز من أفراد أسرته مع أخيه شيركوه. وكانا قد التحقا بخدمة عماد الدين في الموصل عام ٥٣٢هـ/١١٣٧م، فأحسن الأخير إليهما، وسلمهما أعمالاً إدارية وعسكرية، فبذلا جهدهما في خدمته وأخلصا له ولإبنه نور الدين من بعده.

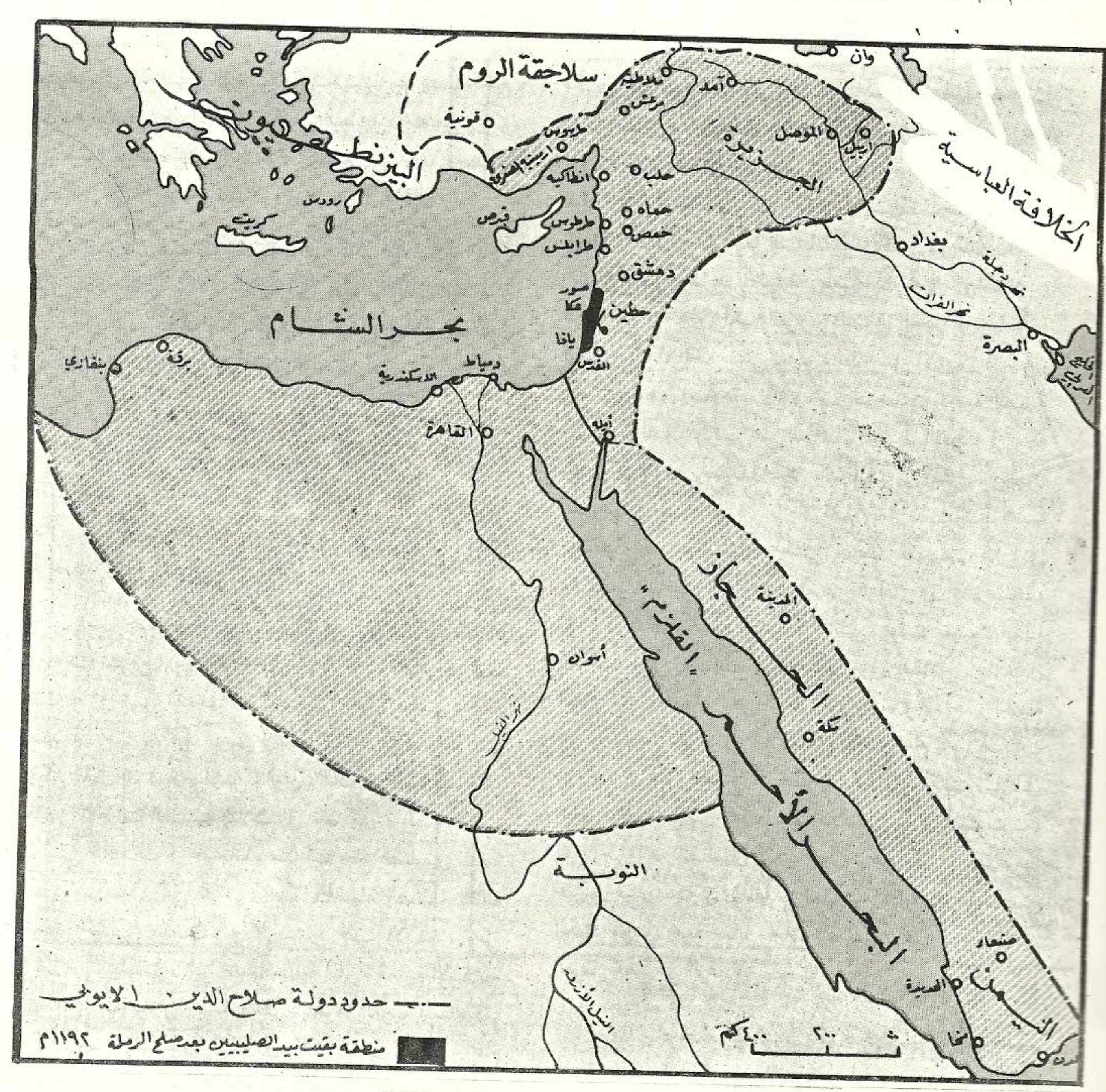
كان وصول صلاح الدين الأيوبي لمنصب الوزارة الفاطمية، المرحلة الأولى لتأسيس السلطنة الأيوبية. وتعرض صلاح الدين لبعض المضايقات في أول حكمه، لكنه استطاع أن يتخلص منها، إذ تخلى بعض قادته عن وظائفهم حسداً، فضعف جيشه في مصر، لكن نور الدين أمده بفرق جديدة، بقيادة أخيه توران شاه وأبيه أيوب؛ فسيطر على مصر بشكل تام وقضى على الحركات المضادة له وتخلص من كبار الإقطاعيين وأحل جماعة من رجاله من أهل الشام، كما تعرض صلاح الدين في هذه المرحلة إلى هجمة صليبية بيزنطية ولكنه استطاع أن يرد المهاجمين وأن يثبت أقدامه في مصر. ومن ثم قرر صلاح الدين، بموافقة الخليفة العباسي، إسقاط الخلافة الفاطمية فيها. وتم ذلك في محرم عام ٥٦٧هـ/ ١٠ أيلول عام ١١٧١م.

كان سقوط الخلافة الفاطمية حدثاً خطيراً في تاريخ العالم العربي الإسلامي؛ فقد عادت وحدة الخلافة، وأصبحت الخلافة العباسية هي الوحيدة، التي يدين لها المسلمون بالولاء، كما قام صلاح الدين بتوسيع أملاكه في المنطقة وذلك للسيطرة على منافذ البحر الأحمر وتسهيل التجارة وتنشيطها والقضاء على بقايا أتباع الفاطميين، ففتح اليمن والنوبة.

في شوال عام ٥٦٩هـ/منتصف أيار عام ١١٧٤م، توفي نور الدين فجأة في مدينة دمشق ودفن فيها بعد أن غرس غرسة طيبة في توحيد مصر والشام لقتال الصليبيين.

صلاح الدين وتأسيس السلطنة الأيوبية

حين توفي نور الدين زنكي، بويع ابنه الصالح إسماعيل بالسلطنة، فلم يستطع السيطرة على أملاك أبيه بكاملها، كما كانت بلاد الشام، موزعة بين الأسرة الزنكية والصليبيين. وقد اتخذت كل مدينة كبيرة من مدن الشام، موقفاً خاصاً بها تجاه انضمامها للصالح إسماعيل، كما تعرضت مدينة حلب لفتنة داخلية. وقد أدى هذا إلى اضطراب في أحوال بلاد الشام؛ فوجد صلاح الدين الفرصة سانحة أمامه للتحرك، فتوجه نحوها للحد من أطماع الفرنج في البلاد ولتوحيد ممتلكات نور الدين، التي أضحت تمتد من حلب إلى اليمن، ومن ثم تحرير بيت المقدس من الصليبيين، فتمكن من ضم مدينة دمشق وحمص وحماة، لكنه حين وصل إلى حلب وجد مقاومة كبيرة، فألقى عليها الحصار ثلاث مرات متتابعة، توصل بعدها في مطلع عام ٥٧٢هـ/١١٧٧م إلى عقد صلح، أصبحت بموجبه حلب وأعمالها للصالح إسماعيل ومصر وبلاد الشام الجنوبية، حتى حماة لصلاح الدين. ثم ما لبثت الظروف أن سنحت له بضم حلب والموصل وبهذا حقق صلاح الدين الوحدة بين مصر والشام واليمن والجزيرة. ولم يتوقف صلاح الدين في فترة التوحيد نهائياً عن قتال الصليبيين، بل كان يعمل على حماية مصر والشام منهم وجرت بينه وبينهم في هذه الفترة معارك كان بعضها على جانب من الأهمية. لكنه بعد أن أنهى عملية التوحيد، قام بتحرير أجزاء واسعة من بلاد الشام من نير الصليبيين وخاض ضدهم المعركة المشهورة باسم حطين، ومن أسبابها المباشرة أن حاكم الكرك والشوبك الصليبي المعروف باسم «رينودي شانتيون» والذي يطلق عليه العرب إسم «أرناط»، أراد أن يسيطر على الطريق التجارية والدينية إلى مكة، فقام من أجل ذلك بهجومين فاشلين. عندها اتخذ صلاح الدين قراره الحازم بفتح الكرك وإبعاد أرناط عن الطريق التجاري وأقسم أن يقتله إن وقع في يده لاستهتاره بالمسلمين ومعتقداتهم.



حدود دولة صلاح الدين الأيوبي

جمع صلاح الدين جموعه وهاجم طبرية، ثم عسكر بالقرب من جبل يدعى «قرنا حطين» واستدرج الصليبيين إليه لإحكام الطوق عليهم وإبعادهم عن مصادر الماء في فصل صيفي قائظ؛ فنجحت خطته وانتصر عليهم انتصاراً حاسماً في ٢٥ ربيع الآخر عام ٥٨٣هـ/ ٤ تموز عام ١١٨٧م، وأسر قادتهم وعدداً كبيراً من البارونات وفرسان الداوية والأسبتارية، ثم قتل أرناط براً بيمينه ورعى بقية الملوك والأمراء. كانت حطين من أكبر الضربات، التي نزلت بالصليبيين، فقد تمكن العرب المسلمون من تحطيم قوتهم الضاربة، وفتحت أمامهم الطريق لاستعادة أراضيهم. وقد أظهروا حسن معاملتهم لأعدائهم، انطلاقاً من مبادئ الأخلاق والرحمة والتسامح وهو الأمر الذي شهد لهم به جميع المؤرخين الغربيين والشرقيين على السواء. سيطر صلاح الدين، إثر هذه المعركة على إقليم الجليل وأصبحت مملكة بيت المقدس مفتوحة أمامه؛ فتوجه إلى عكا، التي سقطت بيده دون قتال، فأمن سكانها على أنفسهم وأموالهم وخيَّرهم بين الإقامة أو الرحيل، ومن ثم اتخذها مركزاً لانطلاق

جيوشه إلى المعاقل القريبة؛ ففتحها ولم ينته عام ٥٨٣هـ/١١٨٧م، إلا وكان قد حرر الساحل برمته من بيروت إلى عسقلان عدا مدينة صور، إضافة إلى مدن وحصون داخلية.

لقد كان للمعاملة الحسنة، التي عامل بها صلاح الدين أهالي عكا وطبرية، الأثر الأكبر في سقوط المدن الساحلية متتابعة في يده، كما أنه عمل على الحفاظ على النشاط التجاري في المدن، مما أدى إلى تقدم أحوالها الاقتصادية.

استطاع صلاح الدين بعد معركة حطين أن يحرر بيت المقدس دون إراقة الدماء بعد أن أعطى من فيها من الصليبيين مواثيق، بدا فيها تسامحه الكبير. وكان الفارق هائلاً بين دخول صلاح الدين إليها واحتلال الصليبيين لها، الذين لم يرعوا حرمة ولم يحفظوا عهداً.

تسلم صلاح الدين بيت المقدس في ٢٧ رجب عام ٥٨٣هـ/تشرين الأول عام ١١٨٧م، ثم تسلم القلعة وما لبث أن توجه إلى صور لفتحها، فلم يتمكن لأمور تعلقت بتجمع الصليبيين فيها وتوحيد قوتهم بزعامة كونراد دي مونتفرات. ويمكن القول إن صلاح الدين الأيوبي، تمكن في هذه الفترة من تقليص الإمارات الصليبية الثلاث إلى حد كبير، ولكنه ما لبث أن مُني بنكسات في فتوحاته، منها استرجاع الصليبيين لمدينة عكا. وساعدهم على نجاحهم وصول الحملة الصليبية الثالثة بقيادة «فيليب أوغست» و«ريتشارد قلب الأسد»، وعلى الرغم من البطولات، التي أبدتها حامية المدينة العربية الإسلامية والوسائل الدفاعية والهجومية، التي ابتكرها العرب المسلمون، فقد دخل الصليبيون عكا في ١٧ جمادى الثانية عام ٥٨٧هـ/٢ تموز عام ١١٩١م، بعد حصار دام عامين تقريباً، فعاد الصليبيون إلى عادتهم في القتل والتخريب واتخذوا من عكا قاعدة لمملكة بيت المقدس. بعد نصر عكا حاول ريتشارد احتلال ساحل فلسطين ثانية؛ فاستولى على حيفا وقيسارية وأرسوف وحاول احتلال بيت المقدس أكثر من مرة فأخفق، كما حاول تحقيق ما عجز عنه بالقوة عن طريق المفاوضات ضمن شروط رفضها صلاح الدين وانتهى الأمر بينهما بتوقيع صلح الرملة لمدة ثلاثة أعوام وثلاثة أشهر في ٢ شعبان عام ٥٨٨هـ/٣ أيلول عام ١١٩٢م.

كان توقيع صلاح الدين لهذا الصلح بسبب كثرة الحروب وما عانته البلاد من ويلات سياسية واقتصادية. وما لبث المرض أن انتابه، فتوفي في ٢٧ صفر عام ٥٨٩هـ/٣ آذار عام ١١٩٣م، فكان موته خسارة كبيرة للعرب والمسلمين، في هذا الوقت الحرج بالذات وترك فراغاً لم يستطع أحد من أبنائه وإخوانه أن يملأه بعد أن جعل السلطنة لإبنه الأفضل نور الدين، الذي انشغل عن شؤون الرعية بأموره الخاصة وبالخلاف، الذي قام بينه وبين أخيه العزيز، فاستغل العادل أخو صلاح الدين النزاع لصالحه وأعلن نفسه سلطاناً على الأيوبيين في شوال عام ٥٩١هـ/آب عام ١١٩٤م، فتوحدت الجبهة العربية الإسلامية ثانية، وترتب على السلطان الجديد الوقوف في وجه الصليبيين الذين يرسلون الجيوش والنجدات إلى المشرق ويوجهون أنظارهم في هذه الفترة، باتجاه مصر بعد أن أدركوا أهميتها بوصفها القاعدة الكبرى، التي اعتمد الأيوبيون عليها في نشاطهم الداخلي والخارجي. تعرض العادل في أثناء سلطنته لوصول حملة صليبية جديدة، التي عرفت باسم الحملة الخامسة والتي توجهت إلى دمياط وتولى الكامل بن العادل الوقوف في وجهها، لكن العادل توفي أثناء وجود هذه الحملة على مقربة من دمياط في ١٧ جمادى الأخرى عام ٦١٥هـ/آب عام ١٢١٨م، وخلفه في السلطنة إبنه الكامل، وكانت البلاد في خطر داهم. وأبدى الكامل تساهلات كبيرة في المفاوضات، التي أجراها مع الصليبيين لإبعاد خطرهم عن مصر. فقد عرض عليهم إحياء مملكة بيت المقدس الصليبية المنهارة باستثناء حصن الكرك ووادي عربة مقابل جلاء الصليبيين عن مصر، ولكن العرض رفض على الرغم من سخائه.

ولما ساء وضع الصليبيين بعد فتحهم لدمياط وتوجههم جنوباً باتجاه القاهرة وإخفاقهم، أرسلوا بدورهم إلى الكامل يعرضون استعدادهم للجلاء عن دمياط، مقابل السماح لهم بالخروج من مصر سالمين، فوافق الكامل، وجلوا عن مصر في ١٩ رجب عام ٦١٨هـ/٧ أيلول عام ١٢٢١م، وما إن تخلص الأيوبيون من هذه الحملة الصليبية، حتى عادوا ثانية إلى ما درجوا عليه من صرف قوتهم في المنازعات الداخلية لتحقيق مطامع إقليمية. وكانت هذه المنازعات من أخطر ما جرى بينهم، لأن كلاً من المتنازعين استنجد بقوة خارجية، فاستنجد الكامل بالإمبراطور «فردريك الثاني»، طالباً منه مساعدته ضد أخيه الملك المعظم، مقابل إعطائه بيت المقدس وجميع فتوح صلاح الدين بالساحل. وصل فردريك وكانت الظروف قد تغيرت

بوفاة المعظم ومع ذلك أظهر الكامل تساهلاً في اتفاقية يافا، التي وقعت عام ٦٢٥هـ/١٢٢٨م والتي قضت بتسليم بيت المقدس بوضعه الراهن إلى فردريك الثاني، على أن يبقى المسجد الأقصى في يد المسلمين دون أن يحملوا فيه سلاحاً وتبقى جميع القرى حوله للمسلمين أيضاً. زادت هذه الاتفاقية من انحلال الدولة الأيوبية؛ فزالت فكرة السلطان الأكبر، الذي كان يعترف به وبسلطته جميع أفراد الأيوبيين وتبع ذلك محاولة كل أمير للحفاظ على إمارته ولو بالاستعانة بالأعداء.

تولى الحكم بعد الملك الكامل إبنه الملك الصالح أيوب ٦٣٧هـ/١٢٣٩م وكان من أعظم سلاطين بني أيوب. وقد نقم على بعض الأمراء الأيوبيين، الذين تعاونوا مع الصليبيين وانتصر عليهم، كما انتصر على الصليبيين واستعاد منهم بيت المقدس عام ٦٤٢هـ/١٢٤٤م، مما أثار أوروبا ودفع بها إلى إرسال حملة صليبية جديدة، هي حملة ملك فرنسا، لويس التاسع، الذي نجح باحتلال دمياط، ثم زحفوا نحو القاهرة بعد ستة أشهر، تمكن خلالها المصريون من الاستعداد. وتوجه الملك الصالح إلى المنصورة وفي هذه الفترة الحرجة، توفي الملك الصالح سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م ونجحت زوجته شجرة الدر بإنقاذ الموقف؛ فأخفت خبر وفاته ودبّرت الأمور باسمه، ريثما يصل إبنه الملك المعظم «توران شاه»، الذي نجح في إنزال هزيمة منكرة بالصليبيين في معركة المنصورة عام ٦٤٨هـ/١٢٥٠م، ووقع فيها الملك لويس التاسع بالأسر مع معظم أفراد حملته. وافتدى نفسه بمبلغ كبير من المال والانسحاب من دمياط، بلا قيد ولا شرط. وانتهت حياة توران شاه بالاغتيال في العام نفسه، وبمقتله انتهت الدولة الأيوبية وحلت محلها دولة المماليك في مصر.

أما في بلاد الشام فقد استمر الصراع بين الإمارات الأيوبية المستقلة وأشهرها:

إمارة الكرك، وإمارة حلب، وإمارة حماة، وإمارة حمص، وإمارة بعلبك، إضافة إلى إمارات أيوبية في الجزيرة وحصن كيفا وآمد. هذا التمزق شجع المماليك الذين كانوا عماد الجيش الأيوبي على إعلان دولتهم في مصر في ٢٩ محرم عام ٦٤٨هـ/٢ آذار عام ١٢٥٠م وإسقاط الدولة الأيوبية في مصر، وتبعها القضاء التدريجي على الإمارات الأيوبية في بلاد الشام، فكان القضاء على الإمارة الأيوبية في دمشق عام ٦٥٨هـ/١٢٦٠م وانتهى أمر إمارة حلب الأيوبية في الوقت نفسه. وتبع ذلك القضاء على الإمارة الأيوبية في حمص، الذي تم في عام ٦٦٠هـ/١٢٦٢م وبقيت إمارة الكرك الأيوبية، حتى عام ٦٦١هـ/١٢٦٣م، أما إمارة حماة، فقد كانت أطول الإمارات الأيوبية عمراً؛ فقد عاشت في ظل سلطنة المماليك حتى عام ٧٤٢هـ/١٣٤١م **وبالقضاء عليها انتهى حكم الأيوبيين نهائياً من بلاد الشام.**

اهتم الزنكيون ومن ثم الأيوبيون بالعلم والعلماء ونهضوا بفتح المدارس وقد زاد عددها في بلاد الشام في تلك الفترة زيادة كبيرة حتى بلغ ما بني في العصر الأيوبي وحده إحدى وستين مدرسة، عدا مدارس الطب، وكانت هذه الزيادة ضمن إطار حركة الإحياء الديني. وقد بذل كل من عماد الدين ونور الدين وصلاح الدين وخلفائه جهدهم في نشر العلوم الدينية في فترة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين، واهتموا تبعاً لذلك بالعلماء وهيأوا لهم سبل الرعاية والتشجيع، كما وفروا لهم الدخل الكبير والمساكن حتى يتفرغوا للعلم ونشره، فكثر عددهم وبرز من بينهم علماء من الأسرة الأيوبية كأبي الفداء وبهرام شاه والناصر والمعظم عيسى.

وكان من أبرز سمات هذا العصر إلى جانب الاهتمام بالعلوم الدينية، الاهتمام بالعلوم اللغوية والتاريخية والاجتماعية وعلم الطب وعلوم أخرى متفرقة. أما العلوم العقلية والفلسفة، فلم يتح لها الانتشار. انخفضت أهمية بلاد الشام في العصرين الزنكي والأيوبي من الناحية الاقتصادية عامة، والزراعية خاصة، فمعظم السهول الساحلية الخصبة كانت بيد الصليبيين، وأما بقية المناطق، فكانت تتعرض لهجمات الصليبيين بين حين وآخر، مما أثر على إنتاجها الزراعي. نشطت التجارة في هذه الفترة بين الشام ومصر على الرغم من سيطرة الصليبيين على حصني الكرك والشوبك وزاد حجم المبادلات التجارية بشكل خاص بعد استعادة هذين الحصنين، كما نشط التجار الإيطاليون في موانئ الشام. وتدفقت سلع الشرق الأقصى إلى المدن الشامية عن طريق الخليج العربي وآسيا الصغرى ومصر. وشكلت مدن الشام الداخلية، مثل دمشق وحلب محطات تجارية، بالغة الأهمية ما بين الشرق عامة والساحل الشرقي للبحر المتوسط. وفضلاً عن ذلك فإن منتجات الشام كانت ذات أهمية فائقة بالنسبة للتجار الإيطاليين وخاصة القطن والسكر والزجاج وغيرها من السلع وأبرمت لذلك الاتفاقيات التجارية بين الطرفين. كانت التجارة تتم أيضاً عن طريق الموانئ

الساحلية، فقد كانت ناشطة عن طريق ميناء اللاذقية الذي كان في يد العرب المسلمين، كما كانت الموانئ الشامية، التي احتلها الصليبيون تمتلئ بالتجارات الشرقية الهندية والإفريقية، وأشهرها على الإطلاق عكا وبيروت وكذلك بمنتجات إفريقيا ومنتجات بلاد العرب. وقد عجب إبن جبير من هذا الأمر حين زار بلاد الشام وأشار إلى هذه الحقيقة بقوله: «**ومن أعجب مايحدث في الدنيا أن قوافل المسلمين تخرج إلى بلاد الفرنج، وسبيهم يدخل إلى بلاد المسلمين.**».

كان لظروف الحروب الصليبية أثر كبير على الحياة الاجتماعية زمن السلطنة الأيوبية، فقد تغلبت فكرة الحرب والجهاد المقدس على مشاعر الناس وعلى السلاطين أنفسهم، فلم يعد هناك متسع من الوقت لدى الجميع للتوسع في حياة الترف والقيام بالاحتفالات، كتلك التي سادت عند الفاطميين، ثم عند المماليك فيما بعد، فالمال والجهد والوقت، كلها أمور كانت موجهة لقتال الصليبيين ولقد اهتم الناس بأمر دينهم والتعمق فيه وانتشر التسامح والتآخي بين أبناء الديانات السماوية. وحظي أهل الذمة بقدر وافر من الحرية في مباشرة طقوسهم وعباداتهم داخل مؤسساتهم الدينية وعاشوا مع إخوانهم المسلمين، إخوة متحابين. والدليل على ذلك العدد الكبير من الكنائس، التي وجدت داخل المدن والتي بقيت آمنة في عصر زحف الصليبيين على بلاد الشام.

نال العلماء والأدباء مكانة مرموقة وشغلوا دوراً كبيراً في أمور الدولة العامة ووجهوا النقد للحكام في السياسة وفي المجالس العلمية. وكان رأيهم مسموعاً، كما نالت المرأة حظاً وافراً في الحياة الاجتماعية في ذلك الوقت وشغلت دوراً إيجابياً في الحياة العامة. واتضح تيار التصوف في هذه الفترة وشاركت المرأة فيه وكثر بناء منازل الصوفية، التي عرفت باسم الخانقاه، ووقفت لها الأوقاف للإنفاق على من فيها من فقراء. وقد ترك الصوفية أثراً كبيراً في الحياة العامة وكانت رعاية هؤلاء والاهتمام بهم في بلاد الشام من قبل الزنكيين والأيوبيين من أكبر دواعي قدوم كثير من الصوفية في هذا العصر من الأندلس والمغرب وغيرهما من المناطق إلى مصر والشام، كما ازدادت أهمية العنصرين التركي والكردي إلى جانب العرب، اللذين أصبحا قوة ضاربة للإسلام. وازدادت الأوقاف في تلك الفترة كثرة واضحة وكان لها إدارة تشرف عليها وتسهر على إنفاق أموالها في الجهات المخصصة لها، كما كثرت الحمامات العامة عدا الخاصة، كما كثرت الفنادق والخانات والقيساريات.

أما الجيش فقد كان يتألف من فرق نظامية قوامها غلمان أتراك تم شراؤهم صغاراً ودربوا على يد فرسان يحترفون الحرب، ثم أعتقوا ومنحوا إقطاعات عسكرية، تغل عليهم مايعيشون به. وكان الداعي إلى منح الإقطاعات للجند حاجة الدولة الزنكية ومن ثم الأيوبية إلى تجنيد عددٍ كبيرٍ من الجنود بسبب وضع الإمارة العام وكونها في حالة حرب مستمرة مع الصليبيين في الوقت، الذي لم تكن مواردها تكفي نسبياً لدفع أرزاقهم إلى جانب الرغبة في ربط الدفاع عن البلاد بالمصلحة الخاصة لأصحاب هؤلاء الإقطاعات، وكان الإقطاع يتناسب في مساحته وأهميته مع عدد الجند، الذين يقدمهم صاحب الإقطاع، كما اهتم الزنكيون والأيوبيون لدى تنظيم جيوشهم بالحرص على السرعة في وصول أخبار عدوهم ومعرفة تحركاته نحو أراضيهم؛ فاستخدموا الحمام الزاجل، واهتموا بتحصين المدن الشامية في وجه الأعداء وأعادوا تحصينها عقب الزلازل، كما حرصوا على حفظ أسرارهم العسكرية. وكان أشهر فرق الجيش، الفرقة النورية والأسدية والصلاحية. وقد أخذت هذه الفرق أسماءها من إسم السلطان أو الأمير، الذي شكلها ولذلك كثيراً ما تعصبت هذه الفرق للأمير أو السلطان، الذي كانت تتبع له بشكل خاص، مما أدى إلى فقدان الوحدة بين عناصر الجيش. وقد أسهم تعصب هؤلاء في الاضطرابات، التي تلت وفاة صلاح الدين، كما كانت نفقات الجيش كبيرة جداً، قياساً إلى واردات الدولة العامة.

لم يكن الاهتمام بالجيش مقصوراً على الجيش البري، بل لقي الجيش البحري اهتماماً كبيراً من صلاح الدين الأيوبي؛ فجعل له ديواناً خصص له موارد هامة ولجأ إلى إحضار جميع المواد اللازمة لبناء السفن، حتى أصبح الأسطول في عهده قوة ضاربة يحسب حسابها.

الحروب الصليبية

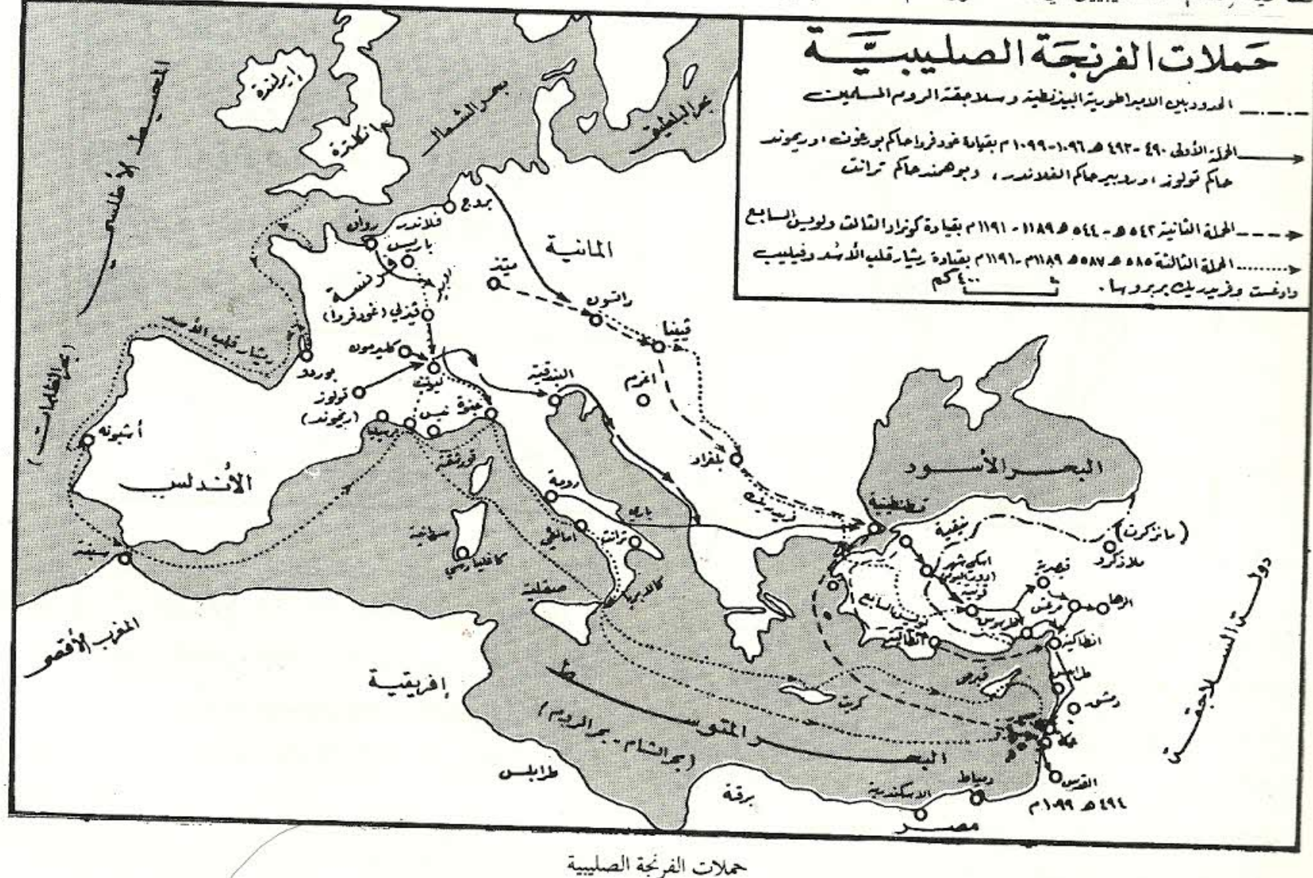
د. سهيل زكار

في خريف عام ١٠٩٥م وفي مدينة كليرمونت في فرنسا، ألقى البابا أربان الثاني خطاباً في حشدٍ كبيرٍ من الناس، دعا فيه جميع المسيحيين إلى حمل السلاح، والتوجه إلى

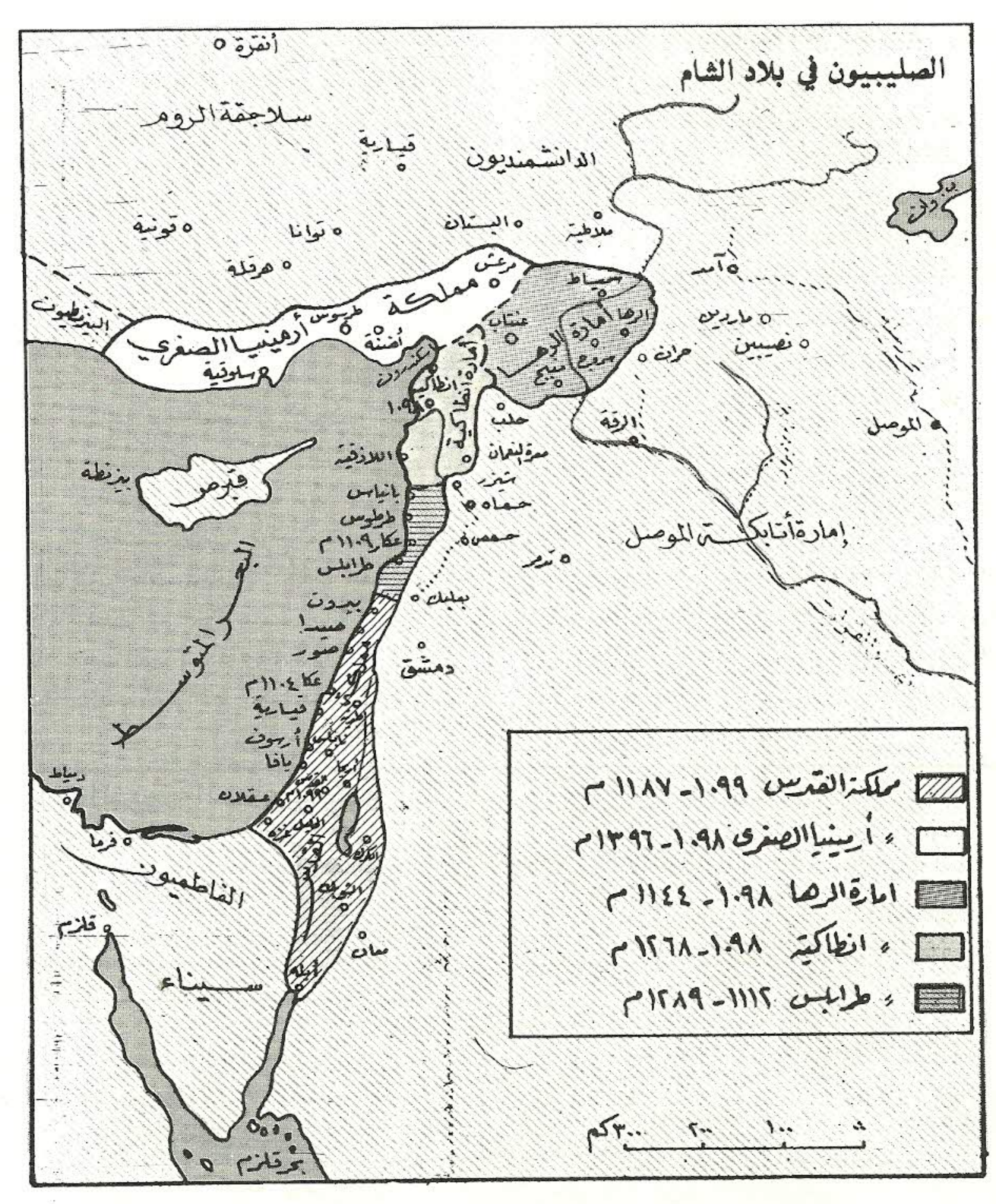
بلاد الشام لتحرير الأماكن المقدسة حسب ادعائه، وقد لاقت دعوة البابا هذا آذاناً صاغية وتجاوباً كبيراً من طبقات المجتمع، مساقين بدوافع مختلفة، وقد حمل الذين تطوعوا للزحف إلى الأماكن المقدسة، شارة الصليب، ومن هنا جاءت تسميتهم بالصليبيين.

لقد لبى دعوة البابا مئات الألوف من المتطوعين، وأخذوا يزحفون براً عبر أوروبا الشرقية قاصدين بلاد الشام، التي كانت تعاني من انقسامات داخلية كبيرة. ووصلت الحشود الزاحفة إلى القسطنطينية، وكان عددها يزيد على المليون نسمة. وهنالك اتفق زعماؤها على التعاون مع الإمبراطور البيزنطي «ألكسيوس كومنين»، الذي سهل لها أمر عبور البوسفور إلى البر الآسيوي. وقد حاولت دولة سلاجقة الروم التصدي لها في آسيا الصغرى فأخفقت. ووصلت جموع الغزاة بعد صعوبات كثيرة إلى أنطاكية وأخذت بمحاصرتها. وأبدت المدينة مقاومة ضارية ولكنها سقطت بيد الغزاة بسبب خيانة حارس أحد الأبراج. لقد سقطت المدينة الباسلة في ٣ حزيران عام ١٠٩٨م وجرت محاولة مسلحة لاستردادها ولكنها فشلت. وخلصت أنطاكية وقلعتها للصليبيين في ٢٨ تموز عام ١٠٩٨م وتأسست فيها إمارة صليبية بزعامة «بوهمند»، وهو أحد أمراء النورماندي في فرنسا. وقبل أن يصل الصليبيون إلى أنطاكية كانت قد انفصلت عنهم فئة بقيادة «بلدوين» اتجهت من مرعش شرقاً وتمكنت من الاستيلاء على بعض مناطق الثغور الشامية ــ البيزنطية ووصلت أخيراً إلى الرها؛ فاحتلتها واتخذت منها قاعدة لأولى إمارات الصليبيين في المشرق. لقد قضى الصليبيون على معظم سكان أنطاكية بعد أن جعلوها مركزاً للإمارة الصليبية الثانية، ثم تابعوا زحفهم نحو حلب وانتزعوا منها معظم ممتلكاتها، ثم استولوا على البارة، ومعرة النعمان فدمروها وقتلوا أهلها بعد أن قضوا على تحصيناتها وأسوارها.

تابع الصليبيون زحفهم مشيعين القتل والدمار والنهب والسلب حتى وصلوا القدس، وكانت آنذاك تابعة للحكم الفاطمي في مصر؛ فحاصروها حصاراً شديداً. وقاومت المدينة أملاً بوصول النجدات إليها من القاهرة، لكن عبثاً كان هذا الأمل. ووصل أثناء الحصار إلى يافا عدد من السفن الإيطالية، حاملة العتاد والأخشاب والمؤن للصليبيين. وقام الصليبيون ببناء عدة أبراج حصار متحركة، تمكنوا بواسطتها من الاستيلاء على



حملات الفرنجة الصليبية



الصليبيون في بلاد الشام

القدس في ١٦ تموز عام ١٠٩٩م. وقتلوا كل من وجدوه في المدينة. وصفت القدس للغزاة؛ فأقاموا فيها ثالث إماراتهم وأعظمها مكانة. ثم أخذوا يوسعون رقعة سيطرتهم في فلسطين وساحل بلاد الشام وتمكنوا عام ١١٠٩م من احتلال مدينة طرابلس؛ فأقاموا فيها إمارتهم الرابعة.

وعلى الرغم من هذه النكبات، التي حلّت بالعرب في بلاد الشام، فإن الخلافات بقيت مستشرية بين حكامها، مما سمح للصليبيين بالتوسع في الأرض الشمالية والغربية التابعة لحلب، وفي منطقة الجولان التابعة لدمشق. وحوصرت مدينة حلب أكثر من مرة، كما تعرضت دمشق لمخاطر شديدة. وكانت الحادثة التي وصل فيها المد الصليبي إلى أوجه، ثم أخذ يتحول إلى جزر أمام أسوار مدينة حلب عام ٥١٨هـ/ ١١٢٤م،

عندما فشل الصليبيون في الاستيلاء على المدينة على الرغم من كل ما حشدوه من قوى ومعدات، وذلك بفضل مقاومة الأهلين الباسلة من جهة، ونجدة صاحب الموصل (البرسقي) للمدينة من جهة ثانية. وبفشل الصليبيين أمام أسوار حلب وانسحابهم بدأت مرحلة حروب الاسترداد والتحرير. وقد مرت هذه الحروب بأربع مراحل، ارتبطت كل مرحلة منها باسم مدينة من المدن العربية، تحملت عبء المسؤولية في قيادة أعمال التحرير وهي: مرحلة الموصل، مرحلة حلب، مرحلة دمشق، ومرحلة القاهرة. كانت الموصل من أعظم مدن الجزيرة أو بلاد ما بين النهرين وعلى صلة وثيقة بشمال بلاد الشام. وعندما نجحت حلب في صد المد الصليبي، دخلت في وحدة طوعية وشعبية مع الموصل تحت قيادة البرسقي، الذي أخذ يوجه طاقات المسلمين ضد الصليبيين. ولكن لسوء الحظ ما لبث أن اغتيل على يد أثيمة؛ فآل أمر الموصل إلى عماد الدين زنكي عام ٥٢١هـ/١١٢٧م، الذي أدرك عظم المسؤولية وبدأ حروب التحرير منذ استلامه مقاليد الأمور، ووضع نصب عينه التخلص من مملكة الرها الصليبية، ثم تحرير أنطاكية، وبذلك يغلق المنافذ البرية أمام الصليبيين ويوقف التدخل والمساعدات البيزنطية. وقد تمكن عماد الدين من تحرير المناطق الشمالية والغربية لدولة حلب، كما حرر معرة النعمان وكفر طاب وبارة والأتارب، وفي عام ١١٤٤م، احتل الرها وقضى بذلك على أولى دول الفرنجة تأسيساً في المشرق.

لقد أثارت أخبار سقوط الرها مشاعر البابوية وحرضتها للدعوة إلى حملة صليبية جديدة من أجل استعادة الرها واستكمال السيطرة على بلاد الشام. وقد تألفت هذه الحملة من مجموعات زاد عدد أفرادها على السبعمائة ألف. وكان يقود الفرنسية منها الملك الفرنسي لويس السابع، كما قاد الملك الألماني كونراد الثالث المجموعة الألمانية. لقد وجد هؤلاء القادة الفرصة سانحة، إثر اغتيال عماد الدين زنكي وهو يحاصر قلعة جعبر من قبل أحد غلمانه وانقسام دولته إلى شطرين بين ولديه. وآلت القيادة في الشطر الشامي إلى ولده نور الدين، الذي اتخذ من مدينة حلب مقراً له، بينما آل أمر الموصل إلى ولده الآخر سيف الدين. وما إن عبرت قوات الحملة القسطنطينية إلى البر الآسيوي حتى انفجرت الخلافات بين الملك الفرنسي والملك الألماني، فقررا الانفصال، وأخذ كل واحد منهما طريقاً خاصاً إلى بلاد الشام. فاتجه الملك الألماني مع قواته نحو سهول الأناضول، حيث لاقى الأمرّين من الحر والعطش من ناحية ومن مقاتلي سلاجقة الروم من ناحية أخرى، مما أجبره مع ما تبقى من جنده إلى اتخاذ طريق آخر طلباً للنجاة، بينما سار الملك الفرنسي مع ما تبقى من رجال الحملة بمحاذاة ساحل آسيا الصغرى. واستطاع بعد معاناة ومعارك كثيرة، الوصول إلى أضالية، ومن هناك ركبت نصف قواته البحر حتى أنطاكية، بينما تابع الباقون سفرهم براً، فأُبيد معظمهم على يد التركمان قبل وصولهم إلى مشارف بلاد الشام، وما إن وصلت فلول الحملة إلى القدس حتى بادر ملكها إلى الاجتماع بكل من الملكين الفرنسي والألماني. واتفق الثلاثة على الزحف إلى دمشق لاحتلالها. وكانت سلطات دمشق آنذاك عام ١١٤٨م بيد الوزير معين الدين أنر؛ فسارع إلى تنظيم الدفاع عن المدينة واستغاث بنور الدين محمود الزنكي، صاحب حلب وبأخيه سيف الدين صاحب الموصل فبادرا لنجدته. وبفضل ذلك مع المقاومة الضارية التي أبداها سكان دمشق وأعمال المباغتة، اضطر الصليبيون إلى رفع الحصار عن المدينة بعد عدة أيام في أواخر تموز عام ١١٤٨م. وعاد المحاصرون يجرون أذيال الخيبة، دون تحقيق أي هدف، وما لبث أن عاد الملك الألماني إلى أوروبا في العام نفسه، ثم لحق به بعد عدة أشهر الملك الفرنسي، وبذلك انتهت مرحلة الموصل، لتبدأ مرحلة حلب والتي بدأت بتسلم نور الدين القيادة بعد مصرع أبيه.

كان نور الدين شجاعاً حازماً مخلصاً كأبيه، وقد تميز بتقواه وزهده واعتقاده أن الله قد أوكل إليه اقتلاع الصليبيين من ديار المسلمين، وتوحيد هذه الديار تحت راية واحدة ولهدف جهادي واحد، فعمل جاهداً على إثارة روح التضحية والجهاد في نفوس رعاياه، كما بنى العديد من الأربطة أو الرباطات والمشافي والمدارس والجامعات، ورعى الثقافة والمثقفين، فشجع إبن عساكر على كتابة تاريخ لمدينة دمشق جاء في ثمانين مجلدة كبيرة. وكانت أولى أعماله الحربية استعادة الرها، التي كان الصليبيون قد استغلوا حادثة اغتيال أبيه وما رافقها من فوضى؛ فاستولوا عليها ثانية. ثم استجاب لدعوة أهالي دمشق بالذهاب إليها عام ١١٥٤م، فوحد بعمله هذا بين شمال بلاد الشام وجنوبه وأصبحت تحت سلطة واحدة، كما شملت هذه الوحدة أجزاء من الجزيرة.

التفت نور الدين بعد أن استقر له الأمر في دمشق نحو مصر، فوجد فيها حكماً مهلهلاً لا يقوى على رد أطماع

الصليبيين، على الرغم مما تتمتع به من موارد ضخمة وطاقات بشرية كبيرة، فأراد أن يوظف كل ذلك من أجل معركة ضدهم. وكان الصليبيون قد جردوا عدة حملات ضد مصر؛ فسارع نور الدين للتدخل وإحباط كل محاولاتهم. وفي عام ١١٦٧م، تمكن من توحيد مصر مع بلاد الشام والجزيرة، وتبع ذلك إلغاء الخلافة الفاطمية فيها عام ١١٧١م. وبذلك استطاع نور الدين تطويق الصليبيين وحصرهم، مما جعله على يقين بأن اقتلاعهم من بلاد الشام أمر لا شك فيه، حتى أنه أمر بصنع منبر ليخطب عليه خطبة الجمعة الأولى في المسجد الأقصى بعد تحريره. وبقي هذا المنبر قائماً حتى أحرقه الصهاينة بعد عدوان عام ١٩٦٧، إثر إحراق المسجد الأقصى.

عين نور الدين نائباً عنه في حكم مصر، صلاح الدين يوسف بن أيوب، وأمره أن يلتقي به مع القوات المصرية أمام أسوار الكرك، إلا أن صلاح الدين تأخر في تنفيذ الأمر لبعض الأسباب، مما أدى إلى تأجيل المعركة الفاصلة فترة من الزمن. ولم يقدر لنور الدين أن يشهد تحرير القدس، إذ إنه توفي فجأة عام ١١٧٤م. وقام من بعده بهذه المهمة صلاح الدين، الذي استطاع بعد حروب عديدة أن يرث دولة نور الدين، التي كان قد انفرط عقدها عشية وفاته، لأن ولده كان صغير السن لم يستطع القيام بأعباء المسؤولية، فسارع صلاح الدين من القاهرة إلى دمشق وتمكن من السيطرة عليها والقضاء على الفوضى، وحال بين الفرنجة وتحقيق أي توسع، كما مد حدود دولته حتى شملت ليبيا، ومصر، والحجاز، واليمن، والجزيرة ومعظم بلاد الشام. وبقيام دولة صلاح الدين في دمشق، انتهت المرحلة الثانية من مراحل حروب التحرير لتبدأ المرحلة الثالثة وهي مرحلة دمشق، التي تعتبر أهم مراحل هذه الحروب. لقد توفر في هذه الدولة الكبيرة ما يكفي من طاقات بشرية وموارد اقتصادية لمواجهة الصليبيين على الرغم من سيطرة هؤلاء البحرية، بفضل أساطيل الدويلات الإيطالية، بالإضافة إلى ما كان يصلهم من مساعدات سواء من أوروبا براً عن طريق الأناضول أو بحراً عن طريق الموانئ، التي كانت بأيديهم على الساحل السوري أو من أرمينيا. أخذ صلاح الدين يمهد سياسياً وعسكرياً لخوض المعركة الحاسمة وذلك بتوسيع شقة الخلاف بين قادتهم من جهة وشن الهجمات العسكرية لتحرير منطقة الجولان وجبل عامل وبعلبك من جهة ثانية، ومحاولة تطهير الطريق الواصل بين بلاد الشام ومصر وذلك بالقضاء على حصن الكرك، الذي سيطر عليه «رينو دي شانتيون» أسماه العرب أرناط، وأخذ يقطع الطريق على القوافل التجارية والحجاج المسلمين. وحدث في عام ١١٨٧م أن رينو هذا (أرناط) هاجم قافلة مسلمة، قادمة من القاهرة إلى دمشق ونهب كل ما تحمله وأسر رجالها، فأرسل صلاح الدين وفداً يطلب فيه إطلاق سراح الأسرى ورد المنهوبات إليهم، فأجاب أرناط رافضاً بتحدٍ ووقاحة. فلجأ صلاح الدين إلى ملك القدس، آملاً أن يحمل أرناط على التراجع، ولكنه لم يستطع فعل شيء، فما كان من صلاح الدين، إلا أن استنفر قواته من أنحاء دولته، طالباً إليها القدوم إلى دمشق لتنطلق منها لقتال الصليبيين. وقد تجمع لدى صلاح الدين عشرون ألفاً ونيف من المقاتلين، فسارع الصليبيون لإزالة خلافاتهم وحشد قواتهم ولعلها بلغت الخمسين ألف مقاتل. وكانت نقطة تجمعهم في صفورية قرب الناصرة. وفي يوم الجمعة ٢٦ حزيران عام ١١٨٧م، عبر صلاح الدين بقواته نهر الأردن جنوب بحيرة طبرية وعسكر قرب ضفتي النهر، وبعد مناورات ناجحة، استطاع استدراج الصليبيين واقتلاعهم من مواقعهم، وما لبثت أن نشبت معركة ضارية (معركة حطين) السبت ٢٥ ربيع الآخر عام ٥٨٣هـ/ ٤ تموز عام ١١٨٧م، كان قد خطط لها صلاح الدين وقواده أفضل تخطيط، مما مكنه من إنزال ضربة قاصمة دمر بها القوات الصليبية وأسر معظم قادتها وفي مقدمتهم ملك القدس. لقد كانت معركة حطين كبيرة الأهمية، لأنها أنهت مملكة القدس الصليبية، وحررت معظم المدن والقلاع، التي كانت محتلة ولم يبق للصليبيين سوى إمارة طرابلس وإمارة أنطاكية وصور.

تجمعت فلول الصليبيين في مدينة صور وأخذوا ينظمون الدفاع، كما راسلوا منها زعماء أوروبا من ملوك ونبلاء وكبار رجال الدين، طالبين منهم النجدة. فبادر كل من الملك الفرنسي فيليب أوغست والملك الإنكليزي ريتشارد قلب الأسد إلى تنظيم حملة صليبية جديدة، تتجه بحراً إلى فلسطين. وفي حزيران ١١٩١م، غادرت أساطيل ما عرف بالحملة الصليبية الثالثة، قبرص وعلى رأسها الملكان الفرنسي والإنكليزي ووجهتهما صور، ثم عكا التي كانت محاصرة من قبل ملك القدس، والذي كان صلاح الدين قد أطلق سراحه بعد أسره في معركة حطين، آخذاً عليه العهد، أن لا يعود إلى القتال ثانيةً، ولكنه حنث بعهده وبادر لمحاصرة عكا، التي لم يستطع صلاح الدين على الرغم من كل جهوده، رفع الحصار عنها. لقد أبدى المدافعون

عن المدينة ضروباً لا مثيل لها من البسالة والتضحية ، وعندما يئس هؤلاء من رفع الحصار عنهم ، اتفقوا مع الصليبيين على تسليم المدينة شريطة أن يخرجوا مع أسرهم سالمين . وكان وقع ذلك أليماً بالنسبة لصلاح الدين ، الذي تجاوز المحنة وحاول إنقاذ حامية المدينة ؛ فأخذ يراسل ريتشارد ، وكان الملك الفرنسي قد قفل راجعاً إلى بلاده ولكن دون جدوى ، إذ إن ريتشارد أقدم على سفك دماء الحامية ، رغبةً منه بإشاعة الرهبة والهلع في نفوس المواطنين ، وخاصة أنه كان ينوي التوجه إلى القدس لاحتلالها ، وأخذ يعد العدة لذلك ، ولكن أخباراً مزعجة وصلته من بلاده ، تستدعي حضوره ؛ فأخذ يكثف اتصالاته مع خصمه صلاح الدين ، وتوصل الطرفان في ٣ أيلول عام ١١٩٢م إلى ما دعي بصلح الرملة وهو يقضي ببقاء الشريط الساحلي الضيق والممتد من يافا حتى صور بيد الصليبيين وبالسماح للحجاج المسيحيين بالوصول إلى القدس ، وبحرية تحرك الأفراد والتجارة بين الجهتين .

ضريح صلاح الدين في دمشق

عاد صلاح الدين بعد توقيع الصلح إلى دمشق وهو يعاني من الكآبة والحزن ما لا يوصف ولزمه المرض ووافته منيته يوم ٤ آذار عام ١١٩٣م ، وبوفاته طويت المرحلة الثالثة من الحروب الصليبية وأخطرها . وما لبث أن دبَّ النزاع بين ورثته ؛ فتمزقت دولته إلى عدة دويلات متصارعة فيما بينها . تابعت أوروبا إرسال حملاتها العسكرية ، فأرسلت بعد وفاة صلاح الدين أربع حملات ، انشغلت أولاها بالاستيلاء على القسطنطينية ، واستهدفت الثلاث الأخرى مصر بالدرجة الأولى ، ثم فلسطين . ففي عام ٦١٢هـ/١٢١٦م ، دعا البابا هونوريوس الثالث إلى حرب صليبية جديدة ، فاستجاب لدعوته عدد كبير من حكام أوروبا من أشهرهم أندريه الثاني ، ملك المجر وليوبولد السادس ، دوق النمسا ، واستهدفت الحملة الجديدة السيطرة على القدس .

وقبل وصول هذه الحملة إلى بلاد الشام ، كانت النزاعات بين أفراد البيت الأيوبي ، قد حسمت لصالح الملك العادل شقيق صلاح الدين ، كما أن استيلاء الصليبيين على عكا مكّنهم من إحياء مملكة بيت المقدس المنهارة واتخذوا من عكا مقراً لهم ، وما إن وصلت قوات الحملة الخامسة حتى وضعت ما تجمع لدى الصليبيين من قوى تحت قيادة ملك عكا « جون أوف بريين » ؛ فسارع الملك العادل من مصر للتصدي لهم ولكنه لم يفلح ، فانسحب عائداً إلى القاهرة .

قرر الصليبيون الزحف على مصر ، فاتجهت قواتهم نحو دمياط وحاصروها عام ١٢١٨م ، حتى سقطت بأيديهم ، وقد توفي في هذه الفترة الملك العادل . وبدأ الصراع من جديد على السلطة وقد فاز بها أخيراً إبنه الملك الكامل ، الذي حاول التفاهم مع الصليبيين ولكنهم رفضوا كل ما قدمه من عروض مغرية ، مقابل الانسحاب من مصر . وفي عام ١٢٢١م ، استغل الكامل فيضان النيل وسلط عليهم المياه ، فحاصرتهم من كل جانب وسدَّ عليهم المسلمون المنافذ ، فأُسقط في أيديهم وركنوا إلى الاستسلام والخروج من مصر دون مقابل . وبهذا انتهت الحملة الصليبية إلى الفشل ، وكان من المفروض أن يشارك في هذه الحملة إمبراطور ألمانيا « فردريك بربروسا » ، الذي تخلف عنها واستطاع البابا هونوريوس الثالث إقناعه بالتوجه إلى الديار المقدسة ، بعد أن دبر أمر زواجه من إبنة ملك القدس « جون أوف بريين » ، مما أعطاه حق وراثة هذا العرش . تلكأ فردريك بالسفر أول الأمر ، ثم قرر التوجه إلى عكا ولكنه أُصيب بمرض مفاجئ ، فأوقف الرحلة ونزل إلى البر الإيطالي ولزم الفراش . فأصدر البابا قراراً بحرمانه كنسياً . ومع ذلك فقد استأنف فردريك رحلته بعد شفائه ، فوصل إلى عكا في أيلول عام ١٢٢٨م واستطاع أن يتوصل عن طريق الدبلوماسية إلى ما عجز عنه الصليبيون عن طريق الحرب ، فعقد اتفاقاً في شباط عام ١٢٢٩م مع الملك الكامل ، وكان على صلة وثيقة به ، قضى بتسليم القدس إلى الإمبراطور الألماني ، شريطة بقاء أسوارها

مهدمة، وأن تكون الأماكن المقدسة بأيدي المسلمين، مقابل تقديم فردريك العون للملك الكامل ضد خصومه مهما كانت معتقداتهم.

دخل فردريك القدس وتوج ملكاً عليها، ثم عاد إلى عكا، حيث بلغه أن جيشاً بابوياً غزا أراضيه، فسارع بالعودة إلى أوروبا في أيار عام ١٢٢٩م. أما الملك الكامل، فقد أمضى بقية أيامه في صراعات داخلية، حتى وافته المنية في عام ١٢٣٧م. ولكن الصراع بقي محتدماً بين أفراد البيت الأيوبي وكان من حصاده التنازل عن بعض البقاع، مثل طبرية للصليبيين.

الحملة الصليبية السابعة وقيام سلطنة المماليك

في عام ٦٣٧هـ/ ١٢٤٠م، تولى الملك الصالح أيوب بن الملك الكامل السلطة في القاهرة، فتحالف مع الخوارزمية، وألحق الهزيمة بالصليبيين وحلفائهم واسترد القدس وكان لذلك وقعه الشديد في أوروبا، مما دفع الأوروبيين إلى إرسال الحملة الصليبية السابعة، والتي كان من حصادها الإجهاز على الدولة الأيوبية وتأسيس سلطنة المماليك، الذين وقع على كاهلهم التصدي للغزو المغولي وتصفية الوجود الصليبي في بلاد الشام. لقد عمد الصالح أيوب منذ أن آل إليه عرش مصر إلى الإكثار من شراء المماليك الأتراك وأباح لهم كل ما يريدون، فكثرت الشكوى من اعتداءاتهم على السكان وممتلكاتهم، مما اضطره إلى بناء قلعة خاصة لسكناهم في جزيرة الروضة وجعلها مقراً لملكه، ومن هنا اكتسب هؤلاء المماليك إسم المماليك البحرية الصالحية.

وصلت الحملة الصليبية السابعة إلى مصر وكانت بقيادة الملك الفرنسي لويس التاسع وتمكنت من احتلال مدينة دمياط في حزيران عام ١٢٤٩م، وفي هذه الأثناء توفي الملك الصالح، فوجد لويس التاسع الفرصة سانحة للتقدم نحو القاهرة، ولكنه وقع في الأسر مع جيشه عام ١٢٥٠م، وذلك في معركة المنصورة. وكانت أرملة الملك الصالح شجرة الدر، هي التي تدير أمور البلاد، واستدعت مع زعماء المماليك إبنه توران شاه، ليتولى الحكم، ولكن هذا على ما يبدو أساء لأولئك الزعماء، فتآمروا عليه واغتالوه عام ١٢٥٠م. وبذلك انتهى الحكم الأيوبي في مصر وتأسس في أعقابه الحكم المملوكي. أخذت شجرة الدر تصرف أمور البلاد، ريثما يختار قادة المماليك أحد زعمائهم وهو «عز الدين إيبك»، ليكون لها ومن ثم سلطاناً، وفي عهدها الذي دام ثمانين يوماً، أفرج عن الملك الفرنسي؛ فغادر البلاد إلى عكا، حيث استقر بها مدة أربعة أعوام، إذ أصبح سيد مملكة بيت المقدس وأخذ يراسل زعماء أوروبا وملوكها لإرسال حملة صليبية جديدة، كما أخذ ينشط محلياً عاملاً على توسيع شقة الخلاف بين المماليك في مصر والأيوبيين في بلاد الشام، بزعامة حفيد صلاح الدين الملك الناصر يوسف، ملك حلب والذي استولى على دمشق وأراد الزحف على القاهرة، مما جعله يتقدم بعرض مغرٍ للملك الفرنسي، مقابل عقد تحالف بينهما ضد المماليك. وعندما تأزمت الأمور بين الملك الناصر والمماليك تدخلت الخلافة العباسية؛ فاعترف الناصر بالحكم المملوكي في القاهرة وتنازل له عن غزة والقدس ونابلس. في نيسان عام ١٢٥٤م، غادر لويس الأراضي المقدسة بعد أن يئس من وصول حملة جديدة من أوروبا بعد أن بلغه نبأ وفاة والدته والتي كانت تتولى إدارة الأمور في فرنسا أثناء غيابه.

سيطرة المماليك على بلاد الشام

مر الحكم المملوكي بطورين، عُرِف الأول منهما بالطور التركي والثاني بالطور الشركسي. وقد ارتبطت بداية كل طور بغزو مغولي كبير. ففي عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م، استولى هولاكو على بغداد وقضى على الخلافة العباسية ووجه ضربة قاتلة للحضارة العربية الإسلامية. ثم تابع المغول زحفهم نحو بلاد الشام؛ فاستولوا على حلب، فدمشق بعد أن عجز السلطان الناصر يوسف الأيوبي من الصمود أمامهم وتراجع نحو غزة، بينما أخذ المغول يعدّون العدة للزحف على مصر، فبادر سلطانها المملوكي «قطز» إلى توحيد صفوف المماليك بعد أن انضم إليه بيبرس البندقداري، قادماً من الشام؛ واستطاع بيبرس هذا أن يهزم طلائع المغول، عند غزة وكانت قوات المماليك تزحف عبر الطريق الساحلي وعرجوا على عكا لاستطلاع موقف الفرنجة فيها وقد آثر هؤلاء الوقوف على الحياد بسبب الخلافات الداخلية فيما بينهم.

اضطر هولاكو في تلك الآونة إلى مغادرة دمشق والعودة إلى بلاد المشرق وأناب عنه كتبغا؛ فزحفت قواته نحو فلسطين وكان عددها يربو على الثلاثين ألفاً وقرر المماليك التصدي لهم وأن يكون اللقاء في منطقة عين جالوت، بين بيسان ونابلس.

وفي يوم ٢٥ رمضان عام ٦٥٨هـ/٦ أيلول عام ١٢٦٠م، تمكن المماليك من احتواء الهجوم المغولي وتطويق المهاجمين وتدميرهم، وقتل القائد المغولي كتبغا وعدد كبير من قادة جيشه. كان من أولى نتائج هذه المعركة: دفع الخطر المغولي عن مصر وشمال إفريقيا، كما ضمن تحرير بلاد الشام، وأصبحت القاهرة زعيمة المنطقة سياسياً وعسكرياً؛ فآلت بلاد الشام إلى السيادة المملوكية. لقد كان من أبرز قادة المماليك بيبرس البندقداري، الذي ما لبث أن اغتال السلطان قطز وحل مكانه ولقب نفسه بالملك الظاهر وبادر أمام اشتداد الخطر المغولي إلى إيجاد قوة إسلامية شامية، تتمكن من رصد الصليبيين في عكا والتصدي لهم، وقد استلزم ذلك تحرير صفد وإقامة نيابة مملوكية فيها، ولكي يضفي على حكمه صفة شرعية؛ فقد استقدم أحد أفراد البيت العباسي من بغداد وأعلنه خليفة في القاهرة.

تميز العصر المملوكي بعدم الاستقرار بسبب الحروب الداخلية وبتحالف المماليك مع رجال الدين الإسلامي والاهتمام بإظهار تمسكهم بالإسلام وحرصهم على القيام بالجهاد، ولذا فقد صمموا على اقتلاع الصليبيين من بلاد الشام.

تصفية الوجود الصليبي في بلاد الشام

توجه السلطان بيبرس عام ٦٥٩هـ/١٢٦١م إلى بلاد الشام، واستقبل وهو في الطريق كونت يافا؛ فأكرمه وأقره على حكمه، كما استقبل في دمشق ممثلي الجماعات الصليبية، الذين جاؤوا مهنئين ومعلنين صداقتهم له. وقد وجد بيبرس أن الخطر على حكمه مصدره إمارة الكرك والتي كانت تحت سيطرة الأيوبيين، فبادر للاستيلاء عليها، كما أرسل حملة إلى العراق بقيادة الخليفة العباسي، الذي كان قد نصبه خشية أن يُفاجأ بهجوم مغولي جديد.

بدأ بيبرس العمل ضد الصليبيين، فحرر قيسارية واسْتَردَّ أرسوف، واتخذ من صفد قاعدة لمواجهة عكا وبدأ بالإغارة عليها، ونجح بتحرير يافا، ثم انتزع حصن الشقيف من فرسان الداوية وحرر أنطاكية وبذلك قضى على ثاني دول الصليبيين تأسيساً، كما حرر قلعة حصن الأكراد (قلعة الحصن) في منطقة حمص.

أخذت عكا بعد أن وصلت إليها بعض النجدات، تجدد عدوانها ضد صفد، بينما كان بيبرس مشغولاً بتفاقم الخطر المغولي، ومع ذلك فقد خصص قسماً من قواته للضغط على عكا، فراسله حكامها وعقدوا معه هدنة عام ٦٧٠هـ/١٢٧٢م، مدتها عشرة أعوام وعشرة أشهر، وبذلك اختتم بيبرس نشاطه العسكري الحافل، بعد أن قاد مرحلة القاهرة وأعمال تصفية الوجود الصليبي في بلاد الشام.

توفي الظاهر بيبرس في دمشق عام ٦٧٦هـ/١٢٧٧م؛ فخلفه إبنه الملك السعيد «بركة» ولم يكن يملك الخبرة الكافية؛ فتنازل عن الحكم لأخيه الصغير سلاقس وكان عمره سبعة أعوام، وما لبثت مقاليد الأمور أن آلت بشكل فعلي إلى الأمير قلاوون الألفي، الذي زج بمعارضيه وخصومه في السجن، وعزل السلطان الطفل وبذلك أنهى حكم أسرة الظاهر بيبرس وحل مكانها أسرة قلاوون.

بدأ قلاوون نشاطه السياسي بعقد هدنة مع صاحب طرابلس بوهيموند، مدتها عشرة أعوام وعشرة أشهر، كما اضطر إلى عقد اتفاق مع صاحب عكا وذلك بسبب تفاقم خطر المغول ووصولهم إلى حمص وقيام اضطرابات داخلية، وقد استمر هذا الاتفاق حتى عام ٦٨٧هـ/١٢٨٨م، إذ نقض فرنجة طرابلس شروط الاتفاق وقاموا بنهب مجموعة من التجار المسلمين وأسر عدد منهم، فبادر السلطان قلاوون بالزحف على رأس القوات الشامية والمصرية على طرابلس واحتلها في ٤ ربيع الآخر عام ٦٨٨هـ/٢٤ نيسان عام ١٢٨٩م. وبتحرير طرابلس زالت المملكة الرابعة، التي أسسها الصليبيون في المشرق ولم يبق لهم سوى عكا. ضمت عكا وراء أسوارها طوائف مختلفة، ذوات أصول متنوعة، وكانت كل طائفة مستقلة في إدارة شؤونها، مما أدى إلى فوضى كبيرة، وغدت المدينة بؤرة للفساد والشر بسبب الرخاء المادي، نتيجة الأرباح التجارية الهائلة. وفي صيف عام ٦٨٩هـ/١٢٩٠م، انفجرت أعمال العنف في المدينة وعمد الصليبيون إلى ذبح كل من وجدوه من المسلمين، وقد أثار ذلك قلاوون واعتبر الهدنة ملغاة، وغادر القاهرة وهو مريض على رأس جيشه قاصداً عكا، غير أنه ما لبث أن توفي في ٦ ذي القعدة عام ٦٨٩هـ/١٠ تشرين الثاني عام ١٢٩٠م وخلفه على العرش إبنه الأشرف خليل، الذي رفض استقبال وفد يمثل عكا لتهنئته بالحكم وزحف بقواته نحوها، ثم حاصرها قرابة الشهر والنصف، ونجح أخيراً في خرق أسوارها؛ فاقتحم جنده المدينة وتسابق الصليبيون نحو الميناء للهرب إلى قبرص وأخذ الفرنجة يجلون عن المناطق، التي كانت بحوزتهم مثل عتليت،

صيدا، صور، بيروت... وبذلك طويت ملحمة الحروب الصليبية بعد أن استمرت قرابة قرنين من الزمن.

القلاع الصليبية

استخدم الصليبيون أثناء إقامتهم في المناطق التي احتلوها، عدداً من القلاع والمواقع الحصينة، التي لا تزال بقاياها حتى الوقت الحاضر. إن هذه القلاع والحصون، التي تنعت بالصليبية ليست جميعها من صنع الصليبيين، فالقسم الأكبر منها يعود إلى عصور سالفة رومانية أو بيزنطية أو إسلامية عربية. ولقد وجد الصليبيون عند مجيئهم نماذج مختلفة منها؛ فأدخلوا عليها بعض التعديلات واستوحوها فيما أنشأوه من قلاع، متأثرين بما كان شائعاً في أوروبا الغربية آنذاك.

وفي الواقع إن الكثير من القلاع، التي شيدوها في شرقي الأردن وفلسطين لم يكن الهدف منها الدفاع والحماية فحسب، بل قصد منها أن تكون مركزاً ومنطلقاً للهجوم من أجل تأكيد السيطرة على مناطق ذات أهمية استراتيجية، وقد اتخذت أيضاً مقرات للإقامة ومراكز إدارية وثكنات للجنود ومراصد. ولم تخرج في هذا كله عن وظيفة القلعة في العصور الوسطى، فهي تمكن قائدها من أن يحتفظ في داخلها بالقوة اللازمة للسيطرة على المنطقة، المحيطة بها وإدارة شؤونها وحمايتها، كما ويمكن استخدام القوة ذاتها لاستغلال السكان وجني المنافع المختلفة من تلك المنطقة.



قلعة المرقب

لقد شيدت معظم معاقل الصليبيين في بلاد الشام في مناطق أشبه بأنف جبلي أو مهماز (رعن)، منفصل تقريباً عن المرتفعات المجاورة له من جميع الجهات، إلا من جهة واحدة، ويمكن التوصل إلى عزله كاملاً بحفر خندق أو بناء سور على تلك الجهة، وينطبق ذلك على سبيل المثال على عدة قلاع منها: قلعة صلاح الدين (صهيون)، وقلاع الحصن، والمرقب وحارم... إلخ. وفي الواقع أن السمة البارزة والمشتركة بين معظم قلاع الصليبيين، هي تأسيسها في مواقع منيعة بصورة طبيعية مع تقويتها بمنشآت، مثل الأبراج المربعة أو الدائرية، التي كانت تقام على مسافات منتظمة وبارزة إلى الأمام. وهذه القلاع جميعها تشترك ببنائها الرئيسي، الذي يعرفه الباحثون الحديثون بالبرج الكبير، بينما يسميه كتاب العصور الوسطى «الحرز Keep». ولقد كان هذا الطراز من القلاع، شائعاً في أوروبا خلال القرن الثاني عشر، وتابع الصليبيون تشييد مثل هذه المباني في سورية، ويبدو هذا التأثير واضحاً في برج صافيتا، الذي يعطينا انطباعاً حياً عن الاستيطان اللاتيني القائم على المؤسسات الإقطاعية. وكانت الأبراج المحصنة السورية، تسوّر في بعض الأحيان بسور دائري محكم، وقد جرت العادة أن تُشيّد مقابل الواجهة الداخلية للسور، سلسلة متصلة من المباني ذات العقود، التي ترتفع بشكل يؤمن سطحها المنبسط ممشىً فسيحاً، مع متاريس تسمح بحرية الحركة حول السور أكثر من تلك التي يتيحها الإفريز الضيق المعتاد، وتسهل بالتالي تنظيم الدفاع عن القطاع المهدد.

بلاد الشام في ظل الحكم المملوكي

كانت دولة المماليك أشبه باتحاد إقطاعيات، فقد تألفت بلاد الشام في مطلع الحكم المملوكي من ست ممالك أو نيابات، ثم زاد العدد تدريجياً؛ فأصبح ثمانية، وكانت كل نيابة أشبه بدولة مستقلة ولا سيما دمشق وحلب، أما حماة فقد استمرت كمملكة مستقلة تابعة للأسرة الأيوبية. وكان لكل نيابة جهاز إداري، يأتي على رأسه النائب وهو معين من قبل السلطان بمرسوم خاص، وكان جميع النواب من المماليك وكانت النيابة تنقسم بدورها إلى عدة نيابات صغيرة، كما كان يتولى مركز الولاية والٍ عسكري رتبته أدنى من رتبة النائب، وكذلك الأمر بالنسبة للقلعة في الولاية. وفي الواقع أن الإدارة في النيابة كانت تتألف بوجه عام من:

١ ـــ الوظائف العسكرية (أرباب السيف) وهي حكرٌ على المماليك.

٢ ــ الوظائف الدينية من قضاة وخطباء مساجد ومفاتي ... إلخ .

٣ ــ الوظائف الإدارية (أرباب التعليم) .

ولكي تتوضح الصورة لدينا ، يمكننا اتخاذ نيابة دمشق كنموذج لبقية النيابات من حيث التنظيمات الإدارية . فقد كان نائب دمشق يأتي بعد السلطان مباشرة ويتمتع بصلاحيات السلطان نفسه في ولايته ، كما يتولى النظر بأوقاف البيمارستان النوري والجامع الأموي لكثرة موارد أوقافهما . ولم يكن للنائب من سلطة على القلعة ونائبها ، الذي كان يتلقى أوامره من السلطان شخصياً ، وكان يقيم مع ما تحت تصرفه من حامية في داخل القلعة ، كما عينت السلطنة عدداً من الحجاب لنائب دمشق ، ويرأسهم « حاجب الحجاب » ومقره في دار العدل ، فإذا ما اضطر النائب لمغادرة دمشق كان على حاجب الحجاب أن يقوم بتصريف الأمور بدلاً عنه ، كما كان عليه أن ينفذ أوامر السلطنة بعزل النائب أو سجنه . لقد كانت النيابة تضم بالإضافة إلى ما ذكر عدداً من كبار الموظفين منهم :

١ ــ الوزير ويأتي من الناحية النظرية ، الشخص الثاني في النيابة بعد النائب ومهمته معالجة الأمور المالية ، بينما سلبت منه سلطاته الأخرى .

٢ ــ نظارة الجيش وهي من أعلى الوظائف المدنية وكان صاحبها يتولى النظر في إقطاعات العساكر زيادةً أو نقصاً .

٣ ــ كاتب السر وصاحب ديوان الإنشاء ومهمته قراءة الكتب والعرائض على النائب وتحضير الأجوبة ويعاونه عدد من الكتاب .

٤ ــ المهمندار وهو رأس الجهاز ، الذي يرعى شؤون النيابة الخارجية وعلاقاتها مع القبائل البدوية وكان يستقبل الرسل والمبعوثين إلى السلطنة من الدول الأخرى .

٥ ــ متولي إدارة البريد ومهمته إيصال المواد المرسلة والعناية بوسائل نقله من خيول وحمام زاجل .

٦ ــ والي المدينة وهو المسؤول عن الشرطة والأمور الداخلية في النيابة .

٧ ــ شاد المهمات وهو الذي يتحدث في احتياجات السلطان والإدارة المركزية .

٨ ــ جهاز خزندارية ومهمته التحدث بأمور الخِلَع والتشاريف السلطانية ويرافقه في الطلب ناظر الخزانة .

٩ ــ ثلاثة نقباء عسكريون يعينهم نائب السلطنة ويشرفون على الجيش المملوكي في النيابة .

١٠ ــ شاد الدواوين وهو المشرف على دواوين النيابة الإدارية .

١١ ــ شاد الأوقاف : وهو المشرف على أوقاف المسلمين ويعين من قبل النائب .

١٢ ــ ناظر الخاص الشريف وكان يتولى إدارة الأملاك السلطانية الخاصة وهو ملحق بديوان الوزارة .

وهنالك نظارات أخرى مثل نظر خزائن السلاح ، ونظر البيوت السلطانية ، ونظر ديوان الأسرى ونظر الحوطات ويتعلق بالأموال المرتجعة ممن يموت من الأمراء ومن مصادرة كبار الموظفين ، الذي أثروا بشكل غير شرعي .

وكان في مقدمة الوظائف الدينية منصب قاضي القضاة ، الذي يحتله دائماً قاضي المذهب الشافعي ويأتي قضاة المذاهب الأخرى من بعده ، كما أوجد المماليك قضاة العسكر وهما شافعي وحنفي وكانا يحضران دار العدل ويسافران مع النائب عند سفره . وهنالك أيضاً مفتي الشافعية ومفتي الحنفية وأولى المماليك الأشراف اهتماماً كبيراً ، حتى أقاموا نقابة خاصة بهم كان متوليها يعرف باسم « نقيب الأشراف » . وكان للحركات الصوفية نصيب كبير من التجلة والاحترام ، فكان لكل فئة منهم زاويتها الخاصة ، حتى دفعهم اهتمامهم بتلك الحركات إلى إحداث وظيفة إسمها « مشيخة الشيوخ » ، مهمتها الاهتمام بزوايا الصوفية (بالخانقاهات) ورعاية فقراء الصوفية . وكانت هنالك وظائف دينية أخرى كالحسبة وأئمة المساجد والمؤذنين والمدرسين والوعاظ ... إلخ .

استخدم المماليك رجال الدين كقوة وسيطة بينهم وبين عامة الناس لتنفيذ سياستهم ، وسارت الأمور وتيسرت في غالب الأحيان ، إنما ليس بدون ردود فعل عنيفة ، وجاءت هذه الردود عن طريق بعض أعمال التمرد الشعبية ، قامت بها منظمات شبه عسكرية مثل الزعر والحرافيش . ومما ساعد على تطور مدن بلاد الشام خلال العصر المملوكي ، تدفق المهاجرين عليها من أنحاء الوطن العربي ، فقد جاءها مهاجرون من الأندلس وبلدان المغرب العربي والعراق والجزيرة والأناضول ، حاملين معهم خبراتهم وثقافاتهم ، مما أدى إلى نشاط الأوضاع التجارية والأعمال الصناعية . وازداد عدد المعاهد العلمية زيادة ملموسة . وفي

الواقع فقد ازدهرت دمشق خلال العصر المملوكي، سواء من الناحية الاقتصادية أو العمرانية بسبب وجود الحاميات العسكرية الكبيرة فيها وما تبع ذلك من نشوء أسواق وتوفير كل ما تحتاج إليه تلك الأعداد الكبيرة من الجند من سلاح وغذاء وكساء... إلخ.

أما مدينة حلب فقد كان وضعها سيئاً بسبب تعرضها بشكل مباشر للحدود الشرقية والغربية، وقد احتلها المغول ثلاث مرات وأشاعوا فيها القتل والدمار، ولم تستعد هذه المدينة أهميتها إلا عندما نشط المماليك عسكرياً في أرمينيا والأناضول، وذلك بعد تلاشي الخطر المغولي. لقد ارتبط ازدهار التجارة ونشاط الحياة الاقتصادية إجمالاً بالاستقرار النسبي، الذي نعمت به البلاد مدة طويلة ولكن مع نهاية عصر حكم أسرة قلاوون أخذت الفوضى تدب، وحبل الأمن يضطرب بسبب كثرة حروب المماليك فيما بينهم وثورات البدو وهجماتهم، مما أدى إلى تعطل التجارة وانحسار الرفاه.

والسكان في بلاد الشام قسمان بدو وحضر، فالحضر هم سكان المدن والقرى كانوا يعملون في المجالات الاقتصادية والثقافية والخدمات المختلفة، بينما كان البدو يعيشون في البادية ويتألفون من عدة عشائر، أكبرها قبائل طي. وقد أسند المماليك إلى أسرة آل الفضل إمرة هذه القبائل، محاولين إدخالها في منظومتهم السياسية عن طريق المنح والهبات وتكليفهم ببعض الأعمال وتقديم عدد من المقاتلين في كثير من المناسبات، كما أن المجتمع الشامي لم يعرف الوحدة الدينية، مما وفر المناخ الملائم للمنازعات بين أتباع الدين الواحد، أما الطوائف الدينية الصغيرة، فلم تنج من ملاحقة السلطات المملوكية لهم بالرغم من سكناهم في المناطق الجبلية الوعرة.

كان نواب السلطنة في بلاد الشام يدركون أهميتهم وغالباً ما استغلوا موقع البلاد للتمرد والاستقلال، منطلقين من فكرة تقول أن المُلك للأقوى، وقد توفرت بذلك الأسباب للتمرد وخلق المناخ المناسب للثورات. وهنالك العديد من الأمثلة على ذلك، بدءاً من التمرد على سلطنة شجرة الدر ومروراً باغتيال الظاهر بيبرس للسلطان قطز، وقيام الثورة في وجه الظاهر بقيادة نائب دمشق، وانتهاءً باغتيال الأشرف خليل بن قلاوون وخلع أخيه الناصر عدة مرات، والعديد من أعمال التمرد والصراع الداخلي في الوسط المملوكي واستمر ذلك حتى قيام دولة المماليك الثانية، المعروفة باسم دولة الشراكسة، حيث ازدادت حدة تلك المنازعات في بلاد الشام وأخذت بعض القوى الصغيرة في آسيا الصغرى، تحاول الاستقلال عن السلطة المملوكية وبقيت الأمور على هذه الحال حتى قيام الدولة العثمانية والقضاء على سلطنة المماليك عام ١٥١٦م في بلاد الشام وعام ١٥١٧م في مصر.

بلاد الشام تحت حكم العثمانيين في القرن السادس عشر

د. عبد الكريم رافق

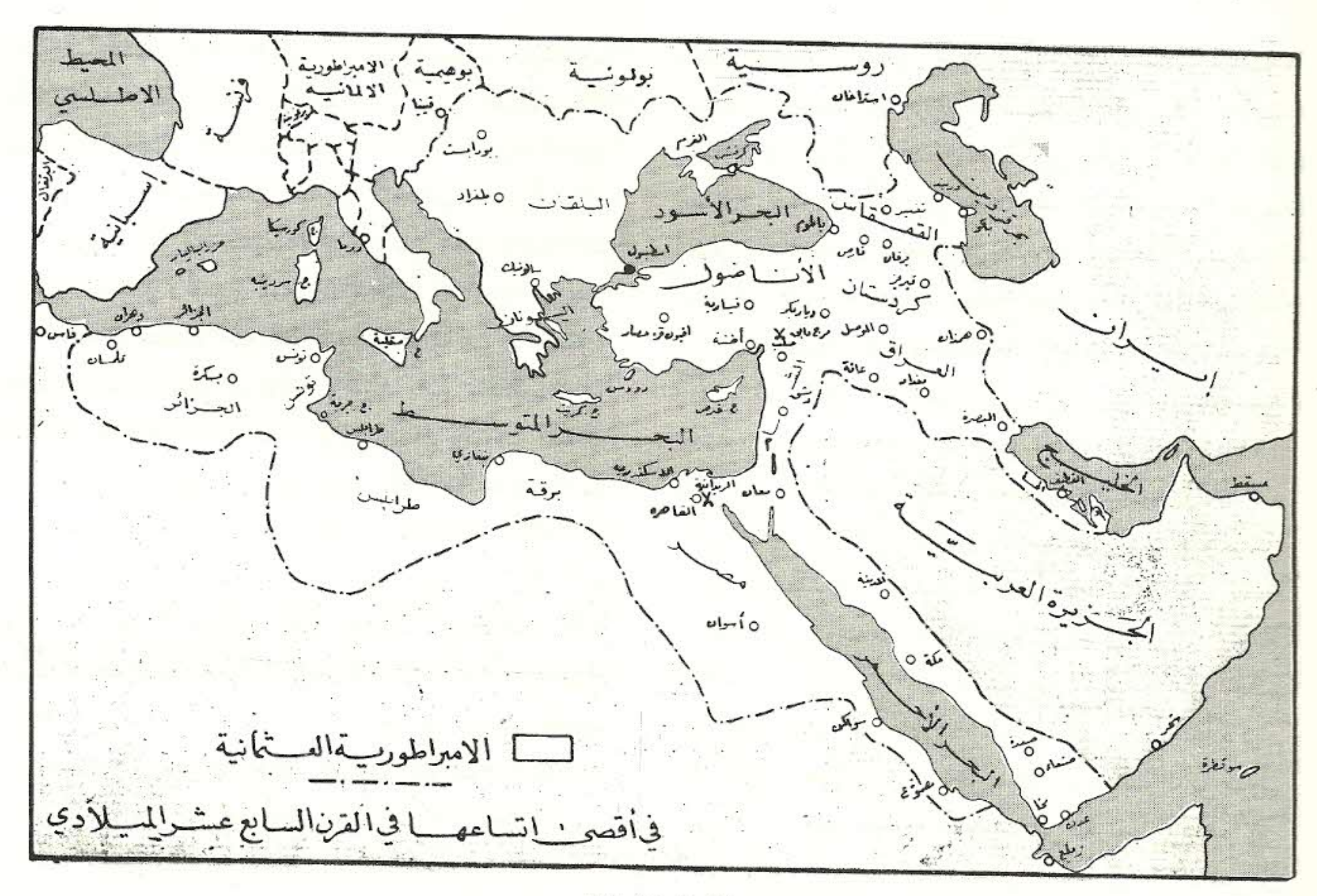
احتل العثمانيون بلاد الشام بعد انتصارهم على المماليك في معركة مرج دابق في ٢٣ آب عام ١٥١٦م، بعدما دام حكم المماليك نحو قرنين ونصف، سادهما الإرهاب والظلم، مما جعل السكان يقفون موقف المتفرّج من النزاع الجديد، فلم يدافعوا عن الحكم المملوكي، ولم يتحمسوا للفاتح الجديد العثماني لأن الفريقين غريبان بالنسبة إليهم.

أبقى العثمانيون الإدارة القائمة لفترة قصيرة، استعانوا خلالها ببعض أمراء المماليك، الذين انحازوا إلى جانبهم، مثل خايربك، وجانبردي الغزالي، الذي حاول فيما بعد القيام بثورة عليهم بعد وفاة السلطان سليم، مما جعل العثمانيين يبطشون به. وبذلك قضوا نهائياً على النفوذ المملوكي في بلاد الشام.

قسم العثمانيون البلاد إلى ثلاث ولايات هي:

١ ــ الشام، ومركزها دمشق.
٢ ــ حلب.
٣ ــ طرابلس.

وتألفت كل ولاية من عدد من السناجق، كما وزّعوا بعض أراضي الدولة كإقطاعات عسكرية، وعرف أصحابها ــ وهم من العسكريين ــ بالسباهية أي الفرسان. أما الإقطاعات الأكبر والأكثر دخلاً؛ فقد أُعطيت إلى الطبقة العليا من أفراد الأسرة الحاكمة ومن يلوذ بهم. وأما ما تبقّى من أراضي الدولة الزراعية، فقد تعهّد الملتزمون بجباية ضرائبها، وذلك بعد دفعهم مبالغ من المال للحصول على حقّ الجباية. وقد تطوّر نظام الالتزام هذا، فبعدما كان لمدة عام واحد أصبح لعدة أعوام ثم مدى الحياة (نظام الملكانة). وكان «الدفتردار» هو المكلف بقبض الأموال وصرفها حسب الحاجة بما فيها دفع مرتبات الفرق



الإمبراطورية العثمانية

العسكرية الجديدة (الانكشارية)، التي كانت تقيم في القلاع ومراكز المدن وتأتمر بأمر رئيسها «آغا الانكشارية»، الذي كان يُعيّن من قبل «آغا الانكشارية» المقيم في العاصمة. وكانت السلطة القضائية بيد القاضي التركي الأصل (قاضي القضاة)، وسمح لنوابه في الولايات أن يكونوا من السكان المحليين الحنفيين، وكان للمذاهب الإسلامية الأخرى قضاتها، كما كان إلى جانب المفتي الحنفي (شيخ الإسلام) مفتون للمذاهب الأخرى، واتخذ نقيب الأشراف من استانبول مقراً له، وكان يعين نقباء الأشراف في الولايات، وقد لعب هؤلاء دوراً أساسياً هاماً وبخاصة في حلب في القرن الثامن عشر.

نقل العثمانيون إلى عاصمتهم الصنّاع والحرفيين الماهرين لتزيينها والإفادة منهم. وقد شهدت البلاد فترة هدوء واستقرار نسبية، استمرت حتى أواخر القرن السادس عشر، تحقّق خلالها عدد من المنجزات المعمارية كالتكايا والجوامع والسّبل والمدارس والحمامات، بناها أشخاص أسهموا في انتصارات العثمانيين العسكرية؛ فخلّدوا بهذه المباني أمجادهم. ولكن عندما ضعفت الدولة وأخذ الولاة يحصلون على مناصبهم عن طريق المال، وليس بالخدمات التي يقدمونها عسكرية كانت أم مدنية، انصرف اهتمامهم إلى جمع المال وليس في سبيل تخليد الذكر كما فعل أسلافهم.

الضعف العثماني وبدء الثورة على العثمانيين في القرن السابع عشر

بدأ ضعف الدولة العثمانية بعد وفاة السلطان سليمان القانوني عام ١٥٦٦م. فقد فشل العثمانيون مرّتين أمام أسوار فيينا. واضطروا إلى التخلي عن مناطق واسعة، كانت تحت حكمهم في أوروبا. وانعكس هذا الضعف على الجيش عامة، مما اضطر الدولة إلى الاعتماد على الجنود المرتزقة، كما تضافرت عدة عوامل داخلية وخارجية، أدت إلى قيام أزمات اقتصادية خانقة وانهيار قيمة وحدة النقد الفضية، مما أدّى إلى قيام سلسلة من الثورات بدأت في صفوف العساكر، ثم انتشرت بين الأفراد المحلّيين منذ مطلع القرن السّابع عشر. وقد استعانت الدولة بانكشارية دمشق للقضاء على الثوار في منطقة

كلس ــ حلب. وأخذ هؤلاء يروّعون السّكان ويبتزّون الأموال، مما اضطر الدولة للتخلّص من بعض زعمائهم، كما بطشت في القرن السابع عشر بزعماء إنكشارية دمشق المتمردين. وقد أفسح ذلك المجال أمام بعضهم للتسرّب إلى هذه الطائفة وبلوغ بعضهم الآخر المراتب العليا. وقد دعم انكشارية دمشق «خسرو باشا» والي حلب، وكان قد ثار على الدولة، وما أن قضت عليه حتى أرسلت طائفة من الانكشارية عرفت باسم «القابي ــ قول» (عبيد باب السلطان)، سيطرت على القلعة وأبواب وأسوار المدينة، وكلفت الطائفة السابقة بحراسة المنازل على طريق الحج. ولكن أفرادها لم ينصاعوا للأمر، وبقوا في دمشق، وعرفوا باسم «الانكشارية البرلية؛ أي المحلية». وقد شهدت دمشق بين عامي ١٦١٠ ــ ١٦٢٦م صراعاً دامياً بين الانكشارية البرلية والقابي ــ قول، الذين كانوا يمثلون سلطة الدولة. أما انكشارية حلب فقد بقوا تحت سلطة الدولة، وقد وجد الأهلون متنفّساً لهم عن طريق منظمة الأشراف (المنحدرين من سلالة الرسول ﷺ)، إذ إنهم قاموا بدور المدافع عن مصالح الأهلين ضد الانكشارية وقد اعترفت الدولة بسلطتهم، عندما استنجدت بهم لقتال نابليون، عندما جاء بحملته إلى مصر.

ومن أبرز الثورات التي قامت منذ القرن السابع عشر: ثورة علي باشا جنبلاط، وهو كردي الأصل، سنّي المذهب، في منطقة كلس ــ حلب، وثورة فخر الدين المعني، أمير منطقة الشوف في جبل لبنان. وقد قامت ثورة علي باشا بسبب قتل الدولة عمّه «حسين باشا» وكان والياً على حلب، فامتنع علي باشا عن دفع الضرائب، واستقلّ في حلب عام ١٦٠٥م، وتحالف مع الأمير فخر الدين المعني الثاني، وحاصرا دمشق، التي اشترت تراجعهما عنها بالمال، فانفضّ التحالف، وعاد فخر الدين إلى مركز إمارته، وانفردت الدولة بعلي باشا؛ فهزمته في مرعش عام ١٦٠٧م، ثم قتلته عام ١٦١١م. فلجأ من بقي من الأسرة الجنبلاطية إلى حلفائهم الدروز المعنيين في الشوف عام ١٦٣٠م واعتنقوا المذهب الدرزي مثلهم.

كانت الدولة العثمانية، قد عهدت إلى الأسرة المعنية بإمارة منطقة الشوف، وكلفت الأمير المعني بجمع الضرائب من العائلات الإقطاعية في جبل لبنان، وبتوطيد الأمن فيه. وقد تمكن فخر الدين المعني الثاني (١٥٩٠ ــ ١٦٣٥م)، من توسيع نفوذه، فقضى على منافسة: آل سيفا، وآل عساف في منطقة طرابلس، وبسط سلطته على البقاع ومعظم مناطق فلسطين. واعتمد في موارده الاقتصادية على إنتاج الحرير الطبيعي في منطقة الشوف وتسويقه إلى دويلات إيطاليا، كما استند في قوته العسكرية على أتباعه الدروز ومؤيديه من الحزب القيسي، بالإضافة إلى جيش من المرتزقة. وعندما أحسّ فخر الدين من الدولة وحشة، سافر إلى إيطاليا وعاش عند أصدقائه من آل ميديتشي في توسكانيا (١٦١٣ ــ ١٦١٨م). وأخذ، بعد العفو عنه وعودته إلى بلاده، يوطد سلطته من جديد، فهزم والي دمشق في موقعة «عنجر» عام ١٦٢٣م. وكانت الدولة العثمانية منشغلة باحتلال الصفويين لبغداد، فاعترفت به أميراً على المناطق الممتدة بين أنطاكية والعريش وتدمر، فشيّد فيها الحصون، وأقام الحاميات، ولقب نفسه بسلطان البر، وعندما ازدادت قوته قرر السلطان مراد الرابع التخلص منه عام ١٦٣٥م. واستمرّت الأسرة المعنية في الحكم حتى وفاة الأمير أحمد عام ١٦٩٧م دون أن ينجب ولداً ذكراً. وقد اتجهت الدولة إلى دعم الحزب اليمين وآل علم الدين مناوئي المعنيين. فاجتمع المعنيون وأنصارهم من القيسيين وانتخبوا إبن أخت الأمير أحمد وهو بشير الشهابي. وقد أدّى هذا التكتل إلى تكتل الحزب اليميني. والتقى الطرفان في معركة «عين داره» عام ١٧١١م. فانهزم الحزب اليمينيّ، ولجأ من سلم منه إلى جبل حوران (جبل الريان)؛ فأطلق عليه اسم «جبل الدروز». وبدأ الحزب القيسي ينقسم على نفسه إلى جنبلاطية وأرسلانية ــ يزبكية. ونافس الجنبلاطية الأمراء الشهابيين وبخاصة الأمير بشير الثاني الشهابي (١٧٨٨ ــ ١٨٤٠م).

تزايد النفوذ المحلي في بلاد الشام في القرن الثامن عشر

ازداد ضعف الدولة بسبب انحدار قواتها أمام روسيا، وأمام الفرس وبخاصة زمن نادر شاه، الذي أطاح بحكم الصفويين وحلّ مكانهم. وقد أدى انحطاط القوة العثمانية إلى تعاظم النفوذ المحلّي في بلاد الشام واشتهار بعض العائلات مثل آل العظم، الذين حكموا ولاية دمشق حوالي ستين عاماً بصورة متقطعة، كما حكموا ولايات صيدا وطرابلس وحلب، وكان من أشهرهم أسعد باشا العظم، الذي حكم دمشق ما بين عام ١٧٤٣ ــ ١٧٥٧م. وحقق هؤلاء أمن وسلامة قافلة الحج بين دمشق والحجاز، كما وطّد آل العظم سلطتهم في منطقة

حماة ـــ معرة النعمان. سيطروا حوالي منتصف القرن السابع عشر على أراضٍ واسعة عن طريق التزام ضرائبها مدى الحياة (المالكانة)، كما اشتهرت الأسرة الزيدانية، ومن أبرزها ظاهر العمر الزيداني (١٧٣٥ ـــ ١٧٧٥م)، الذي تحدّى سلطة ولاة دمشق وامتنع عن دفع الضرائب لهم، وبسط نفوذه على حيفا، وحصّن عكا بعدما استولى عليها. وقد ساعد ذلك أحمد باشا الجزار فيما بعد على أن يتحدّى بحصونها قوات نابليون بونابرت عام ١٧٩٩م.

وتحالف ظاهر العمر مع عدد من القبائل المحلية عن طريق المصاهرة، واستغلّ الازدهار الاقتصادي في المنطقة، فجمع المال واستأجر قوات من المرتزقة، واستغل الظروف السياسية، التي كانت تمر بها بلاد الشام، إذ كان ولاة الشام مشغولين بتوطيد الأمن وحماية قوافل الحجاج، والمتنفذون في جبل لبنان تتملكهم الخلافات، كما كانت المنازعات تسيطر على الأسر الكبيرة في منطقة جبل عامل. كل ذلك ساعد ظاهر العمر على توطيد سلطته، كما استغلّ قيام الحرب العثمانية الروسية (١٧٦٨ ـــ ١٧٧٤م)؛ فتحالف مع حاكم مصر الفعلي علي بك المملوكي، وهاجما دمشق معاً واحتلاها لمدة عشرة أيام بين ٨ ـــ ١٨ حزيران عام ١٧٧١م، مما أثار غضب السلطان وحقده. وقد ضعفت قوة ظاهر العمر بسبب اتّساع رقعة منطقته وتنازع أبنائه معه وفيما بينهم وهم ينتسبون إلى أمهات من قبائل مختلفة، وقد أدّت هذه المنازعات إلى انحطاط المنطقة اقتصادياً، وضعف مواردها. وما كاد السلطان يفرغ من قتاله للروس حتى أرسل حملة بحرية وأخرى برية، قضت على ظاهر العمر عام ١٧٧٥م، وكان حليفه علي بك، قد لقي حتفه على يد قائده لحملة الشام «محمد أبو الذهب». وقد توفي هذا الأخير وهو في طريقه إلى بلاد الشام لتأديب ظاهر العمر عام ١٧٧٥م، وبوفاته أصبحت المنطقة تعاني فراغاً سياسياً، استغله أحد ضباط الجيش العثماني وهو أحمد باشا الجزار، وكان قد قضى على ظاهر العمر، لقد برز أحمد باشا الجزار ـــ وهو من أصل مملوكي ـــ بقتاله للبدو في مصر، واكتسب لقب الجزار بسبب ذلك، ثم أصبح والياً على صيدا، ونجح في الحصول على ولاية دمشق أربع مرات، وقد خلفه في حكم صيدا أحد مماليكه وهو سليمان باشا العادل (١٨٠٤ ـــ ١٨١٩م)، ثم خلفه في ولاية صيدا عبد الله باشا (١٨١٩ ـــ ١٨٣١م). وقد حدثت في بلاد الشام تطورات على مستوى المؤسسات في المدن، فقد ازدادت سيطرة أهالي دمشق من خلال طائفة الانكشارية البرلية، وكذلك سيطرة أهالي حلب من خلال الأشراف. وفي عام ١٧٢٥م، قاد مفتي دمشق الحنفي «محمد خليل أفندي البكري الصدّيقي» الدمشقيين في ثورة على الوالي العثماني بسبب ظلمه، كما طرد سكان دمشق واليهم الظالم عام ١٧٣٨م، واشتهرت الطوائف الحرفية بحمل السلاح للدفاع عن مصالح أفرادها بسبب عجز الدولة عن القيام بذلك. ولم يخل الريف أيضاً من ثورات من قبل الفلاحين أو البدو، وكان من أبرز القبائل البدوية قبيلة عنزة، التي سيطرت على بادية الشام، وهددت طريق التجارة بين دمشق وبغداد.

ظهور الوعي القومي العربي في القرن التاسع عشر وقيام الثورة العربية على العثمانيين عام ١٩١٦

شهدت بلاد الشام في القرن التاسع عشر تحولات سياسية واقتصادية واجتماعية، تمّت بفعل عدة عوامل أهمها: محاولات الإصلاح العثمانية، وحكم محمد علي باشا لبلاد الشام (١٨٣١ ـــ ١٨٤٠م)، والتدخل الأوروبي الاستعماري، ونشوء الوعي القومي. ففي مجال الإصلاحات العثمانية، نجد أنها تجسدت في إلغاء الجيش الانكشاري عام ١٨٢٦، وتأسيس جيش على الطراز الأوروبي، وإصدار صكين (خط شريف كولخانة، وخط همايون)، ينصان على تحقيق المساواة بين جميع المواطنين على اختلاف مذاهبهم وأديانهم، وبلغ الإصلاح ذروته بإعلان الدستور عام ١٨٧٦م، ولكن السلطان ما لبث أن علقه.

وقد تمّت تحولات هامة في عهد محمد علي في بلاد الشام، فقد حقّق إبنه إبراهيم باشا الأمن في ربوعها وشجع الزراعة، وأدخل البدو في الجيش الذي سخره لخدمتها، ولم يرهق الأهلين بالضرائب الكثيرة، وفرض ضريبة على الأفراد ومقدارها يتناسب وقدرة الفرد المادية. وقد أثار الحكم المصري الأهلين بمصادرته المؤن أو شرائه لها بأسعار متدنية، ومصادرة حيوانات النقل، وتجنيد أفراد الشعب، ونزع السلاح. وما لبثت أن قامت الثورات ضد حكم إبراهيم باشا، بدءاً من عام ١٨٣٥م، وأبرزها في ريف فلسطين واللجاة وجبال اللاذقية. لقد فتح محمد علي باشا الباب على مصراعيه في بلاد الشام، كما في مصر للنفوذ

الأوروبي، وسمح لأول مرة بإقامة قناصل أوروبيين في دمشق، كما أدخل المؤسسات التبشيرية الأوروبية، وأتاح لها ولمدارسها العمل بحرية، وطبق التسامح الديني والمساواة بين الطوائف، واعتمد على قوات حليفة «بشير الثاني الشهابي» والمؤلفة في معظمها من المسيحيين في إخماد الثورات، مما زاد في اشتداد العداء بين الطوائف الدينية، كما أدى التدخل الأوروبي، إثر انسحاب قوات محمد علي من بلاد الشام وعودة العثمانيين لفرض نفوذهم، ومحاولة أصحاب الإقطاع في إعادة هيمنتهم، وتباين الثروات بين الفئات الاجتماعية، أدى كل ذلك إلى اضطرابات اجتماعية واسعة، بدأت في جبل لبنان إثر إلغاء حكم الأسرة الشهابية، وإقامة قائمقامية درزية ومارونية عام ١٨٤٣م. وقد شهد جبل لبنان ثورة فلاحية للتخلص من الإقطاع، كان من أشهرها ثورة الفلاحين الموارنة بزعامة «طانيوس شاهين» في منطقة كسروان عام ١٨٥٨م، وبانتقال الثورة إلى المناطق الدرزية، تحولت إلى حرب طائفية بتدخل الدول الاستعمارية وتواطؤ من الدولة العثمانية، وانتهت بأحداث عام ١٨٦٠م، التي كان لرجالات دمشق وعلمائها وبخاصة الأمير عبد القادر الجزائري، موقف مشرِّف في منع الفتنة وإخمادها قبل اتساعها. واضطرت فرنسا إلى سحب قواتها من لبنان بعدما أنزلتها فيه. وقد نبه خطر الطائفية الأفكار إلى الحذر من شرّها، فتضاعفت الجهود للتأكيد على وحدة الانتماء والمصير، وظهرت حركة قومية عربية تدعو إلى التآخي بين المواطنين على اختلاف مذاهبهم. وقد بدأ الوعي القومي بالكشف عن تراث الأمة ومنجزاتها الحضارية، وبرز العديد من الأدباء في هذا المضمار منهم: ناصيف اليازجي وابنه إبراهيم، وبطرس البستاني الذي جعل من الحديث الشريف «حب الوطن من الإيمان» شعاراً لصحيفة «نفير سورية» التي صدرت عام ١٨٦٠م، كما لعبت الصحافة والمجلات العلمية دوراً هاماً في نشر الوعي القومي، ومنها «الجوانب» لأحمد فارس الشدياق، وقد سهل انتشار المطابع نشر الثقافة وإغناء الفكر، كما ظهر العديد من الجمعيات كالجمعية العلمية السورية، التي تأسست عام ١٨٥٧م، وكان للاتجاهين العلماني والديني، أثرهما الكبير في تفتح الوعي القومي، فبرز من رجالات الاتجاه الأول الطبيب الحلبي فرنسيس مرّاش، شبلي شميل، فرح أنطون الطرابلسي. أما في الاتجاه الديني، فقد برز من رجالاته جمال الدين الأفغاني، الذي دعا إلى توحيد العالم الإسلامي في ظل خليفة مسلم، وعارض ظلم الحكام والتدخل الأجنبي. ثم الشيخ محمد عبده الذي تعاون مع الأفغاني في إصدار جريدة «العروة الوثقى»، وقد آمن بالوطن وبدور التاريخ المشترك والمصالح المشتركة في إيجاد رابطة قوية بين أبناء الوطن الواحد، واشترك معه في ذلك «محمد رشيد رضا الطرابلسي»، صاحب جريدة المنار، ووقف إلى جانب العرب ضد العثمانيين، ووجد في سياسة التتريك خطراً على العرب ولغتهم، ويعتبر عبد الرحمن الكواكبي، الحلبي الأصل (١٨٤٩ ـ ١٩٠٢م) من الموفّقين بين الاتجاهين العروبي والإسلامي. فقد دعا إلى إقامة الخلافة، شريطة أن يكون الخليفة عربياً، ووقف ضد الاستبداد، وعبَّر عن أفكاره في كتابيه «أم القرى» و«طبائع الاستبداد»، وقد عدَّ الكواكبي العروبة والإخلاص للوطن، مقياس الولاء بين أفراد الأمة. وظهر مفكر آخر هو نجيب عزوري، الذي أسس في فرنسا «عصبة الوطن العربي» وأصدر بالفرنسية كتاباً عن يقظة الأمة العربية، ثم مجلة «الاستقلال العربي». وقال، وهو المسيحي، برئاسة سلطان عربي مسلم للدولة العربية العتيدة، وبإقامة خليفة عربي في الحجاز. وكان أول من نبَّه إلى مطامع الصهيونية في فلسطين. كان كل هذا يشكل المرحلة الفكرية في نشوء الوعي القومي العربي. أما على الصعيد العملي السياسي، فقد ظهر أول جهد منظم عام ١٨٧٥، حيث حضَّت جمعية سرية في بيروت الشعب على الثورة على الأتراك، فوزعت النشرات والملصقات ونادت باستقلال سورية موحدة مع لبنان وبالاعتراف بالعربية لغة رسمية في البلاد، وبإزالة الرقابة على التعبير والفكر، وباستخدام الفرق العسكرية العربية في الخدمة المحلية فقط. وإذا كان هذا الجهد السياسي، قد فشل في تحقيق أهدافه؛ فإنه قد بلور هذه الأهداف، وأعطى العمل القومي بعداً واضحاً.

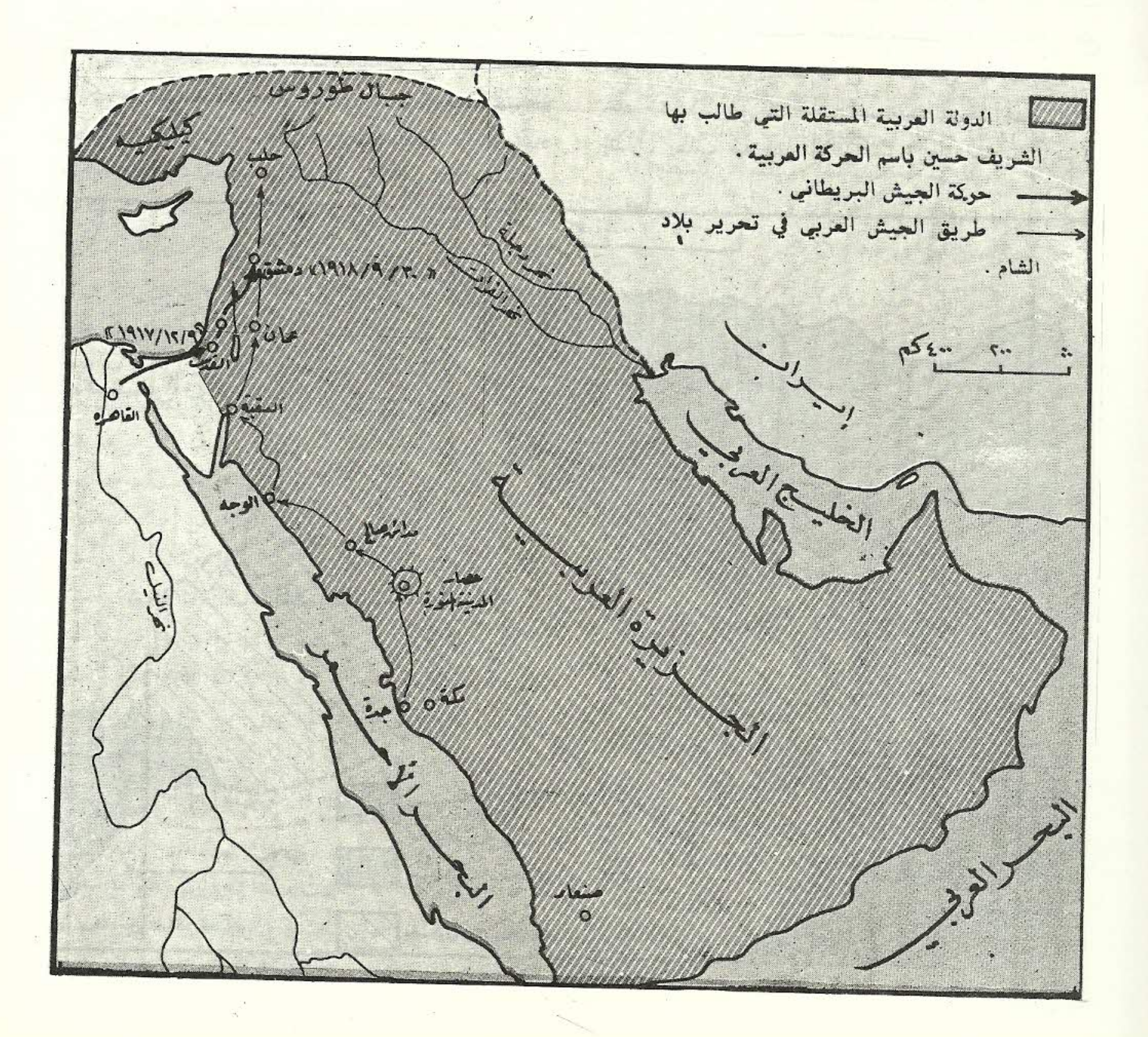
وفي أعقاب الإطاحة بحكم السلطان عبد الحميد الثاني، ظهر تياران سياسيان بين العرب: تيار معتدل يدعو إلى التعاون مع الأتراك، ضمن دولة عثمانية على أساس المساواة والاعتراف باللغة العربية لغة رسمية، ومثل هذا الاتجاه جمعية الإخاء العربي العثماني، التي تأسست في استانبول عام ١٩٠٨، والمنتدى الأدبي، الذي تأسس في استانبول عام ١٩٠٩م، وحزب اللامركزية الذي تأسس في القاهرة عام ١٩١٢م. ثم ظهر تيار متطرِّف، ينادي بالاستقلال الذاتي للأقطار العربية، تطوّر إلى المناداة بالاستقلال الكامل بسبب نكوث جمعية «الاتحاد والترقي» بوعودها للعرب وتبنيها القومية الطورانية. وأحاط

أصحاب هذا التيار جهودهم بالسرّية التامة، وكانت بلاد الشام المركز الرئيسي له وقد تمثل في عدة جمعيات أهمها: الجمعية القحطانية، التي تأسست عام ١٩٠٩م في الآستانة. وقد دعت إلى قيام حكومة ثنائية، تتألف من العرب والأتراك على غرار الإمبراطورية النمساوية ــ الهنغارية. ثم «الجمعية العربية الفتاة»، التي أسسها طلاب عرب في باريس عام ١٩١١م. ودعت إلى الاستقلال الداخلي وانتقل مقرها إلى بيروت فدمشق. وعقد في هذه الأثناء مؤتمر عربي في باريس في حزيران عام ١٩١٣م برئاسة عبد الحميد الزهراوي. فطالب المؤتمرون بالحكم الذاتي وجعل اللغة العربية لغة رسمية وأن تكون الخدمة العسكرية للعرب محلية. وقد تابع العرب عملهم السرّي وتجلى ذلك في جمعية العهد، التي انتسب إليها الضباط العرب في الجيش العثماني، وبرز فيها ضباط عراقيون وسوريون إلى جانب مؤسسها عزيز علي المصري.

سورية منذ الثورة العربية الكبرى حتى الوقت الحاضر

د. أحمد طربين

عندما سيطر الاتحاديون على الدولة العثمانية، انقسم زعماء العرب تجاهها إلى فريقين، كان الأكبر منهما مؤيداً لسياسة اللامركزية، التي تجلت في مقررات مؤتمر باريس العربي عام ١٩١٣. ولما قام جمال باشا السفاح بجريمته في ٦ أيار عام

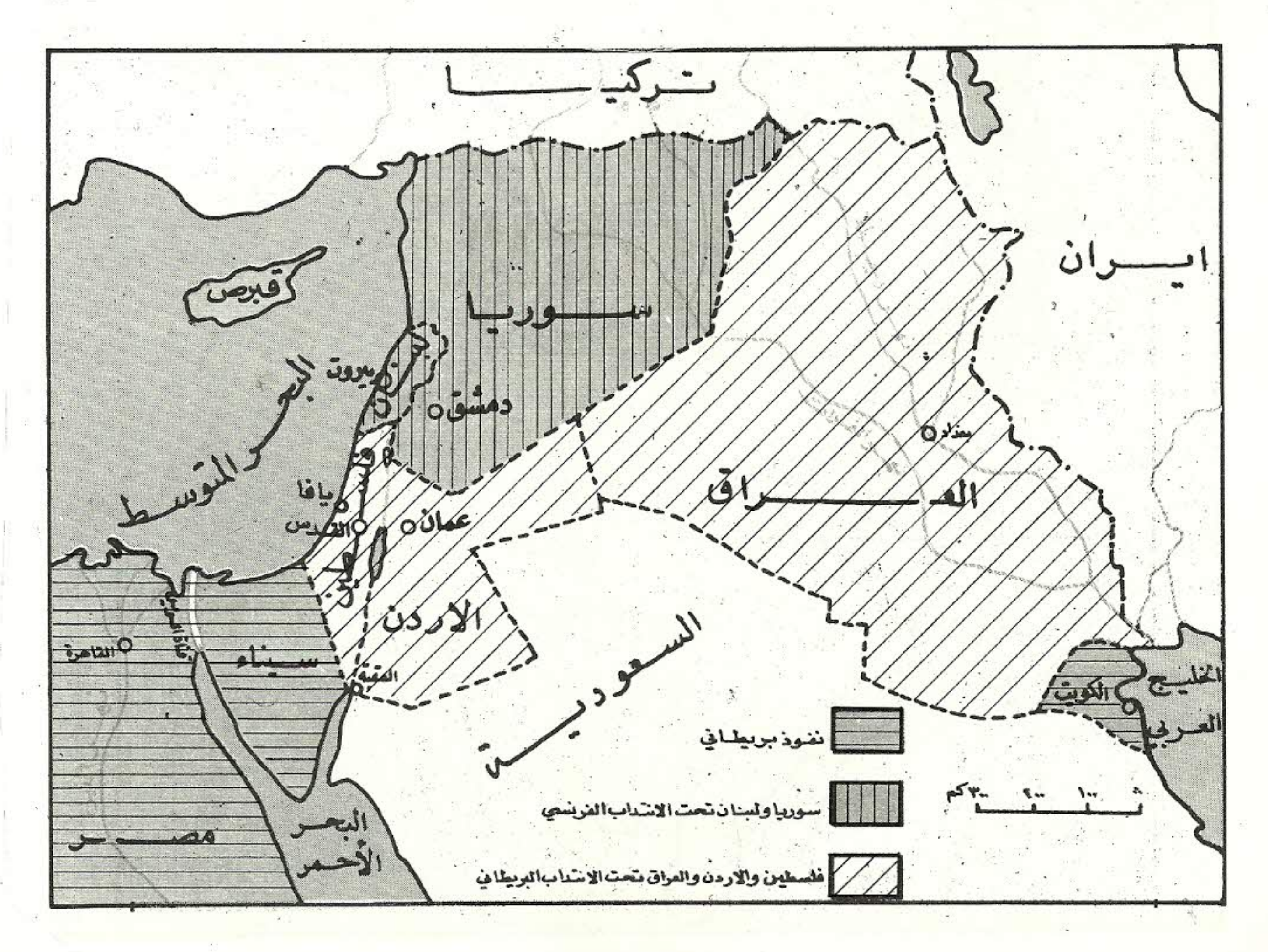


١٩١٦، اشتد الفريق الثاني وأخذ ينادي بضرورة انفصال العرب عن الترك، وإنشاء دولة عربية موحدة، وعلى هذا الأساس بدأت المفاوضات بين الحسين، شريف مكة، ومندوبي بريطانيا، لإقامة تلك الدولة المستقلة، التي تشمل بلاد الشام والعراق وشبه الجزيرة ـــ باستثناء عدن ـــ.

أطلق الشريف حسين رصاصته الأولى، معلناً الثورة العربية الكبرى، للتخلص من الحكم العثماني في ١٠ حزيران عام ١٩١٦م، واتجهت قواته شمالاً، مشاركةً القوات البريطانية في طرد الجيوش العثمانية من بلاد الشام.

لقد كانت فكرة الدولة العربية الموحدة ـــ إبان الحرب العالمية الأولى ـــ أملاً منوطاً بتحقيق وعود الحلفاء للعرب، الذين ساعدوهم ساعة الشدة، إلا أن هذا الأمل سرعان ما تبدّد لأن بريطانيا، حليفة العرب آنذاك، ارتبطت مع فرنسا باتفاقية سايكس ـــ بيكو السرية في عام ١٩١٦، ومع الصهيونية بوعد بلفور عام ١٩١٧م. وبينما قام العرب بتنفيذ التزاماتهم تجاه حلفائهم، أخلف هؤلاء وعودهم، ولم يكتفوا بذلك، بل راحوا أيضاً يعملون لتمزيق أوصال الدولة العربية الوليدة، وتفتيت قواها، وذلك حينما توصلوا إلى المصادقة على توزيع الغنائم في مؤتمر سان ريمو عام ١٩٢٠ بين فرنسا وبريطانيا، ونُودِيَ باستقلال سورية وسيادتها، وشكلت الحكومة العربية بقيادة الملك فيصل بن الحسين في ٨ آذار عام ١٩٢٠، وتكونت في البلاد نواة الجيش العربي والحكومة وازداد الشعب إيماناً بأهدافه القومية.

انتدبت فرنسا، بمقتضى مؤتمر سان ريمو، على سورية ولبنان، كما انتدبت إنكلترا على العراق وشرقي الأردن وفلسطين، مع التزام بريطانيا بتنفيذ وعد بلفور، الذي نص عليه صك الانتداب، إلا أن سلسلة الحوادث والصدام غير المتكافئ مع الفرنسيين، أدى إلى القضاء على الحكم العربي بدمشق في تموز عام ١٩٢٠. ففي ١٤ من الشهر نفسه، وجه الجنرال غورو إنذاراً، يطلب فيه قبول الانتداب، وإلغاء التجنيد وتسريح



الجيش، وأتبع ذلك باحتجاج بتأخر الرد إليه في الوقت المحدد — وقد ثبت بطلان هذا الزعم فيما بعد — وأمر قواته بالزحف نحو دمشق.

وسارع السوريون للدفاع عن استقلالهم الوليد، فوقعت معركة «ميسلون» في ٢٤ تموز عام ١٩٢٠، التي استشهد فيها وزير الحربية، يوسف العظمة، وفي اليوم التالي دخل جيش الاحتلال دمشق وبدأ عهد الانتداب.

سورية تحت الانتداب الفرنسي

منذ أن أعلنت مقررات مؤتمر سان ريمو في ٢٥ نيسان عام ١٩٢٠، سارعت فرنسا، التي كانت تحتل الساحل السوري، إلى إتمام احتلال سورية الداخلية، أما القسم الجنوبي منها والممتد من جنوبي درعا حتى خليج العقبة (إلى الشرق من نهر الأردن)؛ فقد أدخل في منطقة انتداب بريطانيا كجزء من انتدابها على فلسطين، وأوجدت إمارة مستقلة عن فلسطين وعن سورية، أصبحت تعرف باسم إمارة شرقي الأردن ونصّب عليها عبد اللّه بن الحسين أميراً في عام ١٩٢٢.

ومنذ أول أيلول عام ١٩٢٠ بدأت سلطات الاحتلال الفرنسي بتنفيذ سياسة فرّق تسد، حيث قسمت البلاد إلى أربع دويلات وهي: دولة دمشق، ودولة اللاذقية، ودولة جبل العرب، ودولة حلب، التي ألحق بها لواء الاسكندرونة مع تمتعه بإدارة خاصة. وبدأت مساوئ الاحتلال بالظهور، ففي ميدان التعليم فرضت اللغة الفرنسية، وفي مجال الاقتصاد فتحت أسواق البلاد أمام البضائع الفرنسية، وحاربت التصنيع وأفقرت البلاد، فمنيت بركود لم تعرف له مثيلاً، هذا إضافة إلى امتصاص الرصيد الذهبي، وجشع الموظفين الفرنسيين المتزايد للمال.

وبديهي أن يعبر السوريون عن استيائهم ونقمتهم على الاحتلال ونتائجه، بثورات شملت معظم المناطق السورية، نذكر منها: ثورة أبناء جبال اللاذقية بقيادة الشيخ صالح العلي (١٩١٨ — ١٩٢١)، وثورة الزعيم إبراهيم هنانو وإخوانه في المنطقة الشمالية (١٩١٩ — ١٩٢٦)، وثورة رمضان شلاش في منطقة الفرات (١٩١٩ — ١٩٢٤)، والثورة السورية الكبرى بقيادة سلطان باشا الأطرش (١٩٢٥ — ١٩٢٧)، التي بدأت في جبل العرب وسرعان ما انتشرت في مدينة دمشق وغوطتها ومنها انتقلت إلى القلمون ومنطقتي حمص وحماة وباديتهما، كما وصلت إلى جبل الشيخ وما جاوره من مناطق ضمت فيما بعد إلى دولة لبنان الكبير على غير رضا من أهلها. وخرج من هذه الثورات أبطال، أصبحُوا مثالاً للبطولة والتضحية، منهم: حسن الخراط، ومحمد الأشمر، وأحمد مريود، ونظير النشواتي، ونجيب عويِّد، وعمر البيطار، وغيرهم.

اضطر الفرنسيون، إزاء تصاعد السخط الشعبي في سورية، لإقامة الاتحاد السوري بين دول دمشق وحلب واللاذقية وذلك في حزيران عام ١٩٢٢، ثم عمد الجنرال ويغان إلى إخراج المنطقة الساحلية من الاتحاد وقصَرَهُ على دمشق وحلب وأسماه دولة سورية، كما حل ارتباط لواء الاسكندرونة بدولة حلب. وعندما جاء الجنرال ساراي، تظاهر بميله إلى اتباع سياسة الحوار والتفاهم، فتقدمت البلاد في حينها بمطالبها في الوحدة والاستقلال، ولما جاءه وفد من جبل العرب لينصفهم من حاكمهم كاربييه، رفض مقابلتهم، بل اعتقلهم ونفى زعماءهم، فكان هذا من أول الأسباب في اندلاع الثورة السورية الكبرى، التي تمكن رجالها من دخول مدينة دمشق بهدف اعتقال ساراي نفسه، الذي تمكن من الهرب بعد أن أمر بقصف المدينة بالمدفعية وبقنابل الطائرات خلال يومي ١٨و١٩ تشرين الأول عام ١٩٢٥. فدمرت أحياء بكاملها في قلب المدينة — منطقة الحريقة — واضطر الثوار إلى الانسحاب صوناً لها وحفاظاً عليها من التدمير الشامل، وإزاء موجة الاستنكار الدولي العنيف، التي نجمت عن هذا التصرف الشائن من قبل فرنسا، استدعت مندوبها السامي ساراي وعينت دوجوفنيل، الذي دعا إلى وقف حدة الثورة، ثم أعلن عن إجراء انتخابات تؤدي لوضع دستور للبلاد، وتم الاتفاق مبدئياً على أسس لمعاهدة، رفضتها الحكومة الفرنسية، وأتبعت ذلك بتغيير لمندوبها السامي، حيث عينت بونسو، الذي توقفت في عهده الثورة السورية الكبرى في نيسان عام ١٩٢٧، اعتماداً على الأسس السابقة. وتم وضع دستور للبلاد في عام ١٩٢٨، إلا أنه لم يعلن عنه حتى عام ١٩٣٠، وانتخب بموجبه «محمد علي العابد» أول رئيس للجمهورية وذلك في ١٢ حزيران عام ١٩٣٢ ولمدة خمسة أعوام.

وفي عام ١٩٣٣ عينت فرنسا دومارتيل، مفوضاً سامياً؛ فعرض على المجلس النيابي، مشروع معاهدة صداقة وتحالف بين فرنسا وسورية، رفضها الوطنيون، فتعطلت أعمال المجلس

وازدادت الاضطرابات، فبلغت ذروتها في الإضراب الستيني، الذي انتهى في ٨ آذار عام ١٩٣٦، برضوخ فرنسا للمطالب السورية وقبول مبدأ الاستقلال والوحدة، فجرت انتخابات في ٣٠ تشرين الثاني عام ١٩٣٦، فاز فيها الوطنيون، فاستقال محمد علي العابد في ٢٠ كانون الأول عام ١٩٣٦، قبل انتهاء ولايته، وانتخب هاشم الأتاسي في اليوم التالي. وتم عندها التوقيع على مشروع معاهدة صداقة وتحالف بين الطرفين، مدتها خمسة وعشرون عاماً. وقد أطلق على التنظيم السياسي، الذي يجمع الوطنيين — آنذاك — اسم «الكتلة الوطنية».

ماطلت الحكومة الفرنسية في التصديق على المعاهدة. وسحبت مندوبها السامي الكونت دومارتيل، الذي عقد مشروع المعاهدة في عهده، وعينت بدلاً منه «غبرييل بيو» في ٥ كانون الثاني عام ١٩٣٩، فأعلن أن الحكومة الفرنسية عدلت عن سياسة المعاهدة وعادت إلى سياسة الانتداب، كما أثارت في وجه الحكم الوطني العديد من المشكلات، كان أهمها مشكلة لواء الاسكندرونة. فقد استغلت تركيا اضطراب الجو الدولي، وتآمرت مع فرنسا وبريطانيا وطالبت بضم لواء الاسكندرونة، فاستجابت فرنسا لذلك لرغبتها بكسب ود تركيا، حيال خطر نشوب الحرب مع ألمانيا، ووافقت حليفتها بريطانيا على ذلك، وكانت النتيجة سلخ اللواء عن سورية وضمه إلى تركيا في حزيران عام ١٩٣٩، بعد استفتاء مزيف على تقرير المصير، جرى في اللواء، وكشف عن فساد الاقتراع، الذي هيأه الترك والفرنسيون.

في هذا الجو المضطرب، لجأ بيو في تموز عام ١٩٣٩ إلى حل المجلس النيابي واستقال هاشم الأتاسي في ٧ تموز، وبدأت سلطة «حكومة المديرين» التي شكلها المندوب السامي في ١٠ تموز عام ١٩٣٩ وعمدت إلى القبض على عدد من الوطنيين والحكم عليهم بالسجن والنفي.

عادت البلاد إلى نضالها المرير من جديد، إلا أن قيام الحرب العالمية الثانية في خريف عام ١٩٣٩، أجبر الوطنيين على التخفيف من حدة نشاطهم، منتظرين بذلك نتائج الصراع الدولي، وسرعان ما هزمت فرنسا أمام ألمانيا في حزيران عام ١٩٤٠، وأرسلت حكومة فيشي، الجنرال «دانتز» خلفاً لبيو؛ فاستقبله السوريون بالمطالبة بإلغاء الانتداب وإعلان الاستقلال، وقامت في البلاد اضطرابات دامية، أجبرت الجنرال الجديد على إنهاء حكم المديرين وتشكيل وزارة في نيسان عام ١٩٤١ برئاسة خالد العظم، وبعد أقل من شهرين هاجمت القوات البريطانية وقوات فرنسا الحرة سورية وأعلن الجنرال كاترو في ٨ حزيران عام ١٩٤١، استقلال سورية وأصدر السفير البريطاني في القاهرة بياناً باسم حكومته، يؤيد فيه ما أعلنه كاترو.

وبتاريخ ١٢ أيلول عام ١٩٤١ عين كاترو الشيخ تاج الدين الحسني رئيساً للجمهورية، وفي ٢١ من الشهر نفسه، أعلن إلغاء الانتداب واستقلال سورية ووحدتها، وإثر وفاة الشيخ تاج في ١٠ كانون الثاني عام ١٩٤٣ طالب الوطنيون بإجراء انتخابات وتم ذلك وانتخب شكري القوتلي رئيساً للجمهورية في ١٧ آب عام ١٩٤٣، وألف سعد الله الجابري الوزارة، التي كان من أول أعمالها إعلان الحرب على دول المحور ليكون لها الحق في المشاركة في مباحثات إنشاء هيئة الأمم المتحدة. وجرت المفاوضات لاستلام الحكومة، الصلاحيات من دولة الانتداب، وكان هذا في عام ١٩٤٤، إلا أن فرنسا احتفظت بالسيطرة على الجيش والجمارك والهاتف.

وفي ١٨ أيار عام ١٩٤٥، قدّم الجنرال «بينه»، مندوب فرنسا، مذكرة إلى الحكومتين السورية واللبنانية، جاء فيها أن حكومته مستعدة لتسليم الجيش إلى سورية ولبنان مع إبقائه تحت القيادة العليا الفرنسية، على شرط ضمان مصالح فرنسا الثقافية والاقتصادية والاستراتيجية في البلدين. وفي اليوم التالي تداولت الحكومتان السورية واللبنانية، الموقف الناشئ عن إنزال فرنسا جنوداً لها في البلاد، واتفقتا على عدم الدخول في مفاوضات لعقد أية معاهدة مع الجانب الفرنسي قبل تسليم كافة الصلاحيات بما فيها الجيش، ومن ثم جلاء آخر جندي فرنسي عن أرض البلدين.

وفي مساء ٢٩ أيار من عام ١٩٤٥، فوجئ الشعب السوري، بقصف عنيف من قبل طائرات الفرنسيين ومدفعيتهم، على مدن دمشق وحمص وحماة وحلب ودير الزور والرقة ودرعا؛ فدمروها ونهبوا أسواقها، كما سقطت قذائف مدفعية الهاون والمصفحات على مبنى المجلس النيابي، ومُثِّل بحاميته بعد نفاذ ذخيرتها، أبشع تمثيل، مما دعا الحكومة البريطانية لأن تطلب وقف إطلاق النار وإعادة الجنود المسعورين إلى معسكراتهم. فاستجاب القائد الفرنسي مكرهاً.

وفي ١٣ كانون الأول عام ١٩٤٥، اتفقت فرنسا مع بريطانيا على تبادل الرأي، بشأن تجميع قواتهما وإجلائهما تدريجياً عن البلاد واعترفت بريطانيا بما لفرنسا من مصالح ومسؤوليات في منطقة شرقي البحر المتوسط، وقوبلت تلك المؤامرة الاستعمارية الجديدة بالاستنكار الشديد، حيث التجأت الحكومتان السورية واللبنانية في شباط عام ١٩٤٦ إلى مجلس الأمن، مطالبتين بسحب القوات الأجنبية من بلادهما فوراً، فصدر قراره بالجلاء الفوري، الذي تم عن سورية في ١٥ نيسان عام ١٩٤٦، إلا أن الحكومة قررت الاحتفال به بعد يومين؛ أي في ١٧ نيسان، وجعلته عيداً قومياً، وكان خاتمة للنضال المرير الذي خاضه الشعب ضد الاحتلال الفرنسي.

سورية منذ فجر الاستقلال حتى الوقت الحاضر

نامت سورية ليلة الجلاء ملء جفونها، بعد أن كسبت معركة التحرر من ربقة الاستعمار، واستكملت شروط سيادتها، وبدأت توجه جلّ اهتمامها للنهوض بالبلاد من النواحي الاجتماعية والاقتصادية، فوسعت الجامعة السورية، ونشطت الصناعة الوطنية، وطبقت الحماية الجمركية وأممت الشركات الأجنبية ـــ شركة الكهرباء ـــ والمصارف. وكانت قد اشتركت في مباحثات الوحدة العربية التي جرت في مصر ـــ (تشرين الأول عام ١٩٤٣ ـــ آذار عام ١٩٤٥) ـــ، إلا أن معظم ممثلي الدول العربية آنذاك، عارضوا اقتراح إقامة نظام اتحادي ذي سلطة تنفيذية ملزمة واكتفوا بإيجاد نظام جامعة الدول العربية وقرارته بحسب الميثاق، الذي وقع في ٢٢ آذار عام ١٩٤٥، لا تلزم إلا من يقبلها، كما شاركت سورية في وضع ميثاق الأمم المتحدة في سان فرانسيسكو، ٢٥/٤ ـــ ٢٦/٦/١٩٤٥، إذ كان يرأس وفدها آنذاك الأستاذ فارس الخوري، وبه أصبحت عضواً في تلك الهيئة الدولية.

لم تكد سورية تلتقط أنفاسها، وتلتفت إلى إصلاح ما أفسده ربع قرن من الاحتلال حتى واجهت أزمات عصيبة، منها قرار الأمم المتحدة، القاضي بتقسيم فلسطين بين العرب واليهود في ٢٩ تشرين الثاني عام ١٩٤٧. فعمت معظم البلاد العربية موجة من الاستياء والهيجان، تدعو إلى تحرير فلسطين، كما واجهت سورية ضغط الدول الاستعمارية عليها لأسباب متعددة، منها قضية النقد السوري، وفك ارتباطه بالفرنك الفرنسي، وقضية مرور أنابيب نفط شركة أرامكو واتفاقيات الطيران.

وقد عبرت الجماهير في سورية عن استيائها من ضعف الحكم القائم وخيبة الأمل من نتائج حرب فلسطين، التي شارك فيها الجيش السوري على الرغم من قلة عدده وعدته. وعلى أثر كارثة فلسطين والاستياء الذي عـمّ البلاد، قامت خلال عام ١٩٤٩، ثلاثة انقلابات عسكرية، كان أولها انقلاب حسني الزعيم في ٣٠ آذار، ثم وقع انقلاب سامي الحناوي في ١٤ آب، الذي أعلن أنه قام بانقلابه لينفذ الأهداف، التي تنكر لها حسني الزعيم. وفي ١٩ كانون الأول عام ١٩٤٩، وقع انقلاب أديب الشيشكلي، الذي أعلن أنه جاء لإنقاذ نظام سورية الجمهوري ومنعها من الوقوع تحت النفوذ البريطاني، والاتحاد مع العراق الملكي.

وظهرت معارضة واضحة ضد حكم أديب الشيشكلي منذ عام ١٩٥٣، فاضطر إلى مغادرة سورية في ٢٦ شباط عام ١٩٥٤، متوجهاً إلى لبنان ومنها إلى البرازيل. وبسقوطه عادت سورية إلى الحكم الجمهوري النيابي مع دستور عام ١٩٥٠.

ثم أعيد تنصيب هاشم الأتاسي رئيساً للجمهورية، وتشكلت وزارة، برئاسة صبري العسلي، ثم تلتها في حزيران عام ١٩٥٤ حكومة مؤقتة برئاسة سعيد الغزي لتشرف على انتخابات جديدة، تميزت بنزاهتها وحريتها، أعقبتها وزارة فارس الخوري، التي واجهت حلف بغداد الاستعماري. وبعد انتهاء ولاية هاشم الأتاسي في أيلول عام ١٩٥٥، أعيد انتخاب شكري القوتلي، رئيساً للجمهورية السورية من جديد. وفي شباط عام ١٩٥٦ وجه الرئيس القوتلي نداء إلى الأحزاب والكتل والهيئات، يدعوها إلى عقد ميثاق قومي، واجتمع إلى الرئيس المصري جمال عبد الناصر، في أسوان والقاهرة، ومع الملك سعود في آذار عام ١٩٥٦، وأصدروا بياناً برفض الأحلاف، وتباحثوا في تنسيق الدفاع عن الوطن العربي. وفي حزيران عام ١٩٥٦، شكل صبري العسلي وزارة الميثاق القومي، وافق المجلس النيابي بالإجماع على بيانها، الذي تضمن مقاومة الاستعمار والصهيونية وإسرائيل، وذلك بعدم الاعتراف باغتصاب فلسطين، ومقاومة الصلح مع إسرائيل وإحكام مقاطعتها ومقاومة مشاريعها التوسعية ومناهضة الأحلاف العسكرية الأجنبية، وانتهاج سياسة الحياد الإيجابي بين المعسكرين، إضافة إلى انتهاج سياسة تحرير

الدراسات الآثارية العامة

آثار القطر العربي السوري

تعتبر سورية أو بلاد الشام، من أقدم بقاع الأرض ظهوراً للإنسان فيها، ولآثار بدايات حياته على أرضها، واستمراراً لهذه الحياة مع ما يواكبها من ظهور لحضارات متطورة لم تنقطع على مر الأيام وكر العصور، الأمر الذي يحفزنا بعد الدراسة التاريخية المتقدمة لإلقاء نظرة سريعة ومختصرة على أهم آثار القطر العربي السوري.

يعتبر القطر العربي السوري في مقدمة بلدان العالم، التي تزهو بآثارها المنقولة وغير المنقولة، التي خلفتها الحضارات المتعاقبة في مدنها الزاهرة ومواقعها الأثرية وبقاعها المهجورة على مر الأيام والعهود والعصور. وتشكل هذه الآثار — المنقولة وغير المنقولة — مجموعة من الوثائق المادية المهمة، التي يرجع إليها في دراسة الحوادث التاريخية وإدراك مدى تقدم تلك الحضارات المتعاقبة. ففي كل يوم يكتشف أثر جديد، يثير اهتمام الهواة والعلماء المختصين، ويسهم في إغناء مجموعات المتاحف، كما يسهم في الأبحاث التاريخية عمقاً وتحقيقاً في عصرٍ، يعتمد فيه البحث العلمي على التوثيق والتحقيق والتدقيق. فلا عجب بعد هذا إذا اعتبر الباحثون القطر العربي السوري بمثابة «جنة علماء الآثار»، فإليه يتوجهون، وفيه يلتقون ويتناقشون، وفي أرضه ينقبون، وعلى الكثير من آثاره يعتمدون في بحوثهم ودراساتهم.

إن كثيراً من آثار سورية انتقلت إلى خارجها بطرق مختلفة وبخاصة في فترات الاحتلال الأجنبي، وهي اليوم تزين بعض الزوايا والغرف في متاحف باريس وبرلين وكوبنهاغن ولينينغراد وبروكسل وغيرها من متاحف العالم.

ويضم القطر العربي السوري آثاراً من عصور ما قبل التاريخ، كما ظهرت فيه أول أبجدية عرفتها البشرية، وأقدم المنحوتات وأولى التقنيات المهنية، وأقدم النواعير، وأقدم الساعات الشمسية والأعمال الفخارية والزجاجية والمعدنية والنسيجية....

وتتضمن الصفحات القليلة التالية نظرة سريعة على بعض تلك الآثار في مواقعها في القطر العربي السوري، مع ذكر أهم خصائصها، لتكون بعض الشواهد على تلك العصور والعهود التاريخية، التي عرفتها سورية عبر تاريخها الطويل.

خصائص العصور الحجرية ومراكزها الأساسية في سورية

د. سلطان محيسن

إن مصدر معلوماتنا الأساسي عن عصور ما قبل التاريخ هو «البقايا الأثرية» ومعطيات العلوم المساعدة الأخرى، نستنطقها لتدلّنا على الإنسان، الذي أبدعها وكلّ ما يتعلّق به قبل أن يتوصّل إلى معرفة الكتابة.

لقد مرّت ملايين من الأعوام، كانت فيها الحياة معدومة على الأرض، ثم نشأت في المحيطات «الخلية الحية الأولى» تبعها ظهور النباتات البحرية، ثم الحيوانات اللافقارية البحرية، ثم النباتات والحيوانات الفقارية البرية، التي تفرّع منها «الثدييات» وأحد فروعها الرئيسات، التي انتشرت على مساحة كبيرة من العالم، ومنها — في الحقب الجيولوجي الثالث — أسلاف الإنسان، التي بدورها تطوّرت نحو الإنسان نفسه، الذي يعرف فيزيولوجياً وحضارياً بأنه «كائن ذو قامة منتصبة»، له دماغ كبير الحجم ومتطوّر، يمكنه من القيام بالعمليات الذهنية المعقدة للتكيف مع وسطه من خلال الاختراع الواعي والمقصود

للأدوات والأسلحة، التي ساعدته على تأمين غذائه وأمنه، والاستمرار في البقاء وسط الظروف المختلفة.

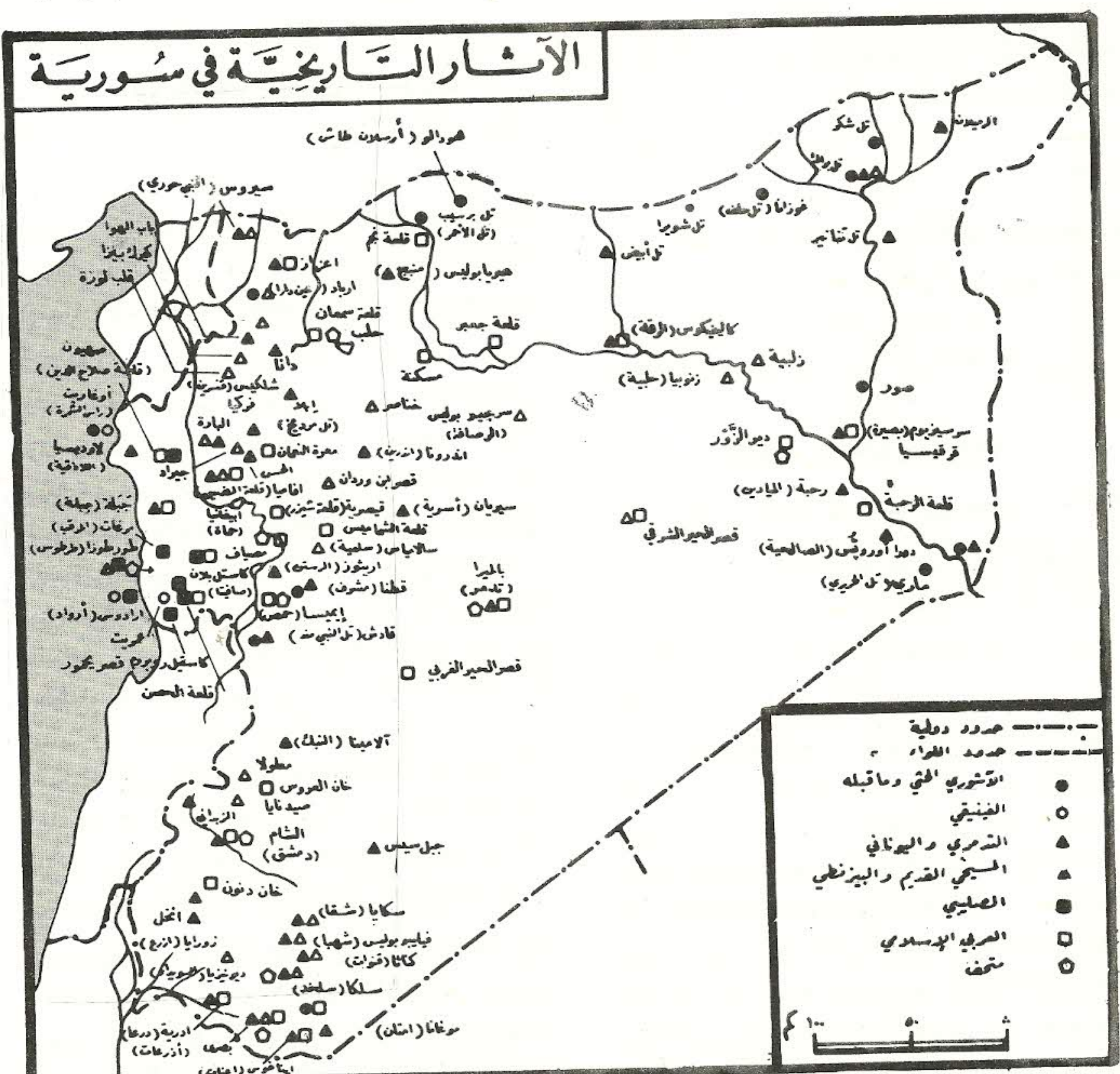
ظهر ذلك الكائن الأول «الإنسان»، منذ بداية الحقب الجيولوجي الرابع (الرباعي) في زمن يعود إلى أكثر من ثلاثة ملايين عام مضى. وكان من النوع البدائي، تلته أنواع تتدرج في تطوّرها الفيزيولوجي والحضاري، وهي بحسب القدم:

ـــ الهومواركتوس (الإنسان المنتصب القامة): ظهر في حوالي مليون عام قبل الميلاد.

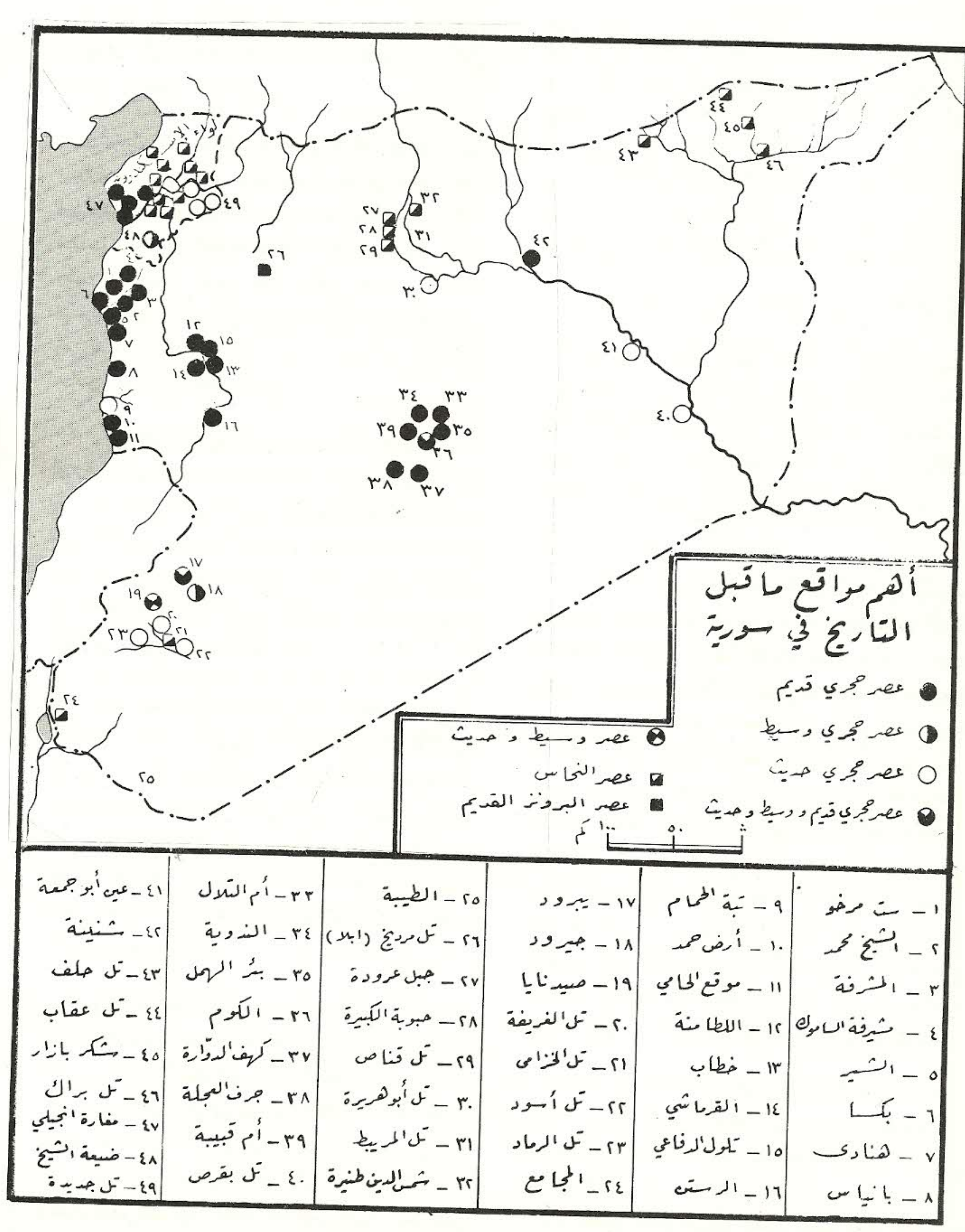
ـــ إنسان نياندرتال: تعود أقدم هياكله إلى ١٠٠٠٠٠عام قبل الميلاد.

ـــ الهوموسابيانس (الإنسان العاقل): يعود إلى حوالي ٣٥٠٠٠ق. م. ويعتبر الجدّ المبكر لإنساننا الحالي.

وتميّز الحقب الجيولوجي الرابع بأحداث هامة، ففيه استقرّت الأرض على شكلها الحالي تقريباً، وثبت توزع اليابسة والمحيط. وانعكست التقلبات المناخية هنا على شكل عصور مطيرة دافئة، متتابعة، تفصلها عصور جافة وحارة، تركت



الآثار التاريخية في سورية



أهم مواقع ما قبل التاريخ في سورية

شواهدها في المناطق المختلفة. وأفضل دليل عليها في قطرنا، يأتي من وديان الأنهار الهامة وروافدها (الفرات، العاصي، نهر الكبير الشمالي)، وأودية البادية الكبرى.

وتدل الدراسات في سورية على تشكل أربعة أسرّة نهرية قديمة، عبر أربعة عصور مطيرة، فصلتها عصور جافة تشكلت فيها أيضاً أربعة شواطئ قديمة على امتداد البحر المتوسط، الذي انتقلت مياهه بين الطغيان والانحسار حسب المناخ، وبذلك يكون لدينا ثمانية عصور مطيرة وجافة، متتالية، أُعطيت تسميات محلية تميزها ومن ثم ربطها بما يوازيها في المنطقة والعالم، وهي بدءاً من الأقدم: المشرفة، ست مرخو، بكسا، الـطّامنة، هنادي، أبو جمعة، بانياس، الشير.

وفي الأسرّة النهرية والشواطئ البحرية القديمة، وجدت أدوات حجرية ومستحاثات وتشكلات جيولوجية، يعتمد عليها في دراسة عصور ما قبل التاريخ، التي تبدأ بقيام الإنسان بصنع أبسط الأسلحة والأدوات الحجرية، منذ حوالي مليون عام في وادي نهر الكبير الشمالي، وتنتهي هذه العصور بمعرفة الإنسان أول أشكال الكتابة في النصف الثاني من الألف الرابع قبل الميلاد في حوض الفرات الأوسط.

وإننا نطلق على ذلك الزمن إسم «العصر الحجري»، لأن الحجر القاسي (الصوّان خاصة) كان المادة الأساسية، التي صنع منها الإنسان أدواته، التي كانت الآثار الوحيدة، التي قاومت الفناء وبقيت الدليل المادي المباشر في العديد من المواقع، التي سكنها ذلك الإنسان، وبخاصة في المراحل الأولى من العصور الحجرية. ثم تتنوع المخلفات — مع مرور الزمن — لتشمل الأواني الحجرية والفخارية والبناء والفن والأدوات العظمية والخشبية وغيرها من الآثار.

وإن المعلومات الأولى عن عصور ما قبل التاريخ في منطقتنا كانت ثمرة جهود فردية متواضعة، تعود إلى مطلع القرن العشرين. وإن الاكتشافات الهامة لإنسان «النياندرتال» في مغائر جبال الكرمل في فلسطين في الثلاثينيات، قد جذبت الأنظار نحو سورية، فبدأت مرحلة البحث المنهجي في يبرود وتدمر. ومنذ بداية الستينيات اكتُشف أكثر من ثلاثمائة موقع لإنسان ما قبل التاريخ، أكدت أهمية أرض سورية لفهم عصور ما قبل للتاريخ في المنطقة وفي العالم.

العصر الحجري القديم

بدأ في حوالي مليون عام وانتهى في حوالي ١٢٠٠٠ق.م ويقسم إلى:

— القديم الأدنى: من ١٠٠٠٠٠٠ق.م إلى ١٠٠٠٠٠ق.م.
— القديم الأوسط: من ١٠٠٠٠٠ق.م إلى ٣٥٠٠٠ق.م.
— القديم الأعلى: من ٣٥٠٠٠ق.م إلى ١٢٠٠٠ق.م.

ومنذ بدء ذلك العصر الحجري، سكن إنسان «هومواركتوس» سورية وقد قدم من الجنوب (إفريقيا)، سالكاً طريقاً ساحلية — حذاء البحر الأحمر والبحر المتوسط — وطريقاً داخلية عبر وديان الأنهار الهامة (وادي عربة والأردن والليطاني ثم العاصي)، وتابع طريقه شمالاً إلى أوروبا، وشرقاً إلى آسيا.

وإذا كنا نجهل الكثير عن الحياة الاجتماعية والروحية، عند ذلك الإنسان الأول في سورية، فإن طبيعة بقاياه الأثرية والمقارنة مع الشعوب البدائية الحالية، تجعلنا نعتقد بأن ذلك الإنسان عرف الحياة المنظمة، وشكل مجموعات بشرية صغيرة (من عشرة إلى خمسة عشر شخصاً)، يرأسها أب، وتتبعه زوجة أو عدة زوجات وأولاد، ولها لغتها للاتصال والتفاهم، وإنها عرفت تقسيم العمل بحسب الجنس والسن، حيث قام الرجال بالأعمال الشاقة، وقامت النساء والأولاد بالأنشطة الأخف. وكانت هذه المجموعات متنقلة وشبه منعزلة، تغذّت من خيرات الطبيعة البرية، ومع تحسّن قدراتها في الصّيد واكتشافها النار، زادت من اعتمادها على اللحوم، وقد سكنت في العراء، أو في المغاور والملاجئ، ثم اهتدت إلى بناء الأكواخ البسيطة، وتمكنت من الإقامة في المناطق والظروف المناخية المختلفة، وذلك بعدما ارتدت أوراق الأشجار والنباتات المناسبة.

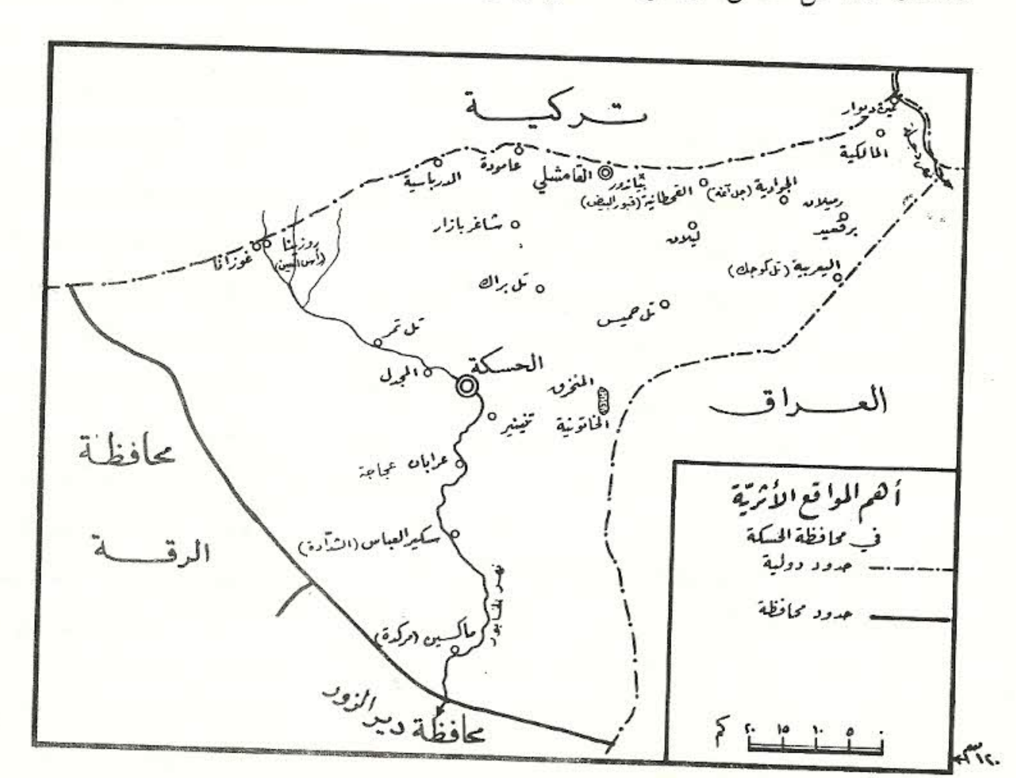
وإن كل ما نعرفه عن «هومواركتوس» في سورية في زمنه المبكر، يعود إلى أدواته الحجرية، التي صنعها واستخدمها في أنشطته الاقتصادية المختلفة. وتنسب هذه الأدوات إلى ما يسمى بالحضارة الأشولية (نسبة إلى موقع سان أشيل في فرنسا)، ذات الانتشار العالمي والمتشابه، وقد غطت معظم العصر الحجري القديم. وكانت الفأس اليدوية الأداة الرئيسة، جُعل لها وجهان

وحدّان قاطعان، ورأس حاد وقبضة دائرية، وقد وجدت آثاره ضمن ترسبات السّرير الأعلى للنهر الكبير الشمالي في مواقع «ست مرخو، الشيخ محمد» في منطقة اللاذقية، بشكل فؤوس حجرية يدوية بدائية، ترافقها أدوات مطروقة من أحد جوانبها ليصبح لها حدّ نسميها القواطع، وهناك أدوات أخرى ثانوية استخدمت في تصنيفها كلها «المطرقة الحجرية القاسية»، تعود إلى حوالي مليون عام. وهي أقدم آثار الإنسان، يعثر عليها خارج القارة الإفريقية، التي تعود آثار الإنسان فيها إلى أكثر من مليوني عام.

وعاشت في الوقت نفسه في حوض العاصي (موقع خطّاب) مجموعات بشرية أخرى لم تعرف الفأس اليدوية، ولكنها استخدمت أدوات خفيفة صنعتها. وقد ظهرت هذه الأدوات في العالم قبل الأدوات الأشولية. ومن زهاء نصف مليون عام، توضّحت استقلالية الإنسان في سورية، فظهرت حضارات أصيلة تطوّرت بأشكال مختلفة في المناطق الساحلية والداخلية. واستمر إنسان هذا العصر الأشولي الأوسط، معتمداً على الفأس اليدوية بعدما طورها ونوّع أشكالها. وكانت تسود تقاليد حضارية متباينة محلياً، حيث استخدم إنسان حوض العاصي، الفأس اليدوية الطويلة المدبّبة، بينما فضّل سكّان الساحل الفأس البيضوية الشكل والعريضة. وكانت هناك أيضاً مجموعات بشرية لم تصنع الفؤوس، وقد استعاضت عنها بالسواطير والأدوات الأخرى الصغيرة (في الرستن وشنينة).

ومع ذلك فقد شكلت هذه المنطقة وحدة حضارية، نلمس خطوطها الأولى منذ إنسان العصر الأشولي الأوسط، الذي أظهر قدرة على صنع أدوات مختلفة تؤدي وظائف متشابهة، وتوصّل إلى حلول مختلفة ضمن البيئة الجغرافية الواحدة، مما يشير إلى زيادة سيطرته على تلك البيئة.

وفي غرب اللطامنة، شمالي حماة، موقع يعتبر من أهم مواقع هذا العصر وأندره في العالم. فقد عثر في السرير النهري المرتفع للعاصي — الذي يعود تشكّله إلى العصر المطير الثالث (تشكيلة اللطامنة) — على آثار معسكر محفوظ جيداً ضمن طبقة من الرمل والطمي، رسبها النهر، ثم ابتعد. وكان هذا المعسكر قد سكن مدة قصيرة من قبل مجموعة بشرية صغيرة من ملتقطي الثمار البرية (الزعرور واللوز والفستق)، وصيادي الحيوانات الوحشية (الفيل، وحيد القرن، الحصان، الغزال)، عاشت في حوض العاصي منذ حوالي نصف مليون عام، وصنعت أسلحتها الفعالة (فؤوس، سواطير، مكاشط)، وأقامت أكواخها من الحجارة والأغصان واستفادت من النار، التي أفاد الإنسان منها كواسطة دفء وضوء وحماية وطهي.



أهم المواقع الأثرية في محافظة الحسكة

وازداد عدد سكان سورية منذ زهاء ٢٥٠٠٠٠ ق . م ، وخرج إنسان العصر الأشولي الأعلى من مناطق إقامته الأولى في الساحل وحوض العاصي ، بعدما تمكّن من البناء في العراء ، واستخدم النار ، وأصبح قادراً على التكيّف في المناطق الجغرافية المختلفة . وبقيت الفأس اليدوية السلاح الأكثر شيوعاً ، واستمر تحسين صنعها باستخدام المطرقة الملساء من العظم والخشب ، وساد في جميع المناطق نوع واحد من الفؤوس بشكل اللوزة ، أو القلب ترافقه أدوات أخرى ، كالسكاكين والمكاشط والمخارز ، تميزت بدقة صنعها ، إلى درجة تدلّ على إحساس جمالي أخذ طريقه إلى ثقافة تلك المجتمعات ، التي أصبح لها لغة مشتركة لتبادل خبراتها ونقل أفكارها .

لقد وجدت آثار الإنسان الأشولي الأعلى ضمن الطبقات ، التي تعود إلى العصر المطير الثالث (تشكيلة أبو جمعة) ، وأهم مواقعها موقع القرماشي في وادي العاصي الأوسط ، حيث وجدت آثار معسكر تركه سكانه منذ أكثر من ١٥٠٠٠٠ سنة خلت ، فيه فؤوس حجرية رائعة ، وأدوات أخرى متطوّرة ، وبقايا بناء بسيط « كوخ » ، أُقيم على ضفة النهر في مناخ أكثر برودة من الآن ، سكنته مجموعة بشرية متمرسة في الالتقاط وفي الصيد وفي استخدام النار .

وحصلت بين نهاية « مجتمعات الهومواركتوس » وبداية « مجتمعات النياندرتال » في سورية ، تغيرات عرقية وحضارية عاصفة ، شكلت السمة الأساسية لهذا العصر الانتقالي . ولم يعد الأشوليون يسيطرون بلا منازع ، فقد ظهرت إلى جانبهم أقوام جديدة وعديدة تعايشت في المكان ومع الزمن ، وصنعت كل منها أدواتها الخاصة بها . وكانت لها طرقها المميزة في العيش ، وأخذ ينمو لديها إحساس أكبر بالارتباط بالأرض ، فسكنت أجيالها المتعاقبة في الموقع نفسه آلاف الأعوام ، بعدما كانت شديدة الترحال ، وأحسن دليل على ذلك ملاجئ وادي سكفتا في يبرود ، فقد وجدت في الملجأ الأول آثار تعود لمجموعات كثيرة ومختلفة « خمس وعشرون مجموعة » سكنته تباعاً ، وتركت كل منها فيه بقاياها الخاصة ، التي تراكمت (سمكها ٥ر١١م) عبر الزمن . وإن طبقاتها الدنيا والوسطى من صنع نوع متطوّر من الهوموارکتوس ، أما العليا فإنها تعود إلى النياندرتال .

وإن الجديد والهام في ملجأ يبرود الأول ، هو الصناعة الصوانية ، التي أطلق عليها اسم « اليبرودية » ، وتمثل حضارة استمرت زهاء ٥٠٠٠٠ عام قبل الانتقال إلى العصر اللاحق ، وانتشرت على منطقة واسعة من فلسطين ولبنان والأردن جنوباً ، مروراً بيبرود وحتى بادية الشام (الكوم) شمالاً . ولم يعتمد اليبروديون كثيراً على الفأس اليدوية ، لأنهم استعاضوا عنها بأداة جديدة وهي « المقحف اليبرودي » المتعدّد الأشكال والمصنّع غالباً من شظية صوانية عريضة وسميكة ، وله حدّان عاملان ، عليهما تشذيب متدرّج على شكل حراشف ، يشكّلان في نقطة التقائهما زاوية حادة . وكان المقحف الأداة الأفضل لتحضير الجلود ، التي نعتقد بأن إنسان يبرود بدأ يرتديها ، ويفرش مساكنه بها بدوافع ليست مناخية فحسب (البرد) ، بل ومعنوية وذلك بعدما تطوّر الواقع الاجتماعي للسكان .

وفي الملجأ الرابع في يبرود آثار مختلفة تماماً عما هي عليه آثار الملجأ الأول ، حيث لم يعرف سكان الملجأ الرابع المقحف اليبرودي ، فقد صنعوا السكاكين المظهرة والأدوات المسنّنة ، القريبة إلى ما يسمى عالمياً بالحضارة التاياسية (نسبة إلى موقع تاياس في فرنسا) ، واصطادوا الحصان البري ووحيد القرن والوعل والدب والغزال وغيرها من الحيوانات ، التي كانت تعيش هنا بجوار بحيرة قديمة ، حفظت لنا ضمن ترسباتها بيوضاً وآثار أرجل طيور وحيوانات وزواحف متحجّرة ، والأهم من ذلك طبعة كف إنسان من نوع النياندرتال المبكر ، وهي الأولى من نوعها في المنطقة .

وتتمثل في حوضة الكوم في البادية ، جميع التقاليد الحضارية لهذا العصر الانتقالي . لقد عاشت هنا مجموعات بشرية كثيفة في بيئة غنية بكل مقوّمات الحياة ، واستخدمت أسلحة وأدوات مختلفة ، بعضها اعتمد على الفأس اليدوية ، وآخر فضّل المقحف اليبرودي ، وهناك من أبدع أنواعاً من الحراب الطويلة ذات الفعالية العالية في الصيد (الحراب الهملية ، نسبة إلى موقع بئر الهمل) ، التي تختفي مع الهمّليين ، ولا يعاد صنعها إلا بعد مرور زمن طويل جداً ، وعلى يد « الإنسان العاقل » .

لقد تردّد سكان بادية الكوم في العصر الانتقالي على العديد من الينابيع (بئر الهمّل ، أم التلال ، أم قبية ، الندوية ... وغيرها) ، وتركوا بقاياهم ، التي بلغت سماكتها عشرات الأمتار ، تجمّعت بمرور آلاف الأعوام ، وأعطت معلومات موثّقة بتواريخ مطلقة هي الأولى من نوعها في القطر ،

تساعد على فهم حياة إنسان ما قبل التاريخ من جوانبها وميادينها المختلفة، وقد طبّقت طريقة اليورانيوم/نوريوم، وأعطت تواريخ تراوحت بين ١٥٠٠٠٠ ـــ ١٠٠٠٠٠عام ق. م للسويّات الانتقالية بين الحجري القديم الأدنى والأوسط. ويوجد هذا التنوع الحضاري في كل مكان تقريباً. لقد استخدم الساموكيون (مشيرفة الساموك) في الساحل الساطور والفأس، واستخدم الدفاعيون (نسبة إلى تلول الدفاعي) في وادي العاصي، الفؤوس الحجرية الدائرية الأشكال، بينما اشتهر سكان الفرات بصنع السواطير الصغيرة من حجر الكوارتز.

وشهدت سورية منذ زهاء ١٠٠٠٠٠ عام (العصر الحجري القديم الأوسط) آخر عصر مطير، نجد آثاره في ترسّبات السّرير النهري الأول (تشكيلة موقع الشير)، وأصبحت الحضارات السابقة مجرّد ذكرى، واكتمل ظهور مجموعة جديدة من البشر، تتوفر عنها معلومات أكمل، هو النياندرتال. لقد كان النياندرتاليون أكثر عدداً من سابقيهم، وهم صيادون ماهرون كأفراد أو كجماعات منظمة، اقتنصوا الحيوانات القوية والخطيرة، واعتمدوا على لحومها كغذاء وعلى جلودها كفراش ورداء، وذلك بعدما صنعوا من العظام الإبر والمخارز. واستطاعوا إيقاد النار بطرق مختلفة (كالقدح والحك)، وبنوا المواقد التي حفظت في بعض المواقع (مغارة يبرود، كهف الدوارة، جرف العجلة)، واكتشفوا الألوان ودهنوا بها أجسامهم وأدواتهم، كما عرفوا الفنون البسيطة. وكان النياندرتال أول إنسان يدفن موتاه في قبور، ويمارس طقوس العبادة.

وساد الانسجام المتمثّل بالحضارة الموستيرية (نسبة إلى موقع موستير في فرنسا)، التي غطّت مناطق واسعة من العالم. وبعدما كانت النواة الملتقطة اعتباطاً، يصنع منها أداة واحدة كبيرة، أصبح لها شكل محدّد (دائري ورقيق) يتيح صنع عدة أدوات صغيرة.

وانقرض النياندرتال فجأة في حوالي ٣٥٠٠٠ق.م، وظهر الإنسان العاقل (هوموسابيانس) السلف المباشر للإنسان الحالي. وانتقل مسرح النشاط الحضاري إلى أوروبا (فرنسا، اسبانيا) بعدما كان قد تمركز لزمنٍ طويلٍ في إفريقيا وآسيا. لقد صنع الإنسان العاقل أسلحة جديدة مختلفة (حراب، سكاكين، مكاشط، أزاميل، مخارز ...) واستخدم الأدوات العظمية والخشبية الدقيقة، وبنى المساكن في العراء، ومارس الفن، فرسم ولوّن ونحت على جدران المغاور، التي سكنها أشكالاً ورموزاً مختلفة، وصنع التماثيل الصغيرة الحيوانية والإنسانية (الربة الأم) وذلك بعدما أدرك دور المرأة في الخصوبة وبقاء الجنس البشري. كما عرف السّحر وتقديم الأضاحي، ودفن موتاه بعناية، وزوّدهم بالأسلحة، ودهن أجسادهم بالألوان، ومارس الرقص والموسيقا وكل ما يتعلّق بحاجاته المادية والروحية المعقّدة.

وبقيت منطقة الشرق العربي المكان الوحيد، الذي شهد لأول مرة ظهور «الإنسان العاقل»، الذي انتقل إلى أوروبا، ثم إلى قارتي أميركا وأوستراليا. وإن التنوّع الكبير للحضارات، وتشابه المواقع الباكرة منها (الأروينياسية) مع مواقع أقدم في سورية (يبرود) وفلسطين (مغارة الأميرة) ولبنان (قصر عقيل)، يقود إلى الاعتقاد بترك مجموعات كثيرة من «الإنسان العاقل» مواطنها في الشرق العربي، بسبب حدوث ظروف بيئية صعبة، دفعتها للرحيل إلى أوروبا. ولعل هذه من الأسباب التي تفسر مواقع هذه الجماعات في سورية (الملجأ الثاني في يبرود، والطبقات العليا في مغاور جرف العجلة وكهف الدوارة) وفقرها وقلة تنوعها وغياب الآثار العظمية والخشبية.

العصر الحجري الوسيط (الميزوليت)

تبدلت الأدوار منذ زهاء ١٢٠٠٠ق.م. واختفت الحضارة المجدلانية الرائعة في أوروبا، وعادت الرّيادة من جديد إلى الشرق العربي، الذي أظهر استقلالية أهّلته أن يشغل الدور الحاسم في الانعطاف التاريخي، الذي شهدته الإنسانية وذلك بعدما مضى عصر الحضارات ذات الانتشار العالمي الواسع (الآشولية، الموستيرية، اللفلوازية) لتقوم أخرى ذات أصول وفروع محلّية.

لقد خرج الإنسان من المغاور، وبنى مساكنه في العراء وطوّرها، وتزايد السكان وتجمعوا مشكلين «قرى» وابتكروا أسلحة وأدوات وأنشطة جديدة، أسهمت في تقدّم إنتاجهم الاقتصادي ورفع سويتهم الاجتماعية والروحية والفنية.

وسادت في القسم الأول من هذا العصر الحضارة الكبارية (مغارة الكبارا في فلسطين). وانتشر الكباريون من الساحل حتى الصحراء (الملجأ الثالث في يبرود، جيرود، الكوم). وكانوا أول من صنع الأدوات (النصيلات) الحجرية

الصغيرة جداً، المرتبطة ببدء استعمال الأدوات المركبة من الحجر (حدّ عامل) والعظم أو الخشب (قبضة). ثم أخذت هذه الأدوات أشكالاً هندسية منتظمة نسميها «الكباري الهندسي»، الذي تنوّعت بانتهائه آثار ماقبل التاريخ بعدما كانت في معظمها أدوات حجرية.

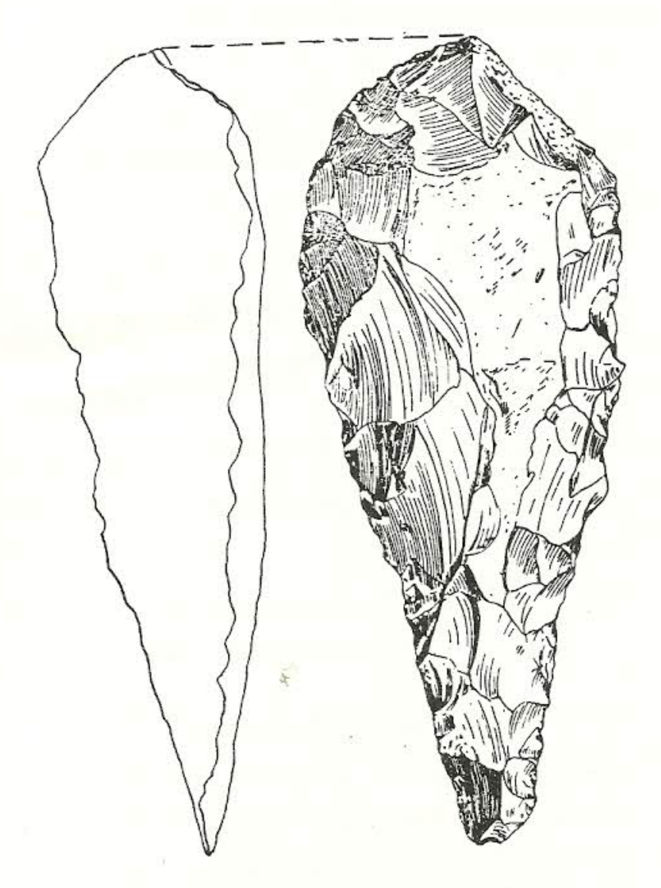
لقد وصلت العصور المطيرة إلى نهايتها، وبدأ القسم الثاني من الرباعي (الهولوسين)، الذي لا يزال مستمراً حتى الآن، وتحسّن المناخ وأصبح أكثر دفئاً، مما ساعد على ظهور الحبوب (قمح، شعير) والحيوانات (بقر، ماعز، غنم، غزال، حصان...) البرية، التي استغلّها الإنسان جيداً وشكّلت الأساس المادي المباشر للتحوّل الهام في تاريخه. وبدأ في ١٠٠٠٠ ق.م. زمن الحضارة النطوفية (وادي النطوف في فلسطين)، التي انتشرت بأشكال مختلفة من النيل حتى الفرات.

لقد أقام النطوفيون قرى الصيادين الأولى (المريبط، أبو هريرة)، وسكنوا بيوتاً صغيرة (من غرفة واحدة)، محفورة في الأرض، جدرانها من الطين والأغصان، وسقوفها من القش والخشب والجلود. وبقوا ـــ رغم استقرارهم النسبي ـــ يعتمدون على الالتقاط والصيد البريّين، كما استفادوا بمهارة من الأسماك والطيور، بعدما صنعوا لذلك الأدوات والأسلحة المناسبة، التي بقيت ذات أشكال صغيرة هندسية، شذّبوها وجهّزوا منها أدواتهم المركبة، كالمناجل والخطاطيف، واستخدموا العظام في صنع الإبر والمخارز وأدوات الزينة (كالخرز والتمائم)، كما صنعوا الأدوات الثقيلة، كالرحى والأجران (في جيرود، الطيبة، الكوم، صيدنايا...) وغيرها من مواد الأثاث الأخرى، التي تشير إلى مجتمعات منظمة، توضّحت سماتها المحلّية، وقامت علاقات اقتصادية واجتماعية أكثر رقياً وغنى مما كان في العصر الحجري القديم.

العصر الحجري الحديث (النيوليت)

اتضحت التحوّلات السابقة محلياً، في نهاية الألف التاسع ومطلع الألف الثامن قبل الميلاد (عصر النيوليت ما قبل الفخار ـــ آ)، وأصبح الإنسان منتجاً للطعام، بعدما كان جامعاً. فقد تخلّى عن الالتقاط والصيد، وزرع الحبوب (القمح والشعير)، ودجّن الحيوانات (البقر والغنم والماعز)، واضعاً بذلك دعائم نظام اقتصادي إنتاجي جديد، مختلف عن النظام الاقتصادي السابق الاستهلاكي، وذلك بعدما حقّقت له سويته الاجتماعية المتطورة، القدرة على الاستفادة من معطيات بيئته الغنية (حبوب، حيوانات برية، أمطار كافية ومناخ معتدل)، التي أمّنت له مقومات الاستقرار وتشييد القرى الدائمة.

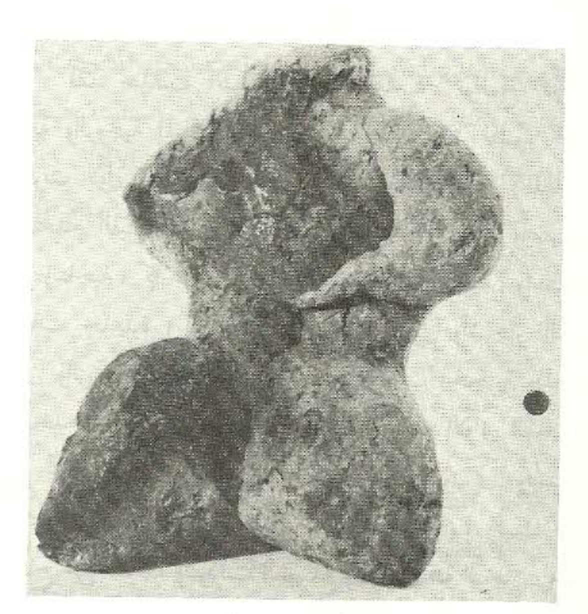
لقد أقام سكان القرى الزراعية الأولى (المريبط، أبو هريرة، بقرص، الرّماد، الغريفة) في بيوت كبيرة مستطيلة أو مربعة، مبنية من الطين والحجر والخشب، وصنعوا أدوات جديدة مرتبطة بالزراعة (كالمناجل والرحى والأجران



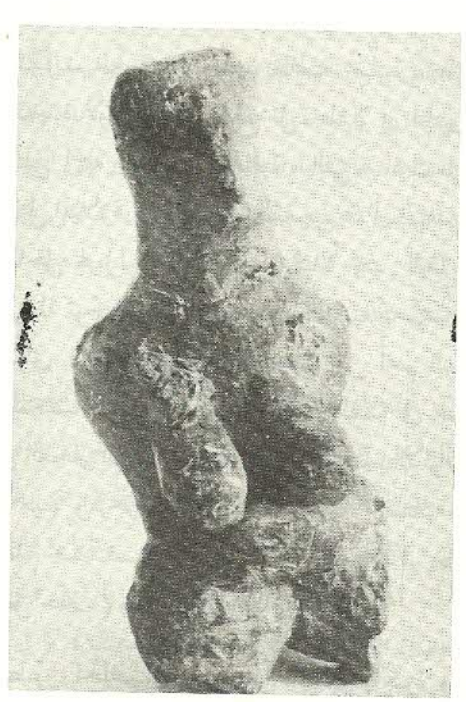
فأس حجرية من العصر الحجري القديم (اللطامنة)

والبلطات)، أضف إليها الأدوات العظمية والأواني الحجرية (في المريبط وجدت أوان فخارية تعود إلى هذا العصر)، وقد قلّ اعتمادهم على الأسماك والطيور، ولكنهم اصطادوا الحيوانات الكبيرة (كالثور والغزال والحصان)، بعدما ابتكروا للمرة الأولى القوس ورؤوس النبال، كما ظهرت لأول مرة أيضاً الرسوم الجدارية التزيينية (في المريبط)، وصنعت من الطين والحجر، التماثيل الإنسانية الصغيرة التي تجسد «الربة الأم»، وتماثيل الحيوانات

(وخاصة الثور المقدس)، ودفن الموتى في بيوت السكن. وكل ذلك يشير إلى ممارسات فنية وروحية باكرة، استمرّت زمناً طويلاً في فكر الشعوب اللاحقة.

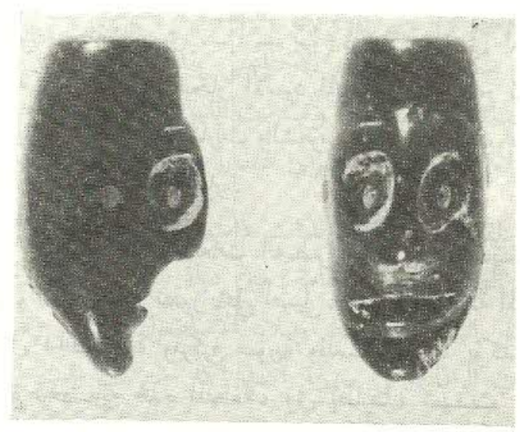


دمية طينية من تل أسود بغوطة دمشق الألف السابع قبل الميلاد م
(البعثة السورية الفرنسية)



الربة الأم من الألف الثامن قبل الميلاد
العصر الحجري من تل أسود غوطة دمشق

وفي مطلع الألف السابع قبل الميلاد (النيوليت ما قبل الفخار ــ ب)، حصلت تحركات واسعة لشعوب المنطقة وقامت اتصالات بعيدة وعلاقات تجارية، هي الأولى من نوعها (حيث استوردت الأحجار النادرة من مناطق الأناضول وزاغروس والهند)، وتخلّى الإنسان تدريجياً عن مطاردة الحيوانات البرية، وقام بتدجينها بدءاً بالصغير منها، واضعاً أسس المجتمع الرعوي الأول، الذي ما زال يسير جنباً إلى جنب مع المجتمع الزراعي حتى الآن. لقد أقام «مجتمع قرى الزراعة والتدجين» في منازل كبيرة أقوى وأكثر تنظيماً، أرضها وجدرانها مكسوة بالملاط الأبيض. وقد طوّروا أسلحة صيدهم وخاصة رؤوس النبال، وأدواتهم الزراعية، التي صقلوها لأول مرة أيضاً (عصر الحجر المصقول)، كما تعمّقت تقاليدهم الفنية والدينية، وأخذوا يدفنون موتاهم خارج بيوت السكن، وأحاطوا الجماجم بعناية خاصة، حيث فصلت عن الجثث، ودفنت في قبور معزولة.



حلية من تل المريبط ــ الألف الثامن قبل الميلاد.

وترسّخت في نهاية الألف السابع قبل الميلاد، تقاليد الزراعة والتدجين، وخرجت المجتمعات الزراعية الأولى من مراكزها التقليدية في الوديان والسفوح المطيرة، المساعدة على الزراعة البعلية لتمارس الزراعة المروّاة في المناطق الصحراوية (الكوم، بقرص)، والساحلية (رأس شمرا، تبة الحمام). وصنعت الأواني من الحجر الكلسي والحوار بعد تحضيره (الأواني البيضاء)، ممهّدة الطريق لظهور الأواني الفخارية. وبنيت البيوت لأول مرة من اللبن المكيّف على أساس من حجر، وقسمت المنازل إلى غرف مرتبطة بعضها ببعض عبر ممرات، في داخلها موقد وتنّور ومصطبة، وتفصل هذه المنازل شوارع رئيسة وفرعية مستقيمة. وتبلورت معتقدات تعود جذورها إلى العصر السابق، أهمها عبادة الأجداد التي دلّت عليها الجماجم

المحنّطة والموضوعة على تماثيل طينية (تل الرماد). وقد انتشرت هذه العقيدة في ذلك العصر من حوض الفرات وحتى فلسطين، كما ظهرت الرسوم الجدارية المتطورة (طيور نعام من بقرص)، والتماثيل الإنسانية والحيوانية الكبيرة والصغيرة من الطين والحجر، والأواني المصقولة النادرة (مرمر)، ذات الاستخدام الخاص، وأدوات الزينة المنوّعة (كالخرز والخواتم والأمشاط والتمائم).

واكتملت في بدء الألف السادس قبل الميلاد الإنجازات الحضارية، لإنسان العصر الحجري الحديث بالتوصّل إلى صنع الأواني الفخارية (النيوليت الفخاري)، كالجرار والقدور والطاسات والصحون، التي استخدمت في تحضير الطعام والشراب وخزنهما. وقد صنع في القسم الغربي من سورية (رأس شمرا، تل الرماد) الفخار المصقول ذو اللون البني القاتم والزخارف البسيطة (خدوش وطبعات)، والفخار الخشن الأقل جودة (مرحلة العميق — آ — ب)، بينما ساد في المناطق الشرقية (الجزيرة)، الفخار الأسود المصقول، وأصبح للفخار أهمية بالغة في تمييز الحضارات والشعوب، التي اتسعت علاقاتها ومبادلاتها التجارية مع الجوار.

إن إنجازات مجتمعات العصر الحجري الحديث في سورية، أتت نتيجة تطور محلي أصيل، مسرحه المنطقة المسماة «الهلال الخصيب» ومركزه سورية وفلسطين، مما يؤكد قدم الوحدة الحضارية لهذه المنطقة، وفي إطارها، شهدت سورية الحضارات المتميّزة (في الفرات والساحل وحوض دمشق). اختلفت وتائر تطورها، فدخل بعضها «الجزيرة» مبكراً، منذ نهاية الألف السادس قبل الميلاد (مواكباً بلاد الرافدين) في عصر المعادن، بينما تابعت بقية المناطق تقاليد العصر الحجري الحديث حتى نهاية الألف الرابع قبل الميلاد.

ومن منطقة الهلال الخصيب ذي الموقع الجغرافي الهام بين القارات، انطلقت مجتمعات الزراعة والتدجين لتصل إلى جنوب أوروبا في الألف السادس قبل الميلاد، وإلى وسطها في الألف الخامس قبل الميلاد، وإلى غربها في الألف الرابع قبل الميلاد.

العصر الحجري النحاسي (الكالكوليت) وأطواره في سورية

تعرّف الإنسان على معدن النحاس في بداية الألف الخامس قبل الميلاد، فصنع منه بعض أسلحته وأدواته، التي بقي معظمها يعتمد على مادة الحجر، ومن ذلك تسمية: العصر الحجري النحاسي، الذي استمر حتى نهاية الألف الرابع قبل الميلاد.

لقد حدثت آنئذٍ تطوّرات هامة، توضح الأرضية المادية والروحية المباشرة للعصور التاريخية. فقد تطوّر البناء وظهرت لأول مرة المباني الكبيرة ذات النفع العام (المعابد) واستخدم اللبن والحجر وتحسّنت وسائل الزراعة وأصبحت أكثر إنتاجية، كما عرف الري المنظم بوساطة الأقنية، واستنبتت زراعات جديدة (كالعدس والحمص والفول وأشجار الكرمة والتين والزيتون)، وتطوّرت صناعة الأدوات الحجرية والمعدنية واستخدم للمرة الأولى الدولاب والفرن في صنع الأواني الفخارية، التي تخصّصت بها فئات معيّنة (الحرفيون)، وصنعت الأختام المسطّحة لدمغ البضائع (أو كتائم)، حيث فاض الإنتاج عن الحاجة وتبودلت السّلع وظهرت فئة التجار، وتقدم التنظيم الاجتماعي، وتوضّحت معالم الأسرة والعشيرة والقبيلة، وتعمّق التخصّص وتقسيم العمل، وبدأت تتوضّح معالم التقسيم الطبقي للمجتمع.

وتميّزت سورية من جديد بخاصة محلّية، بظهور أوان فخارية جديدة لأول مرة في موقع تل حلف في الجزير العليا، الذي أعطى إسمه للحضارة الحلفية، التي سادت في الألف الخامس قبل الميلاد. وغطّت المنطقة من شمال الرافدين شرقاً، حتى الساحل غرباً، ومن الأناضول شمالاً حتى البقاع جنوباً. وبدأت مرحلة توحّد حضاري واسع النطاق، يُتعرّف عليه من خلال الأواني الفخارية، التي أصبحت من أهم السّمات المميّزة للحضارات. وقد بلغ الحلفيون القمة في صنع هذه الأواني من الفخار الرقيق الجيّد الشيّ والمتعدّد الألوان (بنّي وأسود وأحمر) والمزخرف بأشكال هندسية وإنسانية وحيوانية رائعة، وقد تخصّصت في صنعه مراكز (شكر بازار، تل عقاب، تل حلف) وصدّرته إلى مناطق أخرى.

وتطوّر الحلفيّون عبر مراحلهم الباكرة والوسطى والأخيرة بشكل متزامن، ولكنه مستقل، مع جيرانهم (في العراق)، فسكنوا في بيوت مستطيلة أو مربّعة أو دائرية (موقع شمس الدين، طنيرة)، مبنية من اللبن على أساس حجري، ولها سقوف خشبية وأرضها مفروشة بالجص وتتّجه أبوابها جنوباً أو

شرقاً ، وهي مزوّدة بفتحات ونوافذ للتهوية والإنارة ، وفيها مواقد ومصاطب وتنانير ، ومقسّمة حسب وظائفها (مسكن ، مخزن ، إسطبل) . وبقيت الزراعة وتربية الحيوانات مصدر رزقهم الأول . وتعمّق الفصل بين المجتمع الزراعي (الحضري) والمجتمع الرعوي (البدوي) ، اللذين قامت بينهما علاقات تبادل المنتجات ، كما تجسّدت الفنون والمعتقدات بصنع تماثيل إنسانية صغيرة ، مختزلة ، تتضخّم فيها عناصر الأمومة ، وتزيّن بالألوان (الربّة الأم) ، وتماثيل حيوانية (الثور) ، وحمل التمائم والأختام والحلي المنوّعة الأشكال .

وازدهرت في النصف الأول من الألف الرابع قبل الميلاد في سورية حضارة العُبَيْديين (موقع تل العُبَيْد جنوب العراق) ، الأوسع انتشاراً ، التي امتدّت من الخليج العربي جنوباً حتى البحر المتوسط شمالاً . وإن الكثير من المواقع ذات الصفات الانتقالية المشتركة بين حضارتي تل حلف والعبيد (تل العقاب ، تل حلف ، رأس شمرا ...) ، يجعلنا نعتقد بأن حضارة العبيد تطوّرت محلياً . وصنع العبيديون أوان فخارية أقل جودة من سابقيهم ، لها لون واحد (برتقالي فاتح غالباً) ونادراً ما تكون مصقولة ، وزخارفها في معظمها هندسية الأشكال ، ولكنهم استخدموا لأول مرة الدولاب ؛ فأصبحت أوانيهم أكثر تناسقاً واستدارة وتنوعاً ، كما حققوا تحوّلات هامة في عدة مجالات وفي مقدمتها العمارة . فأشادوا المعابد ، التي تشير إلى انعطاف هام في البناء ، يسميه بعضهم « الثورة المعمارية » على غرار الثورة الزراعية سابقاً ، كما صنعوا لأول مرة تماثيل صغيرة للرجال ، وطوّروا الأختام والفنون الأخرى .

وإن الفخار المتعدّد الألوان (مرحلة العمق) ، هو المؤشّر الهام على مجتمعات حلف والعبيد ، التي احتلت منطقة واسعة في سورية امتدت من الخابور شرقاً ، حتى السّاحل غرباً ، ومن جرابلس شمالاً حتى حمص جنوباً . وعاشت في جنوب هذه المنطقة في الألفين الخامس والرابع قبل الميلاد ، شعوب تابعت تقاليد العصر الحجري الحديث (كما في فلسطين والأردن) لم تعرف الفخار الملوّن ، بل العادي المزيّن بالخدوش والطبعات المنوّعة ، وسكنت في بيوت صغيرة من الطين والحجر (تل الخزامي) أو كبيرة من البازلت (موقع المجامع) ، وكان لها فنونها ومعتقداتها ، تدلّ عليها الأشكال والرموز المختلفة ، التي نقشت أو رسمت على أدوات الاستعمال اليومي .

وازداد في النصف الثاني من الألف الرابع قبل الميلاد ، التباين في وتائر تطور مجتمعات العصر الحجري النحاسي السوري ، فدخل بعضها في عصر جديد ، أخذ اسمه من مدينة الوركاء / أوروك في جنوب بلاد ما بين النهرين ، حيث انطلقت الحضارة السومرية ، التي اخترعت نظام الكتابة ، وأقامت أول تنظيم اجتماعي سياسي في العالم (الشكل الأول للدولة) .

لقد تراجع صنع الفخار الملوّن ، وظهر فخار عادي فاتح اللون (أحمر أو رمادي) ، مصنّع على الدولاب ومشوي في الفرن ، وأخذت الأواني أشكالاً متعدّدة ، أكثرها من نموذج الطاسات التي تشبه الناقوس .

واستمرت العمارة في تطوّرها وظهرت المدن المسوّرة ، وأخذ المعبد نمطاً معمارياً محدّداً ثلاثي العناصر : صالة رئيسة في الوسط ، يحيط بها جناحان من الغرف ، وأصبح مركز النشاط الاقتصادي والديني والإداري المنظّم ، بعدما نمت القوى المنتجة وتعقّد الوضع الاجتماعي والمادي وظهرت طبقة « السّدنة ــ الحكام » ، وتقدّمت الفنون (وخاصة النحت) ، وصنع لأول مرة الختم الأسطواني متطوراً عن سابقه المسطح .

لقد قامت المستوطنات ذات الطابع السومري على امتداد الطرق التجارية الهامة ، بين دولة السومريين في الجنوب وسواحل البحر المتوسط وبلاد الأناضول شمالاً . وظهرت التأثيرات الرافدية في سورية آنئذٍ أكثر من أي وقت مضى . وأفضل مثال على ذلك هو موقع حبّوبة الكبيرة في حوض الفرات الأوسط ، حيث اكتشفت آثار مستوطنة كبيرة (١٨ هكتاراً) محفوظة جداً ، تعطينا فكرة واضحة عن بناء المدن في عصر الوركاء الأوسط ٣٤٠٠ ق . م .

وكان يحمي المدينة من كل جوانبها (عدا جهة الشرق حيث الفرات) ، سور مزدوج وعريض مبني من اللبن المستطيل ، تخترقه بوابتان رئيستان ، وتدعمه أبراج دفاعية وعضادات بارزة ومزيّنة . وتقوم مساكن المدينة بمحاذاة شوارع رئيسة وفرعية مستقيمة ، وروعي فيها نظام الأقنية وتصريف المياه والتهوية والإنارة ، وهي مبنية على الطراز السومري المعروف بـ (ثلاثي العناصر) ؛ أي صالة كبيرة في الوسط (فيها موقد) ويحيط بها من الجانبين جناحان ، فيهما غرف أصغر تنفتح على الخارج ، أو على طراز آخر محلّي مؤلف من قسمين فقط : غرفة كبيرة تطل على صحن داخلي . ووجدت في القسم الجنوبي

لحبّوبة الكبيرة (المسمى تل قناص)، ثلاثة معابد هامة مشيدّة فوق مصطبة مرتفعة على نظام ثلاثي العناصر، ومزوّدة بمصاطب أمامية، وأدراج توصل إلى السطح أو إلى طابق آخر. ووجدت فيها أوان فخارية وأدوات زراعية ومنزلية وصناعات نفيسة وأسلحة، وأهم من هذا كل رُقم طينية منوّعة الحجوم والأشكال، دوّنت عليها إشارات ورموز حسابية تمثّل المرحلة الأولى للكتابة، منذ النصف الثاني للألف الرابع قبل الميلاد. ولهذا العصر تنسب مستوطنة جبل عارودة في حوض الفرات الأوسط، حيث يقوم على قمة الجبل معبدان كبيران يشكلان مجمعاً واحداً، وقد بنيا بالطراز الثلاثي العناصر أيضاً. وزيّنا بالمسامير المخروطية الملوّنة، ويعاصرهما «معبد العيون» في تل براك في الجزيرة، حيث وجدت تماثيل صغيرة (حوالي ٣٠٠) ذات عيون مضخمة، أعطت اسمها للمعبد الذي زيّن محرابه بالمعادن الثمينة، مما أكسبه صفات محلّية مستقلّة رغم تشابهه مع المعابد الرافدية.

لم تستمر الحياة طويلاً في مستوطنات حوض الفرات الأوسط (١٠٠ ــ ١٥٠عام فقط)، وهذا ما يثير الجدل حول طبيعتها ودورها فيما إذا كانت مجرّد محطّات تجارية للسومريين، أم مراكز استيطان أصلية تطوّرت بشكل متواز مع بلاد ما بين النهرين، مستفيدة من موقعها الجغرافي وخيراتها الاقتصادية، لتشغل دوراً هاماً في تاريخ المنطقة. وإن مما يعزّز الاحتمال الثاني وجود مواقع تنسب للعصر نفسه (تل براك)، استمرت فيها الحضارة، بلا انقطاع، في الألفين الثالث والثاني قبل الميلاد (عصر البرونز). وقدمت رموزاً حسابية وكتابة تصويرية، تشكل المرحلة السابقة للكتابة المسمارية في نهاية الألف الرابع قبل الميلاد، ومواقع أخرى خارج نطاق الطرق التجارية بين الشمال والجنوب (موقع الكوم).

وبعد هجر المستوطنات ذات الطابع السومري، وقف تطوّر الكتابة هنا، ثم عاد بعد انقطاع استمرّ حوالي ألف عام، وظهرت وثائق «إيبلا» الكتابية، ودخلت سورية العصور التاريخية منذ الربع الثالث للألف الثالث قبل الميلاد.

الرباعي في سورية ومواقعه الهامة

أقسام الرباعي		الرباعي السوري	الرباعي الأوروبي	الإنسان	العصر	الحضارة	المواقع الهامة	الزمن بالأعوام
الهولوسين		تشكلات الهولوسين	تشكلات الهولوسين	الإنسان العاقل	العصر الحجري النحاسي	مجتمعات انتقالية إلى العصور التاريخية	تل حلف، تل عقاب، تل براك، تل حبوبة الكبيرة، جبل عرودة، شمس الدين طنبوة، شكربازار، المجامع، تل الخزامي.	٣٠٠٠
					العصر الحجري الحديث	مجتمعات الزراعة والتدجين	تل المريبط، تل أبو هريرة، بقرص، تل الرناد، تل العزيفة، رأس شمرا، قبة الحمام	٥٠٠٠
البليستوسين	الأعلى	الشير	فيرم		العصر الحجري الوسيط	الكبارية، النطوفية	الكوم I، الندوية I، المريبط I، صيدنايا، جيرود، يبرود III، الطيبة.	٨٠٠٠
					العصر الحجري القديم الأعلى	الأورينياسيه	يبرود II والطبقات العليا من كهوف جرف العجلة والدوارة:	١٢٫٠٠٠
				النياندرتال	العصر الحجري القديم الأوسط	اللفلوازية الموستيرية	جرف العجلة وكهف الدوارة والطبقات العليا من أكثر مواقع العصر الانتقالي.	٣٥٫٠٠٠
		بانياس	ريس ــ فورم	الإنسان المنتصب القامة (الهومواركتوس)	عصر انتقالي	الآشولية الأخيرة اليبرودية، الهملية الساموكية الدفاعية	يبرود I، بئر الهمل، الندوية II، أم التلال، أم قبية، مشرفة الساموك، تلول الدفاعي.	١٠٠٫٠٠٠
		عين أبو جمعة	ريس		العصر الحجري القديم الأدنى	التياسية	منت مرخو، الشيخ محمد، خطاب، الرستن، اللطامنة، القرماشي، أرض محمد، الحامي.	١٥٠٫٠٠٠
	الأوسط	هنادي اللطامنة بكا	مندل ــ ريس مندل جينز ــ مندل			الآشولية		
	الأدنى	ست مرخو	جينز	إنسان أسترالية الأوسترالو بيفيك				
		المشرفة	دونو ــ جينز			الابقيلية		

نشأة المدن الأولى في سورية ومملكة إيبلا

د. عدنان البني

يعتبر العصر البرونزي القديم في الألف الثالث قبل الميلاد، بدء تشكل البنى الثقافية والسياسية المميزة لحضارات الشرق القديم. وقد عرفت بلاد الشام عصرئذٍ، انتشار العديد من التجمّعات السكنية، الممتدة بين جبال الأمانوس وصحراء سيناء والجزيرة والفرات الأدنى. وتميزت تلك التجمّعات بتجانس أملاه الوضع الجغرافي والدور التجاري وعوامل طبيعية، ثم تاريخية أسهمت في ظهور حضارة المدن في بداية الألف الثالث قبل الميلاد. وكان من أشهر ممالك ذلك العصر مملكة إيبلا. وتجدر الإشارة إلى المراكز الحضارية المختلفة، التي أظهرتها التنقيبات في قلعة حماة. والمشرفة (قطنة)، ورأس شمرا (أوغاريت)، وتل الكزل (سيميرا)، وتل عطشانة (الألاخ) وتل مرديخ (إيبلا)، وتل طوقان المجاور، وتل براك، وتل ليلان (شوبات إنليل)، وتل الخويرة، وتل قرقر وتل أم المرة وتل النبي مند، وموقع الصّور في شرقي حمص، وفي مدينة حلب وقلعتها، وفي حوض الفرات مثل: تل الحريري (ماري)، وتل العشارة (ترقا)، وتل البيعة (توتول) وغيرها.

والجدير بالذكر أن وجود الأسوار المنيعة لا يدل دائماً على وجود مدينة، لأن المستوطنات المسوّرة عرفت منذ العصر الحجري الحديث (النيوليت) في أريحا في فلسطين، وفي طور أوروك من العصر الحجري ــ النحاسي (الكالكوليت)، مثل موقع حبوبة الكبيرة الجنوبية في حوض الفرات الأوسط، كما أنه ليست كل قرية كبيرة نمت ديموغرافياً تعتبر مدينة، وإن كان فيها معبد ومظاهر تطوّر فني وحرفي، لأن القرى الكبيرة عرفت أيضاً في العصر الحجري الحديث (النيوليت) مثل: بقرص قرب دير الزور، وفي طور أوروك مثل: حبوبة الكبيرة الجنوبية.

كانت المدن في الألف الثالث قبل الميلاد تحيط بها الأسوار، وتتصف بالاتساع وتعدّد الإنتاج وممارسة التجارة الإقليمية أو الدولية، ومتابعة الارتقاء الفني والفكري، وأهم من ذلك كله امتلاكها الإدارة السياسية المنظّمة، ووصولها إلى مستوى معين من الحكم والحكام، مما كان يضفي عليها شكل مدينة ــ دولة لها سلالات (أسر حاكمة) ــ ويتضح فيها الاختصاص بين القصر والمعبد، ولها سجلات ومراسلات.

وعلى كل حال، فإن العامل أو العوامل الحاسمة في نشاط المدن، يمكن أن تكون في معرفة المعدن والكتابة وتطوّر التجارة، حيث إن معرفة المعدن عدّدت الاختصاصات الحرفية وطوّرت التجارة للبحث عن المواد الأولية، محلياً ودولياً. فنشطت المراكب عبر الأنهار والبحار والقوافل براً، وأسهم العمل التجاري في تطوّر الكتابة وانتشارها. وإن نشوء المدن الهامة وتمركز الحكم والإنتاج والخيرات، مما تطلّب تحصينها لحمايتها من أخطار غزو محتمل من المدن المنافسة أو التجمعات الأخرى وغيرها. ومن أمثلة الاهتمامات الدفاعية، تُذكر مدينة ترقا (موقع العشارة على الفرات)، التي ابتنت في الألف الثالث قبل الميلاد شبكة دفاعية قلّ مثيلها في سورية وبلاد ما بين النهرين.

ومن أمثلة اتساع المدن وقتئذٍ، تل ليلان (شوبان إنليل) في الجزيرة السورية، حيث اتسعت المدينة في السوية الثانية (في حوالي ٢٥٠٠ق.م) حوالي ست مرات (من ١٥ هكتاراً إلى ٩٠ هكتاراً)، وأصبحت إحدى المدن الكبيرة المسوّرة في غرب آسيا، كما اتسعت مدن تل براك وتل الخويرة وتل مرديخ «إيبلا».

وبما أن مدينة إيبلا كانت ذات دور خاص ومتميّز بين الفرات وغربي سورية، وبين طوروس وسورية الوسطى، في فترة ازدهار حضارة المدن، وبما أن التنقيب فيها شمل السويات المهمة، وبما أن محفوظاتها الملكية هي شبه تامة، لهذا فإن من المناسب دراستها كمثل على «مدينة ــ دولة» في النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد في سورية.

إن أقدم ذكر لاسم إيبلا، ورد في نص من عهد سرجون، ملك أكاد حوالي عام ٢٣٤٠ ــ ٢٢٨٤ق.م. وذلك بمناسبة حربه ضدها. ثم يذكر حفيده نارام سين (٢٢٦٠ ــ ٢٢٢٣ق.م)، أنه هدمها مع مدينة أرمان (حلب)، ويتفاخر بأنه استولى على مدينة لم يأخذها أحد قبله منذ وجدت الخليقة.

وفي القرن الثاني والعشرين قبل الميلاد، يذكر جوديا ملك لجش (تللو الحالية في العراق) استيراد الخشب من مدينة أورشو في هضبة إيبلا.

وفي القرن الحادي والعشرين قبل الميلاد ورد ذكر إسم إيبلا في نص من عهد مملكة أور الثالثة، وكانت إيبلا آنئذٍ قد أخذت تنتعش بعد خرابها، كما ذكر إسم إيبلا في حوالي ذلك التاريخ في نص يعود إلى سلالة «إيسين»، الأكادية العمورية، في بلاد ما بين النهرين. وفي عهد الملك حمورابي البابلي (حوالي نهاية القرن الثامن عشر قبل الميلاد)، تبعت إيبلا مملكة حلب.

وهناك ذكر تزاوج بين الأسرتين المالكتين في إيبلا، والألاخ (تل عطشانة في لواء الاسكندرونة السليب).

وفي حوالي ١٦٠٠ قبل الميلاد ضعفت إيبلا وتهدّمت، نتيجة غزوات الحثيين (في عهد حتوشيل الأول ومورشيل الأول). وفي القرن الخامس عشر قبل الميلاد ورد ذكر إسم إيبلا في عهد تحوتمس الثالث، الذي تحدّث عنها في أحد النصوص المنقوشة على عمود في معبد الكرنك في الأقصر.

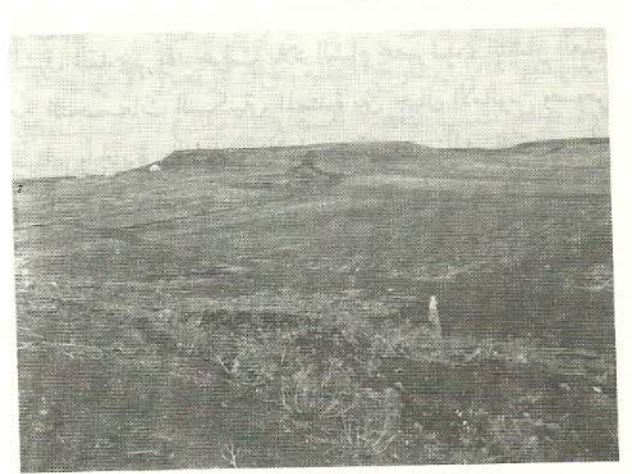
في عام ١٩٥٥، عثر في القطر على حوض أثري بازلتي في تل مرديخ، قرب بلدة سراقب، على بعد خمسة وخمسين كيلومتراً جنوبي غرب حلب، وعلى بعد حوالي كيلومتر واحد، شرق طريق حلب — حماة. وقدمت لجنة من مديرية الآثار السورية، تقريراً عن الموقع، يشيد بأهمية هذا التل الأثري، الذي اعتقد بأنه ربما كان موقع مدينة تونيب، عاصمة الحثيين، المذكورة في رقم بوغازكوي. وورد في التقرير أيضاً اقتراح إجراء بعض الأسبار والحفريات في التل.

وفي عام ١٩٦٣، حصلت بعثة تنقيب إيطالية بإدارة «باولو ماتييه» على رخصة التنقيب الرسمية باسم معهد دراسات الشرق الأدنى في جامعة روما في تل مرديخ وتل آفيس المجاور، فباشرت أعمال التنقيب في تل مرديخ عام ١٩٦٤. وفي موسم عام ١٩٦٨ بدأ التعرف على اسم هذا الموقع الأثري في تل مرديخ بعد اكتشاف تمثال في السوية الأرضية العمورية في معبد الربة عشتار أقامه «ابت ليم بن أجرش خب» ملك إيبلا؛ فأصبح واضحاً بعد هذا الاكتشاف، أن المدينة الجاثية في تل مرديخ هي مدينة «إيبلا» المفقودة.

واكتشفت البعثة الأثرية في عام ١٩٧٣ القصر الملكي لسلالة إيبلا الأولى في الألف الثالث قبل الميلاد. وفي شهر آب عام ١٩٧٤، ظهر أربعون رُقيماً مسمارياً، وفي عام ١٩٧٥ أظهرت التنقيبات بقية الرقم بالمئات، ثم استكمل اكتشافها في عام ١٩٧٦.

إن تل مرديخ يعتبر من تلال الدرجة الأولى، مساحته ٥٦هكتاراً، ويتميّز بموقع استراتيجي وزراعي هام. وتدل النصوص على أنه كانت هناك قديماً أحراج في منطقته.

ولا يعرف متى أُطلق إسم «إيبلا» على هذا الموقع الذي يعود — على الأقل — إلى الألف الثالث قبل الميلاد، وإن أقدم الفترات السكنية المعروفة فيه، تعود إلى النصف الثاني من الألف الرابع قبل الميلاد، وأن الطبقات الأثرية المتتابعة فيه هي — من الأدنى إلى الأعلى — كما يلي:



تل مرديخ — جهات الأكروبول والمعسكر

— السوية الأولى: من النصف الثاني من الألف الرابع قبل الميلاد حتى حوالي ٢٩٠٠ق.م، وتغطي أواخر طور العبيد وطور أوروك وجمدة نصر.

— السوية الثانية: من الألف الثالث قبل الميلاد، طور ما قبل السلالات المبكرة، والسلالة الأكادية، وسلالة لجش وأور الثالثة في بلاد ما بين النهرين. وتقسم إلى ثلاثة أطوار تقابل العصر البْرونزي القديم الأول حتى الثالث والرابع (آ) و (ب).

— السوية الثالثة: من حوالي ٢٠٠٠ق.م إلى حوالي ١٦٠٠ق.م، وكانت قد أتت هجرة العموريين الكنعانيين إلى سورية وبلاد ما بين النهرين وتشكلت دولهم. وتقسم فترة هذه السوية إلى طورين، يعادلان عصر البرونز الوسيط الأول والثاني.

— السوية الرابعة: من حوالي ١٦٠٠ق.م إلى حوالي ١٢٠٠ق.م، وتقسم إلى طورين، يقابلهما عصر البرونز الحديث الأول والثاني.

— السوية الخامسة: من حوالي ١٢٠٠ق.م حتى القرن السادس قبل الميلاد. وكانت قد تأسست الممالك الآرامية والدولة الآشورية والكلدانية، وتشمل عصر الحديد.

— السوية السادسة: من سقوط الدولة الكلدانية عام ٥٣٩ق.م حتى نهاية حكم السلوقيين عام ٦٣ق.م.

ـ السوية السابعة: تعود إلى العصرين الروماني والبيزنطي، فيها بعض القبور.

وعلى الأسوار عند مدخل تل مرديخ، كتابات عربية إسلامية كوفية من العصر الأموي، تثير التساؤل فيما إذا كانت تواكبها طبقة سكنية، تعُود إلى ذلك العصر، علماً بأن الموقع غير بعيد عن قنسرين في ذلك العصر (جند قنسرين).

كان يتوسط مدينة إيبلا، حيّ مرتفع يضم القصر، أو القصور الملكية وبعض المعابد وأهمها معبد عشتار المجدّد في الألف الثاني قبل الميلاد، والمراكز الإدارية التابعة للقصر، وكانت تحيط بالمدينة أسوار ضخمة ترابية مكسوّة بالحجارة. وكان للمدينة أربعة أبواب تدعمها أبراج. وفي المدينة المنخفضة أحياء سكنية تتخلّلها مساحات، ربما كانت تستخدم كبساتين، وتتوفّر فيها الآبار، وكان المطر يجمع في صهاريج.

ومنذ عام ١٩٧٣ يجري التنقيب الأثري في السطح الغربي لأكروبول التل، فاكتشفت منشآت الحي الرسمي من الألف الثالث قبل الميلاد وأهمها القصر الملكي، المتميّز بخصائص معمارية محلّية، فيه قسم إداري مستقل، وقسم خاص بالملك، وتتوسّطه باحة العرش، يحيط بها رواق كان يقوم على أعمدة خشبية. وفي الطرف الشمالي من الباحة منصّة يُصعد إليها بدرج صغير، وكانت مخصّصة لجلوس الملك عليها واستقبالاته الرسمية. وفي صدر الباحة باب درج، يؤدّي إلى حجرات القصر الداخلية. وكان المهندسون المحلّيون قد أخذوا بعين الاعتبار عوامل البيئة ومتطلبات الإنسان من العمارة في سبيل الحياة السعيدة، وقد استمرّت هذه التقاليد المعمارية حتى الآن في البيت العربي.

وفي غربي القصر العائد إلى الألف الثالث قبل الميلاد، بُني قصر جديد في العصر العموري (حوالي ١٨٠٠ ـ ١٦٠٠ق.م)، وأظهرت التنقيبات ثلاثة مدافن، محفورة في الصخر، تضمّ عشرات الأواني الفخارية، ونماذج من الأسلحة والحلي النادرة.

وتفيد المكتشفات الأثرية في «إيبلا» في معرفة الفنون والمهن المحلية، مثل النسيج العادي والمذهب والصياغة والتنزيل والنقش والنحت والفخار... وغيرها، كما ألقت الضوء على العلاقات الاقتصادية بين سورية والأقطار المجاورة.



من الكنوز الغنية في إيبلا
(الألف الثالث والثاني قبل الميلاد)

وفي إحدى حجرات القصر العائد إلى الألف الثالث قبل الميلاد «القصر ـ ج» أظهر التنقيب عام ١٩٧٤ ـ ١٩٧٥ جميع السجلات الملكية المتساقطة من رفوفها الخشبية والمتصلّبة بنيران الحريق. ويبلغ طول بعض هذه الرقم نحو ٤٠سم، ويبلغ عدد الرقم السليمة والمجزأة نحو ست عشرة ألف قطعة أو أكثر. وعلى هذه الرقم كتابات بالخط المسماري السومري، وتعود لغتها إلى مجموعة لهجات الجزيرة العربية العريقة في القدم. وتبين أن محتواها هام من حيث وفرة المعلومات وتنوّعها. فهي تتعلّق بالتجارة الدولية والأوامر الملكية، وسياسة الحكومة وتصرفاتها، وتقارير المسؤولين عن مشاكل الدولة الداخلية والخارجية، وهناك وثائق معجمية ونصوص أدبية وملاحم ورقى سحرية...



تل مرديخ ــ إيبلا ــ الأرشيف الملكي

وتتماثل لغة إيبلا ــ في رأي بعضهم ــ مع اللغة الأكادية، وفي رأي الآخرين مع الكنعانية، ولا سيما مع اللهجة الأوغاريتية والفينيقية، وهناك من يسمّيها «اللهجة أو اللغة الإيبلية». وإن نصوصها أقدم من النصوص الأكادية بنحو جيلين. وغدت هذه الوثائق المكتشفة في إيبلا، مصدراً أساسياً لدراسة تاريخ الشرق القديم في الألف الثالث قبل الميلاد، وقد زوّدتنا بأسماء ستة من ملوكها، يؤلفون سلالة حاكمة وهم: ١ ــ إجريش حلم. ٢ ــ اركب دمو. ٣ ــ أرانيوم. ٤ ــ أبريوم. ٥ ــ أبي ريش. ٦ ــ دبو جوادا. وفي عهد «دبو جوادا» سقطت إيبلا في يد نارام سين الأكادي، حفيد الملك سرجون.

وكانت إيبلا مركز قوة سياسية كبرى، هيمنت على ممالك أخرى مثل ماري وحلب. وكانت قوتها مستمدة من حيوية اقتصادها. وكان تجارها يجوبون البلاد من الأناضول إلى فلسطين، ومن البحر المتوسط إلى بلاد ما بين النهرين. وتذكر النصوص التجارية، المكتشفة في إيبلا، أسماء مدن قديمة وبلاد كثيرة، أغنت معارفنا الجغرافية عن العالم القديم في الألف الثالث قبل الميلاد. ومن هذه المدن القديمة المذكورة في رقم إيبلا: ماري / تل الحريري، إيمار / مسكنة، كركميش / جرابلس، حران / حلب، أوغاريت / رأس شمرا وغيرها، هذا في الشمال. وفي الجنوب إرم وجبيل وبيروت والقدس وغزة....

وفي سبيل التجارة، حاربت مملكة إيبلا مملكة ماري، وانتصرت عليها مرتين، كما تنازعت مع مملكة أكاد على معادن الأناضول وخشب جبال الساحل السوري، وكانت الحرب سجالاً بينهما حتى يوم تدميرها من قبل نارام سين ملك أكاد في حوالي عام ٢٢٥٠ق.م.

وذكرت الرقم المكتشفة في إيبلا نصوصاً إدارية ذات صفة حقوقية ودبلوماسية، ويتعلّق بعضها بوثائق المحاسبة الإدارية، وتوضّح التنظيم الحكومي وإدارة المقاطعات والتنظيم المالي للدولة في جباية الضرائب وغيرها.

إن اكتشاف إيبلا، يعتبر أهم اكتشاف أثري ظهر في الأعوام الخمسين الماضية. ولكن تجدر الإشارة أيضاً إلى أهمية اكتشاف أوغاريت / تل رأس شمرا، وماري / تل الحريري.

الممالك الكنعانية العمورية وآثارها في سورية

د. علي أبو عساف

انتشرت القبائل الكنعانية العمورية في بلاد الشام وأسست ممالك عديدة في الألف الثاني قبل الميلاد، وتعني كلمة أمورو باللغة السومرية والأكادية: الغرب، وقد سمي السومريون والأكاديون، القادمين إلى بلاد ما بين النهرين وبابل وسومر أهل الغرب، أو عموريين. واقتصرت منطقتهم فيما بعد على البلاد الممتدة بين تلكلخ شرقاً، والبحر المتوسط غرباً وطرطوس شمالاً حتى البترون جنوباً، حيث قامت عند منتصف الألف الثاني قبل الميلاد دولة عمورو، ولذلك تبنى عدد من العلماء الآثاريين المصطلح «بلاد عمورو».

أما المصطلح «كنعان» كإسم جغرافي، فإن أول ذكر له ورد في نص اكتشف في تل مرديخ ويعود تاريخه إلى منتصف الألف الثالث قبل الميلاد، ومن المحتمل أن بلاد كنعان كانت تشمل الأجزاء الجنوبية الغربية من بلاد الشام. وهذا ينطبق على ما ورد في رسائل العمارنة، حيث وصفت السواحل الجنوبية لبلاد الشام، بدءاً من النهر الكبير الجنوبي ببلاد كنعان. لم يشكل الكنعانيون دولة موحدة، بل كانت لهم بضع دول في بلاد الشام. هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإن الوثائق المكتوبة، التي اكتشفت في أوغاريت وتل العمارنة ومملكة بابل في عصر حمورابي ومدينة ماري، قد كتبت بلغة مشابهة هي اللغة الكنعانية، وهذا ما جعل كثيراً من العلماء يعتقدون أن القبائل، التي انتشرت في بلاد الشام خلال القرنين الأخيرين من الألف

الثالث قبل الميلاد وانتقلت شرقاً إلى بابل كانت كنعانية. وحسماً للخلاف وإزالة كل غموض تبنى عدد من العلماء التسمية الجديدة: الكنعانيون / العموريون.

ويستدل من تعدد الممالك أن القبائل الكنعانية / العمورية، حينما استقرت في بلاد الشام وشكلت دولاً، قد حافظت على شخصيتها القبلية، ولم تحاول الاتحاد فيما بينها، ومما يلفت النظر أن الممالك الشمالية كانت أكبر وأكثر أهمية من الممالك الجنوبية. ومن أهم عواصم الممالك الشمالية المكتشفة:

— كركميش. جرابلس
— يمحاض / حلب.
— مركيش / ألالاخ.
— أرشو.
— خشو.
— إيمار. مسكنة
— ماري. تل الحريري
— إيبلا. مرديخ
— نوخشي
— نعيا
— تونيب
— قَطْنة - مشرفة
— كنزا / قادش / تل النبي مندو
— عمورو
— أوغاريت - رأس شمرا
— جبلا / بيبلوس / جبيل

أما ممالك الجنوب؛ فكانت تتألف في معظمها من مدينة وأراض قليلة. وأهم هذه الممالك هي: بيروت، كوميدي، افه / دمشق، دبو، عشتاروت، عكا، مجدو، يانوعمو، بيت شان، بيلا / فحيل، يافا، عسقلان، ليكيش / بحش، يبرو سالم / القدس.

١ ــ مملكة مركيش / الألاخ: عاصمة هذه المملكة مدينة الألاخ / تل عطشانة، الواقع على الضفة اليمنى لنهر العاصي في سهل العمق، لقد أمدتنا هذه المدينة بوثائق هامة، تتعلق بتاريخها وبتاريخ مملكة يمحاض، التي تبعت لها ألالاخ عشرات الأعوام. ومن ملوكها المعروفين الملكان ياريم ليم وعمي تاكوم، اللذان حكما خلال القرنين الثامن والسابع عشر قبل الميلاد، ويحتمل أن يكون تدمير المدينة قد تم على يد الملك الحثي «خاتوشيلي الأول» (النصف الثاني من القرن السابع عشر). بعد ذلك فقدت ألالاخ أهميتها كعاصمة مملكة وكمدينة إلى أن عاد إليها الملك «أدريمي» حوالي عام ١٥٠٠ق.م، فأعاد إليها قوتها وشهرتها وقد خلف قصراً ومعبداً ودار محفوظات، حوت على وثائق كثيرة، تتعلق بتاريخها وبعض الدول المجاورة. وخضعت هذه الدولة للحثيين كغيرها من دول بلاد الشام، منذ عام ١٣٥٠ق.م تقريباً وحتى تدميرها هي والإمبراطورية الحثية على يد شعوب البحر عام ١٢٠٠ق.م على وجه التقريب.

نشأت مدينة الألاخ عند مطلع الألف الثالث قبل الميلاد وازدهرت وتوسعت في الألف الثاني، وقد أُحيطت بسور دفاعي ضخم بني باللبن، وجعلت فيه الأبواب، التي كانت أهمها البوابة الرئيسية في الجهة الشمالية الغربية من المدينة والتي شيدت على أسلوب كنعاني لا مثيل له في بلاد ما بين النهرين ومصر.

تتألف البوابة من معبر طويل، تحصره ثلاثة أزواج من العضادات تحصر بينها ثلاث حجرات عرضانية مستطيلة، ويحيط بالمعبر برجان كبيران، فيها الحجرات والمحارس متوزعة على طابقين. وفي الجهة الشمالية كان يقوم قصر ياريم ليم، وهو قصر صغير بالمقارنة مع قصر ماري المعاصر، أبعاده ١٥ × ٩٠م، بنيت جدرانه باللبن وكسيت قواعدها من الخارج ببلاطات بازلتية، لحمايتها من عوامل الحت، وسقف القصر بالخشب، الذي أسند على أعمدة خشبية ارتكزت على قواعد حجرية. ويتوسط القصر قاعة كبيرة في وسطها موقد وهي تفصل بين الجناح الإداري في الشمال والجناح السكني في الجنوب، ويتألف الجناح الإداري من طابقين، في الأرضي منها، قاعة الاستقبال وتحيط بها ثلاث حجرات للموظفين ومرحاض، ويُصعد إلى الدور الثاني بوساطة درج داخلي في زاوية القصر الشمالية. أما جناح السكن، فكانت فيه ثلاثة طوابق، يضم الطابق الأرضي المستودعات والمطابخ والأفران والثاني والثالث حجرات للسكن والنوم وقاعات الاستقبال. ويجاور القصر من الجهة الجنوبية الغربية، المعبد، الذي كان يضم حرماً مربع الشكل يتقدمه رواق. هذا بالنسبة لفن العمارة أما بالنسبة للفنون الأخرى، فقد ازدهرت صناعة الأواني الفخارية الملونة والمزوقة، إلى جانب فن النحت، الذي بقي منه بعض التماثيل كتمثال إدريمي أو رأس الملك ياريم ليم.

٢ ــ مملكة إيمار: وهي مدينة مسكنة التي غمرتها مياه الفرات، وقد وجد فيها رُقم مسمارية تعود إلى منتصف الألف الثاني قبل الميلاد وكانت بحكم موقعها تتمتع بأهمية تجارية؛ فكانت تتاجر مع ماري وبابل ويمحاض. وفي القرن التاسع عشر قبل الميلاد، أخضعها ملك ماري «يخدون ليم» وبعد وفاته خضعت لحلب حتى سقوطها، وقد كشفت التبعات فيها عن

وجود معبدين متجاورين بنيا وفق مخطط واحد. خصص المعبد الجنوبي لعبادة الرب بعل والشمالي لعبادة الربة عشتار.

٣ ــ مملكة ماري: انطلقت قبائل الكنعانيين/العموريين من ماري إلى بلاد بابل وسومر وآشور بعد أن تجمعت بها، قادمة من البادية الشامية، وقد اشتهر من ملوكها يخذون ليم وزمري ليم فقط، وقد اشتهر هذا الأخير بالبناء وجعل من قصر ماري الشهير، درة العمارة الكنعانية/العمورية ويضم نحو ٣٠٠ غرفة وقاعة وباحة وللقصر باب واحد، يحيط به برجان ويتقدمه درج حجري، تليه مجموعة باحات صغيرة، تربط بينها ممرات متعرجة، تؤدي إلى الباحة التي تتوسط الجناح الإداري وتنفتح عليها قاعة العرش. ومن هذه الباحة يمكن الوصول إلى كافة أجنحة القصر وهي: مسكن أسرة الملك، المستودعات، أماكن الحرس، مسكن الخدم، ثم المدرسة ودار المحفوظات. إن ما يلفت النظر في هذا القصر، النقوش البديعة وحدائقه المزروعة بأشجار النخيل وقد اكتشفت في الباحة مجموعة تماثيل، أهمها تمثال إيشتوب ــ إيلوم، حاكم ماري.

٤ ــ مملكة إيبلا: خضعت إيبلا لصارغون الأكادي، عندما أسس إمبراطوريته، واستطاع فيما بعد نارام سين (٢٢٦٠ ــ ٢٢٢٣ق.م)، أن يغير خريطة بلاد الشام السياسية باحتلاله إيبلا. أُحيطت مدينة إيبلا بسور دفاعي، شكله شبه منحرف غير منتظم، وهو عبارة عن حاجز ترابي، شديد الانحدار نحو الخارج ومعتدل نحو الداخل، فيه عدد من الأبراج الدفاعية. ارتفاعه الحالي ٢٠م وسماكته عند القاعدة حوالي ٥٠م. وفي السور أربع بوابات، ومن المرجح أن البوابة الجنوبية الغربية هي الرئيسة، وقد قسمت إلى ثلاثة مقاطع وحصنت بالأبراج كبوابات المدن الكنعانية. ولقد بنيت البيوت من اللبن، ويتألف البيت من ممشى وتليه باحة داخلية مستطيلة الشكل غير مسقوفة، ثم حجرتان قبالة الممشى، وكان المعبد مقسماً إلى ثلاث فسحات: أمامية للاستقبال ووسطى، ثم الحرم أو المصلى. واحتوى القصر الملكي على مدفن، وجد فيه بعض قطع الأثاث والحلي الذهبية وصولجان رأسه من الحجر كروي الشكل، وتغطي بضعة سنتمترات من جسمه قطعة أسطوانية برونزية مصرية الصنع، مما يدل على وجود علاقات بين البلدين.

٥ ــ قطنة: هي تل المشرفة في محافظة حمص. وقد



المغنية أورنينا من مدينة ماري.

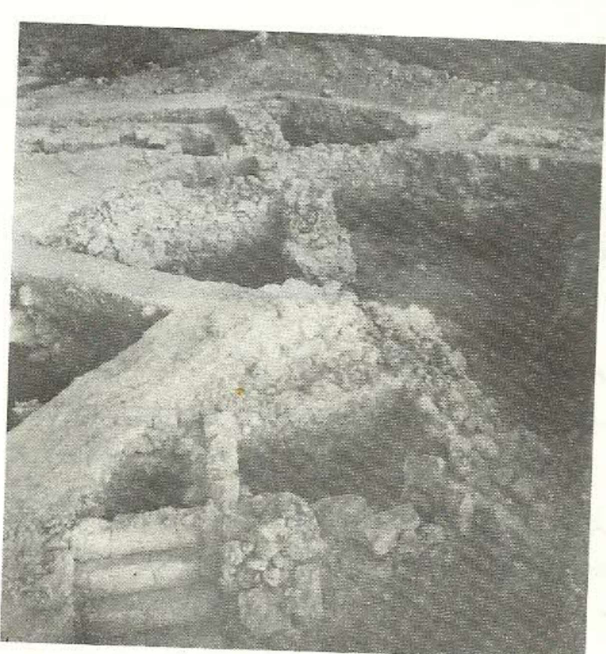
كشفت التنقيبات، التي أُجريت في الأعوام ١٩٢٤ ــ ١٩٢٧ ــ ١٩٢٩ عن سورها الترابي وهو مربع الشكل طول ضلعه ١٦٠٠م وارتفاعه ١٥ ــ ٢٠م وسماكة قاعدته ٤٢م ويحيط به خندق سحيق، وفي المدينة معبد (نين جال) ربة قطنة، بني وفق أسلوب المعابد الكنعانية. جدرانه من اللبن وسقفه من الخشب، كما ضمت المدينة القصر ويحتوي على الباحة وجناح السكن الملكي، الجناح الإداري، قاعات الاستقبال، وقد عُثِر في المعبد على تمثال صغير لأبي الهول، مهشم، مما يدل على العلاقات الجيدة بين البلدين.

٦ ــ مملكة كنزا/قادش: أو تل النبي مند على الطرف الجنوبي لبحيرة قطينة، وقد سيطرت هذه المملكة على الأراضي الممتدة من حمص شمالاً، حتى سهل البقاع جنوباً، ومن البادية شرقاً حتى سهل البقيعة غرباً، وقد سعى كل من المصريين

والحثيين للسيطرة عليها بسبب أهمية موقعها وسيطرته على طرق المواصلات بين شمال بلاد الشام وجنوبها .

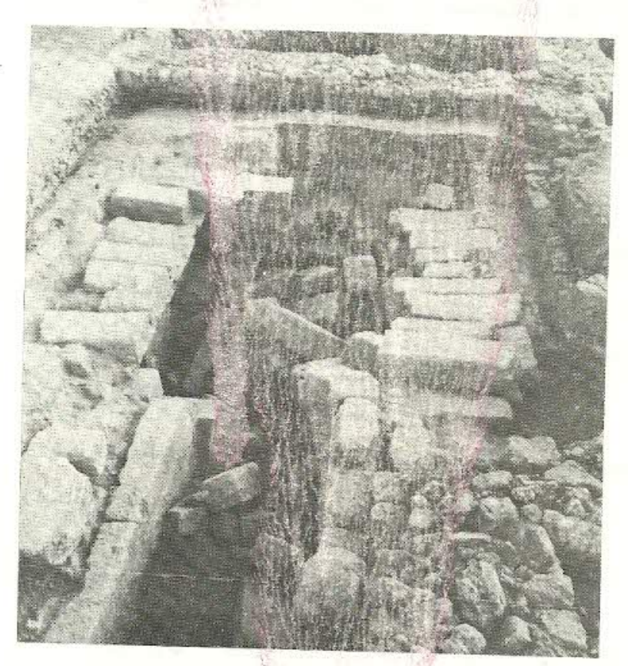
٧ ــ **مملكة عمورو** : وهي دولة صغيرة ، سيطرت على السهول الممتدة حول نهري الكبير الجنوبي والأبرش . وعلى المنطقة الساحلية من طرطوس حتى البترون وكانت عاصمتها « سيميرا / حمورو » ، من أشهر ملوكها « عبدي عشيرته » مؤسس السلالة الحاكمة وعزيرو . خضعت هذه المملكة للفراعنة والحثيين إلى أن قضت عليها موجات شعوب البحر .

٨ ــ **مملكة أوغاريت** : منذ نهاية القرن السادس عشر ، أصبحت مدينة أوغاريت المركز الحضاري الأهم في بلاد الشام وبقيت كذلك حتى تدميرها عام ١٢٠٠ق.م ، وقد تعاقب على حكمها تسعة ملوك كان من بينهم عم شتمر وأبرزهم نقم هدد الثاني ، الذي عقد معاهدة مع الحثيين . كانت مدينة أوغاريت محصنة ، تنتشر المعابد والقصور والبيوت على جوانب شوارعها المستقيمة الرئيسية والفرعية . وقد اكتُشف في المدينة القصر الملكي والمعابد ، كمعبد الإله بعل ومعبد الإله



جزء من القصر الشمالي في مدينة أوغاريت
(القرن الثالث عشر قبل الميلاد)

دجن . هذا بالإضافة إلى مسكن كبير للكهنة وجدت فيه الرقم ، التي كُتبت عليها أساطير الأدب الكنعاني وأشعاره ، كما وجد أيضاً العديد من المدافن ، بنيت بأسلوب واحد وهي عبارة عن حفرة تحت أرض القصر أو البيت ، بنيت فيها بالحجارة ، حجرة الدفن على شكل هرمي أو مخروطي . ومن أهم هذه المدافن ، مدافن القصر الملكي والقصر الصغير .



مدفن في مدينة أوغاريت في رأس ابن هاني

الممالك الآرامية وآثارها في سورية

أ. د محمد وحيد خياطة

بعد موجات الأكاديين والعموريين والكنعانيين ، وصلت موجة العرب الآراميين من شبه الجزيرة العربية ، في أواخر النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد . وكانت القبائل شبه البدوية تدعى « أحلامو » قد تحدّثت عنها نصوص مدينة ماري ، في نحو القرن الثامن عشر قبل الميلاد ، كما ذكرت النصوص الآشورية في القرن الرابع عشر قبل الميلاد المعارك والتي خاضها الآشوريون ضدّ هذه الجماعات ، التي عرفت في القرن الثاني عشر قبل الميلاد باسم « أحلامي آراميا » وكانت أشهر تلك المعارك بين الآشوريين والآراميين ، جرت في مناطق جبل البشرّي وتدمر . واستقرّ الآراميون في حوض البليخ ؛ فعرفت منطقتهم باسم « آرام نهاريم » حول مدينة « حرّان » بين نهري الفرات والخابور .

لقد تأثر تاريخ المنطقة ، كما تأثرت حضارات كثيرة بسقوط دولة الميتانيين ، واكتشاف الحديد وحسن استخدامه في ميادين الصناعة والحرب ، واجتياح « شعوب البحر » الساحل الشرقي للبحر المتوسط حتى حدود مصر ، وتمزّق الإمبراطوريتين البيزنطية والحثية إلى دويلات وإمارات ، واستقرار الفلسطينيين في بلاد كنعان ، فتشكلت ممالك الآراميين في

سورية، وأفادت من طرق القوافل، ونجحت في إيصال أحد قادتها «أدد ــ آفال ــ إدين» إلى عرش بابل. وظهرت ممالك الآراميين كقوة عسكرية لها أهميتها في المنطقة، وكمراكز اقتصادية وثقافية، تركت طابعها الحضاري عبر العصور. وكان أشهر هذه الممالك الآرامية هي:

ــ في الشمال

ــ مملكة بيت عديني: عاصمتها «تل برسيب/تل أحمر حالياً»، امتدت شرقاً حتى نهر البليخ.

ــ مملكة بيت بحياني: عاصمتها «غوزانا/تل حلف حالياً» قرب رأس العين على نهر الخابور.

ــ وفي شرق الخابور الأعلى، أسست القبيلة الآرامية «تيمانيا» عند رأس العين ثلاث إمارات هي:

ــ نصيبين وحوريزانا وجيدارا.

ــ وفي شرقها استقرت قبائل سوهو الآرامية في حوض الفرات من «عانة» حتى «ربيقو».

ــ وفي جهة الغرب منها، تمكن الآراميون من تأسيس:

ــ إمارة بيت أجوشي، التي كانت تضم حلب و «أرفاد/تل رفعت حالياً»، وكانت مجاورة لمملكة بيت عديني.

ــ مملكة شمأل/زنجرلي حالياً عند جبال الأمانوس.

ــ وفي وسط البلاد

ــ مملكة حماة التي عثر فيها على آثار آرامية.

ــ وفي جنوبي العاصي والليطاني:

ــ مملكة آرام صوبا في البقاع.

ــ مملكة آرام بيت رحوب، تقع جنوبي مملكة آرام صوبا، عند منعطف نهر الليطاني.

ــ مملكة آرام معكة: كانت تشمل مقاطعة «دان/تل القاضي حالياً» في الجولان.

ــ مملكة آرام دمشق: أصبحت زعيمة الممالك الآرامية منذ أسسها القائد الآرامي «رزون بن اليدع»، حتى سقوطها في آخر عهد آخر ملوكها «رصين» بيد تغلات فلاسر، ملك الآشوريين. وإن زعامة مملكة دمشق تفسِّر تسمية ملكها باسم «ملك آرام»، وتوضِّح أسباب اكتشاف نصب ملقارت، الذي نقشت عليه كتابة آرامية، تتضمَّن اسم ملك دمشق «بر حدد» في المنطقة الشمالية.

ــ مملكة جشور: بين نهر اليرموك ودمشق.

يُفسر تأسيس الممالك الآرامية في المناطق المختلفة من سورية، تسمية سورية قديماً في ذلك العصر باسم «بلاد آرام»، كما أن اهتمام كثير من الباحثين بدراسة الفن الآرامي، أسهم في إغناء المعلومات عن فن الآراميين في المواقع الأثرية المختلفة ونخص بالذكر منها ما يلي:

ــ غوزانا/تل حلف حالياً، عند رأس العين، على نهر الخابور. أظهرت التنقيبات الأثرية في هذا الموقع حصناً كبيراً مؤلفاً من معبد وقصر.

ــ شمأل/زنجرلي حالياً: أظهر التنقيب الأثري آثاراً تعود إلى مبنى واحد.

ــ دمشق: حافظ مكان معبد «حدد الآرامي» على قداسته عبر العصور. وقد عثر في أحد أساسات المبنى على منحوتة بازلتية آرامية، تمثل كائناً له رأس إنسان يعلوه تاج، وله جسم سبع مجنح.

ــ قلعة حلب: عُثر فيها على منحوتة بازلتية، تمثل كائنين مجنحين متقابلين ومتماثلين.

ــ عين دارا: يبعد هذا الموقع الأثري عن أرفاد/تل رفعت حالياً، مسافة نحو أربعين كيلومتراً، وقد أظهرت التنقيبات فيه معبداً هاماً وتمثال أسد بازلتي.

ــ صرين: قرب عين العرب، عُثر في هذا الموقع على نصب يمثل مشهد عربة يقودها رجلان، ونصب آخر نقش عليه رمز رب القمر «سين»، الذي اشتهرت حران وغيرها بعبادته. ويتألف هذا الرمز من هلال فوق رمز الرب مردوخ، كما عثر على تمثال بازلتي ضخم، ارتفاعه ١٩٤سم وعرضه ٤٧سم لأمير آرامي، يرتدي ثوباً طويلاً يتوسطه حزام، ويتدلى من الحزام سيف، ويحمل الأمير بيمناه عصا طويلة (الصولجان).

ــ تل النيرب: يقع جنوب شرقي حلب، ويبعد عنها ٦كم، عثر فيه على نصب يمثل سادناً جالساً خلف مائدة وليمة جنائزية، يحمل بيمناه كأساً، وأمامه خادمه، وفي أعلى النصب كتابة آرامية تتضمَّن اسم «اجبار» سادن رب القمر في حران والنيرب، وأسماء أخرى لآلهة (مثل شمس ونرجال). ويعود هذا

وأبدع النحاتون الآراميون روائعهم النحتية، ويلاحظ أن مادة الحجر البازلتي البركاني لم تساعدهم أحياناً في إبراز التفاصيل بدقة، مما جعل بعض منحوتاتهم يسودها طابع الخشونة. ورأى بعض الباحثين في عدد من المنحوتات الآرامية تأثيراً من الفن الحثي الجديد وغيره. ومن أشهر الروائع النحتية الآرامية هي:

ــ تماثيل وأنصاب آلهة: مثل منحوتة تمثل الرب «ملقارت»، ونقش على هذا النصب كتابة تذكارية تاريخية، تتضمن إسم «بر حدد» ملك دمشق، الذي أقام هذا النصب للرب «ملقارت» الذي استجاب لندائه.

ــ تماثيل أمراء: مثل تمثال أمير من «صرين» قرب عين العرب، تمثال أمير من «عين التل» وتمثال ملك واقف، نقشت على ثوبه كتابة آشورية مسمارية وآرامية أبجدية.

ــ تماثيل أسود: مثل تمثال أسد مكتشف في «عين دارا».

ــ كائنات خيالية: مثل منحوتة مكتشفة في أحد أساسات مبنى الجامع الأموي في دمشق، تمثل كائناً له رأس إنسان يعلوه تاج، وله جسم سبع مجنّح.

ــ مواضيع من الحياة اليومية: مثل مشهد صيد، عربة يقودها رجلان.

ــ رموز: مثل رب القمر «سين». وهناك مجسّمات الألواح، التي تغطّي جدران المباني في مداخل المدن والقلاع.

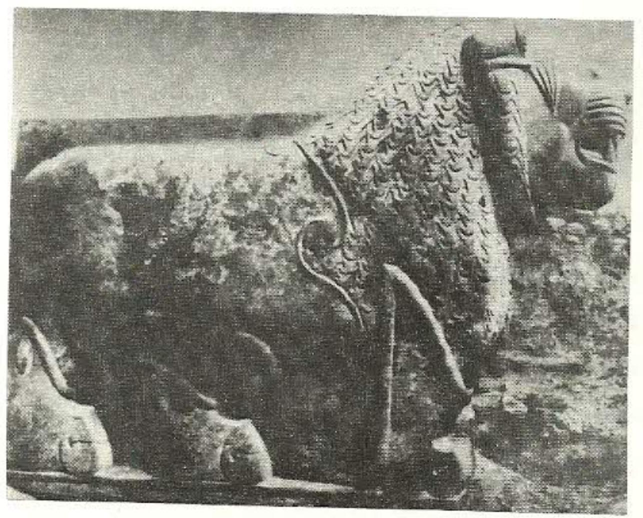
وتجدر الإشارة إلى القطع العاجية، التي كانت تزيّن عرش ملك دمشق «بر حدد»، وقد استولى عليها ملك الآشوريين تغلات فلاسر، الذي استطاع أن يقضي على مملكة دمشق الآرامية عام ٧٣٢ق.م، ويعود منها بغنائم كان منها ما تبقى من روائع المنحوتات العاجية، التي تمثل مواضيع مختلفة مثل: وجه حسناء تجسّد الرّوح وتطلّ على عالم الأحياء، ومشهد بقرة ترضع عجلها...

وهناك الكتابة المسمارية الآشورية والكتابة الأبجدية الآرامية، المنقوشتان على ثوب تمثال ملك من حجر البازلت، اكتشف جنوب شرقي تل فخيرية جنوب رأس العين، وتتضمّنان إسم «سيكاتي» حاضرة مملكة «غوزانا».

وهناك أيضاً المعاهدة الآرامية المنقوشة كتابتها على حجر البازلت البركاني، وكانت قد اكتشفت في قناة سجين، فنقلت إلى قرية «سفيرة» قرب حلب، وهي محفوظة حالياً في المتحف



من معبد حدد الجامع الأموي القرن الثامن قبل الميلاد



أسد عين دارا في موقعه الأصلي الألف الأول قبل الميلاد

النصب إلى نحو ٧٣٠ق.م، كما عُثِر على نصب آخر يمثل السادن «سن ــ زر ــ ابني»، يقف رافعاً إحدى يديه، ويحمل بالأخرى منديلاً وقد نُقشت كتابة آرامية تحت قوس هذا النصب وأسفل ثوب السادن.

وتميّزت عمارة الآراميين بواجهة قائمة فوق أعمدة، وتقع خلفها قاعة رئيسة لها شكل مستطيل. وتدل النصوص التاريخية على مدى اهتمام قدماء العموريين بفن العمارة العسكرية والدينية والمدنية، ويستنتج الباحثون تأثر الآراميين بالتراث المعماري المحلّي، وحسن إفادتهم منه واعتمادهم عليه في إقامة منشآتهم المعمارية.

الوطني بدمشق. ويعتبر نص هذه المعاهدة أقدم وثيقة تتضمن كتابة باللغة الآرامية، وتدل حروفها على مدى تشابهها مع الحروف الفينيقية، ومدى العناية بحسن كتابتها ونقشها، وهي تعود إلى القرن الثامن قبل الميلاد، وتتضمن إسم «برغايا» ملك كيتاك، و «متعال» ملك أرفاد/تل رفعت حالياً، الذي كان خصم الملك الآشوري تغلات فلاسر الثالث، الذي استطاع في نحو عام ٧٤٠ ق. م أن يقضي على مملكة أرفاد بعدما حاصرها أربعة أعوام. وقد جاء في نص المعاهدة عبارات تتضمن الخطر، الذي يهدّد «متعال» ومملكته فيما إذا نقض عهده. وهناك روائع الصناعات الفنية والفنون الصناعية، مثل صناعة الأواني الفخارية الجميلة المختلفة.

الهلنيستية وتراثها المادي والفكري في سورية

د. جودة شحادة

اتفق المؤرخون على أن العصر الهلنيستي، يبدأ بموت الإسكندر المقدوني وينتهي باستيلاء روما على مصر وسورية، ولكن المؤرخين يختلفون في تعريف العصر الهلنيستي. ولعل من الأقرب إلى الصحة القول: إنه في هذا العصر استمرت الحضارة الهيلينية القديمة على أسسها السالفة في جوهرها، لكن داخلتها بعض العناصر الشرقية. وكانت نتيجة هذا التمازج أو التفاعل الحضاري ظهور حضارة جديدة، جمعت بين مظاهر الحضارتين الإغريقية والشرقية، لذلك وجدنا حضارة السلوقيين مزيجاً حضارياً، تألف من حضارات سورية القديمة ومن حضارات الإغريق. وهذه الحضارة الجديدة، هي التي أطلق عليها مؤرخو الحضارات إسم «الحضارة الهلنيستية» وانتشرت هذه الحضارة في ربوع الشرق، وبذلك انتقلت مراكزها من بلاد الإغريق القديمة إلى عواصم الممالك الجديدة كأنطاكية والاسكندرية وسلوقية.

كانت باكوة أعمال الإسكندر، إيعازه إلى كبار ضباط جيشه بالزواج من نساء البلاد، التي خضعت لحكمه، وتشجيعاً لعملية الزواج هذه، أقام قران تسعين من كبار قادته وأصدقائه على تسعين فتاة من عذارى الفرس، وقد ضرب لقادته وأصدقائه المثل بنفسه وذلك بزواجه من إحدى بنات العاهل الفارسي (دارا)، مع أنه كان قد تزوج قبلها روكسانا، إبنة ملك سمرقند، سعياً وراء تحقيق الهدف نفسه وهو صهر جميع سكان إمبراطوريته في بوتقة واحدة.

لم يؤت مشروع الإسكندر في تشكيل إمبراطورية عالمية، ثماره، فقد حال دون ذلك موت هذا العاهل المبكر عام ٣٢٣ ق. م ولم يكن قد تجاوز الثالثة والثلاثين من عمره.

تمزقت الإمبراطورية المقدونية وتسابق قواد الإسكندر للفوز بنصيب منها، وكان على رأسهم بطليموس في مصر وأنطيوخس في آسيا الصغرى، وسلوقس في بابل وأنتيباتر في مقدونية. ولا شك بأن سلوقس، الذي نحن بصدده أجدرهم وأقواهم وهو الذي أسس في سورية سلالة، امتد حكمها جغرافياً إلى الهند، وتاريخياً دامت ثلاثة قرون.

بعد موت الإسكندر المقدوني، وظهور الحضارة الهلنيستية وازدهارها في عواصم الممالك الجديدة، غدت كل من أنطاكية في سورية والإسكندرية في مصر، من أهم المراكز الحضارية في ذلك العصر. ووصل إشعاع الحضارة الهلنيستية إلى مختلف المناطق، وأسهم في ظهور كثير من المدن (مثل نصيبين والرّها وحرّان ورأس العين وغيرها)، كمراكز حضارية تميّزت بالنشاطات الفكرية، مما شكّل تراثاً حضارياً باللغة السريانية واليونانية، ترجم كثير منه فيما بعد إلى اللغة العربية.

وقد أنجبت سورية في العصر الهلنيستي رجال فكر وعلم وفن. فهناك زينون الصيداوي الذي وصفه شيشرون، بأنه أعظم من أنجبه العصر، وديودور الصوري، الذي تحدّث عنه شيشرون في كتابه، وأنطيوخس العسقلاني، الذي وصفه بلوتارخ بأنه خطيب قوي، وبوسيدون الأفامي، الذي غدت مؤلفاته مرجعاً للمؤرخين الأوائل، واعتبره شيشرون آخر عقل أنجبته الحضارة الهلنيستية، وهناك أنتيبات الصيداوي، وفيلوديموس، وميلياجر (من جدرة/أم قوس). وغيرهم من رجال الفكر في ذلك العصر.

وشهدت سورية آنئذٍ نهضة عمرانية ومعمارية وفنية متميّزة. فقد شيدت مدن جديدة (مثل أنطاكية واللاذقية والسويدية وأفاميا ودورا أوروبوس) في مواقع مناسبة للدفاع عنها، تتوفر الموارد الطبيعية لسكانها، وتؤسس بموجب مخطط منتظم يشبه سطحه رقعة الشطرنج، وتتقاطع فيها الشوارع المستقيمة بزوايا قائمة، وقد حدّدت أماكن المباني العامة، مثل المعابد والقصور والمسارح العامة والأسواق وغيرها. وأقيمت أعمدة تذكارية أو أقواس عند تقاطع الشوارع، قائمة على أربع دعائم، يرتاح لها البصر عوضاً عن النظر في امتداد الشوارع إلى

ما لا نهاية . وكانت الأسوار المنيعة تحيط بالمدن (مثل مدينة دورا أوروبوس) ولها بوابات تتميَّز بالقوة والجمال .

كما شيدت أحياء سكنية جديدة في جوار المدن القديمة (مثل دمشق وحلب) ، كما أظهرت التنقيبات الأثرية أحياء سكنية جديدة في موقع إبن هانئ ، تعود إلى العصر الهلنيستي . وتميزت الهندسة المعمارية في ذلك العصر ببناء أروقة ، تحمي المارَّة من أشعة الشمس صيفاً والأمطار شتاءً .

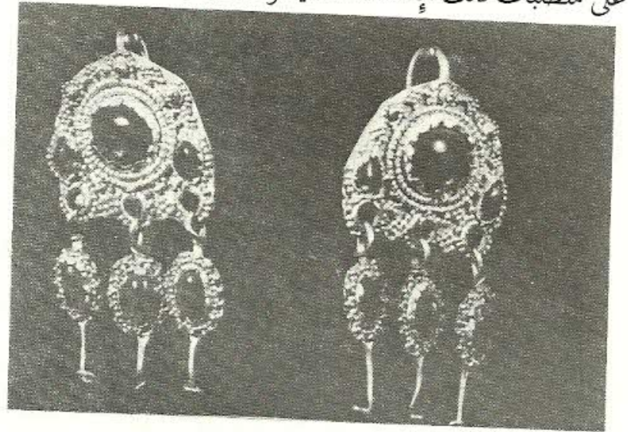
وهكذا فقد تطوّرت العمارة المحلية الدينية والمدنية والعسكرية والثقافية في العصر الهلنيستي ، معتمدة على تقاليد معمارية ، توارثتها الأجيال وأسهمت في إغنائها .

كما ظهرت روائع فن النحت ونخص بالذكر منها ، تمثال ربة الحظ (تيكه) للفنان أوتيخيدس ، إذ تبدو الربة حسناء جميلة (ربما كانت إيماتية) جالسة ويعلو رأسها تاج بشكل أسوار مدينة بيدها سنابل ، وعند قدميها شخص في حركة سباحة يرمز إلى نهر العاصي . ويعتبر هذا التمثال من روائع الفن العالمي ، كما أخذ الفنانون يبدعون تماثيل آلهة وحكام محليين وأبطال رياضيين . وورث الفنانون تقاليد فن الرسم الجداري (الفريسك) ، وزيّنوا بروائعهم الفنية جدران المباني (كمباني معابد دورا أوروبوس في حوض الفرات الأوسط) . وقد تميّزت رسومهم الجدارية بالمهارة اليدوية والخبرة التقنية والذوق الفني والحسّ الجمالي .

وإذا كانت مدينة أوروك ، أول من ابتكر فن الفسيفساء من الأصابع الطينية المختلفة الألوان ، فإن فناني سورية في العصر الهلنيستي ، أبدعوا روائعهم من مكعبات حجرية صغيرة الأبعاد ومختلفة الألوان ، تمثّل مواضيع ميتولوجية ووحدات زخرفية .

وأبدع الصائغ السوري في العصر الهلنيستي روائع فن الصياغة من عقود وأطواق وأقراط وأساور وخواتم ومشابك ووريقات جنائزية ، ليلبّي متطلبات أفراد مجتمعه الجمالية ، معتمداً على تقاليد تقنية ، توارثتها الأجيال وأسهمت في إغنائها .

وتابع الفنانون إبداع أجمل التماثيل الفخارية ، التي تمثل آلهة وفرقاً موسيقية وراقصة وغيرها ، كما أبدعوا أجمل التماثيل الحيوانية (جمل ، حصان ، كلب) ، التي تدل على مهارة يدوية ودقة ملاحظة ورغبة في إبداع كل ما هو جميل وجديد ومفيد . وهناك الأواني الفخارية ، المختلفة الأشكال والأنواع والاستعمالات ، وهناك السرج الفخارية الصغيرة المزيّنة بزخارف هندسية وعناصر نباتية ، أضفت الجمال عليها ، ودلت على متطلبات ذلك الإنسان النفعية والجمالية .





حلي من العصر الروماني الهلنيستي في المتحف الوطني بدمشق .

وتجدر الإشارة إلى صناعة النسيج المحلّية وتفنّن ذلك الصانع الفنان في عمله ، معتمداً على تقاليد مهنية ورغبة في إبداع وابتكار كلّ ما من شأنه أن يؤكّد مهارته ويرضي ذوقه الفني . وإن بقايا منسوجات تدمر الكتانية والصوفية والحريرية ، وبقايا ثوب أميرة بانياس ، الذي زالت خيوطه النسيجية وبقيت خيوطه الذهبية ، تدل على أهمية هذه الصناعة الفنية عصرئذٍ .

وهناك روائع صناعة الزجاج وبخاصة الزجاج الفسيفسائي وزجاج الملفيوري ، الذي يدل على ذوق ذلك الصانع الفنان وابتكاراته المتجدّدة .

وتميّزت نقود سورية في العصر الهلنيستي بالجمال والكثرة ، مما يدلّ على أهمية تلك الفعاليات الاقتصادية والمبادلات التجارية ، التي تطلّبت سك نقود كثيرة تتميّز بالجمال الفني .

خصائص الآثار السورية في العصور الهلنيستية والرومانية والبيزنطية

أ. بشير زهدي

إن دراسة فنون تنظيم المدن والعمارة والنحت والرسم الجداري والفسيفساء والصناعات الفنية في العصور الهلنيستية والرومانية والبيزنطية تدل على خصائص متميزة.

فن تنظيم المدن: تبنّى العصر الهلنيستي المخطط المنتظم، الذي يشبه سطحه رقعة الشطرنج، كما تبنّى العصر الروماني في تنظيم المدن شارعين رئيسيين: أحدهما عرضاني يمتد من الشرق إلى الغرب، والآخر طولاني يخترق المدينة من الشمال إلى الجنوب، وتتميز الشوارع بكونها مستقيمةً تتقاطع مع بعضها بزوايا قائمة، وكانت الأروقة تحيط بجانبي الشوارع الرئيسة، وكانت أعمدة الشرف والأقواس تقام عند ملتقى تلك الشوارع، ويمكن مشاهدة هذه الأقواس في كل من دمشق وشهبا وبصرى وتدمر واللاذقية. وكان يحيط بالمدن أسوار منيعة ذات بوابات ضخمة.

العمارة: شهدت العمارة الدينية والمدنية والعسكرية في سورية في العصرين الروماني والبيزنطي فترة ذهبية، وكانت من روائعها المعمارية، بوابات المدن المتميّزة بالضخامة والقوة والجمال. ومن أجمل تلك البوابات: الباب الشرقي في دمشق، وباب الهوا في بصرى، والباب الشمالي والباب الجنوبي في شهبا، والباب الشمالي في الرصافة.

وتميزت مباني العمارة الدينية في العصر الروماني والعصر البيزنطي في سورية بالضخامة والجمال المعماري ومن أجمل روائعها: معبد جوبيتر الدمشقي في دمشق، ومعبد بل في تدمر ومعابد صالحية الفرات ومعبد يبرود. وهناك كاتدرائية بصرى، وكاتدرائية إزرع، وكنيسة قلب اللوزة في محافظة إدلب، وقلعة سمعان، ودير مار جورجيوس قرب قلعة الحصن...

وبعدما كانت المسارح الخشبية تقام بمناسبة الأعياد، شيّد المهندسون في العصر الروماني المسارح الضخمة والجميلة من الحجر، ومن روائع هذه المسارح الحجرية: مسرح بصرى الضخم، ومسرح أفاميا، ومسرح سيرهوس. أضف إليها مسارح كل من شهبا وجبلة وتدمر. وتجدر الإشارة إلى قاعة الموسيقى، المعروفة باسم أوديون، المكتشفة في مدينة القنوات في محافظة السويداء، وإلى ملاعب السباق كملعب السباق (الهيبودروم) في بصرى. وهناك الحمامات، كحمامات شهبا وبصرى. وهناك سوق تحت الأرض (كريبتوبورتيك) في بصرى. وكان تزويد المدن بالمياه موضع اهتمام كبير لتلبية حاجة السكان من المياه بواسطة الأقنية. ومن روائعها القنوات في بصرى وشهبا ودمشق. وظهر الاهتمام بتجميل المدن بالأشجار، استمراراً للتقاليد المحلية القديمة، التي أوحت إلى مهندسي المدن بفكرة إقامة الأروقة لتحمي المارين من أشعة شمس الصيف وأمطار الشتاء. وقد أكد «مارسيل بويت» ذلك بقوله: «**يجب أن لا ننسى أن تحسّس جمال الطبيعة في الفن الهلنيستي شيء جديد يعود إلى التأثيرات الشرقية**». وإن تجميل المدن بالحدائق والأشجار هو مما قدّمه الشرق أثناء إسهامه في تكوين حضارة العصر الهلنيستي. ومما قاله أيضاً: «**ليست روما هي التي ابتكرت عناصر المدن، فقد وجدتها واتخذت من نفسها مالكاً لها**». وتجدر الإشارة إلى شهرة عدد من المهندسين السوريين عصرئذٍ مثل: آبولدور الدمشقي.

فن النحت: أسهم في جمالية المباني المعمارية المختلفة بالتماثيل والنقوش النباتية والهندسية. وأبدع النحات روائع فن النحت، مقتبساً مواضيعه من القصص الأسطورية المتوارثة وغيرها. وأخذ النحات يلبّي رغبات الحكام في إبداع تماثيل لهم تزيّن أروقة الشوارع الرئيسة ومبانيهم ومدافنهم. وقد تميّزت التماثيل بالمثالية أو الواقعية وحرص النحات على التعبير عن الملامح الفردية وحالات الإنسان النفسية. ويوجد في متاحف القطر العربي السوري تماثيل آلهة مثل: ربة الحظ «تيكه» وربة الانتقام «نيميسيس» وربة الروح «بسيشة»، ورب الرعي «بان».... إلخ. ورؤوس أباطرة منها رأس الإمبراطور «فيليب العربي ٢٤٤ ــ ٢٤٩م»، ورأس الإمبراطور البيزنطي «تيودوسيوس» ورؤوس حكام محلّيين وأنصاب تمثّل المرأة تمسك بيدها مغزلاً، وبالأخرى كتلة خيوط. وهناك تماثيل برونزية تمثل ربات مثل: فينوس، وليدا، ومينيرفا وإيزيس، وراقصة شرقية. وتماثيل حيوانات مثل: جاموس وفيل وكلب... إلخ. وتجدر الإشارة إلى روائع فن النحت التدمري من حجر الجير، وروائع فن النحت البازلتي في حوران، وطابعها المحلّي وقيمتها الفنية والجمالية والوثائقية.

فن الرسم الجداري: أبدع الفنان في سورية روائع فن الرسم الجداري (الفريسك)، الذي ورث تقاليده الفنية المحلية

منذ بداية الألف الثاني قبل الميلاد، عندما ازدهرت مدرسة فن الرسم الجداري في عاصمة الفرات الأوسط (ماري / تل الحريري)، وقد توارثت الأجيال المتعاقبة تقاليد هذا الفن الجميل، الذي انتقل إلى دورا أوروبوس / صالحية ألفرات، وزيّن معابدها العديدة والمختلفة بروائع فن الرسم الجداري. ووصلت تقاليد هذا الفن إلى تدمر حيث نجد (في مدفن الأخوة الثلاثة) رسوماً جدارية جميلة أهمها يمثل أسطورة «آشيل». ويعتقد بعض الباحثين أن تقاليد هذا الفن الجداري انتقلت إلى أنطاكية، ومنها وصلت إلى «الكنائس الرومانسيكية» في أوروبا، التي حافظت مواضيعها الدينية على ألوانها الحارّة الشرقية، كما ازدهر في سورية فن **رسم الأيقونات** منذ أبدع القديس لوقا الأنطاكي روائعه الفنية، وتوارثت الأجيال تقاليد هذا الفن الجميل، الذي كانت له وظيفة تعليمية وجمالية. وتحتفظ كنائس القطر بروائع هذا الفن، كما يحتفظ المتحف الوطني بدمشق بأيقونة تمثّل الزيارة، أبدعها الأسقف إبراهيم في كنيسة صدد على التخوم الغربية لبادية حمص.

فن الفسيفساء: يعود إلى مدينة «أوروك / الوركاء» فضل إبداع أقدم روائع فن الفسيفساء من الأصابع الطينية، وتوارثت الأجيال المتعاقبة تقاليد هذا الفن الجميل الجديد، وفي العصر الهلنيستي بدأ الفنان في سورية يستخدم المكعبات الحجرية الصغيرة في إبداع روائع فن الفسيفساء، وفي العصر الروماني استخدم الفنان مكعبات حجرية أبعادها نحو (١سم×١سم). وفي العصر البيزنطي بدأ الفنان يستخدم المكعبات الزجاجية مع المكعبات الحجرية المختلفة الألوان. وتمثل روائع فن الفسيفساء من العصر الروماني مواضيع أسطورية مثل: تمجيد الأرض، العدالة والثقافة والفلسفة، نهر العاصي / الأورونت، أورفة، ربة البحر، تالاسا، صورة سقراط. وتمثل روائع فن الفسيفساء في العصر البيزنطي صور قديسين، ورموزاً مسيحية هامة.

الآثار الفخارية: إذا كان الإنسان في سورية استخدم الفخار في صنع أوانيه الفخارية منذ الألف السابع قبل الميلاد؛ فإنه أخذ يبدع أوانيه الفخارية الجميلة في العصور الهلنيستية والرومانية والبيزنطية، كما أبدع أجمل السرج والفوانيس الفخارية والتماثيل الإنسانية والحيوانية، وأبدع في العصر البيزنطي ذكريات بشكل أقراص فخارية، تمثل القديس سمعان العمودي، أو العذارى الثلاث، أو صليباً، كما أخذ يبدع الروائع الخزفية الجميلة الأشكال والألوان منها: الأزرق أو الأخضر أو الزيتوني.

الآثار الزجاجية: ابتكر الفينيقيون الزجاج صدفة. وفي العصر الهلنيستي أبدع صنّاع الزجاج في مصر وسورية روائع الزجاج المعروف باسم الزجاج الفسيفسائي والزجاج الملفيوري. وفي القرن الأول ابتُكرت تقنية جديدة تعتمد على نفخ الزجاج في قالب أو في الهواء وذلك بواسطة أنبوب، مما أتاح للفنان إبداع أجمل الآثار الزجاجية ذات الأشكال الإنسانية أو الحيوانية، أضف إلى ذلك العناصر الزخرفية النباتية أو الهندسية، كما تفنن ذلك الفنان في إبداع المرايا الزجاجية والأساور والخواتم والمداليات الزجاجية، كما أخذ يرسم على سطح الزجاج صوراً جميلة أسطورية أو حيوانية. وقام بتقليد الأحجار الكريمة، وتفنن في صنع خرزات العقود. ويعتبر المتحف الوطني بدمشق من أغنى متاحف العالم بالآثار الزجاجية المختلفة.

فن صياغة الحلي البرونزية والفضية والذهبية: أبدع الصائغ السوري أجمل الحلي المختلفة من أطواق وأقراط وخواتم وأساور ومشابك ووريّقات جنائزية لتلبية متطلبات أفراد مجتمعه. وإن مجموعات الحلي المحفوظة في متاحف القطر تدلّ على قدم تقاليد فن صياغة الحلي في سورية منذ عصر قدماء الكنعانيين، ومهارة الصائغ السوري اليدويّة وخبرته المهنية وثقافته الجمالية في تلبية متطلبات مجتمعه.

الآثار النسيجية: إن بقايا المنسوجات الكتانية والصوفية والحريرية المكتشفة في تدمر وحلبية وغيرها، تدلّ على أهمية هذه الصناعة النسيجية عبر العصور، وقد توارثت الأجيال المتعاقبة تقاليدها الفنية وأسهمت في إغنائها وإتقانها، وإن ألياف الكتان الناعمة جعلته يُستخدم في أعمال التضميد، كما أن كثرة المراعي في سورية قدّمت لصناع النسيج مادة الصوف الجيّد. وإن موقع تدمر وحمص على طريق الحرير، أسهم في تزويد الصنّاع بالحرير ذي الأهمية الاقتصادية الكبيرة. وإن اكتشاف بقايا ثوب أميرة بانياس، زالت خيوطه النسيجية وبقيت خيوطه الذهبية، يوضّح أهمية صناعة النسيج في سورية. وحرص ذلك الصانع الفنان على الابتكار والتجديد والإبداع في صناعته الفنية، مما أسهم في شهرة سورية بهذه الصناعة الفنية.

من كل ما تقدم تبدو **خصائص القطر العربي السوري** في العصور الهلنيستية والرومانية والبيزنطية كما يلي :

١ً ـ تقيّد الفنان بالتقاليد الفنية التي توارثتها الأجيال المتعاقبة وأسهمت في إغنائها عبر العصور .

٢ً ـ انفتاح الفنان على روح عصره وحسن إدراكه متطلبات أفراد مجتمعه وذوقه ، مما جعل الفنان السوري يستوحي من الميثولوجيا في العصرين الهلنيستي والروماني ، ويبدع صورة سقراط من مكعبات الفسيفساء في أفاميا ، كما استوحى في العصر البيزنطي من قصص القديسين ، وتفنّن في إبداع الرموز المسيحية ، مما يدل على مدى انفتاح الفنان السوري على روح عصره وثقافته ومتطلبات أفراد مجتمعه .

٣ً ـ رغبة الفنان السوري في إبداع كل ما هو جديد ومبتكر وجميل له طابعه المحلي ، مما ساعده على إبداع أجمل المنحوتات التدمرية والمنبجية والحورانية ، وأجمل الآثار الزجاجية الفينيقية والجولانية ، وأجمل الحلي الذهبية وغيرها .

٤ً ـ إسهام الفنان السوري في إغناء التراث الحضاري عبر العصور : إن متابعة الفنان السوري المسيرة الحضارية عبر العصور وإسهامه في استمرار الإبداع في مختلف ميادين الحضارة ، جعله يُسهم جدياً في إغناء التراث الحضاري الإنساني عبر العصور ، وإن الآثار المكتشفة في سورية تشكل فصولاً مهمة في موسوعة التراث الحضاري للإنسانية . وهذا ما يفسِّر اهتمام الباحثين بآثار القطر العربي السوري واعتمادهم على التنقيب في مواقعه الأثرية ومجموعات متاحفه المختلفة في دراساتهم العلمية وبحوثهم الاختصاصية .

آثار الأنباط والتدمريين في سورية

د. عدنان البني

إثر تفتت إمبراطورية الإسكندر إلى دويلات هلنيستية ، نشأت في شمال الجزيرة العربية وفي الهلال الخصيب ممالك وإمارات عربية ، لعبت دوراً سياسياً وعسكرياً واقتصادياً مهماً ، ومنها مملكة الأنباط ومن ثم مملكة تدمر .

آثار مملكة الأنباط

إن الأصل العربي للأنباط أمر مفروغ منه علمياً . وقد أجمع على ذلك الباحثون ، اعتماداً على موطن الأنباط (الجزيرة العربية ولغتهم العربية وكتاباتهم بالآرامية ، وأسمائهم وديانتهم وأسماء آلهتهم وأكدت ذلك المصادر اليونانية واللاتينية وغيرها .

ويعتبر النص المعروف بنص «الخالصة» من حوالي القرن الثالث قبل الميلاد ، أول وثيقة محررة بالكتابة النبطية ويذكر فيه اسم «الحارث ملك الأنباط» . وقد عرفنا الأنباط من آثارهم المنتشرة حالياً في شرقي الأردن وشمال الحجاز وفلسطين وجنوبي سورية . وكان اكتشاف عاصمتهم البتراء عام ١٨١٢م على يد الرحالة السويسري «بوركهارت» ، ولكنها كانت معروفة لدى السكان العرب المحليين . إن أول أعمال التنقيب العلمية عن الأنباط بدأت في عاصمتهم البتراء من قبل هورسفلد وكونوي عام ١٩٢٩ ، ثم اتسعت التنقيبات كثيراً وشملت عدداً من مراكز الأنباط ويسهم بها اختصاصيون من العرب والأجانب .

الفن والعمارة عند الأنباط : الفن النبطي فن محلي ، متأثر بفن جنوب الجزيرة العربية والرافدين ، وقد طبع بطابع هلنيستي ، خاصة من مدرسة الإسكندرية والمدرسة السورية ، نتيجة للقرب الجغرافي والعلاقات السياسية والاقتصادية المشتبكة . وتجلى الفن النبطي أكثر ما تجلى في العمارة وبخاصة في عمارة المدافن ذات الطابع المتميز .

ومركز فن العمارة في معظمه في العاصمة البتراء . وتجلى بنحت الصخر الرملي الحيّ ، الورديّ اللون وإنشاء الأوابد في أعماقه أو على ذراه ، حتى لو كانت معبداً أو مسرحاً ، وقد برز خاصة بنحت واجهات معمارية زخرفية رشيقة ، بديعة للأوابد وأكثرها من المدافن ، وتكون هذه الواجهات بنظم شرقية تعتمد على زخرف المدرجات والشراريف (الميرلونات) الصماء ، وأشكال النسور ، أو نظم هلنيستية متكاملة من قواعد الأعمدة حتى الأفاريز والأطناف والقلانس والمنحوتات ، التي تمثل أرباباً وربات أو رموزهم . وقد أبدع فن العمارة النبطي طرازاً جديداً من تيجان الأعمدة ، فيه اختزال وجمال وقد انتشر في المنطقة النبطية كلها . ونجد نماذج منه في معبد الحي النبطي ببصرى وفي واجهة القوس القائمة أمامه . وإن آثار العمارة النحتية في مدينة الحِجْر (مدائن صالح) ، مشابهة بشكل عام لآثارها في البتراء ولكن بشكل أبسط من حيث الزخارف والحجوم .

وقد مرت العمارة النبطية بمراحل ثلاث مبدئياً :

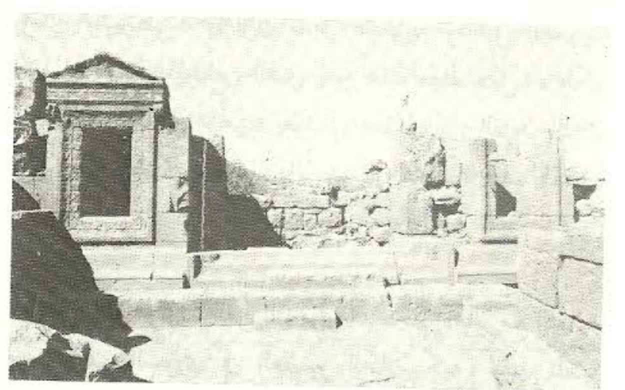
أوّلها طور قديم كان بسيطاً، يستفيد من إمكانية نحت الصخر للحصول على فراغ للسكن أو معازب للدفن. وفي الطور الثاني الذي يعود للقرن الأول قبل الميلاد، ترى الواجهات مزخرفة بأفاريز مفردة أو مزدوجة ومزينة بالشراريف والمدرجات، والأبواب، محاطة بأطر دورية الطراز. أما الطور الثالث الذي يعود للقرن الأول الميلادي، فيتصف باستعمال موفق لعناصر هلنيستية ورومانية في زخرفة الواجهات كالعضائد والأعمدة وجبهات الأبواب المقوسة والمثلثة والتماثيل والنقوش البارزة وذلك واضح في واجهة القوس، التي ينتهي إليها الشارع الرئيسي ببصرى في الجهة الشرقية.

أما النحت النبطي، فهو أقل طرافة وأهمية وهو منفَّذ بالحجر الكلسي أو الرملي في الجنوب وبحجر البازلت في الشمال ومنه ما هو محلي صرف، ومنه ما هو تقليد لمواضيع إغريقية، أو مزيج من الفن الإغريقي والتقاليد المحلية.

وعلى كل حال كان الأنباط، في حدود ما نعرف من منحوتاتهم، أوفياء للتقاليد الشرقية في الميل إلى النقش البارز أكثر من الميل للتماثيل والنزوع إلى التحوير والاختزال وتحديد المواضيع والقسمات بشكل واضح والعناية بالوجود الرمزي، أو الروحي، إذا صح التعبير، مقابل التشريح والحركة.

وإذا كان الأنباط لم يبدعوا نحتاً باهراً؛ فإن إبداعهم كان في ميدان صناعة الفخار، فبالإضافة إلى الفخار العادي، تركوا في طول البلاد وعرضها حتى حدود بصرى واعتباراً من القرن الأول قبل الميلاد فخاراً رقيقاً، ناعماً متساوقاً، جيد الشي، لونه وردي، أو طحيني مزخرف بلون زهري أو خمري أو قاتم، والزخرف يستخدم النبات المحوَّر غالباً والمأخوذ من البيئة المحلية وأكثر نماذج هذا الفخار، عبارة عن صحاف وأكواب. وفي الطور الثاني من صناعة هذا الفخار أصبحت الزخارف أكثف ودخلت فيها عناصر زخرفية هندسية وداخلها طلاء أبيض. أما السرج الفخارية النبطية، فهي تقليد للنماذج الهلنيستية وتحمل زخارف وكتابات نبطية.

وفي بصرى، التي كانت العاصمة الثانية للأنباط، نجد حياً نبطياً وقوساً نبطياً جميلاً، لعله المعبد المكرس للرب النبطي ذو الشرى. لقد أدت أعمال التنقيب الأثرية في بصرى خاصة في الأعوام الأخيرة (منذ عام ١٩٨٠) إلى جلاء أجزاء من ذلك الحي النبطي. ومن المواقع النبطية الأخرى في جنوب القطر العربي السوري مواقع شهيرة كالسويداء وشهبا وقنوات وصلخد ودرعا. وظل بعضها يحتفظ بالأوابد النبطية حتى وقت قريب كالسويداء وبعضها ما يزال محتفظاً بمعالم ظاهرة ومختفية كسيع شرقي قنوات، حيث المعبد الشهير المكرس للرب بعلشمين، كما أن أعمال التنقيب التي تمت بجواره، أدت إلى اكتشاف معبد صغير بواجهة بديعة، كما شهدت الحفريات في تلك الأرجاء وفي غيرها على براعة الأنباط في فن الإنشاءات الزراعية.



معبد نبطي في سيع بجوار (قنوات — السويداء)

وقد ترك عصر الأنباط نصوصاً كثيرة في كل المنطقة الجنوبية (حوران وجبل العرب)، وفي البادية وفي الضمير شرقي دمشق. وهذه النصوص بعضها من فترة ما قبل الميلاد ولكن أكثرها من القرن الميلادي الأول وعددها المعروف حتى الآن، حوالي مائتين وخمسين، معظمها من بصرى وجبل العرب والأقل من حوران وواحد من الضمير وهي محفوظة في متحف دمشق الوطني وفي متحفي السويداء وبصرى. وفضلاً عن أهمية هذه النصوص في إلقاء الضوء على تاريخ الأنباط؛ فإنها تعطينا أيضاً فكرة جيدة عن تطور الخط النبطي وتطوره تدريجياً إلى الخط الكوفي.

التدمريون

تدين واحة تدمر بوجودها إلى النبع الغزير، الذي كان يتفجر من جبل المنطار، والذي خلق محطة قوافل مهمة في قلب بادية الشام، بين البحر المتوسط والخليج العربي وشرقي الهلال الخصيب وغربه وبين الشمال والجنوب.

ارتاد الإنسان واحة تدمر منذ حوالي خمس وسبعين ألف عام ووجدت بقاياه غير بعيدة عنها في الكهوف وفي العراء.

وولدت في الألف السابع قبل الميلاد على ما يبدو قرية، سميت تدمر، ذكرت لأول مرة في نص آشوري من مطلع الألف الثاني قبل الميلاد وتكرر ذكرها خلال القرون حتى وجدناها في العصر الهلنيستي، ثم الروماني ولاية عربية، تحمل مع إسم تدمر إسم «بالميرا» المشتق من النخل، حيث تقع الواحة على الحدود الشمالية لشجرة نخيل التمر. ولأهل تدمر ذكر في الحروب السورية بين السلوقيين والبطالمة، ومن ثم في كل أحداث التاريخ الروماني والبيزنطي. ولا تزال تدمر العمورية وما قبل العمورية جاثية في أعماق المرتفع، الذي يقوم عليه معبد «بل»، ولكن ما يُشاهد الآن في تدمر، يعود في معظمه إلى القرون الثلاثة الأولى بعد الميلاد، ومرتبط بالأحداث التاريخية لهذه المدينة العريقة.

الفن التدمري: الفن التدمري منسجم إجمالاً مع التقاليد المعروفة للفن السوري في العصور الكلاسيكية، وقد تلقى تأثيرات واضحة من الفنون الهندية والفرثية، خاصة في التفاصيل، كما تلقى من حيث الشكل العام، تأثيرات كلاسيكية غربية عن طريق الفن اليوناني المستشرق أو مباشرة بطريق مدارس أنطاكية ومراكز الساحل الأخرى. ويقول هنري سيرينغ: «**لم يتمكن الحكم الروماني الذي دام قرنين ونصف مع كل ما رافقه من احتكاك بالغرب من تغيير النمط الغريب في ترتيب الأشكال المنحوتة (ذلك النمط)، الذي يشارك فيه التدمريون جيرانهم الشرقيين.**».

كان الفن التدمري إذن عند نشأته محلياً، متأثراً بالفن الفرثي المعاصر، الذي استقى من معين التقاليد البابلية والآشورية والسورية عموماً، كما استقى من الفن اليوناني الذي استشرق. وعلى هذا تجلت في الفن التدمري، الروح الشرقية كخط عام أساسي. وعند وصول الرومان تأثر المخطط العمراني للمدينة بهم، كما حصل في بعض المدن السورية من قبل؛ فأصبح مخططها رومانياً — يونانياً وكذلك التيجان والأعمدة وبعض التفاصيل الأخرى، ولكن الآثار الفنية بالمعنى الأصلي للكلمة، كالزخارف والتماثيل والمنحوتات الدينية والصور الجدارية، بقيت إلى حد كبير خاضعة أساساً لقواعد شرقية، كالتوجه إلى الأمام والاعتماد على الخطوط الواضحة، والتأكيد على الوجود الروحي لكل شخص بمفرده في كل ترتيب فني، وعدم الاهتمام بالتأليف الدراماتيكي لكل موضوع من المواضيع.

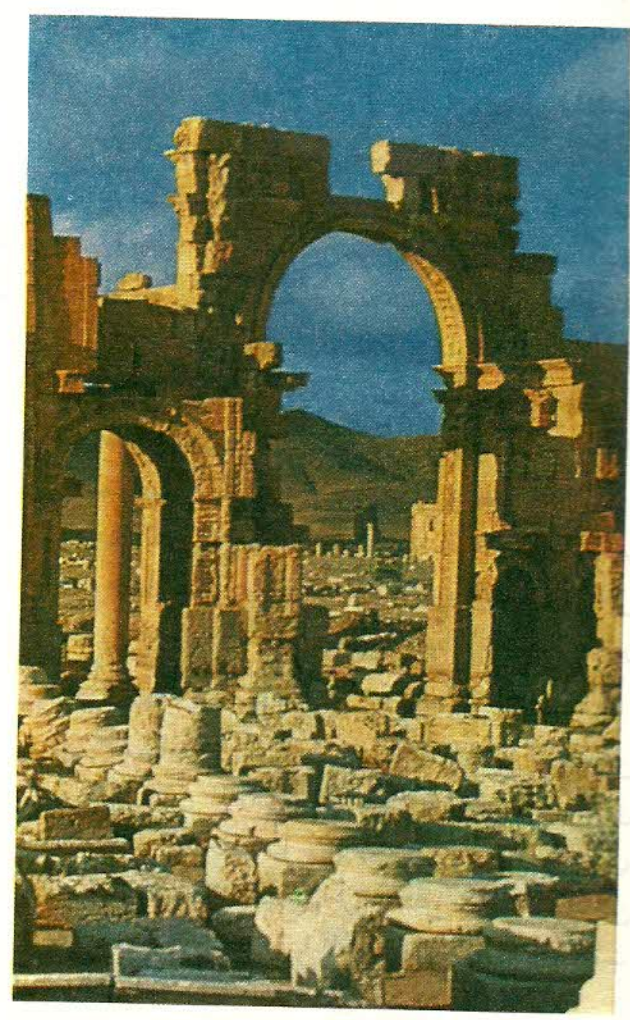
ويظهر أن النحت هو أبرز آثار الفن التدمري، فقد عالج الفنانون التدمريون الحجر بسهولة وثقة. وتتصف المنحوتات بصفات مشتركة على الغالب: الثياب بسيطة مثناة على الأذرع بشكل محوَّر، الجسم إلى الأمام، والرأس وحده يحدد اتجاه الحركة، الوجوه حليقة والأنف متصل بخط واحد مع الجبهة، والعيون محددة الجفون، والشعر مصفف بخطوط متوازية أو مجعدة، وهم حاسرو الرؤوس، ويتميز رجال الدين منهم بقلنسوة أسطوانية، مزينة بإكليل الغار على الأغلب. أما المرأة فتبدو محتشمة بثوبها الطويل وتغطي رأسها بعصابة وطاقية مطرزة وعباءة فيها تأثير الزي البدوي من محيط البادية. وتكثر من التزين بالحلي، ويزين الفنان أجفانها أحياناً بالكحل وشفتاها بطلاء ذهبي أو أحمر.

وتمتاز المنحوتات التدمرية بقوة التعبير بشكل عام، وهي توحيَ بالرجولة والتقشف والنبل لدى الرجال والجمال والترف لدى النساء، وهي تعتبر رمزاً لمأثرة في شخص، خلدها التدمريون عرفاناً وحافزاً، ولم يكن التدمري يتأمل جمالها وتناسق نِسبها، بقدر ما كان يحس بأثرها المعنوي، الذي نحتت من أجله وتخليده.

ويتجلى في النحت مفهوم التدمريين عن الألوهية، فكل قوة من قوى الطبيعة، ممثلة برب له صورة إنسانية يرتدي الثياب المدنية أو الحربية، وفي كثير من الأحيان يصعب التمييز بين صور الآلهة والناس العاديين.

آثار مدينة تدمر: إن معبد بل الذي كان يعرف باسم هيكل الشمس لهو أكثر معالم تدمر الأثرية أهميةً، وأكبرها وأكثرها روعة، وتتجلى فيه التقاليد الشرقية واضحة. وإذا أغفلنا بعض التفاصيل كالتيجان والأعمدة، نجد المخطط العام للمعبد التدمري عربياً سورياً عريقاً: صحن مقدس؛ هو عبارة عن باحة مربعة، محاطة بأربعة جدران تحف بها أروقة وفي وسطها الهيكل المركزي، الذي هو بيت الرب وفيه صنمه وسدنته وفي الباحة حوض التطهر والمذبح .... إلخ. وهو واحد من أكبر معابد العالم القديم، مساحته حوالي أربعين ألف متر مربع، حتى قيل إن عشرين معبداً، مثل معبد البارثينون في أثينا، يمكن احتواؤها فيه. وفي هذه الباحة كان عشرات الألوف من الوافدين من بادية الشام ومدائنها ومن الجزيرة العربية، يتجمعون في المواسم

ويطوفون بصنم الرب، محمولاً على جمل كريم تحت قبة حمراء، تتبعه الكاهنات المحجبات، ثم الكهنة والسدنة.



عمارة تدمرية
البوابة المعروفة بقوس النصر

بني الهيكل المركزي في العام ٣٢م واستمر بناء بقية أجزاء المعبد خلال حوالي قرنين من الزمن. وتذكر النصوص، التي وجدت في المعبد أن تيجان الهيكل المركزي وأبوابه الشاهقة، التي تتجاوز العشرين متراً، كانت من البرونز المحلى بالذهب وكانت أواني الطقوس والمباخر من الذهب الخالص.

إن الشارع الرئيسي في مدينة تدمر، يشطر المدينة ويربط بين أكثر معالمها أهمية، وامتد هذا الشارع على مراحل ثلاثة: خلال القرن الثاني والثالث للميلاد حتى بلغ طوله حوالي كيلومتر وعرضه حوالي أربعين متراً، وزين من جانبيه بالأروقة، التي تظلل المحلات التجارية وتحمل على أعمدتها تماثيل شخصيات المدينة وأبطالها، وتوجد إلى اليسار أربعة أعمدة ضخمة، هي واجهة هيكل لحوريات الماء، بُني حوالي نهاية القرن الثاني للميلاد، وكان صدر الهيكل محلى بالمحاريب، التي تحمل صوراً جميلة لحوريات الماء، التي تفيض الخير على هذه الواحة. وإلى الأمام من ذلك ما يعرف بقوس النصر، وهو إحدى البوابات التي تخفي انحراف الشارع الطويل. وهذه البوابة الثلاثية المداخل حافلة بأروع النقوش الهندسية والنباتية.

وبعد البوابة إلى اليسار، يوجد معبد نبو، وهو واحد من مكتشفات بعثة المديرية العامة للآثار والمتاحف. بني هذا المعبد في القرن الأول للميلاد وأكملت بعض أجزائه فيما بعد، وقد وجدت فيه منحوتات بديعة وأكثر من أربعين نصاً مكتوباً ومنها عُرف أن المعبد مكرس للرب نبو، رسول الأرباب وكاتبهم وقد وحّده الرومان مع أبولون.

وإلى يمين الشارع توجد حمامات تدمر، وهي من منجزات القرن الثاني للميلاد، تتقدمها بوابة رائعة، تتميز بأعمدتها الغرانيتية المجلوبة من أسوان في مصر، أو من جبال طوروس. وفي داخل الحمامات تُرى تفاصيل قاعة الاستراحة وحوض الماء البارد وحوض الماء الحار.

وفي الجهة المقابلة من الشارع يوجد مسرح تدمر وحوله باحة شاسعة، ذات أروقة. بني المسرح غالباً في القرن الثاني للميلاد وكان يستخدم للتمثيل وللصراع وهو محفوظ جيداً، بحيث يمكن استخدامه حالياً في مهرجانات تعيد ذكريات تدمر المجيدة.

وإلى الجنوب الغربي من المسرح، يوجد مقر مجلس الشيوخ، الذي كان يتولى إدارة المدينة، وعلى مقاعده الحجرية كان يجلس الرجال، الذين تصرفوا في وقت ما بجانب كبير من اقتصاد العالم القديم. ومن مجلس الشيوخ يتم الانتقال إلى مكان تجمع القوافل القادمة إلى تدمر، حيث كانت تجبى الرسوم وتحمل أو تفرغ الأحمال، ثم إلى الأغورا؛ أي ميدان السوق، حيث كانت تعقد الاجتماعات العامة، وهو من منجزات مطلع القرن الثاني للميلاد في أوج ازدهار تدمر الاقتصادي، وقد شيد على الطراز الأيوني وتحيط به الأروقة. كما تشاهد هناك منصة الخطابة، ومنهل الماء، وغرفة الولائم. وكانت الأعمدة تحمل حوالي مائتي تمثال، وفي الرواق الشمالي كانت تماثيل أرباب الوظائف العامة، وفي الغربي تماثيل رجال الحرب، وفي الجنوبي تماثيل رؤساء القوافل. ولدى عبور الشارع الغربي، المؤدي إلى

الشارع الطويل ، ترى إلى اليسار صفاً من الدكاكين ، محفوظاً بالشكل الذي كان فيه منذ حوالي ألف وسبعمائة عام ، وإلى اليمين قاعة للولائم الدينية وبقربها العمودان ، اللذان كان عليهما تمثالا أذينة وزينب ، كما يشاهد هيكل آخر لحوريات الماء ، يحتفظ بحوضه وواجهته الجميلة . وبعد هيكل حوريات الماء يسير المرء في شارع فرعي ، منقب حديثاً وهو من القرن الأول الميلادي ، فيه مذبح لم يزل في مكانه كالبلاط القديم ، ومن هذا الشارع يتم الوصول إلى معبد الرب بعلشمين ، الذي كان رب السماء والخصب في تدمر ، وهو مبني حوالي العام ١٣٢م . وقد آثر التدمريون بعلشمين فيما بعد على جميع أرباب تدمر ، ورمزوا له باسم « الذي بورك اسمه إلى الأبد » ومعبده كان في تدمر موئلاً لعشائر عربية خاصة ، خلدت أسماؤها فيه وكان لأذينة تمثال في باحة المعبد الشمالية .

المدافن التدمرية : اعتنى التدمريون بمدافنهم عنايةً فائقة ، وكان لكل أسرة مدفنها الخاص ، المزدان بالزخارف على الجص أو الحجر أو الفريسكات ، ومجهز ببئر للسقاية والتطهر ، ويغلق المدفن بباب من الحجر المنحوت وفوق الباب على الغالب ، نافذة للإنارة والتهوية ، وفوق النافذة كتابة تذكر اسم المؤسس وأسرته وتاريخ التأسيس . وفوق الجدران الداخلية ، تتوضع القبور بعضها فوق بعض بصفوف عمودية ، تفصل بينها لوحات من الرخام والقرميد ، وتغلق بتمثال نصفي للمتوفى . وفي صدر الجناح الرئيسي ، نجد السرير الجنائزي ، الذي يضم تماثيل مؤسس المدفن وأسرته ، وفوق السرير المشهد الذي يضم رب الأسرة مضطجعاً وإلى جانبه زوجته وبعض أولاده وقوفاً . وقد توجد على السرير مشاهد من حياة رب الأسرة قبل موته . وتوجد في تدمر عدة أنواع من المدافن :

١ ــ المدافن البرجية : هي أقدم أنواع المدافن ، معروفة منذ القرن الأول قبل الميلاد على الأقل ، كانت في بدايتها بسيطة . كانت قبورها تفتح إلى الخارج ومنذ القرن الأول الميلادي ، بدأت العناية بمظهرها من الداخل والخارج ، وهي مربعة الشكل ويقوم كل منها فوق مصطبة مدرجة ، ويتألف المدفن من عدة طوابق بينها درج حجري . الطابق الأول مزين بالنقوش والزخارف والعضائد المخددة والتيجان والأفاريز ، والسقف مدهون بالألوان ومقسم إلى أشكال هندسية ، متناظرة بينها تماثيل نصفية . وأجمل نماذجه الباقية مدافن إيلابل (١٠٣م) ويمليكو (٨٣م) وكيتوت في وادي القبور والمدفن البرج لا مثيل له في مدن الشرق القديم ، فهو تصميم تدمري ، يوائم طبيعة المدينة ومناخها وسكانها وذوق مهندسيها ويقرب منه نماذج في منطقة الفرات كانت تابعة لتدمر .

٢ ــ المدافن الأرضية : نجد هذا النوع أيضاً منذ القرن الأول قبل الميلاد (المدفن المبني باللبن المكتشف في ساحة معبد بعلشمين ويعود لما قبل الميلاد) . ولكل مدفن أرضي غالباً مخطط ذو جناح رئيسي وأجنحة فرعية ، فالجناح الرئيسي يقابل المدخل ، وجناحان أو أربعة أجنحة على الجانبين ، محفورة في التربة الغضارية ، وقد كسيت من الداخل بطبقة من الجص أو الحجر المنحوت ، وعلى الجص نفذت بالألوان مشاهد من الحياة والأساطير وصور الموتى والزخارف الهندسية والنباتية والكتابات . وأجمل هذه المدافن المعروفة : مدفن الإخوان الثلاثة ومدفن نصر اللات ، حيران . في منطقة المدافن الجنوبية الغربية ، ومدفن يرحاي (معاد بناؤه بدمشق) ومدفن شلم اللات بوادي القبور ومدفن أرطبن ومدفن بولحا بن نبو شورى من عام ٨٨م .

٣ ــ المدافن ــ البيوت : ظهر هذا النوع من المدافن بنهاية القرن الأول الميلادي أيضاً وانتشر ، يتألف من طابق واحد ، يتقدمه مدخل جميل ، وباب من الحجر المنحوت ، في داخله باحة مكشوفة ، تحيط بها أروقة تحمل سقوفاً ، وحولها من الداخل مصاطب ، بنيت فيها المعازب والقبور ، وأمامها كانت توضع الأسِرّة للأسرة مؤسسة المدفن .

في تدمر عدة مدافن ــ بيوت مكتشفة ، في وادي القبور (مدفن عيلمي بن زبيدا) والمدفن المعروف بالقصر الأبيض ، الواقع غربي مدفن إيلابل في وادي القبور ، والمدفن المعروف باسم « قصر الحية » في منطقة المدافن الشمالية وأسسته أسرة مارونا في شهر آذار عام ٢٣٦م ، وسمي قصر الحية لوجود رسم الحية على تاج عضادته الشرقية الجنوبية (والحية رمز للشمس والشروق والغروب والحياة المتجددة) ، وقد قامت المديرية العامة للآثار بإعادة بناء جداريه الجنوبي والشرقي عام ١٩٤٦ .

٤ ــ القبور الفردية : تتألف من قبر وحيد يكسى من الداخل بألواح منحوتة . وقد يوضع الميت في تابوت من الآجر داخل القبر الترابي ، وفوق القبر توضع شاهدة مزخرفة ، تنتهي من الأعلى بشكل هرم أو نصف دائرة وعليها تمثال المتوفى أو

ستار الموت المعلق بسعف النخيل، الذي يرمز إلى أمل الإنسان في الحياة الثانية، وعليه اسم الميت وكلمة « حبل = وأأسفاه ».

خصائص وآثار العمارة العربية الإسلامية في العصرين الأموي والعباسي

د. عفيف بهنسي

ازدهر الفن العربي الإسلامي في ظل الدولة الأموية، وفي بلاد الشام التي غدت وقتئذٍ، المركز الأول بين مراكز الحضارة العربية الإسلامية. فقد اقتضى بناء الدولة الجديدة في مستهل العصر الأموي: إنشاء مقرات للعبادة تكون على مستوى انتشار الدين الجديد واتساع تعاليمه، كما تطلب إنشاء أبنية رسمية للسلطة والسلطان، تعبر عن هيبة الحُكم والحاكم، فشُيدت مساجد عديدة، وبُنيت قصور ودور إمارة، في المدن وخارجها وزودت المدن بالمدارس وبالحمامات ووسائل الراحة والاستجمام.

دام العصر الأموي قرابة قرن من الزمن، تطورت خلاله الدولة العربية الإسلامية تطوراً، ترك أثره على الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية، فبلغت شأواً كبيراً في مضمار الحضارة والأخذ بأسباب العمران.

خصائص الفن الأموي

بدأت حركة البناء والتعمير الحقيقية في العصر الإسلامي من قبل الأمويين في الشام وبعض الأقاليم الأخرى. ويعتبر بحق أن عهد الإنشاء المعماري الزاهر، قد بدأ بعبد الملك بن مروان (٦٨٥ ــ ٧٠٥م)، الذي عرّب الدولة، وأصدر النقد، وأنشأ الدواوين وبنى مسجد الصخرة والمسجد الأقصى، ووصل الازدهار ذروته في عهد الوليد بن عبد الملك (٧٠٥ ــ ٧١٥م) وأخيه هشام بن عبد الملك (٧٢٤ ــ ٧٤٣م).

ولقد طبع العصر الأموي نتاج الفن العربي الإسلامي بطابع خاص ميزته عن غيره. تشترك الأبنية الأموية العامة في مقومات واحدة، تتمثل في **التخطيط والنسب وطريقة النحت والتعبير عن المواضيع**، مما جعل لهذا الفن شخصية واحدة منحته خصائصه المميزة. ويتبدى من تحليل هذه المقومات أنها تعتمد على ثلاثة عوامل رئيسة، تضافرت معاً لخلق هذا الفن الجديد وهي:

العامل الروحي: ويتجلى فيما أدخله الإسلام من عقائد وأفكار وثقافة وما أحدثه من تهذيب للروح العربية.

العنصر العملي: ويتجلى في مواد البناء المألوف استعمالها من: الحجر والآجر واللبن، والخشب والرخام والفسيفساء.

عامل الخلق والإبداع: ويتبدى في الحاجة إلى تلبية متطلبات العبادة الجماعية، وحاجة الحكام إلى المنازل والقصور؛ فكان لا بد من الابتكار وخلق الفن الجديد.

ويتمثل فن العمارة الأموي في حركة بناء **المساجد** وفي **القصور** التي شيدها الأمويون.

ولقد بدأت المساجد في العصر الأموي، تخرج من بساطتها شيئاً فشيئاً، إلى أن وصلت إلى المستوى الفني الرفيع في مسجد الصخرة في القدس، والذي شيده عبد الملك بن مروان، وفي المسجد الأموي بدمشق، الذي شيده إبنه الوليد بن عبد الملك. ويعتبر كلاهما مفخرة للعصر الأموي بشكل خاص وللحضارة العربية الإسلامية بشكل عام.

أما **القصور**؛ فإن أطلالها لا تزال قائمة، تمدنا بمعلومات كاملة عن الهندسة والتخطيط والفن المعماري وفنون الزخرفة، المتمثلة في النحت البارز والنقوش والرسوم الملونة (الفريسك أو الفسيفساء). وتتصف هندسة القصور الأموية بصفات عامة يمكن إجمالها فيما يلي:

١ ــ **المخطط**: مخطط القصر أشبه بالحصون الصغيرة، سور مرتفع مزود بالأبراج، هي على الغالب ذات مسقط دائري أو نصف دائري. وتتوسط القصر باحة سماوية محاطة بأروقة، تليها أجنحة سكنية مستقلة.

٢ ــ **المادة المستعملة في البناء**: هي غالباً الحجر الكلسي أو البازلتي الجيد النحت، وأحياناً الحجر الغشيم والآجر والخشب والطين، مع غطاء من الطين أو الجص أو الطين والكلس.

٣ ــ **العناصر المعمارية**: أقواس نصف دائرية أو متجاوزة، سواكف فوق الأبواب، تعلوها أقواس عالقة نصف دائرية، قباب، أعمدة وتيجان كورنثية، وأروقة.

٤ ــ **الزخارف**: تعتمد على استخدام الفسيفساء والفريسك وهما عنصران مألوفان. وتشتمل المواضيع الزخرفية على

صور بشرية وحيوانية وزخارف نباتية وهندسية، ومشاهد من الطبيعة والعمارة. والشيء الجديد الذي يظهر في العمائر السورية لأول مرة في العصر الأموي، هو النقوش الجصية، والواجهات المغطاة بالزخارف.

آثار العمارة الأموية في سورية

شيد الأمويون قرابة أربعين قصراً، أُنشئت في مناطق مختلفة من بلاد الشام، وهي اليوم تتبع سلطات متعددة بسبب التقسيم السياسي الذي تم عقب الحرب العالمية الأولى. أما في سورية فلم يبق من عمائر الأمويين سوى المنشآت التالية:

جامع دمشق (الجامع الأموي) ـ قصر الحير الغربي وملحقاته ـ قصر الحير الشرقي وملحقاته ـ قصر أسيس ـ رصافة الشام + جامع حلب

الجامع الأموي: ويطلق عليه المؤرخون أيضاً جامع دمشق



واجهة الجامع الأموي الداخلية والصحن الخارجي

أو الجامع الكبير. شيده الوليد بن عبد الملك، وفق مخطط جديد مبتكر، يتجاوب مع شعائر الدين الإسلامي وأغراض الحياة العامة، فجاء آية في الفن المعماري وتحفة من التحف الفنية. وحقق الوليد بذلك ما عزم عليه حين قال: «**إني أريد أن أبني مسجداً لم يبن من مضى قبلي ولن يبني من يأتي بعدي مثله**». وهكذا كان وقضى الوليد في بنائه قرابة عشرة أعوام بدءاً من ذي الحجة عام ٨٦هـ/ ٧٠٥م.

مخطط الجامع

شكله مستطيل أطواله ٩٧ × ١٥٦م، يحتل جانبه الشمالي صحن مكشوف، أبعاده ١٢١ × ٤٨م، تحيط به أروقة مسقوفة. ويحتل قسمه الجنوبي الحرم أو المصلى وأبعاده ١٣٦ × ٣٧م. وللجامع أربعة أبواب أساسية: واحد في الجهة الشرقية هو **باب النوفرة**، وآخر في الجهة الغربية هو **باب البريد**، وثالث في الجهة الشمالية هو **باب الكلاسة**، والرابع ينفتح من الحرم مباشرة وهو **باب الزيادة** ويصل الجامع بالجهة الجنوبية من المدينة.

أقسام الجامع وعناصره المعمارية

آ ـ السور والأبواب: سور الجامع مبني بالحجارة الكلسية من مداميك كبيرة الحجم، مزودة بدعائم جدارية.

أما أبواب الجامع فإن الباب الشرقي، وكان يدعى باب **جيرون**، واسمه اليوم **باب النوفرة**؛ فيتألف من باب في الوسط، ذي قنطرة عالية وبابين صغيرين على جانبيه. ويقابله الباب الغربي وهو باب البريد وهو مؤلف كذلك من ثلاث فتحات. ويلي كلاً من البابين المذكورين دهليز فخم، يتصل بالأروقة المحيطة بالصحن وبالمشاهد القائمة على جانبيه. أما الباب الشمالي؛ فمؤلف من فتحة واحدة فقط ويطلق عليه **باب الكلاسة** أو **باب العمارة**. وأما الباب المفتوح في الحرم فهو يتألف من فتحة واحدة واسعة.

ب ـ الصحن والأروقة: الصحن مستطيل، مبلط بالحجر الكلسي، وتتخلله ثلاثة مبان صغيرة: ففي الوسط توجد البحرة ـ وكان يوجد فوقها قبة على أقواس وأعمدة، أُزيلت منذ بضعة أعوام ـ. وفي الجهة الغربية توجد قبة الخزنة، وهي بناء مضلع، قائم على ثمانية عمد كورنثية الطراز جميلة التيجان. أما في الجهة الشرقية، فتوجد قبة أخرى على ثمانية عمد وكانت تدعى قبة زين العابدين.

وفي وسط الصحن، يوجد عمودان من الحجر، يحملان رأسين مزخرفين من النحاس قديمين، كانا يستعملان للإسراج وإنارة الصحن.

ويحيط بالصحن رواق مسقوف، محمول على دعائم وأعمدة، تتناوب كل دعامة مع عمودين. وتحمل الدعائم والعمد قناطر ذات أقواس نصف دائرية مدببة قليلاً، وتعلو كل قنطرة، قنطرتان صغيرتان، محمولتان على دعامتين بينهما عمود. أُعيد بناء الرواق الشمالي بدون أعمدة، بعدما تهدم كلياً في زلزال عام ١٧٥٩م، وكسيت دعائمه بزخارف جصية متنوعة.

ج ــ **الحرم** : يتألف الحرم من ثلاثة أروقة موازية للقبلة، محمولة على صفين من الأعمدة الحجرية، مؤلفة من طابقين، السفلي منهما مؤلف من قناطر كبيرة نصف دائرية، والثاني يتألف من عدد مضاعف من القناطر. ويقطع الأروقة المذكورة في وسطها رواق أوسع منها وأكثر ارتفاعاً «المجاز القاطع»، يتعامد هذا المجاز مع جدار القبلة وبتصدره المنبر والمحراب.

تتوسط المجاز، هذا قبة عالية ترتفع نحو ٣٦م، محمولة على أربع دعائم ضخمة، فوقها قبة مثمنة، مزودة بالنوافذ. وتعرف بقبة النسر وتتمتع بشكل مهيب رائع. وفي الحرم المزخرف بأروع الفسيفساء الملون والرخام المجزع، توجد أربعة محاريب مزخرفة ومنبر خشبي*.

أما واجهة الحرم على الصحن، فقد كانت وفق الترتيب المذكور في أروقة الصحن من حيث تناوب الدعائم والأعمدة الحاملة لقناطرها، ولكنها جددت بعد الحريق الأول، الذي حدث عام ١٠٦٧م دون أعمدة.

تقوم واجهة المجاز وسط الحرم، وهي تتألف من ثلاثة أبواب ذات قناطر نصف دائرية، الوسطى كبيرة والجانبيتان أصغر منها. وهذه القناطر محمولة على عضادتين بينهما عمودان. ويعلو الأبواب الثلاثة قوس كبير، يضم ثلاثة نوافذ. وتنتهي الواجهة في أعلاها بجبهة مثلثة، ويحف بواجهة المجاز برجان صغيران بارزان.

وتغطي الحرم سقوف سنامية الشكل (جملونات)، صنعت من الخشب وصفحت من الخارج بالرصاص. وهي ثلاثة سقوف توازي القبلة، ممتدة من الشرق إلى الغرب، يقطعها في وسطها سقف المجاز المرتفع.

يسترعي الانتباه داخل الحرم بناء صغير، أنيق، قائم بين أعمدة الرواق الأوسط، شرقي المحراب. إنه ضريح النبي يحيى، أو القديس يوحنا المعمدان، كما كان يسميه المسيحيون.

يستمد الحرم نوره من نوافذ مفتوحة في جداريه الكبيرين، الشمالي والجنوبي. وهي شبيهة بالقناطر العليا الموجودة في جميع الأروقة من حيث الشكل والمقياس. ففي الجدار الشمالي أربع وأربعون نافذة، اثنتان فوق كل قنطرة كبيرة، ومثلها في الجدار الجنوبي. هذا باستثناء نوافذ المجاز وقبة النسر، وجميعها محلاة بالزجاج الملون بتشكيل وكتابات ورسوم فنية.

وهناك نوع آخر من النوافذ، ما تزال ست منها باقية في المشهد الشمالي الغربي (قاعة الاستقبال حالياً)، يعتقد بأنها النموذج الأموي لنوافذ الجامع. وتتألف من شبك من الرخام الأبيض، منقوش بزخارف ورسوم هندسية تتنوع في كل نافذة. فهي من أكثر عناصر الجامع أصالةً وروعةً من الناحية الفنية.

د ــ **المآذن** : تعلو الجامع ثلاث مآذن: اثنتان من جهة الجنوب، أُقيمتا فوق بقايا المآذن الأموية الأولى، الشرقية منهما وتسمى **مئذنة عيسى** ويبلغ ارتفاعها ٦٥م. أما المئذنة الغربية فهي أجمل المآذن وترتفع ٥٦م. والمئذنة الثالثة شيدت إلى جانب الباب الشمالي على هيئة برج مربع وتسمى «**مئذنة العروس**».

هـ ــ **المشاهد** : أنشئ على جانبي البابين الشرقي والغربي ــ كما ورد في المخطط ــ أربع قاعات كبيرة، مستطيلة شبه متساوية الأبعاد، عُرفت قديماً بالمشاهد. استخدمت لأغراض شتى: للتدريس، والصلاة، والاجتماعات، ولخزائن الكتب، والمستودعات، بعد أن كانت جزءاً من دار الخلافة، ومقراً أساسياً للخليفة.

و ــ **العناصر الزخرفية** : تتألف الزخارف الأموية، التي كانت تزين الجامع، من عنصرين رئيسين هما، الفسيفساء والرخام. وكانت الفسيفساء في الأصل تغطي الأقسام العليا للجدران، في الداخل والخارج، في الحرم والأروقة، وكذلك القناطر وباقي العقود. وهي تلي مباشرة الكسوة الرخامية، التي تغطي أسفل الجدران بارتفاع يقارب أربعة أمتار عن سطح الأرض. وكان الرخام من النوع المجزع ويحتفظ دهليز باب النوفرة بنموذج للرخام المجزَّع الأصيل. وكان يتخلل الرخام المجزع في الجامع الأموي قطع من الرخام، عليها زخارف منقوشة بمواضيع نباتية أو هندسية.

وتغلب في الفسيفساء الأموية الفصوص، المصنوعة من الزجاج الملون والفصوص المفضضة والمذهبة. ويتخلل الفصوص الزجاجية قليل من فصوص الحجر والرخام، كما وتتميز تلك الفسيفساء بأن مواضيعها تقتصر على مشاهد الطبيعة والعمائر

* المنبر الحالي من الرخام

والزخارف النباتية والهندسية. وكان يتخلل الفسيفساء كتابات وآيات قرآنية.

إن ما بقي من الفسيفساء بعد الكوارث، التي ألمت بالجامع الأموي، يعتبر ثروة فنية لا تقدر بثمن. ويشاهد في جدار ورواق الصحن الغربي وفي دهليز باب البريد، وعلى واجهة المجاز.

وعدا عن عنصري الرخام والفسيفساء وكذلك النوافذ الرخامية، والنوافذ الجصية المزينة بالزجاج المعشق، فإن الزينة والزخرفة كانت تغطي كل زاوية وكل عنصر من عناصر الجامع المعمارية. وكانت مصاريع أبواب الجامع مصفحة بالنحاس المذهب.

وفي عهد سليمان بن عبد الملك، بُني جامع **حلب** على شاكلة الجامع الأموي بدمشق (كما يُنسب إلى سليمان أيضاً بناء جامع **الرملة** في فلسطين).

الفن المعماري في العصر العباسي

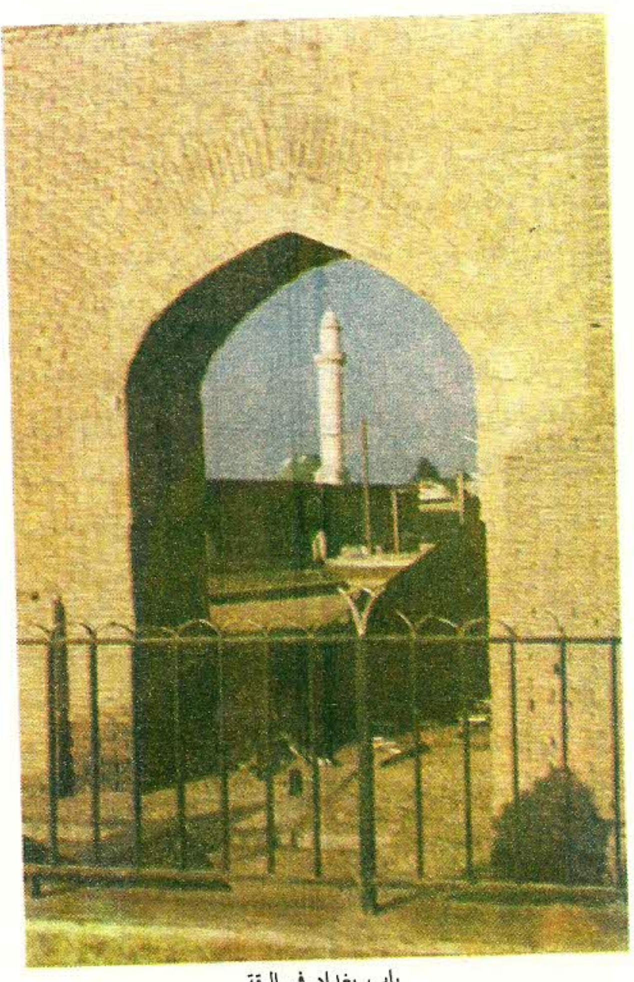
إن انتقال العاصمة إلى بغداد في العصر العباسي، كان السبب في ظهور أنماط جديدة من الفن المعماري والزخرفي والتطبيقي، ليس في بغداد وحدها، بل وفي بلاد الشام، التي كان لا بد أن تتأثر بالطرز، التي انتشرت في العاصمة الجديدة، خاصة وفي بلاد ما بين النهرين عامة. لذا تبقى الرقة والرصافة من أكثر المناطق السورية تأثراً بهذا التبدل الجديد، باعتبارهما من حوض الفرات، الذي تسود في واديه شروط طبيعية متماسكة. نرى ذلك في العمارة باستعمال الآجر، والقرميد، عوضاً عن الحجارة، كما نراه في الزخارف الآجرية وفي السقوف المعقودة. فلقد استفاد المعمار من مادة الآجر، التي تمتاز بالخفة وإمكانية الالتحام بالملاط، عدا فوائدها السكنية الصحية، في تشييد القباب والأقواس والعقود، ذات الأشكال المختلفة المنكسرة والحدوية والكاملة، وكذلك في تشييد العضائد والجدران والمداخل الضخمة والأواوين المستحدثة.

ومن المؤسف أن آثار مدينة الرصافة السورية، التي أنشئت في العصر العباسي غير واضحة على الرغم من العثور على كثير من اللقى، التي تشهد على ازدهار الحياة في ذلك العصر.

ولكن النموذج الأكثر وضوحاً هو مدينة الرقة (الرافقة)، التي تقع على ضفة نهر الفرات اليسرى.

الرقة: تعتبر مدينة الرقة (الرافقة) العمل العمراني العباسي، الوحيد في سورية، الذي بقيت منه معالم واضحة. أنشأ مدينة الرافقة أبو جعفر المنصور عام ١٥٥هـ/ ٧٧١م، على الضفة اليسرى لنهر الفرات على شكل حدوة الفرس. واشتهرت الرافقة بقصورها، التي شيدها الرشيد والمعتصم وغيرهما من الخلفاء.

إن أهم ما بقي من المدينة اليوم آثار: سورها، وبابها



باب بغداد في الرقة.

المشهور ــ باب بغداد ــ وجامعها الكبير. وللرافقة سوران، سور داخلي بسماكة ٥٫٧٥م، مدعم بخندق يحيط به بعرض ١٦م، ثم يليه سور خارجي بسماكة ٤٫٥م. وللمدينة بابان رئيسان: باب بغداد، الذي ما زالت معالمه واضحة وهو مفتوح في برج تعلوه قنطرة ذات قوس، وعلى جانبيه حليتان زخرفيتان،

ويقوم هذا الباب في الزاوية الجنوبية الشرقية من سور المدينة . وكان الباب الآخر يقابله في الزاوية الشمالية الغربية ويدعى باب الرها ، وقد زالت معالمه .



جزء من سور مدينة الرافقة (الرقة)

وفي المدينة أيضاً جامع (١٠٨ × ٩٢م) له سور من اللبّن ، مدّعم بأبراج نصف دائرية في الزوايا والأضلاع . وينفتح حرم الجامع على الصحن بأحد عشر قوساً ما زال بعضها قائماً .

وفي الرقة تم اكتشاف آثار ثلاثة قصور ، واحد منها يتألف من خمسة أقسام عمرانية . وفي داخل أسوار هذا القصر ، نتبين قسماً للشؤون العامة ، وآخر يتضمن البيوت الخاصة ، ثم الشارع الرئيسي والحدائق ، وعُثر خارج السور على آثار مسجد وحمام .

وثمة قصران آخران أصغر حجماً . ولقد عُثر فيهما على نقوش تشابه نقوش مدينة سامراء تماماً . وفي خارج الرقة أنشأ الخليفة المهدي ، على الضفة اليمنى لنهر البليخ ، قصوراً كما أنشأ في المدينة أسواقاً .

وعاشت الرقة «أيام العروس» ، خلال عهد هارون الرشيد (٧٨٦ ــ ٨٠٩م) الزاهر ، واتخذها الرشيد مقراً لا يغادره إلا لغزو أو ضرورة ، وأكمل بناء الرافقة وبنى فيها قصر السلام والقصر الأبيض ، وبنى خارجها حصن هرقلة والميادين والحدائق وأصبحت تعرف باسم «مدينة الرشيد» .

وعرفت الرقة بصناعة الفخار والخزف ، الذي يمتاز بتقنية متميزة ، هي الفخار المموه بالميناء . فثمة أوان فخارية مجردة من الطلاء ، أو من التمويه ، أو مفروشة بنقوش بارزة ، أو محززة بالأظافر للخزف ذي البريق المعدني ، ففي الخلفية البيضاء تبدو صيغ ، يتموج فيها اللون من الذهبي إلى الأحمر القاتم .

ولقد أبانت اللقى الخزفية ، التي عُثر عليها في الرقة صدفة أو نتيجة أعمال تنقيب ، أن هذه المدينة كانت قد أنتجت روائع الخزف ، مما يحاكي خزف الري أو سامراء ، بل يفوقه في كثير من الأحيان . فالأواني الفخارية غير المطلية ، أو المموهة بالميناء ، أو المزينة بنقوش غائرة أو نافرة ، وكذلك الخزف المطلي بالأزرق والأخضر والأصفر والقاشاني ذو البريق المعدني ، الذي يعتبر من مبتدعات الرقة ، وهي من الروائع الفخارية ، التي تحفظها المتاحف السورية وبعض المتاحف العالمية ، نظراً لتميزها عن غيرها ، حتى أصبح الفخار والخزف الرّقي في مقدمة الفنون التطبيقية العربية الإسلامية .

آثار الرحبة : تحدث المصادر التاريخية عن مدينة ، أُنشئت في عهد المأمون ، هي رحبة مالك بن طوق ، التي بُنيت على ضفة الفرات اليمنى وكان لها قلعة . نجد اليوم منطقة خرائب غير ظاهرة المعالم حول قلعة الرحبة ، القريبة من بلدة الميادين الحديثة ، الواقعة على ضفة الفرات اليمنى . وتبعد القلعة قرابة خمسة كيلومترات ، وهي مبنية بالحجارة والآجر .

(أما آثار العمائر العباسية ، فنجد معظمها في العراق وفارس ، وفي الشام ومصر وإفريقيا ، وتتجلى فيها الحضارة العربية وما رسخته فيها الثقافة الإسلامية ، مما كان له الأثر الكبير في تطوير الفنون الرافدية والفارسية وفي خلق أسلوب فني جديد عرف بالفن العباسي) .

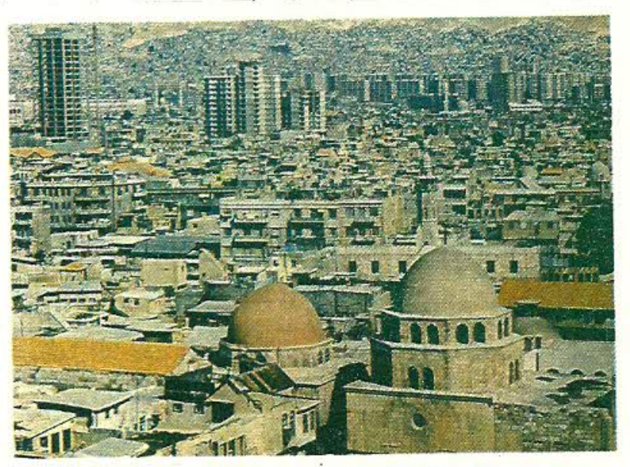
خصائص وآثار العمارة العربية الإسلامية في سورية في العصرين الأيوبي والمملوكي

د. أ. حسن كمال

١ ــ فنون العمارة في العصر الأيوبي

شهدت البلاد في **العصر الأيوبي** ازدهاراً في فن العمارة ، على الرغم من الحروب الواسعة ، التي خاضتها وبخاصة منها الحروب الصليبية ، وانهماك الدولة في محاربة أعدائها من الفرنج وتحرير الأراضي المحتلة . وتجلت الحركة العمرانية ، باهتمام السلاطين إبان ذلك العصر بتشييد العديد من العمائر الهامة في المناطق ، التي خضعت لسلطانهم . وكان توسيع المدن وإحاطتها

بالأسوار المنيعة، وإنشاء القلاع والحصون من الأمور، التي استحوذت على اهتمامهم آنذاك، دفاعاً عن بلادهم أمام شراسة الهجمات الصليبية، ولم يصرفهم ذلك عن فنون العمارة



قباب أيوبية في مدينة دمشق القديمة

الأخرى، إذ كان للخانات والفنادق نصيب وافر من رعايتهم، مستهدفين توفير الراحة لقوافل المسافرين، كما أنهم لم يغفلوا عن بناء المنشآت ذات النفع العام، فامتلأت المدن بالمساجد والمدارس والخانقاهات والحمامات والبيمارستانات والقيساريات. وما زال كثير من هذه المباني باقٍ إلى اليوم وبعضها بحالة جيدة في المدن السورية الكبرى.

الخصائص الفنية للعمائر الأيوبية: تشترك المباني والمنشآت الأيوبية بخصائص عامة، إذ يغلب عليها طابع البساطة والتقشف بسبب حالة الحرب، ولكنها في الوقت نفسه، تتميز بالمتانة والقوة وحسن التخطيط وإتقان البناء، واعتبار الحجر مادة العمارة الأساسية؛ فآثروا استخدامه بعد أن أجادوا نحته، مما ساعد على إطالة عمر مبانيهم، جاعلاً منها شواهد حية يفخر بها العرب على مر السنين.

ولقد تأثر المخطط العام للمباني في العصر الأيوبي بالعناصر، التي أُدخلت عليه في العصر السلجوقي وامتزجت مع العناصر المحلية الأصيلة. ففي المدارس والمساجد على سبيل المثال، أصبح الصحن ببركته ذا أشكال هندسية مختلفة، محاطاً بأواوين في أكثر الجهات باستثناء الجهة الشمالية. أما القباب بجمالياتها؛ فاعتبرت أحد العناصر المميزة في فنون العمارة الأيوبية، فازداد ارتفاعها وتعددت أشكالها، وكان شكلها الغالب في دمشق، هو القبة ذات الأضلاع المتصالبة في القمة، كما وجدت قباب ذات أضلاع مؤلفة من طبقتين بينهما النوافذ.

وللانتقال من الشكل المربع إلى القبة المستديرة، استعمل أحد العناصر التالية:

١ ــ المقرنصات.

٢ ــ الحنايا الركنية.

٣ ــ المثلثات الكروية.

وكانت القباب تبنى بمادة الآجر غالباً، ولا سيما في دمشق، بينما كان أكثرها يبنى بالحجر المنحوت في حلب.

أما **الواجهات**، القسم الهام في المنشآت، فكانت تبنى بالحجارة الكبيرة، المنحوتة نحتاً جيداً وفق مداميك عريضة. ولم تستعمل الحجارة الملونة في البوابات، إلا في نهاية العصر الأيوبي وكانت البوابات تلك مرتفعة ويتوجها عقد مقرنص، أو عقد له قبتان صغيرتان، واستعملت الأعمدة في الأروقة محل العقود.

وفي مجال **الزخرفة**: تعتبر كثافة الزخرفة في الفن الإسلامي، هي إحدى خصائصه، إلا أن المنشآت الأيوبية قللت منها وحصرت استعمالها في الواجهات وخاصة في الأبواب، حيث توجد المقرنصات والحجارة الملونة وكذلك الصنجات. وفي أعالي الأبواب كتابات، تتضمن تأريخ البناء وغالباً ما يستعمل فيها الخط النسخي (الثلث) الجميل، وكثيراً ما تحلى البوابات بنقوش ذات أشكال هندسية مختلفة. أما في داخل الأبنية؛ فالزخارف الجصية هي التي كثر استعمالها في الجدران والنوافذ وبخاصة ما تم إنشاؤه من المباني في مدينة دمشق. وقد أبدى الفنان في العصر الأيوبي اهتماماً كبيراً بمادة الخشب، لأنها تتيح له، بما فيها من مميزات، التكيف بزخرفتها والنقش عليها، كما في محراب جامع الحلوية في حلب، وضريح صلاح الدين الأيوبي في دمشق.

آثار العمارة الأيوبية في سورية: يذكر منها بعض المباني الباقية من ذلك العصر.

ففي **مدينة دمشق** يوجد: قلعة دمشق، البيمارستان القيمري، المدرسة العادلية الكبرى والصغرى، المدرسة العزيزية والأتابكية. ومن المساجد: جامع الحنابلة، جامعة التوبة. ومن الحمامات: حمام الجوزة وحمام السروجي. أما الترب فهي كثيرة، منها: التربة النجمية، نسبةً إلى نجم الدين أيوب والد صلاح الدين، والتربة الخاتونية وفيها ضريح خاتون عصمة الدين، زوجة صلاح الدين الأيوبي، والتي ما زالت تشهد على

ما كان عليه ذلك العصر من الاهتمام في ميدان العمارة بدمشق .

وأما **في حلب** فهناك العديد من المنشآت ، التي ما زالت قائمة . ومن أهمها : قلعة حلب ، المدرسة الظاهرية البرانية والظاهرية الجوانية ، المدرسة الطرنطائية ، المدرسة الكاملية والرباط الناصري . يضاف إلى ذلك كله العديد من الآثار الأيوبية المنتشرة في المدن السورية الأخرى منها : قلعة حماة وقلعة حمص وقلعة بصرى ، المحيطة بالمسرح الروماني والمدرسة الشافعية في المعرة .

وأما **قلعة دمشق** : فهي أهم مثل على فن العمارة العسكرية في العصر الأيوبي . بدأ بتشييدها الملك العادل الأيوبي عام ٥٩٩هـ/١٢٠٢م ولا تزال تتربع في وسط مدينة دمشق بحالة جيدة ، محافظة تقريباً على أصالتها وعلى أبراجها الإثني عشر . لهذه القلعة بابان رئيسان ، أولهما في الجهة الشرقية ، تزينه المقرنصات ، وثانيهما في الجهة الشمالية قريب من نهر بردى . وكان يحيط بالقلعة خط دفاعي أول ، هو عبارة عن خندق يُملأ بالماء عند الحاجة . وقد عُني المعمار الأيوبي ، عناية فائقة ، بداخل القلعة ؛ فبنى فيها القصور والمساجد والحمامات . وكانت فيما مضى مقراً للسلاطين ، ثم غدت مقراً لنائب السلطان في العصر المملوكي .

المباني المدنية : وهي كثيرة جداً في دمشق وغيرها من المدن ومن أهمها :

المدرسة العادلية الكبرى

أنشأها في دمشق الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد بن أيوب عام ٦١٢هـ/١٢١٥م . وهي من أهم آثار المباني المدنية الأيوبية ، من حيث التخطيط ورصانة البناء ، والعناصر المعمارية . ولقد استخدمت هذه المدرسة مقراً للمجمع العلمي العربي منذ عام ١٩١٩م . ومن أقسامها الرئيسة عناصر هامة ، تحافظ على وضعها الأصيل ، منها : واجهتاها الشرقية والجنوبية ، وبوابتها ودهليزها وصحنها ، وتربة منشئها ، وواجهة الحرم وبعض إيوانها الكبير الشمالي .

في **واجهتها الشرقية** باب يؤدي إلى دهليز مسقوف بقبوة ، يليه باب آخر يطل على الصحن السماوي . وفي الجهة الجنوبية من الدهليز باب التربة ، ويُصعد إلى الطابق العلوي من باب في الجهة الشمالية . أما **صحنها** : فمربع الشكل يحيط به من الجنوب المصلى ، ومن الشمال إيوان واسع . أما **الواجهات الخارجية** : فمبنية بالحجارة الكلسية ، وتنتهي في قسمها العلوي بطنف من الحجر . أما الباحة السماوية فمربعة الشكل وأبعادها ١٧ × ١٨م مبلطة بالحجارة ، تتوسطها بركة ماء مربعة ، أبعادها ٨,٥ × ٨,٥م . وبالنسبة للواجهات الداخلية المطلة على الباحة ؛ فهي من الحجر ، غير أنها خالية من الزخارف .

٢ ـــ فنون العمارة في العصر المملوكي

دام العصر المملوكي عدة قرون بين عامي ٦٥٨هـ/١٢٥٩م ـــ ٩٢٢هـ/١٥١٦م . ولقد نعمت البلاد في معظم هذه الفترة بالأمن والاستقرار النسبيين ، فازدهرت الحركة العمرانية وارتقت الفنون والصناعات ، وتقدمت وانتشرت العلوم والآداب . ويشهد على ازدهار فن العمارة كثرة الأبنية ، التي انتشرت في البلاد ، فشيدت الجوامع والمدارس والترب والحمامات والأسواق والقيساريات والقصور ، وغير ذلك من الأعمال العمرانية .

ونلمس فيما بقي من هذه العمائر ، تطوراً ملحوظاً في فنون العمارة وتنوعاً وغنىً في العناصر المعمارية والزخرفية . ويرجع ذلك إلى طول فترة العصر المملوكي ، وإلى ميل الناس إلى حياة الدعة والترف ، بعد أن عاشوا حالة من التقشف بسبب الحروب الصليبية ، فأخذوا بالاهتمام في العمارة والزخرفة . وقد تجلى ذلك فيما أُنشئ من مبانٍ امتلأت جوانبها بالزينة من داخلها وخارجها ، وطغى الاهتمام بالمظاهر على الرصانة والقوة ، التي امتازت بها المباني في العصر الأيوبي . وفقدت تلك المباني آنذاك قوتها وفخامتها ونسبها المدروسة .

ومما تقدم يمكن استخلاص مميزات فنون العمارة في العصر المملوكي فيما يلي :

١ ـــ من حيث التخطيط الهندسي : لم يشهد العصر المملوكي منشآت تتصف بالضخامة أو الفخامة ، باستثناء بناءين اثنين هما : **جامع يلبغا ، وجامع تنكز في دمشق** . كما أن الصحن السماوي في أكثر المنشآت الأيوبية ، قد انعدم في أكثر المساجد المملوكية أو غطي في بعضها ، كما هو الحال في **جامع التيروزي والمدرسة الجقمقية** بدمشق . وغدا تصميم المباني بشكل عام ، مؤلفاً من باب واسع يليه دهليز ، يؤدي إلى

صحن متواضع تحيط به أواوين أو أروقة محمولة على أعمدة، كما نجده في البيمارستان الأرغوني بحلب. وظهرت إلى الوجود الأبنية المعلقة، يُصعد إليها بدرج وكان الغرض من ذلك إنشاء دكاكين في القسم السفلي من الواجهة. مثال ذلك جامع المعلق بدمشق، وجامع السكاكيني بحلب.

٢ ـ العناصر المعمارية: تتصف أبواب المباني الهامة بأنها مفتوحة في إيوان مرتفع بشكل عام، ويكون هذا الإيوان، عادةً، مسقوفاً بنصف قبة من المقرنصات المنتهية أعلاه، بما يشبه الصدفة، مثال ذلك: جامع الفستق في حلب. أما الواجهات في المباني، فمملوءة بزخارف متنوعة وهي أولاً وأخيراً مبنية بالحجارة المنحوتة نحتاً جيداً.

وتمتاز **مداميك الأبنية** بقلة ارتفاعها، وفيها يتوالى اللونان الأبيض والأسود، وهذا التلوين يشمل في أكثر الأحيان كامل الواجهة. وغدت واجهات المباني أكثر انفتاحاً على الشارع، لوجود العديد من النوافذ في القسم السفلي، والطاقات في القسم العلوي التي تكون مستديرة في الكثير من مباني دمشق، ومفتوحة ضمن حلية دائرية، مؤلفة من مشربيات ملونة، كما هو الحال في التربة العادلية البرانية بدمشق، بينما تكون شاقولية الفتحة في حلب، كما في واجهة جامع الدرج. أما **النوافذ** في العديد من مباني هذا العصر، إنما فتحت ضمن محراب وإيوان قليل العمق، ينتهي بعقد مقرنص، ويشاهد هذا النمط في قاعة العرش بحلب. ويزين أعالي الواجهات طنف، تؤلفه سلسلة من المحاريب الصغيرة، والتي غالباً ما يعلوها صف من الشرافات، كما في المدرسة الجقمقية بدمشق.

هذا وقد استعمل المعمار في العصر المملوكي في الأبواب والأروقة: القوس المدبب، المؤلف من قوسين يتلاقيان في الأعلى. ولو دقق المشاهد في تيجان الأعمدة لألفى أكثرها من النوع المقرنص، الذي نراه في المدرسة العمرية بدمشق والبيمارستان الأرغوني في حلب.

القباب: كثر استعمال القباب في العصر المملوكي، كشكل من أشكال التغطية لأبنية المدارس والحمامات والمساجد. وقد يجد المرء قبتين متناظرتين على جانبي أبواب المباني في التربتين: الرشيدية والعادلية في دمشق.

مكونات القبة: تتألف القبة عادةً من طاسة نصف كروية، مبنية في أكثر الأحيان، من الآجر من الداخل والخارج وذلك في مدينة دمشق. أما في مدينة حلب فالقباب كانت مبنية من الحجر المنحوت وذات شكل نصف كروي، متطاول إلى الأعلى، وتستقر هذه القبة عادةً فوق رقبة مبنية من الحجارة ومزودة بالنوافذ، هي في مباني حلب أقل ارتفاعاً منها في مباني دمشق. وتوجد في دمشق قباب مؤلفة من طابقين، الأمر الذي يزيد من ارتفاع القبة ومن عدد نوافذها وقدرة إنارتها، كما هي الحال في المدرستين الظاهرية والشابكلية. كما امتازت أبنية هذا العصر باستعمال **المقرنصات**، في الزوايا، وكذلك **الحنايا الركنية**، التي تشبه المحاريب الصغيرة، أو المثلثات الكروية، التي نصادفها في مباني حلب.

تغطية السقوف: تتم تغطية السقوف بشكل عام بواسطة الأقباء وهي السقوف المعقودة بالحجارة الجيدة النحت، أو المعقودة بالحجارة الغشيمة، المغطاة بالكلس. وقد تكون العقود متقاطعة، أو طولية لها مقطع الأقواس المدببة. وعرفت بعض المباني في دمشق، السقوف المستوية، المكسوة من الداخل بالخشب المزخرف.

المآذن: لم يقتصر بناء المآذن على المساجد فحسب، وإنما زودت بها بعض المدارس، كما في المدرسة الصابونية والسيبائية بدمشق. وأخذت المآذن في العصر المملوكي أشكالاً متعددة، فيها المضلع والمربع، بعد أن كان الشكل الدارج في الماضي هو البرج المربع. أما في مدينة حلب؛ فظهر لأول مرة الشكل الأسطواني، كما في جامع الرومي، وبنيت بعض المآذن بالآجر مثل مئذنة قلعة جعبر.

الزخارف وعناصرها في العصر المملوكي: ازدادت الزخارف في العصر المملوكي وتنوعت أشكالها وألوانها وأنواعها:

١ ـ الزخارف الملونة: وتبدو عادة في الواجهات الخارجية، وبعض الجدران الداخلية، وفيها تتوالى ألوان المداميك المختلفة. كما تكون ملونة الخيوط الزخرفية، المكونة من حجارة مفصصة، متداخلة بعضها مع بعض، يتوالى فيها اللون الأسود والأبيض والأحمر. كما يتجلى التلوين في الزخارف المنقوشة بطريقة الحفر الغائر، والمرصعة بلون مختلف من الحجارة أو الرخام أو المعجونة الملونة. هذا وقد يبدو حسن التكوين وجودة التلوين في الفسيفساء المرصوفة بقطع الرخام، الملون المشقف، الذي استخدم في أشكال هندسية أو نباتية، وقد يدخل عنصر

الصدف بين قطع الرخام، كما في محراب المدرسة الجقمقية بدمشق.

٢ ــ الزخارف الحجرية: وتتجلى في نحت الحجر وحفره ونقشه، ويبدو هذا العمل البديع في أحلى مظاهره الجمالية في عمل المقرنصات سواءً في زوايا القباب من الداخل، أو في تيجان الأعمدة وعقود أواوين الأبواب وأحياناً الشبابيك، كما تكثر هذه الزخارف الحجرية في الأشرطة الحجرية المنقوشة بالخطوط الهندسية المتداخلة، أو النافرة التي تتخلل الواجهات، أو تلك التي تؤلف إطارات الأبواب والشبابيك.

٣ ــ الزخارف الكتابية: وتكون منقوشة على الحجر ويستعمل الفنان، تارة الخط الكوفي وأخرى النسخي، كما تستعمل في بعض الأحيان الرنوك وهي الشعارات الخاصة بصاحب المبنى إذا كان من الملوك أو الأمراء.

٤ ــ الزخارف الجصية: وهي نقوش جصية لم ينتشر استعمالها كثيراً، ومع ذلك نجد نماذج رائعة لها، في جامع يلبغا والتربة التكريتية بدمشق.

٥ ــ الزخارف القاشانية: وهي عبارة عن بلاطات ذات أشكال هندسية مربعة أو مستطيلة أو تستعمل عادة لكسوة الجدران وقد استعملت في بعض المساجد منها جامع التيروزي. وقد اشتهرت مدينة دمشق بهذه الزخارف، حيث يوجد فيها حي يسمى «حارة القاشاني».

٦ ــ الزخارف الخشبية: لقيت مادة الخشب في العصر المملوكي اهتماماً كبيراً من المعماريين، إذ نفذت عليها زخارف وتزيينات بطرق شتى، منها: الحفر والنقش وتنزيل الحشوات. وقد تطور فن الحفر على الخشب؛ فأُدخلت عليه مواد أخرى مثل العاج والعظم. وقد تمت عملية التطعيم هذه بنجاح في العديد من مساجد حلب وحماة، كما استعمل بالإضافة لذلك الخشب المدهون بالأصبغة والرسوم في السقوف وحواملها من الجسور والقواعد.

آثار العمارة المملوكية: إن الآثار التي خلفها العصر المملوكي، كثيرة، في مدينتي دمشق وحلب، وهناك العديد من المباني المملوكية، مبعثرة في أنحاء أخرى من البلاد. ومن أهم هذه المنشآت على سبيل المثال لا الحصر:

في دمشق: المدرسة الظاهرية، حمام السلطان، جامع تنكز، جامع يلبغا، جامع التيروزي، التربة العادلية البرانية، حمام الورد، المدرسة الصابونية، جامع المعلق، المدرسة العادلية الصغرى، التربة التكريتية، المدرسة الجقمقية، والجامع القلعي، بمئذنته الفريدة بزخارفها والتي تعتبر من أجمل مآذن مدينة دمشق.

في مدينة حلب: الجامع الكبير، جامع الأطروش، جامع الرومي، جامع الموازيني، البيمارستان الأرغوني، خان قرتباي، خان الصابون، خان القصابية، تربة خاير بك.

ومن الأمثلة البارزة على المنشآت المملوكية في سورية:

١ ــ المدرسة الظاهرية: وهي دار قديمة، حولت إلى مدرسة بعد وفاة الملك الظاهر عام ٦٧٨هـ/١٢٧٩م، وشيدت في الزاوية الجنوبية الغربية منها تربة فخمة، تعلوها قبة شاهقة، نقل جثمانه إليها، ودُفن إلى جانبه إبنه الملك السعيد.

يعتبر القسم الهام في هذه المدرسة، بابها، بما يحمله من المقرنصات. وتتجلى في الزخارف الموجودة على جدران المدرسة كل أنواع الزينة والزخارف من رخام ملون إلى نقوش محفورة في الحجر والخشب، إلى فسيفساء رخامي.

٢ ــ المدرسة الجقمقية: وتقع إلى جوار الجامع الأموي بدمشق. أنشأها الأمير سيف الدين جقمق واكتمل بناؤها عام ٨٢٤هـ/١٤٢١م وهي من أجمل مدارس العصر المملوكي، وتعتبر نموذجاً لما بلغته فنون هذا العصر، من أصالةٍ في التصميم ومن فنٍ في العمارة والزخرفة. ففي مخطط المدرسة تصميم طريف مبتكر، فصحنها صغير مسقوف بطريقة خاصة لا تحرمها من النور. ولقد تغلب المعمار على صغر رقعة أرضها؛ فضم الأواوين الثلاثة إلى بعضها ليحصل على قاعة ذات سعة مناسبة، تصلح للتدريس وللصلاة بآن واحد. يحمل سقوفها جميعاً عمودان فقط. ونلاحظ الجمال والإتقان في بناء مقرنصات الباب وعند المدخل، وفي حجارة الواجهات، المحلاة بالمداميك الملونة، وبالأشرطة الكتابية والحليات المعمارية العديدة، كما يُلاحظ الجمال والغنى بالعناصر الزخرفية في كسوة الجدران الداخلية.

وتتجلى خصائص العصر المملوكي كذلك في العديد من المنشآت، التي ما زالت تشهد على عظمة هذه الحقبة من تاريخ قطرنا المعماري.

الآثار العربية الإسلامية في سورية من العصر الأتابكي والزنكي

د. محمد الحوتي

لم يكن دور الأتابكة، يتمثل في حكم البلاد والتصدي للعدو وتحرير البلاد من طغيانه فحسب، بل تجاوز ذلك ــ لا سيما في عهد آل زنكي ــ إلى إعمار البلاد، بعدما أصابها من خراب خلال الحروب الصليبية، ومما زاد في خرابها ذلك الزلزال الكبير، الذي وقع عام ٥٥٢هـ/١١٤٢م، فأنزل الخراب في المدن والأسوار والقلاع، كل ذلك جعل مهمة الحكام في الإصلاح والإعمار مضاعفة.

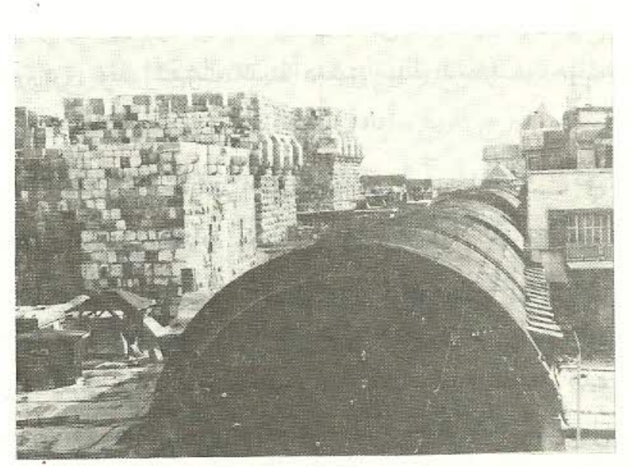
تحمل نور الدين زنكي مسؤولية إعمار البلاد، كما تحمل مسؤولية الدفاع عنها وتحرير المغتصب من أرضها. فتميز عهده بحركة بناء واسعة، ظهرت من خلالها البيمارستانات (المشافي) لتساعد في التخفيف من آلام الحروب بتقديم الخدمات الإنسانية في الميدان العسكري والمدني؛ فبلغ عدد ما أقيم منها في دمشق وحدها حوالي عشرين مشفىً، كان معظمها على سفح جبل قاسيون في منطقة الصالحية، حيث المناخ الصحي والملائم. وكان أهم هذه المشافي من حيث السعة والاستعداد، البيمارستان النوري في دمشق، ويقع على مسافة حوالي ٣٠٠م من الجامع الأموي وإلى الجهة الغربية منه، وقد جعل نور الدين منه مشفىً متقدماً جداً، حيث كان يستقبل جميع الحالات المرضية حتى النفسية منها، وكان يقصده المرضى من سكان المنطقة والغرباء على حد سواء.

يعتبر البيمارستان النوري، نموذجاً لمشافي ذلك العصر، فهو يتألف من باحة مكشوفة واسعة، محاطة بأربعة أواوين، موزعة على النمط المعروف بالتخطيط المتعامد ــ الذي اشتهر في العصر السلجوقي ــ وفي وسط الباحة بركة ماء، وتتصل بكل إيوان قاعات وغرف تصل المياه إليها، وقد خصصت كل منها بأنواع محددة من الأمراض. كانت بوابة المشفى الرئيسة تنفتح على جهة الغرب، حيث الرياض والمروج الخضراء، ويعلو هذه البوابة مقرنص له تقطيعات هندسية، مثلثية الشكل، لو نظر الإنسان إليه من ظاهره المخروطي المرجّل، ثم أعاد النظر إليه من داخله، لتراءى إليه كأنما اقتطع الظاهر من الداخل، اقتطاعاً لشدة المشابهة ما بين المنظر الخارجي ومنعكسه من الداخل.

كان البيمارستان النوري مخصصاً للفقراء ولم يمنع الأغنياء من ارتياده، وكانت تقدم فيه الأغذية والأدوية مجاناً، وقد اشتمل على قسمين، أحدهما للذكور والآخر للنساء.

تجاوزت اهتمامات نور الدين المعمارية هذا النوع من الأبنية إلى غيرها؛ فكان اهتمامه متجهاً أيضاً إلى النواحي الدفاعية، لذلك طوق دمشق بسور بعد أن كانت المدينة قد تجاوزت حدود السور القديم، الذي لم يبق منه إلا الجزء الكائن بين باب السلام وباب توما وما بين الباب الشرقي والزاوية الجنوبية الشرقية من السور نفسه وما بين باب الفرج وباب السلام. وفي هذا القطاع أُحيط السور الأصلي بسور آخر. وقد اشتهرت هذه المنطقة فيما بعد بمنطقة ما بين السورين، وأصبح سور دمشق في عهد نور الدين أقرب إلى الشكل البيضوي. كذلك تم ترميم بعض أبواب سور دمشق، وأُعيد بناء بعضها الآخر في عهد نور الدين، وفي عهد صلاح الدين الأيوبي، فقد أعاد نور الدين إنشاء باب الفرج وباب السلام وأقام إلى جانب كل باب جامعاً ومئذنة وباشورة (سوقاً صغيرة)، لتلبية حاجات العابرين أثناء إغلاق أبواب المدينة، أو الذين لم يسمح لهم بدخول المدينة أو لتسويق البضائع الخفيفة مع الضواحي.

قلعة دمشق: يعتقد أنه كانت تقوم مكان قلعة دمشق



قلعة دمشق

الحالية، قلعة صغيرة تعود إلى العهد الأموي، وفي القرن الخامس الهجري ــ الحادي عشر الميلادي ــ أقام السلطان السلجوقي تتش قلعة جديدة، مستعيناً بأحجار السور الروماني الخرب الخاص بالمدينة. ثم قام نور الدين زنكي ببعض الإصلاحات في تلك القلعة لا سيما بعد الزلزال، الذي أصابها عام ١١٤٢م، كما أصاب معظم عمران المدينة؛ فأصلح الأجزاء المتهدمة

وأضاف إليها بعض الأبنية ومنها ما أطلق عليه إسم دار العدل، غير أن القلعة بوضعها الراهن، تعود إلى الأيوبيين، وتتفق مع الأصول المعمارية، التي كانت سائدة في عهدهم.

المدارس: كان اهتمام نور الدين بإنشاء المدارس اهتماماً كبيراً، حتى بلغ عدد المدارس في نهاية القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي حوالي ٩٠ مدرسة في دمشق وضواحيها، وبلغ عددها في حلب حوالي ٤٥ مدرسة. وقد اشتهرت هذه المدارس بتدريس العلوم المختلفة، من طب وفلك ورياضيات وكيمياء وفلسفة، إضافة إلى العلوم الدينية واللغوية. وقد ألحق بهذه المدارس دور للطبابة لمعالجة الطلاب مع حمامات وفي بعضها مغاسل للموتى.

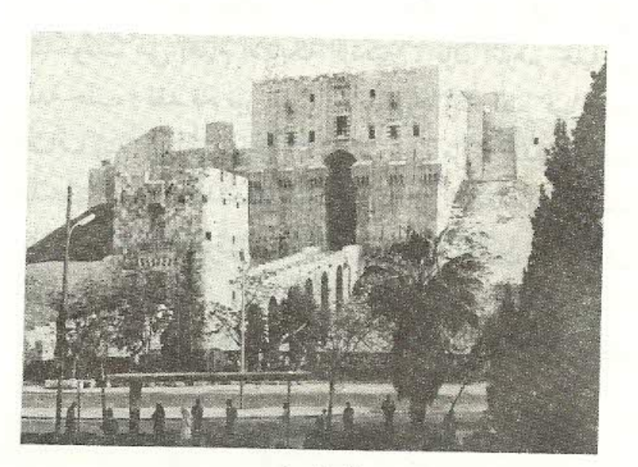
وكانت هذه المدارس في مخططها وتوزيع أقسامها، أقرب إلى نمط المدرسة في العهد السلجوقي. وأشهر مدارس عهد نور الدين، المدرسة النورية الكبرى وقد أقامها في دمشق عام ٥٦٧هـ/١١٧١م في منطقة الأسواق في مكان يعرف بسوق الخياطين حالياً، وكان يدرّس فيها علم القراءات والحديث. وقد تميز بناء هذه المدرسة ببوابة عالية، تزينها كتابة بالخط النسخي يدخل منها إلى باحة مربعة الشكل، محاطة بأربعة أواوين، وتعتبر من أقدم المدارس ذات التخطيط المتعامد. وفي الزاوية الجنوبية الشرقية، يقع ضريح نور الدين وكان من عادة حكام ذلك العهد، أن يقيم الحاكم لنفسه ضريحاً في حياته ويلحق به مدرسة وجامعاً ويبذل في عمارته وزخرفته، أقصى مايتوفر له من إمكانات وطاقات فنية، ليكون ذكرى حميدة له بعد وفاته، واستمر هذا التقليد حتى نهاية العهد المملوكي.

تقوم فوق ضريح نور الدين، قبة مخروطية مرجّلة ومقرنصة، وتزين هذه القبة في عنقها ذي الأربعة أضلاع، قمريات ثلاث، في كل ضلع يدخل منها النور والهواء، وتزين الضريح زخارف جصية ذات قوام نباتي محوّر، منفذة بتفريغ الأساس.

أقام نور الدين زنكي مدرسة ثانية، حملت إسمه وعرفت بالمدرسة النورية الصغرى وتقع إلى شرقي القلعة، وهي التي أتمها الملك العادل الأيوبي وتعرف الآن باسم المدرسة العادلية.

كان للأتابكة اهتمام ببناء الحمامات، وترك نور الدين حماماً في سوق البزورية بدمشق، مازال يؤدي وظيفته حتى الآن، وقد أُجريت فيه أعمال ترميم واسعة. ويتألف هذا الحمام — المعروف باسم حمام نور الدين — من مدخل ودهليز، ينتهي إلى باحة مربعة منخفضة، تتوسطها بركة ماء وتغطي الباحة قبة ذات رقبة، تشتمل على اثنتي عشرة نافذة، وفي القبة نفسها أربع نوافذ وتحف بالباحة أربعة أواوين.

أما آثار الأتابكة في مدينة حلب؛ فهي كثيرة ومتنوعة، نظراً لأن حلب كانت المركز الرئيسي للأتابكة الزنكيين، الذين أقاموا فيها الجوامع والقصور والمدارس والخانات، كما أبدوا اهتماماً خاصاً بتحصينات المدينة وقلعتها. فمن أهم القصور التي تذكر



قلعة حلب

بعهد الزنكيين ذلك القصر، الذي بناه أحد أمراء نور الدين لنفسه وهو وحيد من نوعه، يتميز بقبة وعقد وإيوان منقوش وهو مايعرف الآن بالمطبخ العجمي، وأُقيم فيه متحف التقاليد الشعبية الشائعة في مدينة حلب وضواحيها. ومن أهم آثارهم أيضاً في حلب عدد من الجوامع والمساجد أقاموها، وأخرى قاموا بترميمها وتوسيعها. فمن الجوامع التي بنوها، جامع الفصيلة، الذي أُقيم في محلة الفصيلة، التي أحدثها نور الدين، وجامع الشيخ معروف، الذي تحول إلى مدرسة، عُرفت باسم المدرسة العديمية وتتميز بمحرابها العجيب.

أما الجامع الكبير، فيرجع إلى العهد الأموي وتعرض للحريق أكثر من مرة، وقام نور الدين زنكي بترميمه وتجديد بعض أجزائه وتوسعته وأوجد فيه محراباً ثميناً.

وهناك مسجد النارنجية وقد أنشأه الشريف أبو منصور في عهد الملك العادل. ومن أعمال إسماعيل بن نور الدين زنكي، إعمار المسجد، الذي يتوسط القلعة في حلب.

كذلك ترك الأتابكة في حلب آثاراً حميدة في مجال المدارس منها :

ـ **المدرسة الحلوية** وسميت بهذا الاسم ، لأنه كانت توزع الحلاوة على بابها على نفقة نور الدين ، وقد جددها عام ٥٤٤هـ/١١٤٩م وخصصها لتدريس المذهب الحنفي وقد وصفت بأنها ترقى في بنائها إلى مستوى الجامع الأموي .

ـ **المدرسة العصرونية** ، أُقيمت في محلة الفرافرة ويرجع عهد بنائها إلى أيام نور الدين وخصص فيها مساكن للفقهاء .

ولما كانت مسائل الدفاع عن البلاد من الأمور ، التي استحوذت على اهتمام الأتابكة الزنكيين ، فإن آثارهم جلية في قلعة حلب ؛ فقد قام نور الدين ببناء سورها وبناء قصر فيها ، بينما أضاف إبنه الصالح إسماعيل تحسينات على مراكز الدفاع ، عند مدخلها ، وأنشأ فيها حديقة واعتنى بوسائل الراحة فيها ، حيث كانت مقراً للحاكم وفيها مسكنه . إن آثار الزنكيين عامة ونور الدين منهم خاصة ، منتشرة في معظم جوانب مدينة حلب ، لا سيما في الأسوار المحيطة بها ، وفي الباب الجديد الذي فتحه في السور .

كذلك نجد لنور الدين آثاراً في كثير من المدن السورية الأخرى ، فقد أقام عدداً من المدارس في منبج وحمص وبعلبك وبنى الجسور ودور العدل . ومن الأعمال الفنية العظيمة ، التي تمت في عهد نور الدين في سورية ، ذاك المحراب الجميل ، الذي أمر بصنعه ليخطب عليه في المسجد الأقصى بعد تحرير القدس من أيدي الصليبيين .

ومن أكثر الآثار انتشاراً والتي تمثل عهد الأتابكة ، تلك النقود ، التي وصلنا منها الكثير ، وبعضها يخص الأتابكة البوريين من حكام دمشق ، وأكثرها يعود إلى آل زنكي . وقد ضربت في دمشق وحلب وسنجار ونصيبين والجزيرة والموصل والقاهرة . وتتميز النقود الأتابكية بحجومها الكبيرة ويكون معظمها من النحاس وقليل منها من الذهب والفضة ، وازدان معظمها بصور إنسانية وحيوانية ، وهي غير ثابتة الوزن والقطر ، وقد خالف الأتابكة القاعدة بالتسمية فأطلقوا على ما اصطلح في تسميته فلساً ، وهو من النحاس إسم درهم ، ولم يتبعوا قاعدة معينة في النقش ، لذا نرى الهامش في بعض نقودهم في الوجه ، ونراه في البعض الآخر في الخلف ، أو لا نرى هامشاً في الوجهين ، أو يكون الهامش في الوجهين معاً . وتتميز النقود النحاسية الأتابكية ، بأنها أكثر وضوحاً من غيرها ، نظراً لسعتها وهي أكثر مقاومة لعوامل الزمن بسبب غلظة الحرف في نصوصها ، لكن علتها في كونها من النحاس وهو معدن قابل للتأكسد بسرعة .

الآثار المعمارية في العهد العثماني

أ. قاسم طوير

ازدادت مساحة مدينة دمشق خلال حكم العثمانيين زيادة كبيرة (من ٢١٢ هكتاراً في مطلع القرن السادس عشر إلى ٣١٣ هكتاراً في القرن التاسع عشر) . وكذلك الحال في مدينة حلب ، كما لوحظ ازدياد عدد السكان في المدن خلال الفترة نفسها (ازداد سكان دمشق من ٥٢ ألفاً إلى ٩٠ ألفاً وتضاعف سكان مدينة حلب) . وازداد عدد الأسواق والخانات التجارية في هذه المدن زيادة كبيرة . ويمكن أن نعيد أسباب هذا التوسع العمراني إلى العوامل التالية :

١ ـ كانت فترة العثمانيين قد أعقبت انحطاطاً ، أصاب الكثير من البلاد العربية ، عقب الخراب ، الذي حل بها من الغزو المغولي لبلاد العراق والشام والغزو الإسباني لسواحل المغرب العربي ، مما أوجد بعدها مرحلة من الانتعاش في ظل دولة قوية ، مترامية الأطراف ، وهي الدولة العثمانية .

٢ ـ انتعاش التجارة ضمن حدود دولة تعتبر من أكبر الدول ، التي عرفها تاريخ البشرية ، فنشأت فيها سوق ضخمة يتحرك الأفراد فيها من حدود المغرب إلى حدود إيران ومن أراضي روسيا إلى حدود الحبشة .

٣ ـ انتعاش حركة الحجيج وما يرافق ذلك من إقامة محطات للحجاج وتقديم الخدمات وتبادل البضائع .

٤ ـ اتساع أعمال الوقف ، مما وفر مصادر التمويل لكثير من المشروعات العمرانية ، من مساجد ومدارس وتكايا وغيرها وكمثال واحد على ذلك ، يذكر أن والي حلب «خسرو باشا» أوقف لجامعه الجديد عام ١٥٤٤ قيسارية (سوقاً) تحتوي على ٥٠ دكاناً ، وخاناً يحتوي على ٩٥ دكاناً .

حظيت بلاد الشام ، وسورية على وجه الخصوص ، باهتمام الدولة العثمانية والدليل على ذلك أن في دمشق وحلب ، تسعة أبنية فخمة ذات أسلوب سلطاني من أصل خمسة عشر بناء سلطانياً في جميع أرجاء الوطن العربي (أربعة منها في القاهرة)

وتجدر الإشارة إلى أن في حلب الآن أكثر من ١٠٠ بناء عثماني وفي حلب ودمشق قرابة ٦٠ خاناً ووصل عدد الأسواق في دمشق خلال الفترة العثمانية إلى ٦٦ سوقاً.

خصائص العمارة العثمانية

نميز في العمارة العثمانية في سورية ثلاثة أصناف هي :

أولاً ــ أبنية سلطانية ؛ أي مصممة وفق الأسلوب المعماري العثماني الذي انتشر في تركيا وذلك مثل التكية والمدرسة السليمانية على ضفة بردى في دمشق، وجامع خسرو باشا وجامع البهرمية وجامع العادلية في حلب.

ويتميز هذا الأسلوب العثماني الجديد بالنواحي التالية :

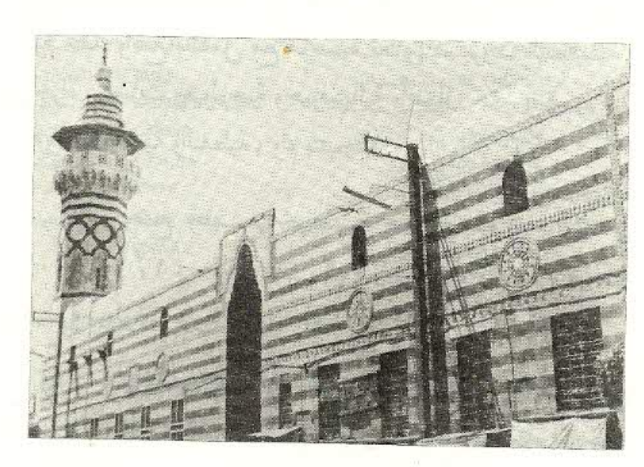
ــ تغطية الحرم بقبة ضخمة وتغطية الأروقة بسلسلة من القباب الصغيرة.

ــ رواق مزدوج يتقدم الحرم.

ــ شكل جديد للمئذنة ؛ فهي أسطوانة رفيعة كثيرة الأضلاع، ممشوقة ذات رأس مخروطي حاد.

ــ اعتماد المحور الشرقي ــ الغربي في وجهة البناء، بدلاً من المحور الجنوبي ــ الشمالي التقليدي، كما يرى ذلك في التكية السليمانية في دمشق.

ــ تغطية الجدران الداخلية وأقواس الأبواب والنوافذ بألواح القيشاني، كما في التكية السليمانية، وتغطية المئذنة بالآجر الخزفي الملون، كما في جامع السنانية في باب الجابية في دمشق.



جامع السنانية ــ دمشق

ــ هيمنة الحفر المسطح في الزخرفة الحجرية والحفر المائل والتخريم في المقرنصات والإكثار من استخدام شكل المعين الهندسي المقعر.

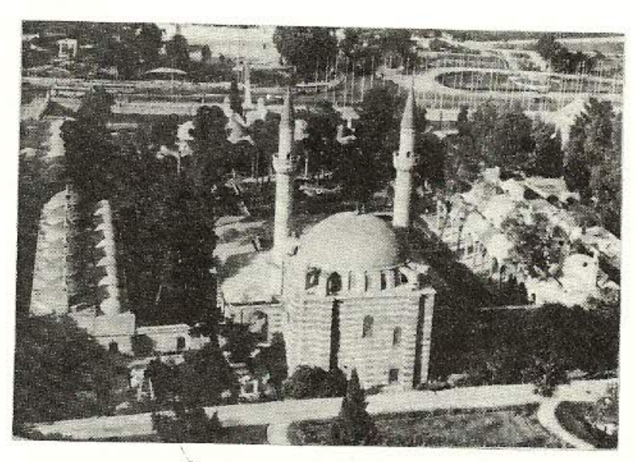
ــ الذوق الفني الجديد في زخرفة وتلوين بلاط القيشاني وتنوع الأساليب، ونجد أمثلة لذلك التنوع في التكية السليمانية بدمشق، وفي جامع السنانية وجامع الدرويشية في دمشق أيضاً، وكذلك في جامع وضريح الشيخ محي الدين والبيمارستان القيمري في دمشق.

ثانياً ــ مبان حافظت على التقاليد المحلية ولم تتأثر بالأسلوب العثماني الجديد، إلّا قليلاً، ويتجلى ذلك في النواحي التالية :

ــ الاحتفاظ بتناوب الألوان في مداميك الحجارة (أبيض أحمر أسود أو أبيض أسود).

ــ الاحتفاظ بالتصميم الهندسي السابق للفتح العثماني (صحن محاط بأروقة وحرم مؤلف من أروقة موازية لجدار القبلة). ورفض استخدام القبة الضخمة فوق الحرم.

ــ رفض طراز المئذنة العثمانية، كما تمثلت في التكية السليمانية، بل ظلت مضلعة وقصيرة نسبياً مع الاحتفاظ



التكية السليمانية

بالتناوب اللوني لمداميك الحجارة، ورفض إقامة مئذنتين على محور غربي ــ شرقي والاقتصار على مئذنة واحدة فوق مدخل الجامع (جامع الشيخ محي الدين، جامع السنانية).

ــ الاحتفاظ بالإيوان الذي يعتبر من التقاليد العريقة في العمارة الإسلامية قبل الفتح العثماني (جامع العثمانية في حلب).

ثالثاً ــ مبان عثمانية تأثرت بالتقاليد المحلية : تتبدى قوة التراث المعماري المحلي في خانات حلب الكبرى، التي نشأت في العصر المملوكي السابق للعصر العثماني، فخان الصابون وخان

الأبراك، يعتبران من النماذج الرفيعة، التي أثرت في العمائر العثمانية من ناحية مخططها، ومن ناحية زخارفها (خان الجمرك، وخان الوزير في حلب، وجامع القيمرية في دمشق).

رابعاً — مبان تأثرت زخارفها بالذوق الفني الأوروبي عامة، والإيطالي خاصة، في القرن التاسع عشر، حيث توقف بناء الجوامع والمدارس والأضرحة، وتضاءل الاهتمام بالأبنية الدينية، وازداد الميل إلى العيش الرغيد وبناء الدور الفخمة، فوصلت الزخرفة إلى حد الإشباع من ناحية تعقيدها أو نفاستها، وأدخل التخريم إلى سطوح المقرنصات، ونشأت من جراء ذلك شبكة يتناغم فيها الظل والنور، أما بقية السطوح فتغطيها الأشكال المنفذة بطريقة الحفر المائل. وكما هو الحال في أوروبا كذلك الأمر في بلاد الشام، فقد أصبح الناس يتطلعون إلى التأثير البديعي والحركة الوهمية، ويتجلى ذلك في أشكال الأعمدة المفتولة أو المسننة.

شهدت الألوان في هذه الفترة تطوراً جديداً، فبينما تميز العصر المملوكي المتأخر بالألوان المتضادة والبراقة، جنح الناس في أواخر القرن الثامن عشر إلى درجات الألوان المتقاربة، مثل الرمادي والسماوي، والأبيض والفضي، والبني والأخضر والزيتوني، والأصفر والذهبي، كما نلاحظ أن اللون الأحمر قد اختفى كلياً.

جيولوجية سورية والثروة الباطنية

أ. ميشيل خوري

المقدمة

يمكن تتبع الدراسات الجيولوجية المتعلقة بسورية خلال قرن من الزمن. ففي أواخر القرن التاسع عشر، اهتم بعض مشاهير الجيولوجيين الأوروبيين بدراسة المنطقة لاعتبارات اقتصادية وتاريخية، وأهمهم الجيولوجي الألماني «بلانكنهورن M. Blankenhorn» (١٨٩١ — ١٩٣١م)، وقد نشر أول خريطة جيولوجية لسورية الطبيعية بمقياس ١/١٢٥٠٠٠٠ وذلك عام ١٩١٤م.

وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، وفي ظل الانتداب الفرنسي، أحدث مكتب للأعمال الطبوغرافية والجيولوجية، برئاسة مهندس جيولوجي فرنسي، اقترن إسمه بعد ذلك بجيولوجية سورية ولبنان هو «لويس دوبرتريه L. Dubertret». وكانت دراسات هذا المكتب تنشر تباعاً في مجموعات تحت إسم «ملاحظات ومذكرات عن جيولوجية سورية ولبنان»، وقد نشر دوبرتريه خريطة جيولوجية لسورية ولبنان بمقياس ١/١٠٠٠٠٠٠ في عام ١٩٣٣م، وأعاد نشرها معدّلة في عام ١٩٤٥م.

وفي نطاق التنقيب عن النفط، قامت شركة النفط السورية S.P.C بحفر ١١ بئراً استكشافياً في وسط البلاد وشرقها، لم يُعثر فيها على النفط ولكن كانت لها أهمية كبيرة في دراسات البنية الجيولوجية العميقة. وبعد الاستقلال تابع دوبرتريه دراساته وأعمال المسح الجيولوجي بموجب عقود مع الحكومة السورية، ومنحت شركة منهل الأميركية، وشركة كونكورديا الألمانية، امتيازات للتنقيب عن النفط في الشمال الشرقي من سورية، وكان من نتيجة أعمالها، تدفق النفط من آبار حقلي، قره تشوك والسويدية. وفي أواخر الخمسينيات (١٩٥٧م)، أُبرم عقد واسع وشامل مع مؤسسة تكنوإكسبورت السوفييتية، لإجراء دراسات جيولوجية وجيوفيزيائية وأعمال حفر وتنقيب عن الثروات المعدنية والنفطية، وتم بنتيجتها:

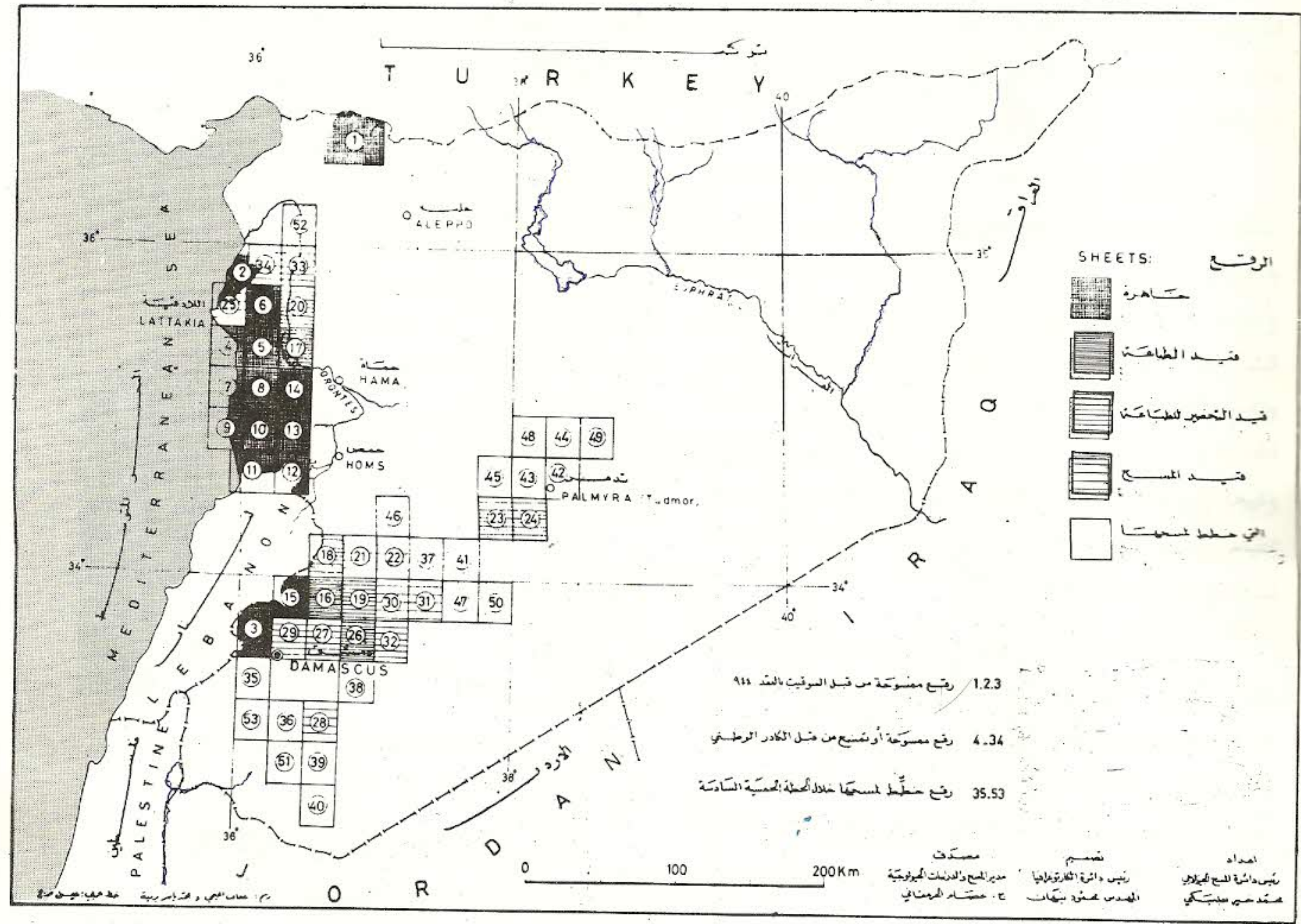
١ — وضع وطبع خريطة جيولوجية بمقياس ١/٢٠٠٠٠٠، مؤلفة من ١٩ رقعة، وخرائط بنيوية وهيدروجيولوجية وثروة معدنية بمقياس ١/١٠٠٠٠٠٠.

٢ — الكشف عن الفوسفات في منطقة تدمر وعن الملح الصخري في منطقة دير الزور، وعن خامات الحديد الرسوبية في منطقة راجو، وعن الكروميت في منطقة رأس البسيط.

٣ — إجراء دراسات جيوفيزيائية ثُقلية ودراسات تنقيب

المؤسسة العامة للجيولوجيا والثروة المعدنية
مديرية المسح والدراسات الجيولوجية

دليل الخريطة الجيولوجية السورية بمقياس ١/٥٠٠٠٠
INDEX OF GEOLOGICAL MAP OF SYRIA 1:50 000



عفرين 1 AFRIN	البسيط 2 BASSIT	الزبداني 3 ZABADANI	جبلة 4 JABLEH
القرداحة 5 QERDAHA	الحفة 6 HAFFEH	بانياس 7 BANIAS	القدموس 8 QADMOUS
طرطوس 9 TARTOUS	صافيتا 10 SAFITA	حلبا ـ حميدية 11 HALBA-HAMIDIEH	تلكلخ 12 TAL KALAKH
قلعة الحصن 13 QALAAT AL HOUSEN	مصياف 14 MYSIAF	عسال الورد 15 ASAL AL WARD	جيرود 16 JEIROUD
جنوبي الغاب 17 AL GHAB-SOUTH	النبك 18 NABK	الناصرية 19 NASRIEH	شمال الغاب 20 AL GHAB-NORTH
دير عطية 21 DEIR ATIEH	القريتين 22 QARYATEIN	بئر بكتل 23 BIR BAKTAL	بئر السكري 24 BIR AL SOUKKARI
اللاذقية 25 LATTAKIA	أبو الشامات 26 ABOU AL SHAMAT	الضمير 27 DMEIR	خلخلة 28 KHELKHLEH
شمال دمشق 29 DAMASCUS-NORTH	جبل زبيده 30 JABAL ZBEIDEH	خربة بطيمات 31 KHURBET BTEIMAT	قصر صيقل 32 QASER-SEIKEL
جسر الشغور 33 JISR ASH SHUGOUR	أوردو 34 ORDO	قطنا 35 QATANA	مسمية 36 MISMIEH
خان عنيبة 37 KHAN ANEIBEH	تل دكوه 38 TAL DAKWEH	شهبا 39 SHAHBA	السويداء 40 SWEIDA'
البارده 41 AL BARDEH	تدمر 42 TUDMOR	طرفة 43 TARFA	جبل أبو رجمين 44 JABAL ABOU RUMEIN
البويضة 45 BWEIDA	الحدث 46 HADATH	سبع بيار 47 SABA BYAR	جبل المرا 48 JABAL LEMRA
حليحلة 49 HLEIHLEH	بيت أحمد فاضل 50 BEIT AHMAD FADEL	ازرع 51 IZRAA	سلقين 52 SALKIN
صنمين 53 SANAMEIN			

اهتزازي وحفر آبار استكشافية، والإسهام في أعمال استثمار حقول المنطقة الشمالية الشرقية. وقد تم في نطاق الهيدرولوجية دراسة أحواض الساحل وحلب والعاصي وبردى والأعوج، ووضعت لها خرائط هيدرولوجية، وبدئ بدراسة حوض البادية.

وفي عام ١٩٦٤ صدر المرسوم ١٣٣، الذي ينص على حصر استثمار النفط بالدولة، وعدم منح أي امتياز لأية جهة لاستثمار الثروة المعدنية والنفطية في القطر. وتركزت الجهود على إحداث وتطوير مؤسسات الدولة، وتأمين أحدث الإمكانات

والمعدات الفنية إلى جانب توفير الأُطر اللازمة لها. وتحقيقاً لشعار استثمار النفط وطنياً؛ فإن الشركة السورية للنفط، بأُطرها المتخصصة وبمعداتها الفنية، تقوم بأعمال التنقيب والاستكشاف في كامل الأراضي السورية، وبتقييم مناطق الأمل النفطية فيها.

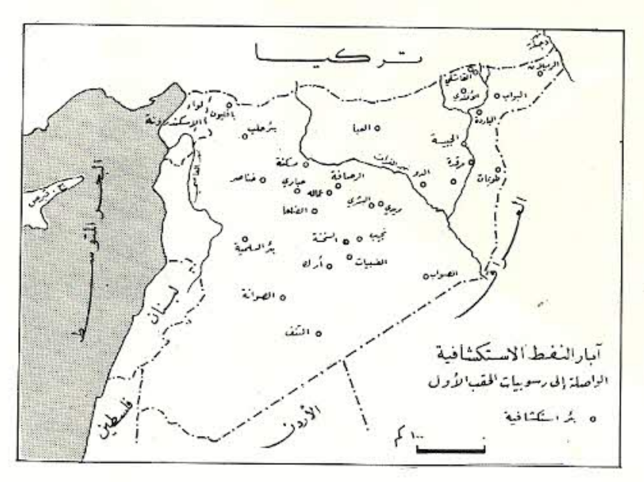
وفي نطاق الثروات المعدنية تم استثمار الفوسفات في المنطقة التدمرية، والملح الصخري في منطقة دير الزور، والحجارة الإسفلتية في جبل البشري وجبال اللاذقية، والرخام وأحجار الزينة للمباني من مناطق متعددة في القطر. وأنشئت الشركات الخاصة بذلك، كما تقوم المؤسسة العامة للجيولوجيا والثروة المعدنية بإجراء أعمال التنقيب التفصيلي عن خامات الحديد واستكشاف الخامات الأخرى، مثل: الكبريت والكروم وغيرها إلى جانب القيام بأعمال المسح الجيولوجي التفصيلي بمقياس ٥٠٠٠٠/١. وقد تم إعداد وطباعة عشرات الخرائط للمناطق الجبلية والساحلية.

واستلزم هذا التطوّر تطويراً هاماً في إعداد الأُطُر الفنية؛ فأنشئ قسم خاص بالجيولوجيا التطبيقية في جامعة دمشق، تخرّج منه مئات من حملة البكالوريوس، تتوزعهم حقول العمل والاختصاص، كما أن رسائل الدكتوراه، التي قدمها بحاثة سوريون وأجانب، استمدت مواضيعها من واقع القطر العربي السوري، وقد أمدتنا بالكثير من المعلومات الجيولوجية الدقيقة والمُوثّقة.

السلم الطبقي (الستراتيغرافية)

تأتي المناطق الجبلية في طليعة المناطق المدروسة دراسة استراتيغرافية حسنة، نظراً للتكشفات الواسعة فيها، وبالتالي إمكانية إجراء مقاطع جيولوجية عديدة والموازنة فيما بينها. وأكثر التقسيمات الستراتيغرافية المدروسة، دقةً وتفصيلاً، ما تعلق منها بالكريتاسي الأعلى، والباليوجين لتوافر المستحاثات الكبيرة والمجهرية وبخاصة المنخريات منها.

وتعد آبار النفط الاستكشافية، مصادر المعلومات الوحيدة تقريباً عن التوضعات السابقة للنيوجين في المناطق الشرقية والشمالية الشرقية. ويعتمد جيولوجيو النفط على التشكيلات الصخرية في دراساتهم وفي الشكل تظهر العلاقات المجملة بين أغلب هذه التشكيلات والسلم الستراتيغرافي العالمي، المطبق على الخرائط الجيولوجية السورية المنشورة، ولا تظهر الركيزة المتبلورة على السطح ولم يخترقها أي من الآبار المحفورة، وقليلة هي الآبار التي اخترقت رسوبيات الباليوزي (الحقب الأول)، وبالتالي فمعلوماتنا عن هذا الحقب مجملة. إن أعمار الصخور الخضراء (أو المعقد الأوفيوليتي)، المنتشرة في منطقتي البسيط وبلبل موضع جدل، لذلك من المفضل دراستها كمجموعة خاصة وكذلك الاندفاعات البازلتية ومعظمها نيوجينية ورباعية، ومنها ما بدأ منذ الحقب الثاني.

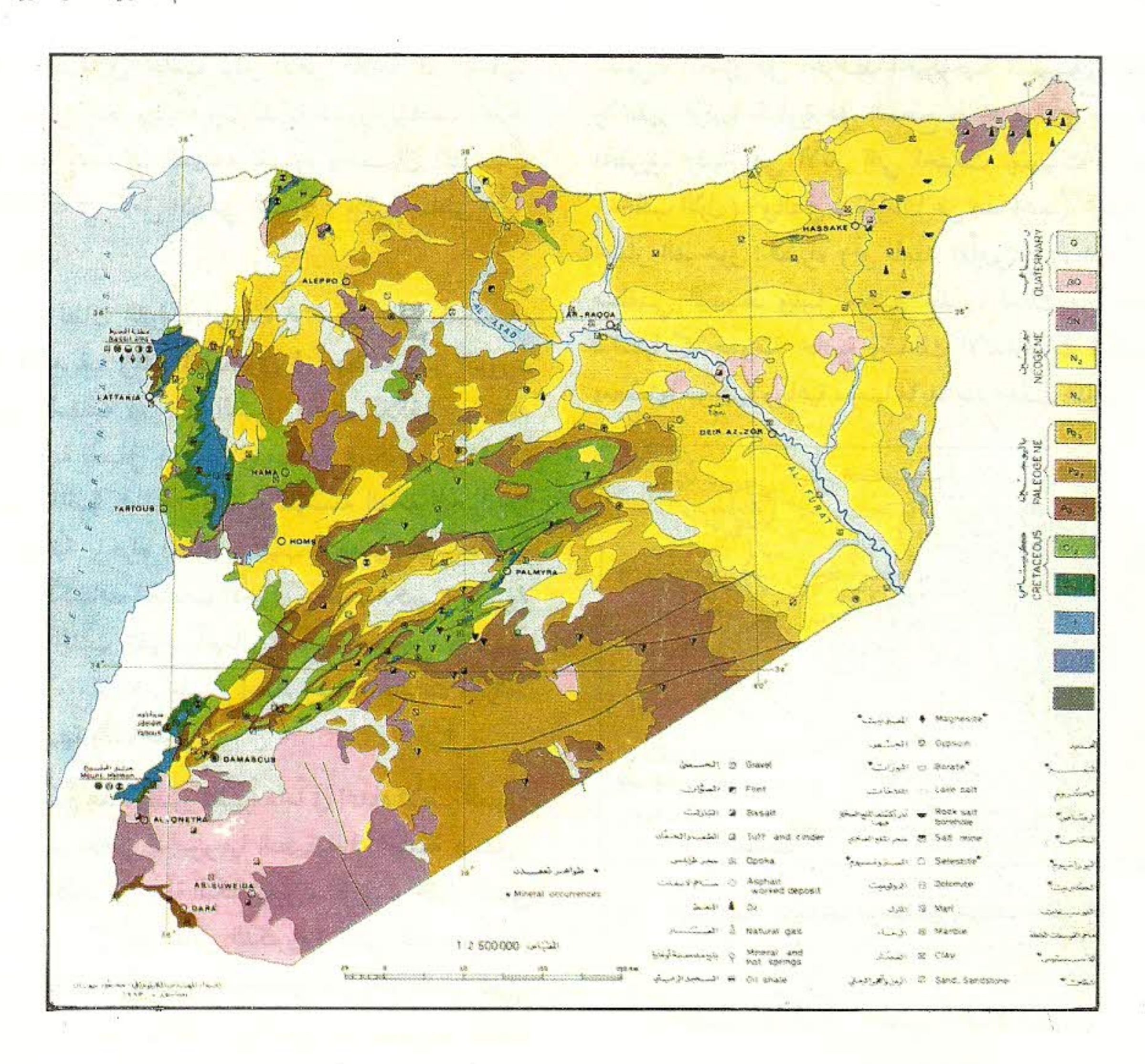


آثار النفط الاستكشافية الواصلة إلى رسوبيات الحقب الأول

الحقب الأول أو حقب الحياة القديمة
Paléozoïque

لا تتكشف رسوبيات هذا الحقب في سورية، باستثناء منطقة محدودة جداً في نواة جبل عبد العزيز، تظهر فيها رسوبيات كربونية غنية بالمستحاثات. وقد تم اختراق معظم الطبقات في آبار الاستكشاف العميقة وتم تحديد الآفاق الستراتيغرافية بدراسة مستحاثات Acritarches و Chitinozoa المجهرية، وبعض عينات ثلاثيات الفصوص الكبيرة، بالمقارنة مع مقاطع متكشفة في البلدان المجاورة.

الكامبري: اختُرق الكامبري في بئرين، هما خناصر والصواب. بلغت ثخانة الطبقات المخترقة في خناصر ٩٥٠م، منها ٧٠م من صخور حطامية (كونغلوميرا)، تعود للكامبري الأدنى، يعلوها ١٧٠م من دولوميت كتلي وحجر كلسي دقيق الحبيبات وهي مكافئة لتشكيلة المبرج في الأردن (كامبري أوسط). أما باقي الطبقات، فرملية كوارتزية، وأما بئر الصواب



الخارطة الجيولوجية للقطر العربي السوري

فقد اخترق أكثر من ٨٠٠م من الكامبري الأعلى، المؤلف من رمل رمادي مخضرّ أو أبيض وآفاق من غضار داكن.

الأوردوفيسي: اخترقته آبار القامشلي والأفندي وطوال العبا ومرقدة والصواب والتنف وخناصر، إضافة إلى بئر خليصية المجاور في العراق. تتراوح ثخانة الأوردوفيسي بين ٢٥٠٠م و ١٦٠٠م وهو رملي شيستي، متوافق فوق الكامبري.

السيلوري: اختُرق قسمه السفلي فقط في آبار مرقدة والتنف وخناصر، وهو مؤلف من غضار متصفح أسود، ثخانته تزيد قليلاً عن ٤٠٠م واخترق بئرا مسكنة والرصافة الجزء العلوي منه، المشكل من غضار وسيلت وفي نهايته بعض المندسات البركانية، أما آبار الأفندي وطوال العبا والقامشلي وبافليون، فقد تجاوز الحفر فيها السيلوري ولم تلاحظ رسوبياته، لذلك يمكن الحكم بوجود ثغرة استراتيغرافية في الشمال.

الديفوني: اخترق في آبار الضلعا ومسكنة ومرقدة، وهو رملي في الضلعا مع بقايا نباتية متفحمة، وسيلتي في مسكنة ورملي بحري، أو دلتاوي في مرقدة، وثخانته نحو ٦٠م ولا وجود له في بئر طوال العبا، مما يدل على وجود ثغرة استراتيغرافية.

الكربوني: يتكشف بشكل كتل تائهة ومبعثرة لا تتجاوز مساحتها ٣٠٠م² في نواة جبل عبد العزيز، مؤلفة من شيست وحجر رملي وحجر كلسي، غني بالمستحاثات ولا تزيد ثخانته عن ٢١م، تحيط به توضعات كريتاسية، ويحتمل ظهورها بتأثير الحركات الانكسارية.

اخترقت معظم الآبار الاستكشافية، رسوبيات الكربوني ومنها يلاحظ وجود حوض في وسط البلاد، تصله المواد الحطامية من مرتفعي ماردين والرطبة، وتقدر ثخانته بين ٥٠٠ و ١٠٠٠م وهي تتعاظم باتجاه الشرق وبسحنة كلسية بحرية.

البرمي : رسوبياته ذات طابع قاري وتتراوح ثخانته بين ٥٠٠ و ٧٠٠م مع تناقص باتجاه مرتفعي الرطبة وحلب ، وآثار النشاط البركاني في بئر خناصر ولا وجود له في بئر بافليون .

الحقب الثاني أو حقب الحياة المتوسطة
Mesozoïque

الترياسي : يتكشف جزئياً في منطقة البسيط والسلاسل الساحلية والسلاسل التدمرية وقد اخترقته معظم آبار النفط الاستكشافية . ففي البسيط يشكل نحو ٣٠م من أسفل الصخور البركانية الرسوبية ، المسماة سابقاً راديولاريت ، والتي أظهرت الدراسات الحديثة ، أنها تمتد دون انقطاع من الترياسي حتى الكريتاسي العلوي ، بثخانة ٢٠٠م ، وفي القسم الشرقي من السلاسل الساحلية ، يرجح أن تكون الزمرة الدولوميتية عائدة إلى الترياسي . وفي السلاسل التدمرية ، بينت الدراسات أن الرسوبات البحرية في نوى محدبات النقنقية والمزار وهيَّان والأبتر والتي تتراوح ثخانة تكشفاتها بين ٥٠ و ١٢٥م ، هي ترياسية . تتألف صخور الترياسي في الآبار العميقة من دولوميت ومارن وآنهيدريت ، وتبلغ ثخانتها الكبرى في تراكيب وسط سورية ، فهي في بئري الضلعا والحباري نحو ٨٠٠م وتتناقص باتجاه الجنوب والشمال . ويلاحظ أن ثغرة استراتيغرافية ، تشمل الترياسي والجوراسي ، في جنوب شرقي سورية ، كما دلَّ على ذلك بئرا التنف والصواب ، حيث تتوضع طبقات الكريتاسي السفلي في عدم توافق على الكربوني .

الجوراسي : يتكشف في المناطق الجبلية : الحرمون ـــ لبنان الشرقية ـــ الجبال الساحلية ـــ الكرد ، كما يظهر في بعض نوى محدبات السلاسل التدمرية الجنوبية بتأثير الفوالق ، وقد اخترقت معظم الآبار الاستكشافية طبقات الجوراسي ، ولكن التشكيلات لم تميِّز حدود الجوراسي السفلي مع الترياسي ولا حدوده العليا مع الكريتاسي . تتميز الصخور الجوراسية في المناطق الجبلية بمظهرها الكتلي ولونها المزرق وبالحت الكارستي وهي بمجملها كلسية دولوميتية فقيرة بالمستحاثات ، لذلك كان تعيين الأعمار فيها عرضة للشكوك . ويعطي الشكل خلاصة عن توضعات الجوراسي في المناطق السورية المختلفة ، ونلاحظ أنه قد تبين بتقدم الدراسات دقةً ، تغيُّر في الحدود السفلى والعليا لهذا الدور ، وبأن الجوراسي الأعلى الذي يصل إلى نحو ١٠٠٠م



صخور الجوراسي طابق الأكسفورديان في جبل الدويلة
(أبو زاد ـــ بلودان)

ثخانة في الحرمون وسلاسل لبنان الشرقية ، يكاد يكون معدوماً في السلسلة الساحلية الشمالية وفي وسط سورية ، كما دلت دراسة الآبار على أن الجوراسي بكامله غير موجود في جنوبي وشمالي سورية ، والجوراسي الأوسط غير موجود في الشمال الشرقي من سورية ، وهذه دلائل على وجود حركات تكتونية ناشطة ، بدأت في الترياسي وتوسعت خلال الجوراسي وأدَّت إلى انسحاب البحر تدريجياً عن أواسط سورية وبقائه في المناطق الغربية .



الحت الكارستي لصخور الجوراسي
(طريق مصياف وادي العيون)

الكريتاسي أو الحواري : تتكشف صخور الكريتاسي في



صخور الكريتاسي في جبل حيان (السلسلة التدمرية)

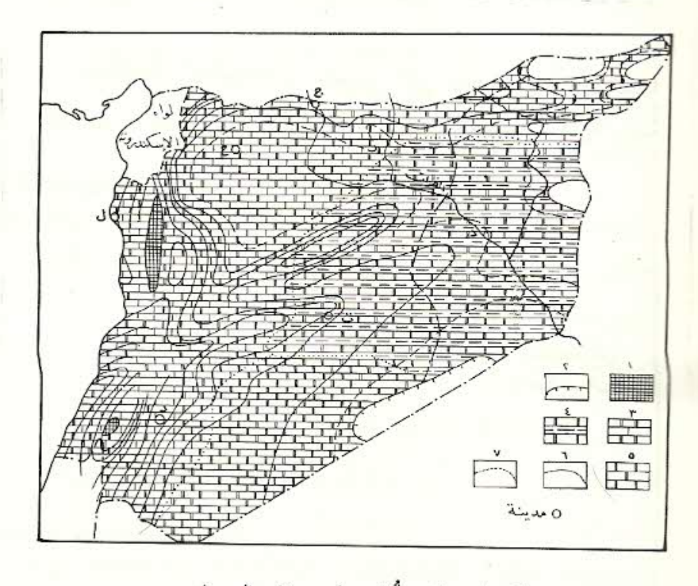
توضعات الجوراسي في المناطق السورية المختلفة

العمر الجيولوجي / المنطقة		جبل الحرمون	الزبداني ٣كم جنوب شرق سرغايا	السلاسل الساحلية قرب صلنفة		السلاسل التدمرية	الآبار الاستكشافية العميقة
		الدارس : دوبرتريه	الجيولوجيون السوفييت	السوفييت	د. معطي	د. معطي د. مالح	جيولوجيو النفط
جوراسي أعلى (مالم) J3	بورتلاندي J3Pt		كونغلوميرا حجر كلسي حطامي ٢٠م حجر كلسي بني مصفر ٢٠م				
	كيمروجي J3Km	حجر كلسي عضوي ٢٧م حجر كلسي رصفي ٣٨م	حجر كلسي كتلي ذو لون فاتح يشكل جداراً وينتهي بحجر كلسي بويضي ٧٠				
	أوكسفوردي J3Ox	حجر كلسي ومارن ٨٤م مارن يحوي أمونيت ٨٠م	مارن وحجر كلسي ٥٠م وتعاقب طبقات من حجر كلسي ١٠٢ك	حجر كلسي ١٥٠م			
	كالوفي J3Cl	حجر كلسي غضاري ١٥م حجر كلسي رمادي مزرّق ٧٠٠م	وحجر كلسي بويضي ٦٨٨م	حجر كلسي دولوميتي حجر كلسي ٤٠٠م	حجر كلسي بلا مستحاثات 50>		
جوراسي أوسط (دوكر) J2	باتوني J2bt	حجر كلسي ومارن ذو مستحاثات ١٧٠م	حجر كلسي حطامي ومارن ٢٤م	دولوميت ٤٠٠م	كلس ودولوميت ١٠٠٠م	كلس مع تدخلات دولوميت ٨ — ١٨٦م	وسط سورية وهضبة حلب القسم الأعلى من تشكيلة المولوسا ٢٥٠ — ٦٠٠م في شمال شرق سورية تشكيلة الرجلو وقسم من الكامشوكا ٣٠٠—٦٠٠م شمال سورية فجوة ستراتيغرافية
	باجوسي J2bj	حجر كلسي، وحجر كلسي حطامي ٥٨٠م بازلت ٤٥م ٥٨٠م بازلت ٤٥م كلس دولوميتي وكلس عضوي ١٥٥م دولوميت حبيبي ١٧٠م		١٧٠م			
J1	جوراسي أسفل (لياس)	حجر كلسي قاتم مع دولوميت أصفر ١٦٠م			حجر كلسي بويضي ٢٠ كاذب		

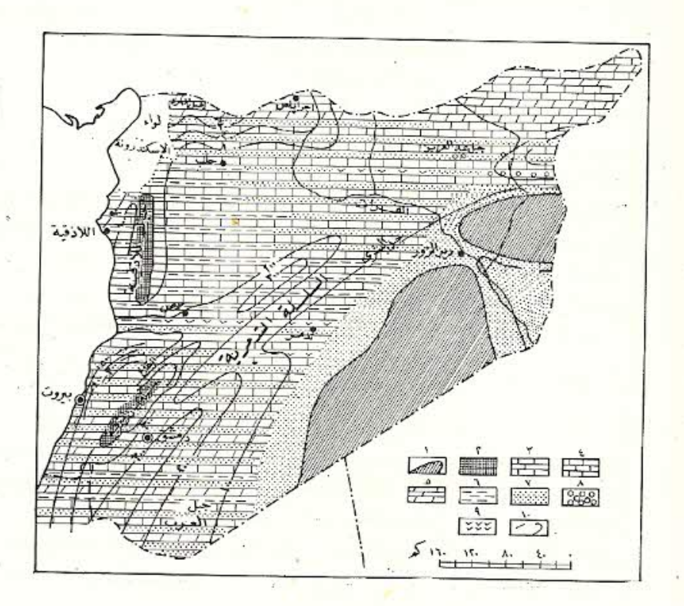
المناطق الجبلية من سورية في سلسلة لبنان الشرقية والسلسلة الساحلية وجبل الكرد والسلاسل التدمرية وجبل عبد العزيز، أما في بقية المناطق، فهي مغطاة برسوبيات الحقب الثالث وقد مكنت من دراستها تفصيلياً وفرة الآبار، التي تخترقها، ولوحظ وجود ثغرة استراتيغرافية في جنوب منطقة الحماد وفي شرق نهوض دير الزور. ويحتوي الكريتاسي على أهم الثروات الباطنية في سورية وهي النفط والفوسفات والحديد، لذلك فهو الدور الأكثر دراسة وتدقيقاً، وقد ساعدت وفرة المستحاثات في رسوبياته على تقسيمه وفق الطوابق الرئيسة. أما من الناحية الليتولوجية فيقسم إلى ثلاثة أقسام:

قسم أسفل رملي ورملي — غضاري في معظم أنحاء

سورية ويمتد من القاعدة حتى أعلى الأبسي ويمثل الشكل توزع سحناته .



مصور سماكة وسحنة توضُّعات السينوماني والتوروني
١ ــ مناطق اختفاء التوضعات الصخرية للسحنة في البنى الحالية .
٢ ــ مناطق اختفاء التوضعات .
٣ ــ توضعات كلسية ودولوميتية .
٤ ــ عروق غضارية ومارن غضاري .
٥ ــ دولوميت .
٦ ــ خطوط الأعماق .
٧ ــ حدود السحنة الصخرية .



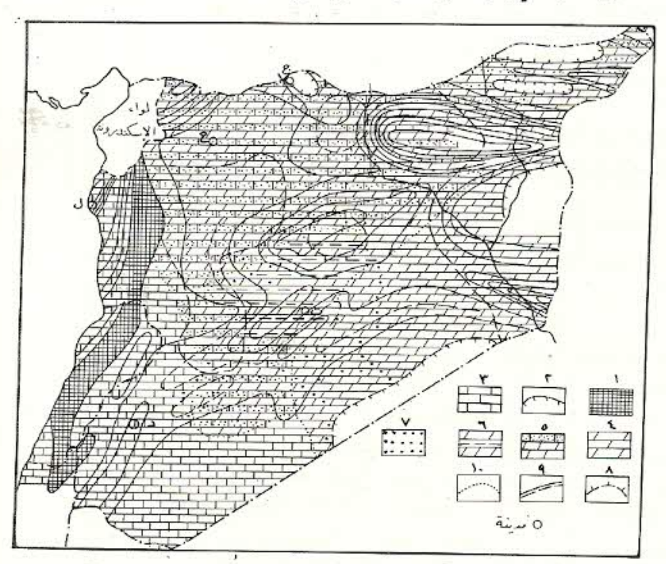
خريطة تقريبية تبين توزع سحنات الكريتاسي الأدنى في سورية ولبنان ــ بونيكاروف ــ
١ ــ مناطق لم يحدث فيها ترسيب .
٢ ــ مناطق لا توجد فيها صخور الكريتاسي الأدنى حالياً .
٣ ــ كلس .
٤ ــ دولوميا .
٥ ــ مارن .
٦ ــ غضار .
٧ ــ حجر رملي .
٨ ــ كونغلوميرا .
٩ ــ جص .
١٠ ــ خطوط تساوي الثخانة .

قسم أوسط كربوناتي : (كلس ودولوميت) ، يمتد من الألبي حتى قمة التوروني .

قسم مارني حواري يمثل السينوني ، وأهم رسوبياته تعود للمايستريخي .



صخور الكريتاسي الأوسط (جدار بلانش) على طريق دمشق بيروت



مصور سحنة الطبقات المايستريخية والدانية وسماكتها
١ ــ مناطق اختفاء التوضعات المايستريخية والدانيّة .
٢ ــ مناطق اختفاء التوضعات .
٣ ــ كلس . ٤ ــ مارن . ٥ ــ كلس ومارن .
٦ ــ غضار ومارن غضاري .
٧ ــ آفاق وطبقات فسفوريتية في طبقات المايستريخي .
٨ ــ حدود اختفاء التوضعات الدانيّة المحتملة .
٩ ــ خطوط الأعماق .
١٠ ــ حدود السحنة الصخرية .

الحقب الثالث أو حقب الحياة الحديثة
Cenozoïque

يقسم الحقب الثالث إلى خمسة أدوار وهي من الأقدم إلى الأحدث: الباليوسين والإيوسين والأوليغوسين (الباليوجين) والميوسين والبليوسين (النيوجين). وقد عُدَّ الطابق الداني (الرابعي) حديثاً تابعاً للحقب الثالث.

منظومة الباليوجين: تهيمن على رسوبيات الباليوجين، الصخور الكربوناتية، بالإضافة إلى بعض توضعات قارية رملية

النيوجين في سورية

الدور	الطابق	النيوجين البحري: الحوض الشمالي الغربي: حوض اللاذقية	النيوجين البحري: الحوض الشمالي الغربي: عفرين	النيوجين البحري: اسم التشكيلة	النيوجين البحري: حوض ما بين النهرين	النيوجين القاري	الاندفاعات البازلتية	الباليوجغرافية والحركات البنيوية
البليوسين N2	آستي N2a بليزانسي N2P	في حوض النهر الكبير الشمالي حجر رملي ناعم وحجر غضاري على الساحل طف	في شمال الغاب صخور غضارية طفية وحجر رملي كلسي وكونغلوميرا ٤٠ — ٣٠٠م	تشكيلة البختياري	في الجنوب حجر كلسي وكونغلوميرا يتوضع فوقها بعدم توافق حجر رملي وغضار ثخانة ٢٥ـــ١٥٠م في الشمال كونغلوميرا ذات حصى اندفاعية فوقها حجر رملي ومارن وجص ثخانة ٨٠٠ — ١٥٠٠م	توضعات بحيرية وسبخية أهمها تشكيلة البختياري في بقية المنخفضات منطقة دمشق وسبخات السلاسل التدمرية والغاب كونغلوميرا خشنة وفوقها حجر كلسي ومارن بحيري	جبل العرب ١٠٠ — ٧٠٠م هضبة شين ـــ تلكلخ ٣٠ — ٣٠٠م هضبة المرقب على الساحل السوري	حركات تكتونية أخيرة أعطت التضاريس شكلها القريب من الأشكال الحالية
الميوسين الأعلى N43	بونسي N1P مسيني N1m	رسوبيات محدودة حجر كلسي وجص ٣٠ـــ٤٠م		تشكيلة الفارس الأعلى	أسفل التشكيلة يحوي بعض منخربات فهو بالتالي بحري	تشكيلة الفارس الأعلى المؤلفة من رمل ملون وغضار وهي بثخانة ٢٠٠ـــ٣٥٠م في جبل عبد العزيز و٥٠ـــ٨٠م في طوال العبا	منطقة الحميدية جنوب طرطوس تتمة سهل عكار ١٥٠م بين حلب والسلمية ووادي نهر العاصي ٢٠ — ١٠٠م	استمرار النهوض وخاصة هضبة حلب
الميوسين الأوسط N12	توركوني N1t	مارن أخضر وحجر رملي وحجر كلسي ٢٢٥م	كلس حطامي ١٤٠م ومارن في سلفين (الغاب)	تشكيلة الفارس الأسفل	رسوبيات جصية ثخينة متناوبة مع غضار ومارن رقيق رسوبيات جصية وملحية ٧٠٠م	في منطقة دمشق بين دمر والهامة تعاقب منحني من الكونغلوميرا والحجر الرملي والحجر الكلسي بلون أحمر نفس الرسوبيات الحمراء في المنخفضات الأخرى بثخانة بين ٥٠ — ٢٢٠م	في الجزء المركزي من منطقة دمشق وعلى المنحدر الجنوبي لجبل الشيخ ٥٠٠م شمال حلب قرب قرية قطمة ٢١٦م وادي المنقورة	نشاط تكتوني بدليل الاندفاعات البركانية وبروز التضاريس مناخ رطب كثير السيول والأنهار بدليل الصخور الحطامية الثخينة
	هلفيسي N1h	مارن وحجر كلسي ١٤٠ـــ١٧٠م كونغلوميرا وحجر رملي	حجر كلسي ٢٥٠م صبات بازلتية ٢٥٠م	تشكيلة الجريبة	حجر كلسي عضوي غني بالأشينات ١٠ـــ٧٥م			
الميوسين الأدنى N11	بوردغالي N1	حجر كلسي حواري وعدسات قارية رقيقة ٢٣٠م	بازلت حجر كلسي ٣٥٧م كونغلوميرا ورمل	تشكيلة الديبانية	في البشري رملي غضاري ١٥ — ٨٥م في جبل عبد العزيز مارن وجص وكلس ١١٥م	في حوض الدو بين التدمرية الشمالية والجنوبية غضار وحجر رملي كوارتزي وحجر كلسي قاسٍ	سويات رقيقة بازلتية شمال منطقة دمشق قرب الدريج	تراجع البحر واقتصاره على حوضي اللاذقية وعفرين وما بين النهرين المتصلين جزئياً
	أكيتاني N1 ak	حجر كلسي غضاري ومارن أصفر ٥٠ — ١٥٠	حجر كلسي ومارن وعدسات رملية وكونغلوميرا ٣٣٠		في الآبار كلس ودولوميت مع جص وملح ٣٥٠	في منطقة دمشق رمل كوارتزي أبيض وأصفر كروي الحبيبات في جبل العطا وسهل الصحراء ٣٠ — ٥٠م		حركات تكتونية هادئة نسبياً

في الإيوسين الأعلى والأوليغوسين، وتسمى هذه المنظومة أيضاً باسم النموليتي لانتشار مستحاثات النموليت أو «الفِلْسيَّات» فيها، وتقسم لاعتبارات ليتولوجية وميكروباليونتولوجية إلى خمس تشكيلات، إضافة إلى الداني في قاعدتها.

ـــ **الداني**: يتألف من كلس غضاري ومارن وينتشر في حوض اللاذقية ـــ عفرين ووهدة ما بين النهرين، ويصل إلى أقصى ثخانة في ميدانكي (عفرين) إلى ٣٦٩م، بينما لا يتجاوز في معلولا الـ ٢٠م.

ـــ **تشكيلة الباليوسين**: أسفل الإيوسين الأسفل: تتألف من مارن غضاري لا يمكن تمييزه عن المايستريخي وتبلغ أقصى ثخانة لها في حوض اللاذقية ـــ عفرين ٦٥٠م، وتوجد قرب دمر ومعربا في منطقة دمشق.

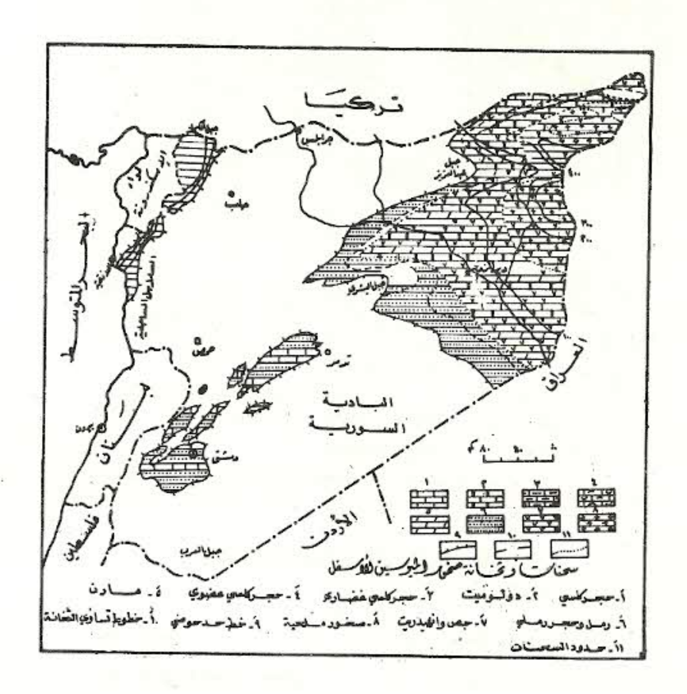
ـــ **تشكيلة الجزء العلوي من الإيوسين الأسفل**: تتألف من حجر كلسي حواري، فيه مدسوسات فوسفاتية وغلوكونيت وتتميز بوجود الطبقات الصوانية، تصل ثخانتها إلى ٣٠٠م في الجبال التدمرية.

ـــ **الإيوسين الأوسط**: يتألف من حجر كلسي حواري غني بالمنخريات الصغيرة في قسمه الأسفل، وحجر كلسي عضوي نموليتي في قسمه الأعلى مع قشور سيليسية رقيقة.

ـــ **الإيوسين الأعلى**: كلسي كتلي، يؤلف جدراً قائمة في عين الخضرا وعين الصاحب، وكلسي رملي شمال الجبال التدمرية، وكلسي أبيض مصغر بثخانة ١٥٠م بين جرابلس والرقة.

ـــ **الأوليغوسين**: انتشاره أقل بكثير من الإيوسين وهو في المنطقة الغربية، كلسي، غني بالمرجانيات والليبيدوسيكلين، وفي التدمرية مارني، ورملي في البشري، حيث لا تتعدى ثخانته ٢٠م، وكلسي دولوميتي في الوهدة الفراتية.

منظومة النيوجين: يتألف النيوجين من رسوبيات بحرية بشكل قوس، يمتد ضيقاً في حوض اتجاهه بين الشمال والغرب ويشمل اللاذقية ووادي النهر الكبير الشمالي، فشمال حلب وعفرين، ثم يعرض القوس في حوض اتجاهه بين الشمال والشرق، هو حوض ما بين النهرين، أما بقية المناطق؛ فينسحب عنها البحر وتسيطر فيها توضعات قارية إلى جانب اندفاعات بركانية في بعض الأماكن، مما يدل على حركات بنيوية نشيطة. وتبين هذه الأشكال أهم مميزات النيوجين وفق تقسيماته السحنية والطابقية.



سحنات وثخانة صخور الميوسين الأسفل

١ ـــ حجر كلسي.
٢ ـــ دولوميت.
٣ ـــ حجر كلسي غضاري.
٤ ـــ حجر كلسي عضوي.
٥ ـــ مارن.
٦ ـــ رمل وحجر رملي.
٧ ـــ جص وأنهيدريت.
٨ ـــ صخور ملحية.
٩ ـــ خط حد حوضي.
١٠ ـــ خطوط تساوي الثخانة.
١١ ـــ حدود السحنات.

ويلاحظ أن الرسوبيات البحرية تختلف ما بين الحوضين، ليتولوجياً، كما تختلف مستحاثياً وذلك ناتج عن أن الحوض الغربي كان على اتصال مباشر مع مياه البحر، بينما كان الحوض الشرقي يعيش ظروف بحر ضحل نصف مغلق، ولم يتصل مع البحر المتوسط بشكل واسع إلا خلال التجاوز الهلفيسي، الذي امتد حتى القسم الغربي من هضبة حلب، بينما بدأت في جنوب البلاد الاندفاعات البركانية، معلنة عن بدء حركات تكتونية، ستبلغ أشدها خلال الباليوسين، وانسحب البحر عن حوض عفرين خلال الميوسين الأعلى واقتصر امتداده على خليج ضيق في حوض النهر الكبير الشمالي، موضعاً رسوبيات تبخرية من الجص.

٤ ـــ صخور بركانية.
٥ ـــ خط من الحوض.
٦ ـــ خطوط تساوي الثخانة.
٧ ـــ حدود التشكيلات الليتولوجية.

ثم تشكلت في داخل البلاد أحواض مغلقة، توضعت فيها رسوبيات حطامية وردت إليها من المناطق الجبلية المجاورة وأهمها حوض الدو في المنطقة التدمرية، وحوض غرب دمشق.

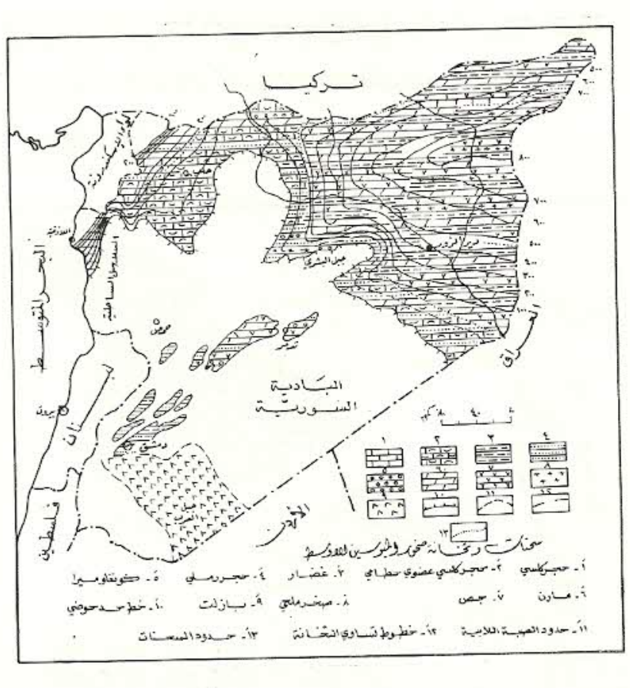


صخور كونغلوميرا المشرفة قرب بلدة قارة.

وبلغت الحركات التكتونية أقصى شدتها خلال الباليوسين، معطية للتضاريس شكلها القريب من أشكالها الحالية وتوضعت في بحيرات وسبخات أقدام الجبال الناهضة، رسوبيات حطامية أهمها تشكيلة البختياري، التي تصل ثخانتها شمال حوض ما بين النهرين إلى ١٥٠٠م.

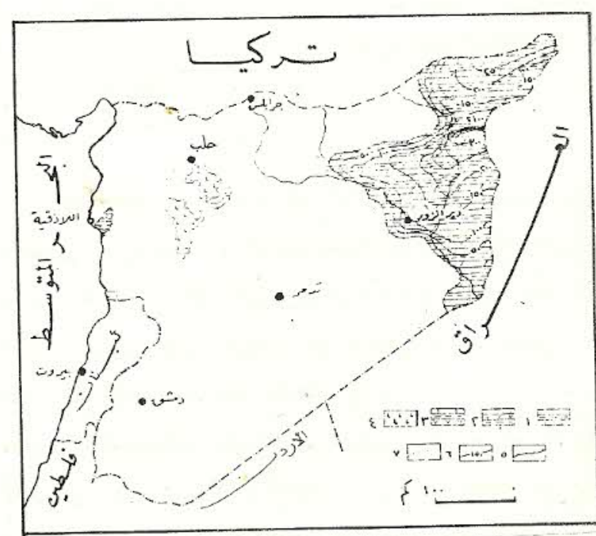
الدور الرباعي

يتميز بظهور الإنسان ويقسم إلى عصرين: البليستوسين والهولوسين، ويقسم البليستوسين بدوره إلى ثلاثة أقسام: أسفل وأوسط وأعلى. تقابلها فترات جليدية في الألب، أو توضعات بحرية على شواطئ المتوسط، أو تدرج حضاري للإنسان القديم وفقاً لاستعماله للحجر المصقول، وبالتالي تتعدد وسائل تحديد عمر الرسوبيات الرباعية، هذه الرسوبيات التى تتوضع على شواطئ البحر الحالي بشكل مصاطب بحرية، أقدمها أبعدها وأعلاها عن الشاطئ، وكذلك الأمر في أودية الأنهار الرئيسة كالفرات والعاصي. وقد وجدت في هذه المصاطب أدوات صوانية متعددة، تشير إلى أن سورية كانت مهداً حضارياً للإنسان القديم، كما هي للإنسان الحديث.



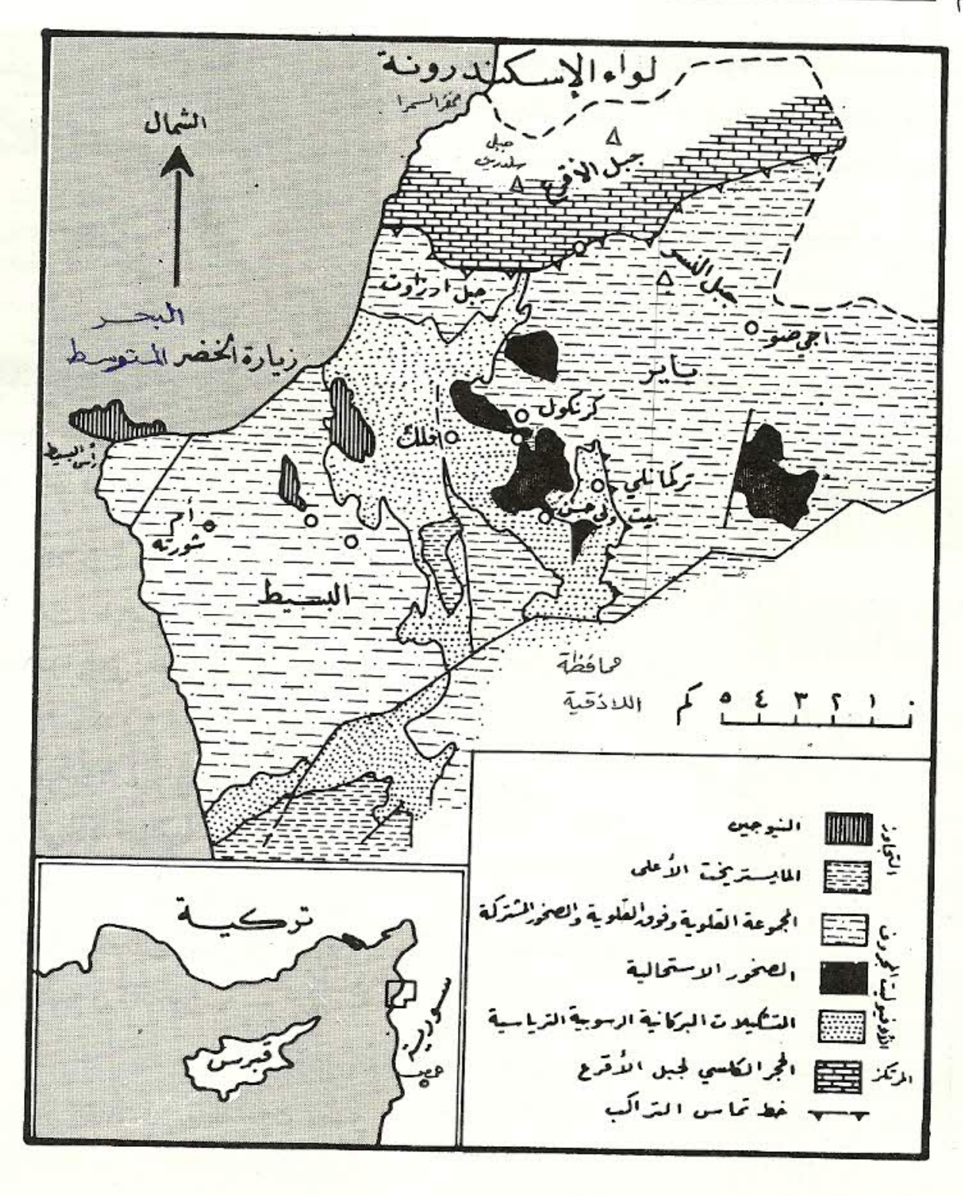
سحنات وثخانة صخور الميوسين الأوسط

١ ـــ حجر كلسي.
٢ ـــ حجر كلسي عضوي حطامي.
٣ ـــ غضار.
٤ ـــ حجر رملي.
٥ ـــ كونغلوميرا.
٦ ـــ مارن.
٧ ـــ جص.
٨ ـــ صخر ملحي.
٩ ـــ بازلت.
١٠ ـــ خطوط حد حوضي.
١١ ـــ حدود الصبة اللابية.
١٢ ـــ خطوط تساوي الثخانة.
١٣ ـــ حدود السحنات.



سحنات وثخانة صخور الميوسين الأسفل

١ ـــ تشكيلة بحرية غضارية رملية.
٢ ـــ تشكيلة بحرية جصية غضارية رملية.
٣ ـــ تشكيلة بحرية لاغونية.



تمثيل جيولوجي للبسيط مع تحديد أهم المواقع.

ولا بد من الإشارة إلى أن الاندفاعات البركانية، قد رافقت مراحل الحقب الرباعي المختلفة وغطت مساحات واسعة في المنطقة الجنوبية.

الصخور الاندفاعية

المعقد الأوفيوليتي

تنتشر في شمال غرب سورية (منطقة البسيط، وبلبل، والأمانوس)، تشكيلة صخرية معقدة، عُرفت سابقاً باسم الصخور الخضر، وعُدِّل اسمها حالياً وفقاً للمصطلح العلمي الحديث إلى (المعقد الأوفيوليتي)، وهي جزء من مجموعة كتل مرافقة للالتواءات الألبية المزنرة لشمال الصفيحة العربية، جرفت وتوضعت على القشرة القارية لهذه الصفيحة بشكل قوس تمتد من عُمان حتى جزيرة قبرص، وقد انزاحت الكتل الأوفيوليتية في البسيط خلال المايستريخي الأوسط واستقرت فوق مرتكز من الصخور الكلسية الجوراسية والكريتاسية (صخور جبل الأقرع)، تغطيها في بعض الأماكن صخور تجاوزات بحرية تالية للانزياح، تبدأ بالمايستريخي الأعلى وتنتهي بالباليوسين، ويتألف المعقد من المجموعات التالية:

المجموعة البركانية الرسوبية: وهي تشكيلة بحر مفتوح (أوقيانوسية أو محيطية) على حافة الصفيحة وأقدم عمراً من انتقال الأوفيوليت. وكان يطلق على هذه المجموعة إسم الراديولاريت لغلبة الصخور السيليسية الحاوية على أشواك الشعاعيات فيها. وكان يعتقد أنها تعود إلى الترياسي فقط. وقد تبين حديثاً أنها تمتد من الترياسي العلوي حتى السينوماني وفق



صخور الراديولاريت الملتوية في منطقة سد بللوران.

التتابع الستراتيغرافي. وهي مؤلفة من:

— **حجر كلسي**: تحت طباعي (ميكريت) يحوي مستحاثات هالوبيا وداونيلا (ترياسي علوي) بثخانة وسطى قدرها ٣٠م.

— **بازلت توليتي**: ذو بنية شبه وسادية وآفاق طفية زجاجية بثخانة بضعة أمتار وهي بركنة ترياسية.

— **شيرت**: صخور سيليسية غضارية دقيقة التطبق، تبدو فيها آثار التكتونيك والميكروتكتونيك، وهي في مجموعتين رئيستين، تتخللهما مجموعة بيليتية وبركنة جوراسية — كريتاسية سفلى.

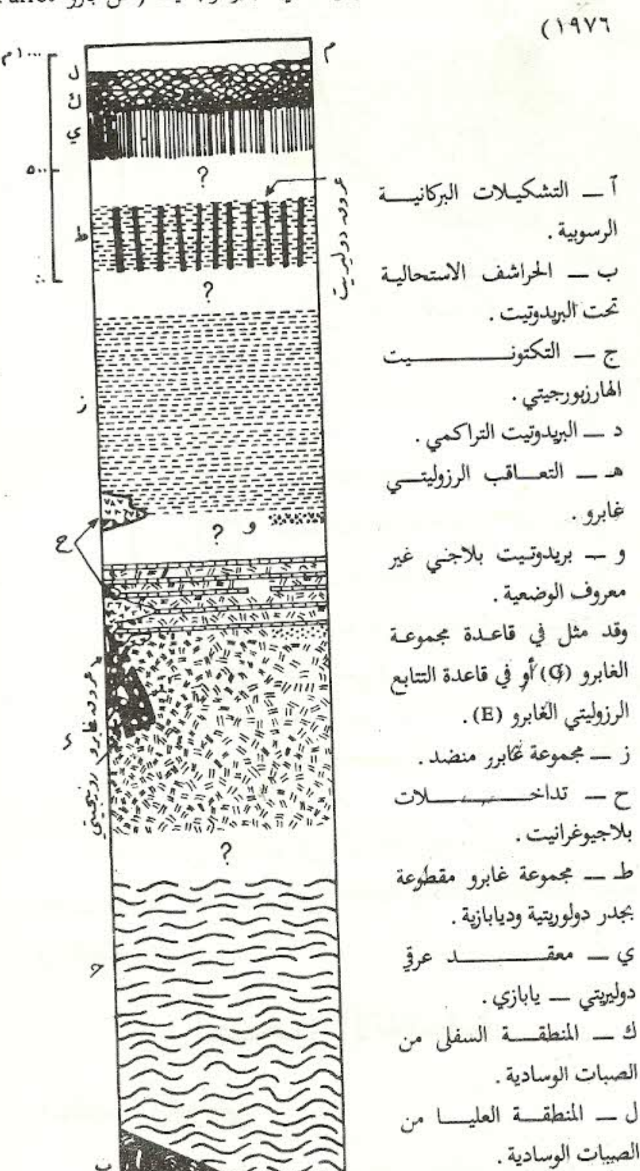
— **بيليت**: رسوبيات لها آفاق رملية ذات تطبق متصالب وتوضعات منغنيزية، تتراوح بين ٥سم في المركز وتصل إلى ما بين ٥٠ إلى ٨٠سم نحو الجنوب مع تزايد الأسرّة الرملية، وثخانة البيليت التي تصل إلى ٥٠ — ١٠٠م جنوباً، نجدها بين ١٠ — ٢٠م شمالاً، مما يشير إلى أن الترسب كان من الجنوب نحو الشمال.

— **بركنة قلوية جوراسية — كريتاسية**: وهي مؤلفة من فونوليت وبريش بركاني ومونشيكيت وصبات تراكيت، وتنتهي المجموعة الرسوبية بكلس حطامي دقيق (كالكارنيت) وبريش سينوماني، كما توجد تغيرات جانبية أهمها تشكيلة «كبير» وهي رسوبيات تيارات عكر Turbiolités كلسية رملية.

إن هذه المجموعة البركانية الرسوبية، ذات دلالات باليوجغرافية هامة جداً؛ فهي تشير إلى حافة السطيحة العربية المصدعة والمنفتحة على أوقيانوس (التيتس)، الذي بدأ ينغلق في المايستريخي، مراكماً مجموعاته الأوقيانوسية الاندفاعية (أوفيوليت) والرسوبية (راديولاريت ومختلطاته)، ثم جارفاً إياها من الشمال إلى الجنوب على حافة السطيحة العربية.

المجموعة الاندفاعية الأوفيوليتية: وهي مؤلفة من مجموعة من التشكيلات الصخرية المتتابعة، كما في الشكل من الأسفل إلى الأعلى:

التتابع النظري للتشكيلات الأوفيوليتية في الباير والبسيط (عن بارو Parrot ١٩٧٦)



التشكيلات البركانية الرسوبية وتشمل:

— **الحراشف الاستحالية**: وتصل ثخانتها إلى ٣٠٠م، ويُميز فيها شيست أمفيبوليتي بلون أخضر غامق، وكالكشيست

بلون أخضر فاتح وميتابازلت أسود وبيروكسينيت أمفيبولي يشكل جروفاً ورخاماً أبيض غير نقي، لوجود عروق كلوريتية طرية فيه، تُميز هذه الحراشف في كنقورين وعيوران. إن هذه الصخور ناشئة، إما عن صخور اندفاعية سابقة كالميتابازلت، أو عن صخور رسوبية كالرخام المتحول عن صخور الكلس بدليل العقد الصوانية، التي تظهر في كليهما، وبالتالي فعمر الكامبري المعطى لها سابقاً منقوض.

ــ **البيريدوتيت**: وتتراوح ثخانتها بين ٨٠٠م في البسيط و ١٥٠٠ ــ ٢٠٠٠م في البابر، وأنواعه عديدة وفق فلز البيروكسين ومنه الدونيت الذي يظهر بشكل عروق، تحوي أحياناً عدسات من فلزات الكروميت، ثم **الهارزبورجيت واللرزوليت**، وتظهر في البيريدوتيت العميق، التواءات ويطلق عليه إسم **التكتونيت**، أما البيريدوتيت التراكمي، فلا يظهر فيه تشوه، وتطرأ على البيريدوتيت عملية **السربنتنة**، عندما يتحول أكثر من ٧٠٪ من الأوليفين إلى سربنتين ويسمى عند ذلك سربنتينيت (صخر الحيَّات).

ــ **الغابرو**: ويتمثل في ثلاث سحنات، **غابرو منضّد**، وهو الأعم انتشاراً ولا تقل ثخانته عن ١٠٠٠م، ينتشر شمال قسطل معاف وفي كتلة زنزوف وجبل الزيتون، **وغابرو بغماتيتي** يتميز ببلوراته الكبيرة ويبدو متعاقباً مع آفاق **هارزبورجيت لرزوليت** و **عروق غابرو** وهي بثخانة ١ ــ ٢م وهي قليلة، تصادف قرب شاطئ البسيط.



بازلت الجوراسي عند قلعة جندل في جبل حرمون.

ــ **البلاجيوغرانيت**: وقد سميت سابقاً آبليت وتظهر قرب «عيسى بقلة» وجبل سيلاندار، وهي تحوي نسبة عالية من الكوارتز، ويُفتش عنها لأنها مناطق ملائمة لتشكل فلزات النحاس.

ــ **المعقد العرقي الدوليريتي ــ الديابازي**: يظهر بشكل جدر شبه عمودية، متوازية فيما بينها، تخترق الغابرو، تبدو في غرب البسيط بين نهر الصفرا وقرية الدفلة، وهي ناشئة عن عُرف أوقيانوسي وتغذي البيلولافا.

ــ **الصبات الوسادية أو البيلولافا Pillowlava**: وتتألف من مستويين: **سفلي**: الوسائد فيه كروية تقريباً بقطر ٤٠ ــ ٦٠سم وهي كلوريتية كثيرة التشقق، تصل ثخانتها إلى ١٠٠م وتبدو واضحة قرب قرية الدفلة. **وعلوي**: وسائده إهليليجية وأكبر حجماً من الأولى بقطر ١٠٠ ــ ١٢٠سم تقطعها الجدر الدوليريتية، كما أنها تفسر نشأة الصبات عن ماغما انصهار جزئي لأعلى الغلاف Mantle وتَوَضُّع في وسط بحري.

ــ **الترب المعتمة**: وهي رسوبيات غضارية دقيقة غنية بفلزات الحديد والمنغنيز، تشكل قشرة رقيقة بثخانة ١ــ ٢م فوق الصبات الوسادية ولها أهميتها في الدراسات النظرية.

الاندفاعات البركانية والصخور البازلتية: تنتشر الاندفاعات البركانية في سورية في مناطق متعددة وتعود لأعمار جيولوجية مختلفة، اعتباراً من الجوراسي وحتى الهولوسين، ولكن أهمها الاندفاعات النيوجينية والرباعية والتي هي جزء من أوسع



تل شيخان: المخروط البركاني والطف المترسب إلى الشرق منه.

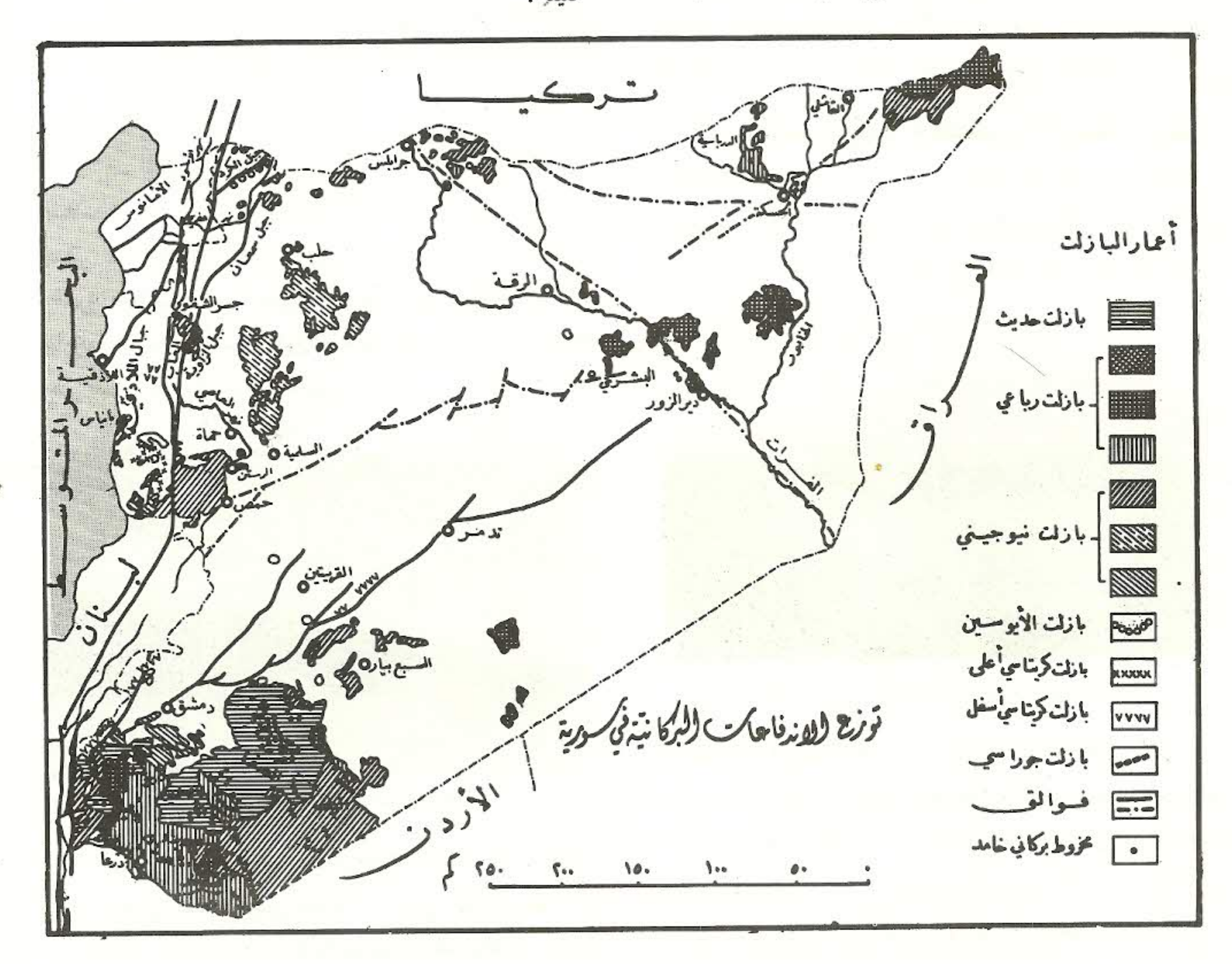
الاندفاعات البركانية العالمية، إذ إن صخورها تغطي أكثر من ٤٠٠٠٠ كم² في السعودية وفلسطين والأردن وسورية، حيث تشغل في قطرنا نحواً من ١٧٠٠٠ كم² في حوران وجبل العرب والزلف. وتبلغ ثخانتها العظمى في جبل العرب نحواً من ١٥٠٠م. ويظهر في الشكل توزع الاندفاعات البركانية في سورية.

ويحدد الشكل أهم مواقع هذه الاندفاعات وفق أعمارها ومساحاتها وثخاناتها التقريبية، وأهم أنواع صخورها، والتي نشير إلى أنها تصنف وفق اعتبارات بتروغرافية وميترالوجية وجيوكيميائية عديدة، وأغلبيتها في سورية هي من الصخور البازلتية القلوية الأوليفينية.

وفيما يلي نستكمل المعلومات الوصفية في الشكل ببعض الاستنتاجات:

ــ إن الفعالية البركانية الشديدة ترافق وتزامن حدوث الانهدام العربي السوري الكبير، وبالتالي حركة الصفيحة العربية، المنفصلة عن الصفيحة الإفريقية وتتركز الفعالية على الطرف الشرقي من الانهدام، كما في الجولان وحوران وجبل العرب وحمص وجبل الزاوية؛ أي على الطرف الغربي من المسطح المتصدع بتأثير حركة الصفيحة باتجاه الشمال الشرقي، ويُلاحظ أن اتجاهات البركنة في جبل العرب بين الشمال الغربي والجنوب الشرقي، مسايرة لاتجاه انفتاح البحر الأحمر وبالتالي موائمة لحركة الصفيحة.

ــ إن البنية الميكروليتية التي يغلب فيها الزجاج والبلورات الإبرية المجهرية، تشير إلى أن معظم هذه الصخور طفحية؛ أي أنها وصلت إلى السطح بالحالة السائلة أو اللزجة (لابات) ومن ضمن شقوق، ولكن منها أيضاً ما وصل إلى السطح بواسطة مخاريط بركانية، مجتمعة أو منفردة. وهذه المخاريط قد تكون من النوع السترومبولي أو الفيزوفي. أما الصبات فهي من النوع الحبابي من أمثال باهوهو Pahoehoe ذي السطح الأملس. وقد تظهر في بعضها الأشكال الموشورية الخماسية. إن هذه الانبثاقات قد تمت فوق سطوح قارية وقليل منها ما تم في وسط بحري، إذ إن البنيات البريشية (بيبريت) والأشكال الوسادية قليلة.



توزع الاندفاعات البركانية في سورية.

الاندفاعات البركانية والبازلتية في سورية

الحقبة	العصر	العمر	الموقع	المساحة كم²	الثخانة متر	أهم أنواع البازلت	عدد الصبات / المخاريط
ما قبل النيوجين	جوراسي	أوسط	جبل الشيخ ـــ قرب عرنة		٤٠ ـــ ٦٠	سبيليت ، بلاجيوبازلت	
		أعلى ؟ أو كريتاسي أسفل	السلاسل الساحلية : جوبة البرغال			دياباز ـــ برنس طفي . بازلت	٣ مداخن بركانية ومنخفض بقطر ١٠٠٠م وعمق ١٥٠م
	كريتاسي	ابسي	سلاسل لبنان الشرقية تحت جدار بلانش جنوب القدموس ، وادي نهر الكعكي السلسلة التدمرية : الرماح والتنقية السفح الجنوبي الشرقي للحرمون		١٢ ٤٠ ـــ ٥٠	بازلت متفسخ أناميزيت والدولوميت بازلت	أجرى تحليل عمر مطلق عدسة من المشتى ١٣٠ مليون سنة ومن الملوعة ١١٥ مليون سنة أي فالانجي ـــ أبسي
		سينوماني	جنوب غرب السلاسل الساحلية		٥ ـــ ٣٠ ٢٠ ـــ ٤٠	بازلت نورفيريت ـــ طف بركاني	أفقان
	باليوجين	إيوسين أسفل	وادي نهر عفرين ـــ شمال حلب		٢٠٥	طف بركاني ومدسوسات بازلتية	
نيوجين		ميوسين أوسط	الكسوة ـــ جبل المانع ـــ وادي نهر عفرين		٢٠٠ ـــ ٥٠٠	بازلت ـــ دوليريت ـــ أناميزيت	١٥ ـــ ٢٠ صبة
		ميوسين أعلى	٤ هضاب بين السلمية وحلب (الحص ـــ شبيط ـــ أبو الضهور ـــ السلمية) سهل عكار : منطقة الحميدية جنوب طرطوس	٩٠٠ + ١٦٠ ٦٠٠ + ٣٠٠	١٠ ـــ ١٥ ٤٠ ـــ ١٥٠	دوليريت ـــ أناميزيت	
		باليوسين	جبل العرب ـــ زملة نجيلة ـــ كناكر ديرة التلول ـــ منطقة شين جبل الحلو ـــ تلكلخ ـــ جبل الوسطاني ـــ جبل الزاوية ـــ الساحل السوري : المرقب ـــ بإنياس	٥٥٠٠ ١٢٤٥	١٠٠ ـــ ٧٠٠ ٣٠ ـــ ٣٠٠	دوليريت ـــ بلاجيودوليريت ـــ أناميزيت ـــ أتكاراميت	مخاريط بركانية ذات رؤوس محتوتة تعاقب صبات
الرابعي		بليستوسين أسفل	حوران وجبل العرب واللجاة منطقة جرابلس (خرابة وسيرين)	٤٢٠٠	١٠٠	بازلت ـــ دوليريت ـــ أتكاراميت خبث ولابات	مخاريط بركانية قرب شهبا والسويداء بارتفاع ٥٠ ـــ ٨٠م قطر ٣٠٠م . درى ممهدة . لابات حبالة
		بليستوسين أوسط	حوران : وادي الأعوج والرقاد شمال تل الشعرة شرق سورية	٣٥٠		دولوريت ـــ أناميزيت ـــ أتكاراميت ـــ بيكريت طف وقنابل	تل الشعرة ٣ صبات مخروط سترومبولي
		بليستوسين أعلى	وادي الفرات : قرب الرقة ودير الزور			بازلت نيفيليتي طف ـــ أتكاراميت	مخاريط من نوع فيزوفي خاصة جبل أبو منخار
		هولوسين	حوران ـــ جبل العرب ـــ ديرة التلول ـــ خربة الأمباشي ـــ اللجاة	٦٠٠٠	٣٠ ـــ ١٠٠	دولوريت ـــ أناميزيت أتكاراميت ـــ طف وخبث	مجموعة مخاريط بركانية محفوظة جيداً . خربة الأمباشي ٤٠٠٠سنة سبعة صبات مختلفة تعود إلى هذا العمر

ـــ تظهر بعض صخور غورية متوسطة، إما منفردة أو تحت الصبات البازلتية وتعود إلى أعمار مختلفة، وهي بشكل اندساسات دوليريتية جيدة التبلور، كما في وادي محَيّة قرب القريتين، وقد تأخذ شكل جدر، كما في القدموس.

وأخيراً نشير إلى بعض أقماع ما تزال قيد الدرس في بعض دولينات السلاسل الساحلية.

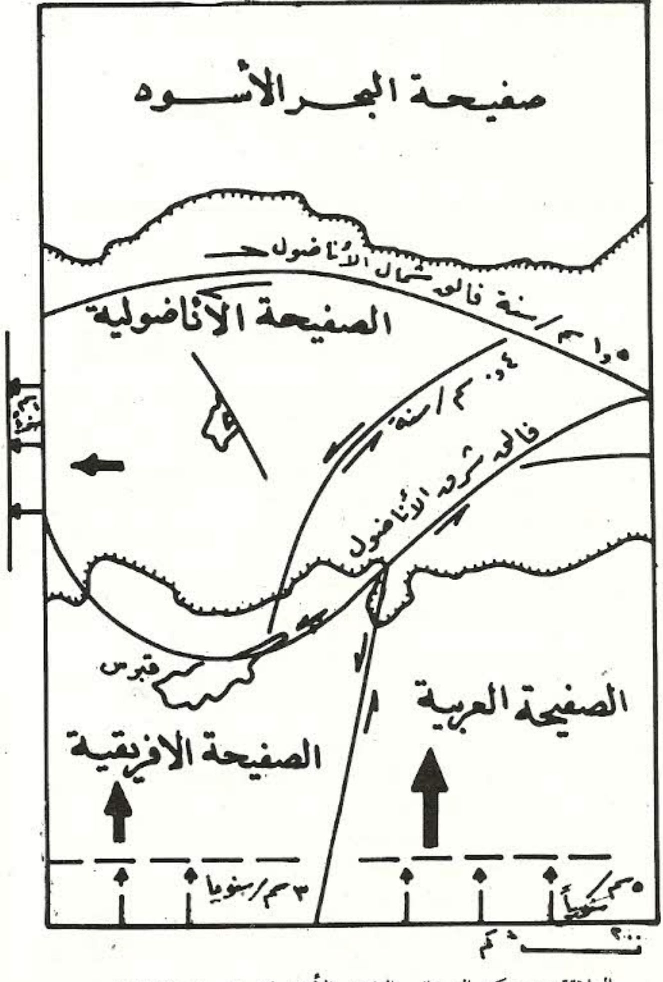
الحركات البنائية (التكتونية)

برزت في الستينيات من هذا القرن، نظرية تكتونيك الصفائح، معتمدة على قياسات ومعطيات جيوفيزيائية وأوقيانوسية دقيقة ومحققة، أقنعت معظم جيولوجيي العالم، وبموجب هذه النظرية، تنقسم الكرة الأرضية إلى ثمان صفائح رئيسة قاسية، يمكن أن تتفرع عن كل منها صفيحات أصغر، وهي تطفو فوق طبقة لدنة ـــ الأستينوسفير ـــ القابلة للحركة وتحريك ما فوقها.

إن هذه الصفائح في حركة تتراوح بين عدة مليمترات إلى عدة سنتمترات سنوياً متقاربة، وبالتالي متصادمة أو متباعدة فيما بينها. ففي حال التقارب وخلال ملايين الأعوام، يختفي الجزء الأسفل من الصفيحة بالانغراز Subduction، وتتجعد القشرة العليا بالانضغاط Compression، مشكلةً السلاسل الجبلية الالتوائية، أما في مناطق التباعد فتتجدد الصفيحة بالتراكم Accrétion في مستوى الأعراف أو الظهور الأوقيانوسية Dorsales océaniques بتصلب قسم من مهل الأستينوسفير، الذي ينفرش تدريجياً، مشكلاً قشرة أوقيانوسية تتسع بتأثير قوى الشد وتنتج عنها المحيطات خلال ملايين الأعوام.

وتتفرع عن الصفيحة الإفريقية صفيحتان ثانويتان، هما الصفيحة العربية وصفيحة شرقي المتوسط، وتتفرع عن الصفيحة الأوراسية الصفيحة الأناضولية. وهذه الصفيحات الثانوية متحركة فيما بينها منذ ملايين الأعوام، وما تزال في حركة مختلفة السرعة على طول فوالق انزياحية.

إن تباعد الصفيحة العربية عن الصفيحة الإفريقية، أدّى إلى انفتاح البحر الأحمر وتوسعه كأوقيانوس في طور النشوء، وهي إحدى عوامل تشكل الغور الانهدامي والاندفاعات البازلتية في جنوب سورية، كما أن اصطدامها مع الصفيحتين

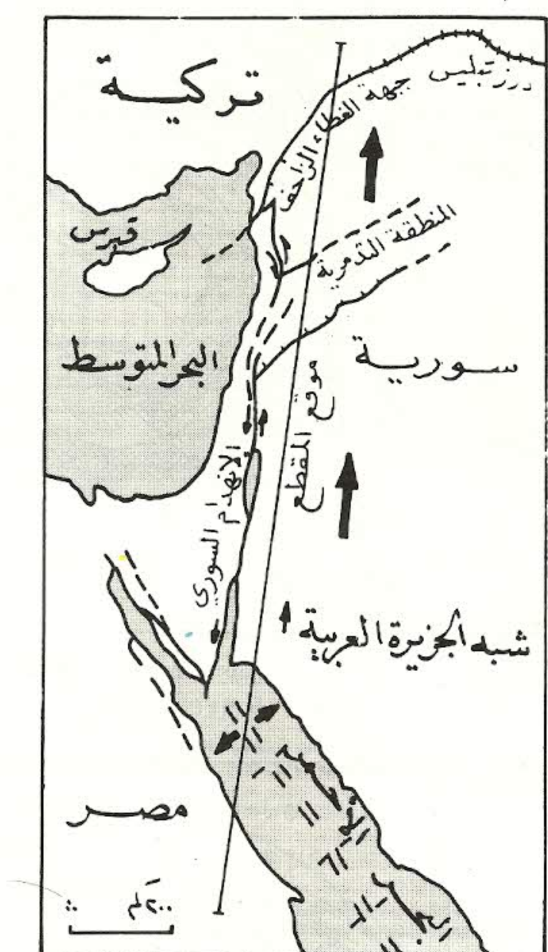


العلاقة بين مركز الصفائح الثلاث الأناضولية والعربية والإفريقية

الثانويتين الأوراسية (الأناضولية والإيرانية)، أدّى إلى تشكل سلاسل طوروس ـــ زاغروس وما استتبع ذلك من ميل وثخانة الرسوبيات.

إن تكتونية سورية وهي الواقعة على الطرف الشمالي الغربي من الصفيحة العربية، متأثرة كلياً بهذه الحركات، وبخاصة في منطقة غور الانهدام غرباً، وفي منطقة البسيط ووهدة ما بين النهرين شمالاً، كما أنها متأثرة على نطاق القطر بعامة بمقدار تجاوب الركيزة البلورية، وهي القشرة العليا من الصفيحة ومن ثم غطاؤها الرسوبي مع هذه الحركات. هذا التأثر الذي يبدو بشكل نهوضات أو تَقَبُّبات ركيزية في بعض الأماكن كنهوض الرطبة مثلاً. وتقابلها منخفضات وأخاديد مصدعة أحياناً، كما في المنطقة التدمرية ويعلوها غطاء رسوبي متموج، هو جزء من المسطح العربي المتموج، وقد كشفت الدراسات الجيوفيزيائية ـــ الثقلية والمغناطيسية ـــ عن بنية الركيزة العميقة، كما مكّن المسح الجيولوجي لكامل القطر من وضع الخريطة التكتونية

التفصيلية، كما في الشكل وشرحه، وكما يبدو في مخطط أعماق الركيزة.



— بنية المنطقة الغربية وغور الانهدام المتأثرة بالحركات الانزياحية والشدّية.

— بنية المنطقة الشمالية المتأثرة بالالتواءات الألبية.

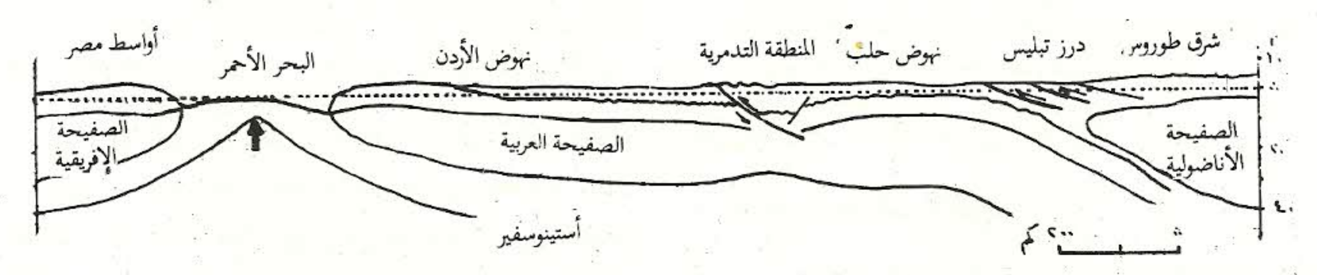
بنية المسطح العربي السوري المتموج

مناطق النهوض: وهي من الجنوب إلى الشمال:

— **نهوض الأردن**: تقبب كبير غير متناظر، جانبه الشرقي ضعيف الميل بعكس الغربي، المشكل لهورست الأردن والمحدد بانحدارات عمودية. إن قسماً بسيطاً من هذا النهوض يبرز في الجزء الجنوبي الغربي من القطر العربي السوري، في منطقة فيق وما يجاورها.

— **نهوض الرطبة**: قبة كبيرة معظمها في العراق وسفوحها الشمالية الغربية ضمن منطقة الحماد السورية، تحدها من الشمال عدة فوالق باتجاه شرق — غرب، وتشكل السفوح الجنوبية والجنوبية الغربية، الطرف الشرقي من انخفاض جبل العرب، وهي ذات ميل خفيف ٣ — ٥°، وقد حُفر في سورية على السفوح الشمالية من هذا النهوض بئرا التنف والصواب، وتبين فيهما أن سقف الحقب الأول على أعماق تتراوح بين ٣٠٠ و ١٠٠٠م، أما سقف الركيزة فيتجاوز الـ ٤٠٠٠م. وقد تم التقبب في الحقب الثالث.

— **نهوض خليصية أو الروضة أو مسطح دير الزور المعرّى**: يقع ثلثه الغربي في سورية وقد حُفر فيه بئرا تويمان ومرقدة، وتبين أن رسوبيات الباليوزيك ثخينة جداً والركيزة على



مقطع طولي من البحر الأحمر حتى جبهة الأغطية الزاحفة في تبليس حركة الصفائح في المشرق العربي

عمق ٥٠٠٠م، ويُقدَّر أن النهوض قد حصل خلال الترياسي والجوراسي لقلة أو انعدام رسوبيات هذين الدورين.

— **نهوض حلب أو نهوض الكتلة السورية الشمالية الغربية**: هو نهوض ذو شكل مقوَّس، يقع بكامله في الأراضي

ونستعرض بإيجاز البنية التكتونية السورية والتي هي وفق ما يلي:

— بنية المسطح العربي السوري المتموج بركيزته البلورية وغطائه الرسوبي.

شرح مصطلحات الخريطة التكتونية

أولاً ــ منطقة الالتواءات الألبية :

١ ــ منطقة طوروس ــ زغروس الهامشية الشمالية .

ثانياً ــ منطقة الانخفاض المتكافئ (منطقة الثنيات الأولية) :

٢ ــ الجزء الشمالي الغربي لحفرة ما بين النهرين .

ثالثاً ــ القسم العربي من المسطح الإفريقي :

٣ ــ النتوء القاعدي ما قبل الكامبرياني : المجن العربي النوبي .

رابعاً ــ الجزء الساكن من المسطح مع قاعدة تعود إلى الدور ما قبل الكامبرياني وغطاء رسوبي خفيف :

٤ ــ مناطق نهوضات مقوسة . ٥ ــ مناطق من الغطاء الميزوزويكي والسينوزويكي ذي الميل الخفيف (منحدر الرطبة ذو النهوض المقوس) . ٦ ــ مناطق ذات نهوض نسبي ونشاط بركاني شديد (وهدة جبل العرب) .

المخطط التكتوني لسورية والبلاد المجاورة
(إعداد بونيكاروف ــ رئيس خبراء العقد ٩٤٤ عام ١٩٦٤)

خامساً ــ الجزء المتموج من المسطح مع التواءات خطية من النوع الكتلي موجودة في الغطاء الرسوبي :

القاعدة ذات أعماق مختلفة ومن الممكن أن تعود إلى أعماق مختلفة .

٧ ــ مناطق نهوض ثابتة نسبياً . ٨ ــ مناطق أثلام أو أخاديد داخل المسطح ذات غطاء رسوبي انتابته تخلعات شديدة وهي متمثلة في البنية الحالية للسلسلة التدمرية . ٩ ــ القسم الهامشي من المسطح وقد ظهر بسبب الالتواءات الألبية ويكثر فيه وجود الصخور الخضراء وقاعدته تعود إلى البروتيروزويك الأعلى .

١٠ ــ مناطق الوهدات النيوجينية والرباعية . ١١ ــ منطقة تخلعات كتلية قببية متصلة باستطالة شمالية من مجموعة فوالق الانهدام الإفريقي العربي .

١٢ ــ مناطق مغطاة بالبازلت . ١٣ ــ منخفضات باليوسينية ورباعية كبيرة .

١٤ ــ مناطق نهوض حاجزية وشبه حاجزية .

رموز بنيوية :

١٥ ــ فوالق وصدوع

آ ــ واسعة المدى وعميقة وتظهر على السطح . ب ــ عميقة استدل عليها بالدراسات الجيوفيزيائية وغيرها .

١٦ ــ حدود الوهدات الكبيرة والأحواض . ١٧ ــ الأشكال المفترضة لكتل ناهضة نسبياً وقد استنتجت بواسطة الدراسات الجيوفيزيائية . ١٨ ــ حدود التراكب . ١٩ ــ الخفسات (غرابن) .

السورية ، وقد بين بئر خناصر المحفور فيه أن ثخانة الغطاء الرسوبي نحو ٤٠٠٠م ، معظمها من صخور حطامية تعود للحقب الأول ، ويحد هذا النهوض من الغرب فوالق غور الانهدام وتتكسر حروفه باتجاه خفسة الغاب وحفرة النهر الأسود (قره صو) ، كما تتكسر الحواف الشرقية بتأثير فوالق الفرات وجرابلس . أما من الناحية الجنوبية فيتصل هذا النهوض بالمنخفض التدمري بمجموعة من أشكال اللي والسفوالق .

ــ **نهوض ماردين أو نهوض ديار بكر** : يقع بكامله خارج حدود القطر العربي السوري وله أهمية كبرى في جيولوجية سورية ، فهو يشكل الطرف الشمالي للسطيحة العربية وما وراءه (منطقة الحراشف والتراكيب الألبية) .

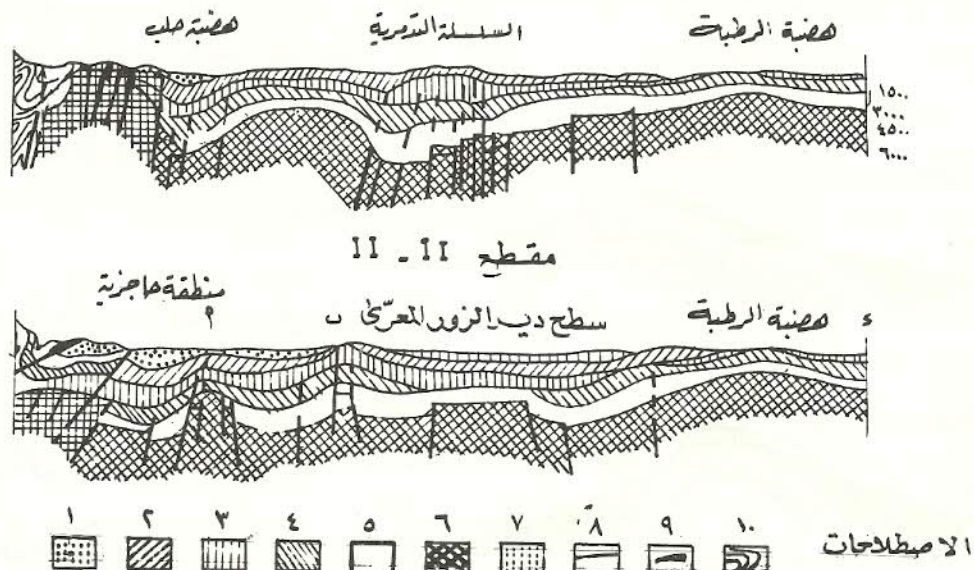
مناطق الوهدات الركيزية

ــ **وهدة جبل العرب** : وهي وهدة نسبية بين نهوضين ، تميزت بنشاط بركاني شديد نيوجيني ورباعي ، بحيث ملئت ببازلت تقدر ثخانته بنحو ١٥٠٠م وارتفعت فيها مخاريط بركانية ، ويرجح علاقة النشاط البركاني بتشكل غور الانهدامي .

ــ **الوهدة التدمرية** : من أهم المناطق التكتونية في سورية ، والفرضيات متعددة بشأنها : قوس ألبي متقدم (كربروكرنكل) ، أو أنها لاكوجين ، أو أخدود في الركيزة ، أو

مخطط الأعماق الركيزة في الجزء الشمالي من المصطبة العربية مع مقطعين يبينان

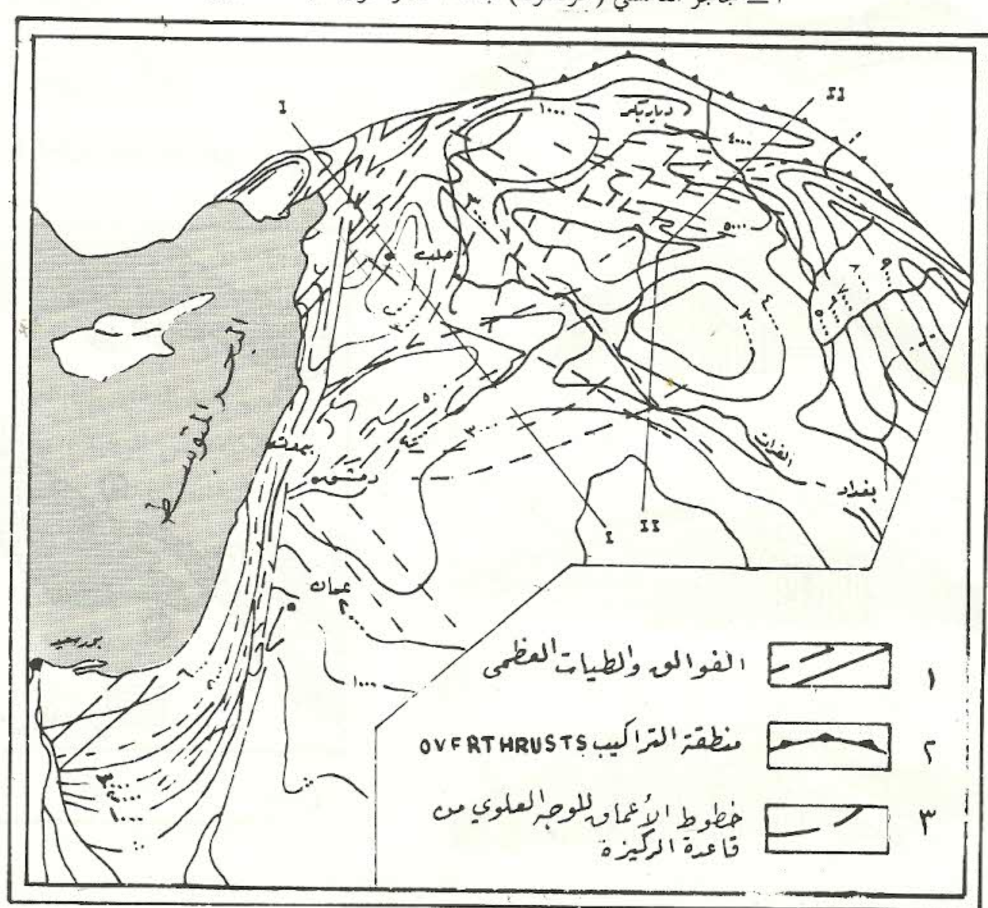
بنية الغطاء الرسوبي



الاصطلاحات ١ ٢ ٣ ٤ ٥ ٦ ٧ ٨ ٩ ١٠

١ ــ النيوجين ٢ ــ الباليوجين ٣ ــ الكريتاسي ٤ ــ الجوراسي الترياسي ٥ ــ الباليوزويك والصخور المتحولة في القاعدة ٦ ــ ما قبل الكامبري
٧ ــ ما قبل الكامبري الأعلى ٨ ــ فوالق ٩ ــ الصخور الأوفيوليتية (الخضراء)

آ ــ حاجز القامشلي (كراتشوك) ب ــ حاجز طوال العبا ــ سنجار



أنها انحراف لغور الانهدام . وأخيراً فرضية بأنها منطقة تصدع في الصفيحة العربية وبدء انغراز .

والبنية الركيزية أخدود متطاول، ينفصل عن كل من مرتفع حلب ومرتفع الرطبة، بمجموعة من الفوالق العميقة، كما تتابع فيه هذه الفوالق، مشكلة عقبات متدرجة، وقد بينت الدراسات الجيوفيزيائية أن ثخانة الغطاء الرسوبي تصل إلى ٨٠٠٠م وقد تأثر بالحركات المولدة للجبال، بدءاً من النيوجين، فتشكلت السلاسل التدمرية التي يمكن تقسيمها كالتالي :

• **السلسلة التدمرية الشمالية** : وتتكون من محدبات عريضة ، أهمها الشومرية والبلعاس والبشري ، وجميعها ذات قمم مسطحة وميول ضعيفة ١٠ ــ ٢٠°، تظهر في بعضها حركة طي ثانية ذات محور مخالف للأول ، وقبابها مقطوعة أحياناً بفوالق ذات رميات ضعيفة (نحو ١٠٠م) وحدّها الجنوبي فالق الجهار .

١ جبل البصيري ٥٠٠ م

٢ جبل البطم ٥٠٠ م

٣ جبل النصراني ٥٠٠ م

٤ جبل الرماح ٥٠٠ م

٥ جبل النقنقية ٥٠٠ م

٦ جبل الطبق ٥٠٠ م

ثالثي

ماستريخي

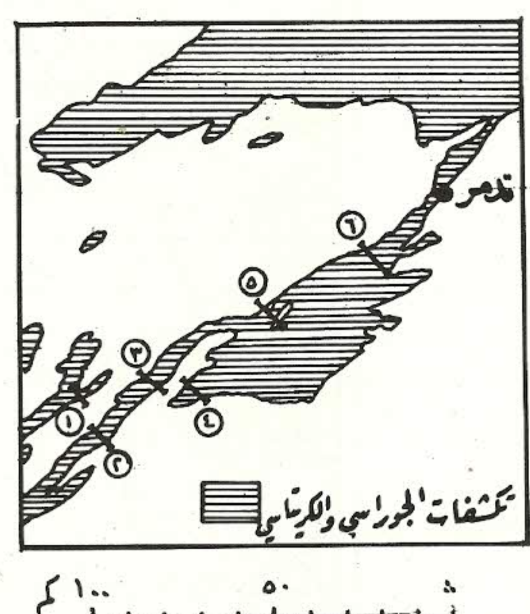
كونياس - كمباني

توروني

سينوماني

أبسي - ألبي

ما قبل الكريتاسي - ترياسي



أنواع الطيات في السلاسل التدمرية (عن بونيكاروف ١٩٦٦)

• **السلسلة الوسطى أو الدمشقية**: موازية تقريباً لسلاسل لبنان الشرقية ويفصلها عنها منخفض نيوجيني هو منخفض يبرود، وهذه السلسلة مضاعفة غربية ومؤلفة من جبل قاسيون ودير عطية وأبو رباح، وشرقية تتألف من جبل القريتين وشريفة ويفصل بين السلسلتين فالق قاسيون.

• **السلسلة التدمرية الجنوبية**: وتتكون من محدبات متطاولة متتابعة سلمياً، تتميز بعدم تناظر واضح، فسفوحها الجنوبية الشرقية شديدة الانحدار ومعقدة بأجنحة لي عديدة، وهي مقطوعة بفوالق كبيرة الرميات (١٠٠٠م أحياناً)، وطول المحدبات بين ٥ ــ ١٠ كم. وقد يصل إلى ٢٥ كم، أما العرض فبين ٣ ــ ٥ كم. وهي تتألف من صخور كريتاسية ويتكشف الجوراسي والترياسي الملحي في نوى عدد منها كالنقنقية والهَيَّان والأبتر. والمقاطع تبين نماذج من تعقد الطيّ في السلاسل التدمرية ومرجعه إلى تأثير الصخور الملحية اللّدنة في نوى هذه الطيات، وإلى وجود أكثر من مرحلة طيّ وأهمها اثنتان: الأولى خلال النيوجين، والثانية في نهايته.

ــ **الوهدة الفراتية**: تعد من أوسع الوهاد، التي تشكلت في أواخر الباليوجين بسبب نشاط الحركات التكتونية، وتصل ثخانة النيوجين فيها إلى أكثر من ١٠٠٠م. وقد دلّت آبار الاستكشاف على أن رسوبيات الجوراسي وقسماً من الترياسي غير موجودة في بعض المناطق، كما أن قسمها الشرقي يقوم فوق عتبة. يُعزى تشكل هذه الوهدة إلى ارتفاع عتبة حلب وإلى التصدع في سفوح النهوضات المجاورة.

وقد أشارت بعض المظاهر الجيولوجية السطحية إلى وجود فالق كبير باتجاه شمال غرب ــ جنوب شرق. اتخذ نهر الفرات مجراه وفقاً لاتجاهه، كما أشارت الدراسات الجيوفيزيائية إلى أن المنطقة الصدعية الفراتية معقدة التركيب، والفوالق فيها مستمرة في الأعماق حتى الركيزة، كما أن تقاطع المنطقة التدمرية مع فالق الفرات قد أدى إلى تشكل غور ضيق.

غور الانهدام

الغـور هو مجموعـة من الخفسات «غرابـن Grabens» الممتدة من خليج العقبة جنوباً، حتى الالتقاء مع السلاسل الالتوائية شمالاً، وهو في منطقة التباعد والانزياح ما بين الصفيحة العربية المتحركة إلى الشمـال ــ شمال شرق وصفيحـة شرق المتوسط الواقعة غربها، هذا الانزياح المقدر بين الأردن وفلسطين بمسافة ١٠٦ كم؛ أي أن كتلة الأردن هي الآن أبعد عن الموقع الذي كانت تشغله قبل انفتاح البحر الأحمر. وتشكل الغور، بمسافة ١٠٦كم نحو الشمال، ولكن الدراسات الجيولوجية الجارية في سورية ولبنان وإن كانت تشير إلى مثل هذه الحركة الانزلاقية، إلا أنه يعتقد أنها أقل مدىً بكثير؛ فهي لا تتجاوز في لبنان ٢٠ كم، وهي في سورية على نطاق بضعة كيلومترات. ويبدو أن للطيّ الانضغاطي في السلاسل التدمرية، دوراً في تخامد هذه الحركة. ويشكل الغور في جنوب سورية أخفض بقعة قارية، فمستوى سطح ماء البحر الميت على ــ ٣٩٢م، وتتشكل حوله ثخانات كبيرة من الصخور النيوجينية الرباعية، تصل حتى ٢٠٠٠م، مما يدل على أن رميات الفوالق المحددة له كبيرة جداً. إن الفالق الغربي المسمى في لبنان «فالق اليَّمونة» هو الأكثر أهمية لاستمراره على طول الغور في فلسطين ولبنان وسورية. وهو يتضاعف في لبنان وسورية بفوالق أقل أهمية، منها فالق سرغايا.

والغور في القطر العربي السوري، هو إمتداد لغور البقاع وتفصله عنه عتبة حمص البازلتية، ويبدأ بخفسة صغيرة هي «البقيعة» على الحدود السورية ــ اللبنانية والتي يخترقها فالق اليمونة، متابعاً سيره باتجاه الشمال حتى بلدة مصياف، حيث يتضاعف بفالق آخر لا يتعدى بعده عنه ٢ ــ ٣ كم، ويسيران متوازيين ما يقرب من مسافة ٢٥ كم حتى العشارنة، حيث يتباعدان محددين النهاية الجنوبية لخفسة الغاب. وتتفرع عن هذين الفالقين مجموعات عديدة من الفوالق الثانوية وأشكال اللّيّ المختلفة، إلى أن يغيبا تدريجياً في رسوبيات الباليوسين البحرية، قرب بحيرة العمق. إن الغاب هو أهم خفسات الغور في سورية ولكنه ليس الوحيد، يبلغ طوله نحو ٨٠ كم وعرضه ١٥ كم وتبلغ ثخانة التوضعات النيوجينية فيه ٦٠٠م، وتصل رمية الفالق الغربي بين جبال اللاذقية والغاب إلى ١٢٠٠م، أما رمية الفالق الشرقي فهي نحو ٦٠٠م. ويتفرع عن الغاب شمالاً منخفض الروج، الّذي يفصله عن مجرى العاصي الجبل الوسطاني، وهو متصل بحوض أعزاز وعفرين النيوجيني، الممتد إلى منطقة إدلب، بينما ينفصل عن غور الغاب بجرف محدد بفالق إلى الشرق من سهل العشارنة، وهو وهدة باليوسينية رباعية على سفح الكتلة الشرقية وتبدو وكأنها غور ما بين جبال مصياف جنوباً وجبل الزاوية شمالاً. وهي تشكل أهم أقسام النجد

(الهورست) الشرقي للغور، وتبدو جبال مصياف مائلة بشدة نحو الشرق ٤٥°، ثم يضعف ميلها حتى يصل إلى أقل من ٥° لتمر بطبقات شبه أفقية تابعة لنهوض حلب. أما جبل الزاوية فطرفه الغربي شديد الميل وتظهر فيه بوضوح رميات الفوالق ٢٠٠ ــ ٣٠٠م، أما طرفه الشرقي فخفيف الميل ٥° وتلي الزاوية مجموعة جبال دويلة والعلا وباريشا، فجبل سمعان وأخيراً في أقصى الشمال جبل الكرد. يتمثل النجد (الهورست) الغربي بجبال اللاذقية وهي تكاد تتصل بجبال مصياف جنوباً.

وتبدو بشكل كتلي كثير الفوالق والصدوع، وتتألف خاصةً من صخور جوراسية وكريتاسية، وقد ظهرت بدءاً من المايستريخي وهي بشكل نجد (هورست) غير متناظر. سفوحها الغربية عريضة وضعيفة الميل من ٥ ــ ١٠°، بينما السفوح الشرقية، المواجهة للغاب ذات ميل أكبر ٣٠° ومقسمة بالفوالق والصدوع إلى شكل سلّمي متدرج، ويستند على السفح الشمالي الغربي من السلاسل الساحلية، منخفض النهر الكبير الشمالي، وهو وهدة نيوجينية، مليئة برسوبات مارنية وغضارية رملية، ذات ميل حاد نحو الشمال الغربي بتأثير فالق اللاذقية ــ كلّس، الذي يفصلها عن كتلة البسيط. يلي كتلة البسيط منخفض نيوجيني آخر، هو حوض مجرى العاصي الأدنى، حيث ينحرف إليه هذا النهر ليصب في خليج السويدية. هذان المنخفضان النيوجينيان هما جزء من مجموعة انهدامية ذات اتجاه شمالي شرقي ــ جنوبي غربي تلتقي مع الغور الانهدامي في بحيرة العمق وتستمر في البحر، أما الغور فيستمر باتجاه الشمال في حوض النهر الأسود حتى مشارف طوروس قرب مدينة مرعش.

المناطق المتأثرة بالالتواءات الألبية

المعقد الأوفيوليتي في البسيط: هذا المعقد مترافق بمجموعة رسوبية بركانية ــ كما سلف ــ أقدمها عمراً، يعود إلى الترياسي وهو مندس في رسوبيات المايستريخي، وبالتالي فقد ارتبطت تكتونية المعقد بمشكلة عمره وتم وضع ثلاث فرضيات:

ــ **فرضية دوبرتريه ١٩٥٣**: تقول إن الصخور الخضراء نتيجة اندفاع ماغما تحت بحرية، مخلفة في طريق صعودها، رسوبيات الترياسي الأقدم منها ومستقرة على طبقات المايستريخي السفلي، وبالتالي فهي ناشئة في المكان Autochtone خلال المايستريخي.

ــ **فرضية كازمين ١٩٦٥**: وهي تقول إن صخور البيريدوتيت ناشئة عن ماغما، اندفعت خلال الترياسي ــ جوراسي أدنى وتبعتها مرحلة رسوبية بركانية، تعود إلى الترياسي الأعلى جوراسي وبالتالي فالمجموعة ناشئة في المكان، ولكن حدثت خلال المايستريخي مرحلة أوروجينية عمودية، صحبتها فوالق معكوسة، أثرت على المعقد الأوفيوليتي بنوع من الانزياح.

ــ **فرضية بارو Parrot**: التشكيلات البركانية الرسوبية غاطسة تحت الأوفيوليت، وبعض الصخور الاستحالية كالرخام ناتجة عنها، والحراشف الاستحالية ذات أشكال متعرجة لا يمكن أن تكون ناتجة إلا عن الجرف الوافد من الشمال، إذ إن مطالع الأوفيوليت متفرقة وقليلة الثخانة جنوباً، قرب اللاذقية وهي مندسة بين طيات المايستريخي، فعمرها يعود إليه. هذه الفرضية هي السائدة حالياً ومتوافقة مع تكتونية المعقدات الأوفيوليتية، المرافقة للالتواءات الألبية في مناطق أخرى من قبرص حتى عُمان. إن اندفاع وانجراف هذه الصخور سابقة للمرحلة الأوروجينية العظمى، التي تشكلت فيها السلاسل الألبية ومتوافقة مع تضييق وانغلاق بحر تيتس.

المنطقة الهامشية الجنوبية للالتواءات الألبية، وهدة ما بين النهرين: تأخذ هذه المنطقة اتجاهاً جنوبياً شرقياً ــ شمالياً غربياً على امتداد أكثر من ١٥٠٠كم، بدءاً من خليج عُمان وانتهاءً بمنطقة ماردين وتقسم إلى قسمين:

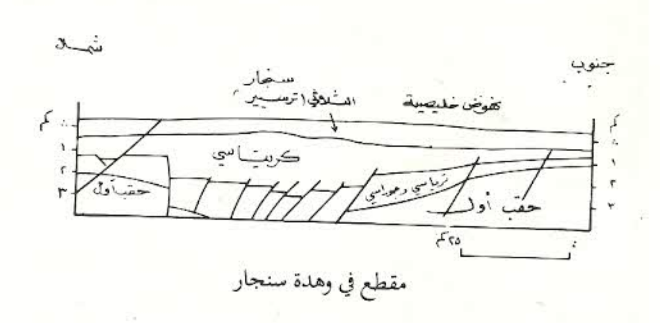
ــ قسم مقعر محيطي (جيوسنكليناني) أو داخلي
ــ قسم ركيزي (بلاتفورمي) أو خارجي.

إن قسماً صغيراً من أقصى شمال غرب هذه المنطقة، يقع ضمن حدود القطر العربي السوري، وهو يشمل وهدة عين ديوار، التي تتبع القسم الداخلي والمتميزة بتزايد ثخانة طبقاتها في الاتجاه الشمالي الشرقي، فرسوبيات الباليوسين تتزايد من ٨٥٠ إلى ٢٠٠٠م، أما ما يعود إلى القسم الخارجي، فهو منخفض سنجار، الذي يبدو بشكل انفراج غير متناظر بعرض حوالي ٦٠كم وباتجاه شرق غرب، ولا تتجاوز رسوبيات الباليوسين فيه ٥٠٠م.

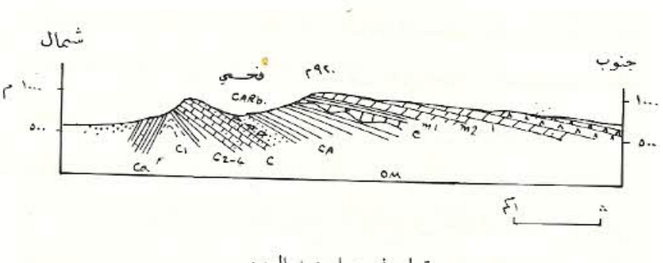
إن الحدّ بين منخفض سنجار ووهدة عين ديوار يتجلى بسلسلة محدبات تعرف باسم حاجز أو جعدة القامشلي ــ قره

تشوك. وبنية هذه المحدبات غير متناظرة وسفوحها الجنوبية حادة ومحاورها مائلة. وتكثر المحدبات أو الطيات في المنطقة وهي متطاولة ومصدعة في القسم الداخلي. وبيضوية أو دائرية وذات ميول ضعيفة في القسم الخارجي.

وقد اصطلح على أن يكون الحد الجنوبي لهذه الوهدة هو حاجز طوال العبا ـ جبل عبد العزيز ـ سنجار. إن الطرف الغربي من جبل سنجار يقع ضمن الأراضي السورية وأحدث تشكيلة متأثرة بالطي فيه، هي الفارس الأعلى (ميوسين أعلى). وتبين الدراسات الجيوفيزيائية، أن هذا الجبل المتطاول يقع فوق منطقة غورية، كثيرة الفوالق، تعرضت لانضغاط في الباليوسين الأعلى، وكان من نتيجته حركة عكسية، حدثت على الفوالق العادية السابقة الوجود، دفعت الكتل القديمة إلى الارتفاع بشكل جذر، كما في المقطعين. ويحتمل أن تكون هذه الحركة هي المؤثرة



مقطع في وهدة سنجار



مقطع في جبل عبد العزيز

على فالق جبل عبد العزيز، فجعلت كتلاً صغيرة من الترياسي تصل مندسة بين صخور المايستريخي. إن ميل الطبقات في هذا السفح الشمالي المصدوع قريب من العمودي، بينما يكون السفح الجنوبي هادئاً، وتقدر ثخانة الغطاء الرسوبي للقسم الواقع في سورية من هذه الوهدة بنحو ٨٠٠٠م.

وباختصار فإن التاريخ التكتوني لسورية يمكن تقسيمه إلى مرحلتين:

المرحلة الأولى: طويلة تمتد من الكامبري حتى الباليوجين وفي طورها الأول (من الكامبري إلى الديفوني الأسفل)، يسيطر ترسيب ذو منشأ قاري، مما يدل على عدم استقرار بنيوي. وفي طور ثان (نهاية الديفوني ـ السينوماني توروني) تسود رسوبات كربوناتية لمياه قليلة العمق في بحار فوق قارية، أما الطور الأخير فيبدأ في المايستريخي ويستمر في الباليوجين وعلى تخوم السطيحة تتشكل حفر هامة، يتوضع فيها كلس حواري.

وتتميز المنطقة التدمرية خلال هذه المرحلة، بأنها تبقى كمنطقة خفس دائم وحركات تكتونية في وهدة واضحة داخل الركيزة، تحوي بعض طيات متزامنة مع الترسيب.

المرحلة الثانية: هي مرحلة النشاط الأوروجيني (تكوين الجبال) (على قسم من الأوليغوسين والنيوجين والرباعي) وتم فيها:

ـ تشقق خفسة خليج السويس خلال الميوسين الأسفل وبدء تأثير الدفع على فالق الغور السوري.

ـ الصدم القاري على طول درزتبليس في تركيا خلال الميوسين الأسفل والأوسط.

ـ الإطماء الصندوقي (الميوسين الأوسط والأعلى) في المنطقة التدمرية خلال الغوص.

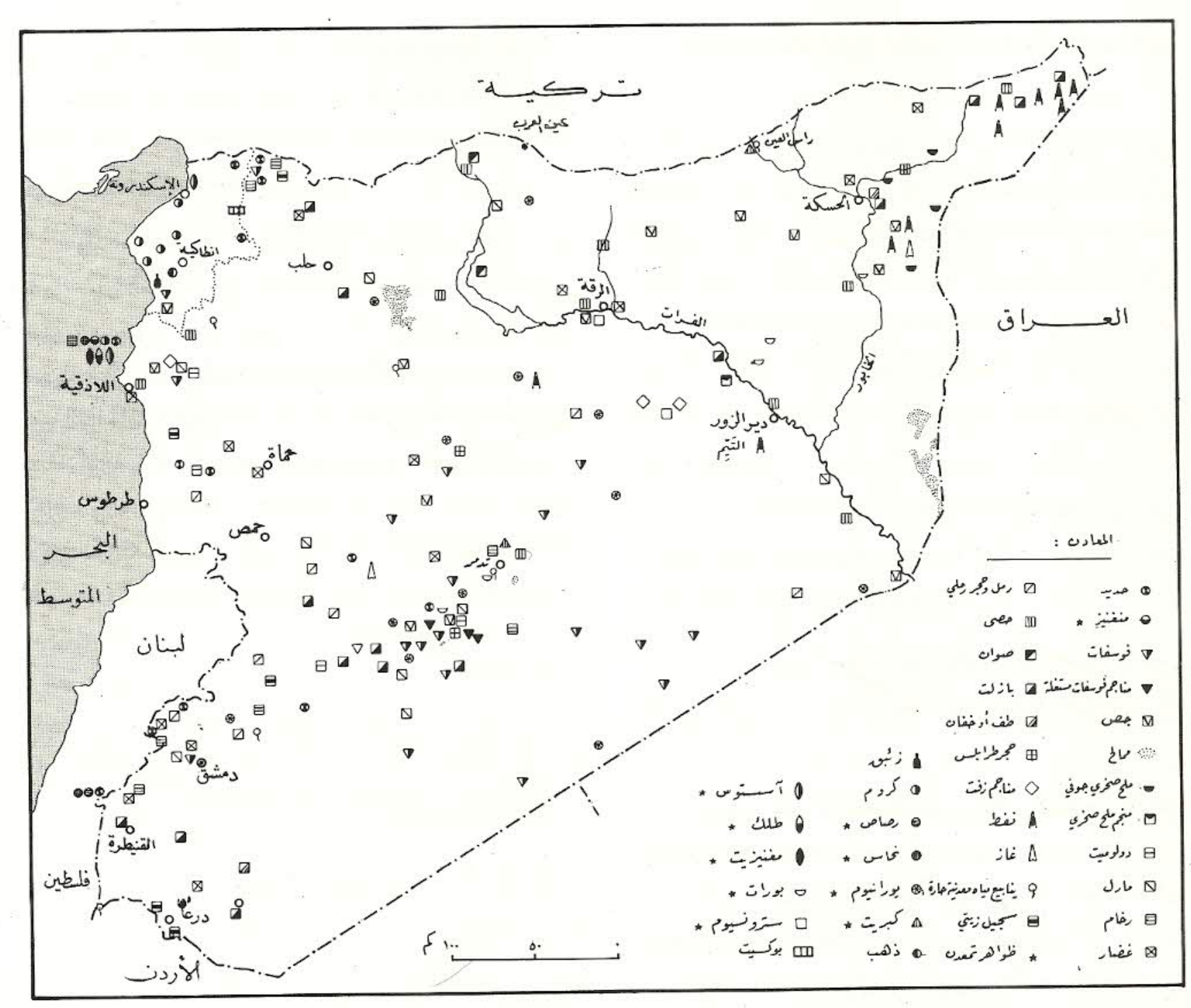
ـ نهوض شديد في الشمال وتراكب على طول درزتبليس (ميوسين أعلى ـ باليوسين).

ـ إعادة نشاط البنيات الخطية بشكل أعمق في الصفيحة العربية (باليوسين أعلى ـ بليستوسين).

ورافق هذه الحركات نشاط بركاني وضع كميات كبيرة من البازلت المتوّج ببعض مخاريط بركانية رباعية.

موارد الثروات الباطنية

يُقصد بهذه الموارد، المواد ذات الأصل المعدني أو العضوي، الموجودة على سطح الأرض أو في باطنها، والتي يمكن استخراجها واستخلاص عناصرها النافعة بريعية تتناسب مع رأس المال المنفق على ذلك، وبما يحقق فوائد للاقتصاد القومي.



توزع المعادن الجغرافي في سورية

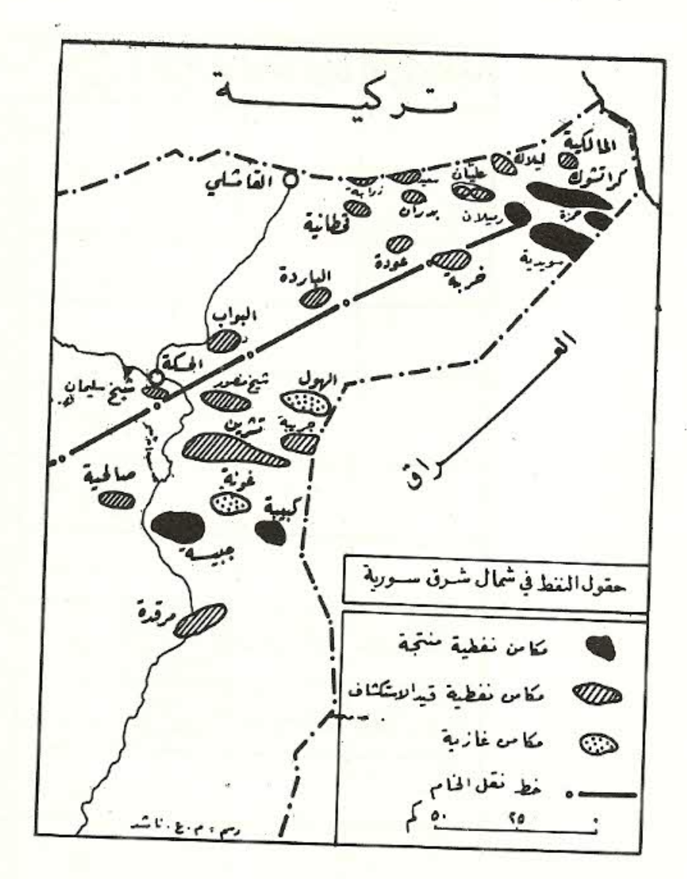
إن جميع هذه الموارد في سورية، تعد ملكاً للدولة وقد صدر المرسوم التشريعي رقم ١٣٣ تاريخ ٢٢/١٢/١٩٦٤، الذي ينص على منع منح أية امتيازات لاستثمار الموارد المعدنية والنفطية، إلا لجهات حكومية. وتصنف هذه الموارد وفقاً لدورها الرئيسي في العمليات الإنتاجية كالتالي :

١ ـــ مجموعة موارد الطاقة.
٢ ـــ مجموعة الفلزات الحديدية.
٣ ـــ مجموعة الفلزات غير الحديدية النموذجية.
٣ ـــ مجموعة الفلزات والخامات اللا معدنية.

مجموعة موارد الطاقة

الفحوم الهيدروجينية

ـــ **النفط** : اخترق الحفر أول طبقة منتجة للنفط بكميات اقتصادية في حقل قره تشوك في شهر تشرين الأول عام ١٩٥٦، وفي عام ١٩٥٩ كشف عن حقل السويدية. وقد تدفقت أول شحنة نفطية سورية من حقل السويدية إلى مرفأ طرطوس بعد أن تم إنشاء خط أنابيب تل عدس ـــ طرطوس في ١ أيار عام ١٩٦٨، وقد بلغ الإنتاج في ذلك العام نحواً من مليون طن. ويبلغ الإنتاج السنوي خلال النصف الأول للثمانينيات حوالي ٨٫٥ مليون طن نتج من عدة مكامن في شمال شرق سورية والجبسة وأهم طبقة منتجة في الحقول الأولى هي تشكيلة الماسيف على عمق ١٨٥٠م، أما في الجبسة فالطبقة الرئيسة المنتجة على عمق ٦٠٠م. وتوجد إلى جانب هاتين التشكيلتين تشكيلات منتجة أخرى ما بين ٦٠٠ و ٣٥٠٠م ويتم الإنتاج حالياً من نحو ٦٠٠ بئر منتجة.



حقول النفط في شمال شرق سورية

إن النفط السوري ثقيل نسبياً ونسبة الكبريت فيه نحو ٤٪ ونسبة الفيول ٦٠٪ وزناً ، لذلك يُصدَّر قسم كبير من الإنتاج ويستورد بالمقابل نفط خفيف للتكرير في مصفاتي حمص وبانياس . وقد تم في عام ١٩٨٣ اكتشاف النفط في منطقة جديدة ، من قبل إحدى شركات عقود الخدمة وتقع هذه المنطقة جنوب مجرى نهر الفرات وشمال السلسله التدمرية ، وقد تدفق النفط من بئرين محفورتين في محدب التيِّم من تشكيلة الديبانة (ميوسين أسفل) على عمق ٧٩٥م ، ومن تشكيلة الجوديا (كريتاسي) على عمق ٢٩٢٤م وهو نفط خفيف ، وقد شكلت شركة مشتركة لاستثماره تحت إسم شركة نفط الفرات . وتجدر الإشارة إلى أن سورية هي أول بلد في العالم الثالث ، يرفع شعار استثمار النفط وطنياً ويطبقه عملياً ، استكشافاً وإنتاجاً ونقلاً وتصفية ، ففي نطاق الإمكانات المادية تعمل ١٩ حفَّارة نفطية وفرقتان جيوفيزيائيتان للمسح الاهتزازي ومركز معاملة رقمية وفرق للقياسات الجيوفيزيائية البئرية .

ــ **الغاز الطبيعي** : ينقسم الغاز في الحقول السورية إلى نوعين :

• **الغاز المرافق** : ويكون في الشروط الطبقية محلولاً في النفط ويقدر احتياطيه بنحو ٧٢ مليار م³ منها نحو ١٣ مليار م³ قابلة للاستثمار . وقد تم إنشاء معمل للغاز في حقول الحسكة لمعالجة ٦٦٠٠٠٠٠ م³ نظامي من الغاز المرافق ، ينتج عنها نحو ٦٧٠٠٠طن من الغاز السائل والبنزين والمذيبات سنوياً و ١٧٠ مليون م³ من الغاز للحرق في العنفات .

• **الغاز الحر** : وهو غاز تقتصر عليه بعض المكامن دون وجود نفط سائل ، كما في حقلي الفونة والهول أو غاز القبعات الغازية ، التي تعلو المكامن النفطية . ويبين الشكل حقول الغاز الحر واحتياطيها القابل للاستثمار . وتجري حالياً الدراسات لاستثمار هذا الغاز وتنقيته ونقل الغاز النقي بواسطة الأنابيب بطول نحو ٢٨٠ كم إلى معمل الأمونيا ــ يوريا في حمص .

ــ **الصخور الإسفلتية** : وتنتج إما عن تأكسد الخامات النفطية في مكامنها ، أو عن تسرب المواد الطيَّارة والخفيفة منها ، وهذه الصخور تستثمر لاستعمالها في رصف الطرقات أو لتصنيعها . وفي سورية مكمنان رئيسيان مستثمران هما :

• **مكمن كفرية** : على بعد ٣٥كم إلى الشمال الشرقي من مدينة اللاذقية ويوجد الإسفلت في الحجر الكلسي الإسفلتي ، العائد للسينوماني والتوروني بنسبة ٩ ــ ١٦٪ وتبلغ ثخانة الطبقة نحو ٤٠م والاحتياطي عشرات الملايين من الأطنان .

• **مكمن البشري** : على بعد ٧٠كم إلى الغرب من مدينة دير الزور وهو مكمن رملي ، يعود إلى الإيوسين الأعلى وأسفل الميوسين ، تصل نسبة الإسفلت في الرمل إلى ١٥٪ ويقدر الاحتياطي بنحو ٥٠ مليون طن .

ــ **الصخور الكرابيتومينية أو صخور السجيل الزيتي** **Oil Shale** : هي صخور تحوي مواداً عضوية لم تصل إلى مرحلة النضج لتكوّن النفط ، ويمكن أن تعطي نفطاً ومواداً عضوية أخرى ، ولكن تحتاج إلى تجهيزات معقدة ذات كلفة عالية حالياً . ويمكن حرق هذه الصخور في مراجل خاصة لتوليد طاقة كهربائية . كشف عن هذه الصخور في مناطق عديدة من سورية ، أهمها منطقة وادي اليرموك في محافظة درعا ، حيث تبين أن ثخانة التوضعات تصل إلى ١٥٠م وهي صخور كلسية دولوميتية ، منها ما يعود إلى الكريتاسي العلوي وهو غني بالمواد العضوية ، إذ تصل نسبتها في الصخر إلى ١٤ ــ ٢٣٫٥٪

الحقب	العصر	اسم الطبقة	نوع الصخور	السماكة الوسطية	عمق الخزان	نوعية الخزان	محتويات الطبقة
الثالث	بليوسين	بختياري		حتى ١٠٠٠ م			
	ميوسين	فارس العلوي					
		فارس السفلي		٨٠ - ٥٠٠ م			
		جريبة		٥٠ - ٧٥ م			
	اوليغوسين و ايوسين	عديات		١٠٠ - ٣٥٠ م			
		جدالا		١٠٠ - ٢٠٠ م			
	باليوسين	كرماف		١٠٠ م			
الوسط	كريتاسي	شيرانيش		١٠٠ - ٢٠٠ م	١٦٥٠	مسامي مشقوق	نفطية - غازية
		مليشيف		١٥٠ - ٤٠٠ م	١٨٥٠	مسامي مشقوق	نفطية - غازية
		كاشوكا		٥٠ - ٣٥٠ م			
	جوراسي	سرجلو		١٢٠ - ٥٣٠ م			
		آلان - موسى آدايا		١٠٠ - ٣٠٠ م			
	ترياسي	بطمة		١٥٠ - ٣٠٠ م	٢٨٠٠	مشقوق	نفطية
		كوراشينا انهيدريت		٥٠ - ٢٠٠ م			
		كوراشينا دولوميت		٣٠٠ - ٣٥٠ م	٣١٠٠	مشقوق	نفطية - غازية

دولوميت — حجر كلسي — انهيدريت — حجر رملي — حجر كلسي غضاري — غضار أو شيل

مقطع جيولوجي عام في أقصى شمال شرق سورية والطبقات المنتجة للنفط

بمحتوى زيت فيها ٧ر١١٪ وكبريت ٣ر١ ــ ٥ر٢٪. ومنها ما يعود إلى الإيوسين وهي أفقر. وقد أجريت تجارب حرق مباشر عليها، بينت أنها تنتج طاقة حرارية تتراوح بين ٧٠٠ و ١٨٠٠ كيلو كالوري / كغ.

المواد المشعّة: أهمها خامات اليورانيوم والتوريوم، ولم تبلغ أعمال التنقيب والدراسات في القطر العربي السوري مرحلة تحديد إمكاناته بدقة، وقد تبين وجود خام اليورانيوم في الفوسفات بنسب تتراوح بين ٣٠ ــ ١٣٦ غ/طن. وقد أُجريت تجارب على نطاق مخبري لاستخلاصه ولم تكن إيجابية، إذ لم تبلغ نسبة المستخلص أكثر من ٢٧٪ من المحتوى،

الحقب	العمر	اسم الطبقة	نوع الصخر	السماكة الوسطية	عمق الخزان	نوعية الخزان	محتويات الطبقة
الثالث	بليوسين + ميوسين	الغارس العلوي		٣٠٠–٤٠٠ م			
		الغارس السفلي		٥٠٠–٦٠٠ م			
		الانتقالية		٦٠X٨٠	٥٠٠	سامي	غازية
		جريبي		٥٠ م	٦٠٠	سامي	نفطية غازية
		دبانة		١٠٠–١٥٠ م			
	اوليغوسين و ايوسين	شيلو		١٢٠–٢٠٠ م	٧٥٠	سامي شقوقي	نفطية غازية
		جدالة		٢٦٠–٤٠٠ م	٩٥٠	شقوقي	نفطية
الأوسط	كريتاسي	شيرانيش		٢٠٠–١٣٠٠ م	١٢٠٠	شقوقي	نفطية
		سخنة		١٠٠–٢٠٠ م			
		غونه		٩٠–١٥٠ م			
		كاشوكا		٣٠٠–٤٥٠ م			
	جوراسي - ترياسي	سرجلو		٣٥٠–٥٠٠ م			
		الآن + موسى ادايا		٢٠٠–٢٥٠ م			
		بوطمه		٢٠٠–٣٠٠ م	٢٤٠٠	شقوقي	نفطية
		كوراشينا انهدريت		١٥٠–٢٠٠ م			
		كوراشينا دولوميت		٣٠٠ م	٣٩٠٠	شقوقي	غازية

حجر كلسي — انهيدريت — شيرت
دولوميت — ملح — بيريت
غضار — حجر رملي

مقطع جيولوجي عام في حقل الجبسة والطبقات المنتجة للنفط

وأجريت تجارب أخرى للاستخلاص من حمض الفوسفور المصنع من الفوسفات نفسها فأعطت نتائج أفضل، بلغت ٧٦٪ من كمية اليورانيوم الموجودة في الحمض.

ولوحظ في بعض الشقوق الفوسفاتية، تمعدنات ثانوية بشكل قشور رقيقة من الكارنوتيت والأوتونيت، كما لوحظ أن بعض الينابيع الكبريتية الحارة ـــ حمامات الشيخ عيسى ـــ، تتميز بإمكانات إشعاعية وبالتالي تبرز أهمية دراسة بعض عروق المياه المعدنية الحارة (الهيدروترمالية) في التنقيب عن هذه المواد.

احتياطي الغاز الحر

الحقل	الطبقة الخازنة	العمر الجيولوجي	الاحتياطي الكامل للاستثمار مليار م٣
الجبيسة	كوراشينا دولوميت	ترياسي	١٩٫٧٦
الجبيسة	جربية — قبعة غازية	ميوسين	٦٫٠٠
كبيبة	شلو — قبعة غازية	إيوسين — أوليغوسين	١٢٫٥٠
الغونة	شلو	إيوسين — أوليغوسين	١٩٫٢٠
الهول	شلو	إيوسين — أوليغوسين	١٣٫٦٠
صالحية	شلو	إيوسين — أوليغوسين	٥٫٠٠
مرقدة	شلو	إيوسين — أوليغوسين	٥٫٠٠
سويدية	كوراشينا دولوميت	ترياسي	٣٫٧٠
رميلان	كوراشينا دولوميت	ترياسي	٠٫٩٢
المجموع			٨٥٫٦٨

مجموعة الفلزات الحديدية

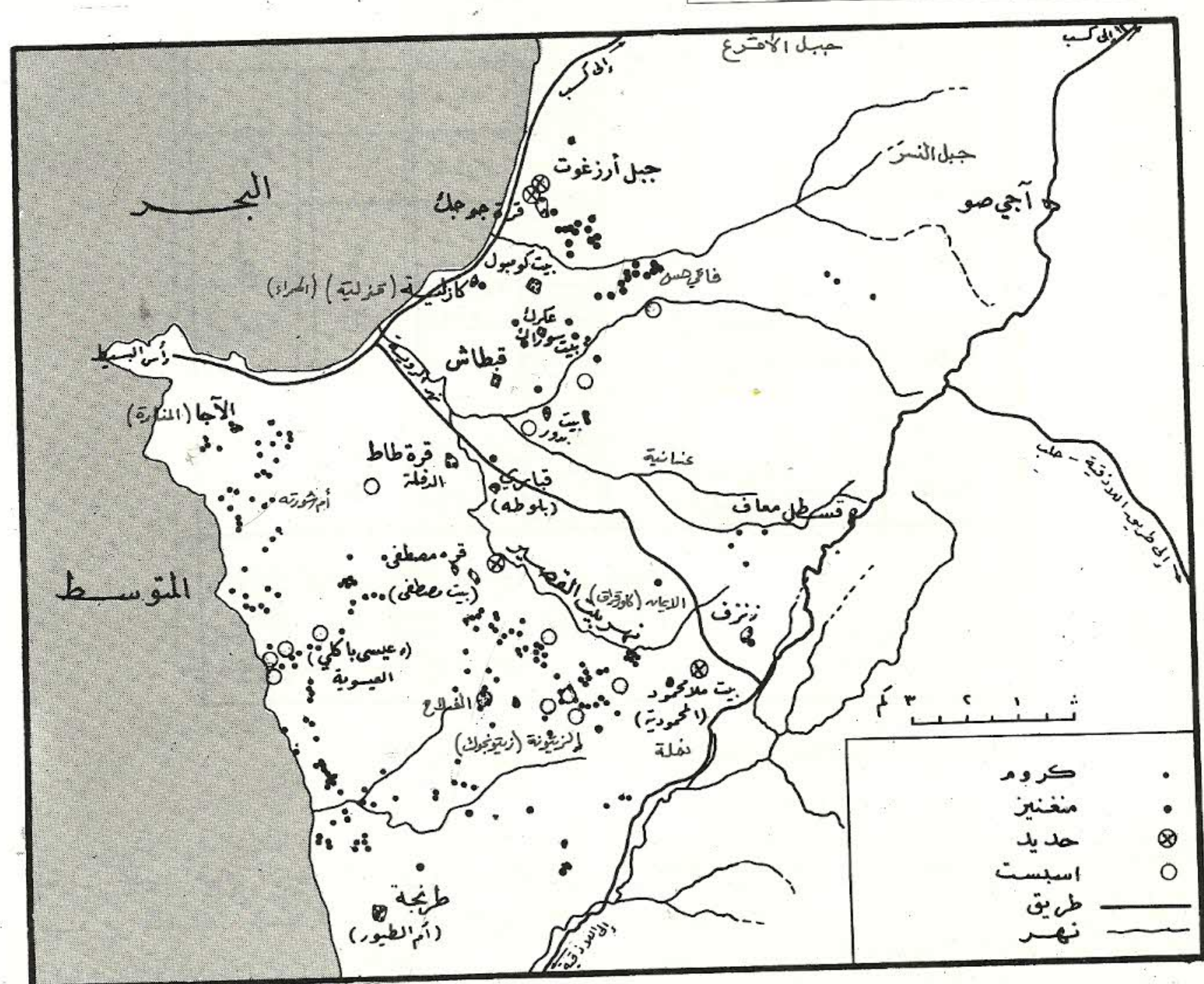
تضم هذه المجموعة :

آ — خامات استخلاص الحديد وصناعة الصلب وقد ثبت وجود فلزات حديدية رسوبية عديدة في سورية ، يرتبط استثمارها بدراسات إقامة مجمع للحديد والصلب .

ب — خامات معادن السبائك والخلائط الحديدية كالكروم والمنغنيز .

آ — خامات الحديد الرسوبية : وتوجد في ثلاث مناطق رئيسة وهي :

— الزبداني والمناطق المجاورة لها على بعد ٤٠ كم شمال غرب مدينة دمشق .



التوزع الجغرافي لمظاهر التمعدن في منطقة البسيط

ــ عفرين وراجو على بعد ٨٠ كم شمال غرب مدينة حلب .
ــ القدموس على بعد ٧٠ كم غرب مدينة حماة .

كما تنتشر بعض الظواهر الحديدية في مناطق أخرى كالسلاسل التدمرية وبيت جن والبسيط وصافيتا ، وجميع هذه الخامات رسوبية ، تعود إلى الكريتاسي الأسفل وخاصة أعلى الطابق الآبسي ، وأهم فلزاتها الغوتيت والهيدروغوتيت والشاموزيت والسيديريت ، أما أنواع توضعها فهي :

ــ **النوع البويضي (الأووليتي)** : ويتميز بوجود حبات بيضوية أبعادها بين ٢ر٠ ــ ٨ر٠م م ، تتألف نواتها من ذرة كوارتز أوروتيل ، وتحيط بها أغلفة متناوبة من الغوتيت أو الهيدروغوتيت ، وأحياناً الشاموزيت ، مما يعطيها لوناً أخضر ، وهذا النوع من أجود خامات الحديد الرسوبية ويوجد في خامات منطقة الزبداني .

ــ **النوع البازلائي (البيزولتي)** : حبيبات مماثلة شكلاً للأولى ولكنها أكبر حجماً ، أبعادها ٢ ــ ١٠م م ، وتحوي أحياناً في جوفها بلورات صغيرة من الروتيل والإيلمينيت ، لذلك تكون نسبة التيتان فيها مرتفعة ، ويوجد هذا النوع بشكل تركزات في بقية الأنواع ، وقد لوحظ ذلك في منطقة نبع بردى ونبع كيري في عفرين وبعض توضعات القدموس .

ــ **النوع الحطامي (كونغلوميرا حديدية)** : أبعاد الأجزاء الحطامية من ٤٠م م ، محاطة بملاط غضاري حديدي ، ويلاحظ فيها ارتفاع نسبة الهيماتيت والهيدروهيماتيت ، وتنتشر خاصة في منطقة راجو وبعض مناطق القدموس .

ــ **الحجر الرملي الحديدي** : ويتألف من حبيبات من الكوارتز ، يجمع بينها ملاط حديدي غضاري ، وينتشر هذا النوع بكثرة في القدموس وفي مستوى الحديد السفلي في الروضة بالزبداني ، ونسبة الحديد فيه فقيرة لا تتجاوز ١٨ ــ ٢٥٪ .

• **مكمن الزبداني** : تنتشر خامات الحديد في أماكن عديدة ، أهمها جديدة يابوس والروضة وشمال بلودان ، وقد بينت أعمال التنقيب التفصيلي في الجديدة والروضة ، أن تشكيلة الفلز تتألف من مستوى سفلي ثخانته ٢ ــ ١٠م ، منها ٥ر١ ــ ٣ر٦م من الأووليت موزعة على ٣ ــ ٨ طبقات ، تتألف من الغضار والمارن والكالسيت ، ويفصل بين المستويين كلس ومارن بثخانة ٥ر٠ ــ ٨ر١٠م . ويعد خام حديد الزبداني من الخامات الفقيرة ولكن نسب التيتان والرصاص والكبريت فيها منخفضة وهذه ميزات إيجابية وكذلك ارتفاع نسبة الكلس . وأجريت تجارب تركيز على هذا الخام ، تبين بنتيجتها إمكانية رفع نسبة الحديد حتى ٤ر٣٩٪ في جديدة يابوس بمردود وزني للفلز المركز ، مقداره ١ر٧٥٪ ، كما أن كميات الاحتياطي مناسبة للتفكير بإقامة صناعة على أساسها .

• **مكمن عفرين** : تنتشر خامات الحديد في مواقع راجو وعلمدار وكيري وتعود إلى الآبسي الأسفل ، وهي خامات حطامية ورملية ، يبلغ متوسط ثخانة الطبقات نحو ٨م .

• **مكمن القدموس** : يقع إلى الغرب والجنوب الغربي من بلدة القدموس وصخوره غضارية رملية حديدية في الفنتيهق والميدان وبيدر الرمل ونعنو . وقد تبين أنها مماثلة لخامات منطقة عفرين تركيباً ، ولكنها أفقر ، إذ إن نسبة الحديد لا تزيد على ٢٥٪ في أفضلها ونسبة الرمل فيها عالية ، إذ إنها تتراوح بين ٤ر١٠ و ٣ر٦٢٪ .

ب ــ خامات السبائك والخلائط الحديدية

ــ **فلزات الكروم** : ترافق صخور المعقد الأوفيوليتي في شمال غرب سورية (منطقة البسيط) ، وهي من نوع الكروميت CR_2O_3 المختلط ببعض الأكاسيد الحديدية وبعض الفلزات غير المفيدة كالأنتيغونيت والكلوريت . وهي مرتبطة بصخور الدونيت والبيريدوتيت الركامي وتبدو بشكل كتلي وبنية حبيبية ، أبعاد حبيباتها بين ١ر٠ ــ ٣م م ، أو مبعثرة مرقشة كجلد الفهد وهي تتجمع بشكل عدسات منبسطة أبعادها بين ١ ــ ٥٠م ، وتتراوح ثخانتها بين ١٠ ــ ١٥٠سم ، وقد جرت أعمال التنقيب عن هذه الفلزات في الفترة ١٩٥٩ ــ ١٩٦٠ وأحصي نحو ١٩٢ موقعاً ، يظهر فيها الكروم على السطح وتبين أن العدسات الكبيرة قد استثمرت سابقاً وقدر الاحتياطي بـ ١٥ ــ ٢٠ ألف طن . وقد تبين بالتحاليل الكيميائية أن نسبة الكروميت CR_2O_3 تتراوح بين ٢ر٤ و ٦٥ر٥٣٪ ونسبة FeO (الأكسيد الحديدي) بين ٤ر٤ و ٩٠ر٢٣٪ ، وأن بالإمكان إغناء الخام بالتركيز وبالتالي صلاحيته للاستثمار إذا وجدت عدسات كبيرة . وما تزال أعمال التنقيب جارية في المنطقة ، أسوةً بما يماثلها في البلدان المجاورة

الحاوية على الكروميت بكميات اقتصادية ومكامن قابلة للاستثمار .

ــ **خام المنغنيز** : يرتبط هذا الخام بالطبقات الرسوبية البركانية ، المرافقة للمعقد الأوفيوليتي في منطقة البسيط ، وهو ينتشر بشكل أسرَّة عدسية في صخور الراديولاريت ، وقد أُحصي ٥٢ موقعاً أهمها في جبل أرزعوت وقرب بيت بدور ، وفلزه من نوع البيرولوزيت ، يخالطه أحياناً المانغانيت والبسيلوميلان ، وتتراوح نسبة المنغنيز فيه بين ٢٥ ــ ٣٠٪ ولكن السيليس فيه مرتفع وبذلك يعتبر خاماً متدني الجودة ، كما أن العدسات قليلة الثخانة بين عدة سنتمترات و ٥ر١م ، وقد قدر الاحتياطي بنحو ٢٥٠٠٠طن ولكنها مبعثرة وموزعة على مساحة واسعة ، بحيث لا يمكن استثمارها بمردود اقتصادي .

مجموعة الفلزات غير الحديدية النموذجية

آ ــ الفلزات غير الحديدية

ــ **خام النحاس** : وجدت آثار هذا الخام في منطقة البسيط بشكل كباريت نحاسية وفحمات (ملاكيت وآزوريت) وكالكوبيريت وذلك ضمن صخور الدياباز والبيلولافا ، قرب قرية السازاك وما تزال أعمال التنقيب جارية في البحث عنه .

ــ **خامات الرصاص والزنك** : عُرف كبريت الرصاص (غالين) بشكل عروق قرب جباتا الزيت وريمة في جبل الحرمون ، وتختلط أحياناً مع البلند (كبريت التوتياء) . وقد لوحظت عروق هيدروترمالية في مناطق الحرمون والشيخ منصور ، ينتشر فيها الغالين مع السيروزيت وبلورات كالسيت ودولوميت بنسبة رصاص نحو ٢٠٠٠ جزء في المليون ، ونسبة زنك ١٠٠٠ جزء في المليون .

ب ــ فلزات المعادن الخفيفة

ــ **خامات الألمنيوم** : ثبتت حديثاً إمكانية استخلاص الألمنيوم من غير « البوكسيت » فلزه التقليدي . وعلى هذا الأساس بدأت في سورية منذ العام ١٩٧٩ أعمال تحري في مناطق فساد البازلت وتفسخه عن توضعات غنية بالألومين (AL_2O_3) ، وتبين وجود مثل هذه التوضعات في منطقة جبل الحلو ، حيث تصل هذه النسبة إلى ٢٥٪ ونسبة التيتان (TiO_2) نحو ٥٪ .

ــ **خامات التيتانيوم** : تنتشر على الساحل السوري وبخاصة بين بانياس وطرطوس بشكل رمال سوداء ، ناتجة عن حت المناطق البازلتية . لوحظ في ركازاتها الثقيلة إيلمينيت وروتيل ، وتبين أن نسبة التيتان تصل أحياناً إلى ٥ر٢٦٪ من الركازة وبالتالي يمكن في حالة العثور على جيوب رملية ثخينة ، استخلاص هذه المادة .

ــ **خامات المغنيزيوم** : تدل الدراسات الحديثة على إمكانية استخلاص أكسيد المغنيزيوم MgO من صخور البيريدوتيت ، التي لا تزيد نسبة الكلس فيها على ١٪ وتكون نسبة أكسيد المغنيزيوم أكثر من ٣٠٪ . وقد تبين وجود هذا النوع من البيريدوتيت في منطقة البسيط ، حيث تصل نسبة أكسيد المغنيزيوم إلى ٣٥ ــ ٤٢٪ ونسبة أكسيد الكالسيوم ٢ر٠ ــ ٧ر٠٪ وبالتالي إمكانية استخلاص أكسيد المغنيزيوم لصناعة الآجر المقاوم للحرارة منه .

مجموعة الخامات والفلزات اللامعدنية

آ ــ خامات المخصبات

ــ **الفوسفات** : تنتشر خامات الفوسفات في السلاسل التدمرية وفي منطقة الحماد جنوب هذه السلاسل . وعرفت مواقع محدودة لها في الجبال الساحلية ، كما عرفت طبقات فقيرة منها في جبل الكرد . وتعود هذه الخامات من ناحية العمر الجيولوجي إلى الكريتاسي الأعلى (مايستريخي ــ كامباني) وإلى الباليوجين وهي مترافقة مع مجموعتي الصوان المعروفتين في رسوبيات هذه الطوابق ، وهي جزء من منطقة فوسفاتية شاسعة ، تمتد إلى الأردن (الرصيفة والحسا) وإلى العراق (عكاشات) وإلى المملكة العربية السعودية (الثنيات والريف) ، ولكن أجودها نوعاً المستثمر في سورية والأردن .

وأهم المكامن السورية مكمن غدير الحمل في السلاسل التدمرية الجنوبية وهو مستثمر بقسميه **الشرقية** وخنيفيس ، ثم وادي الرخيم في التدمرية الشمالية ، جنوب شرق البلعاس ، فالسيجري والحباري في الحماد . ويتكون خام الفوسفات من عناصر حبيبية دقيقة مستديرة ، أو بيضوية يجمع فيما بينها ملاط كلسي وأحياناً سيليسي أو فوسفاتي وأجودها ما كان ملاطه كلسياً أو فوسفاتياً وضعيف التماسك ، وبينت التحاليل الكيميائية أن نسبة أكسيد الفوسفور (P_2O_3) في الفوسفات

السوري تتراوح بين ٢٠ — ٣٦٪ ونسبة الكلس بين ٤٠ — ٥٠٪ والفلور (F) ٢ر٦ — ٤٪ .

• **مكامن غدير الحمل**: أهمها الشرقية أو الصوانية وخنيفيس، ثم مكامن صغيرة أقل أهمية لا يزيد احتياطي الفوسفات في كل منها على ١٠ ملايين طن وهي الأبتر والمركزية والحمل، في الشرقية تكون الطبقات شبه أفقية وتتألف من تعاقب رمل فوسفاتي (P_2O_5) ٢٦ — ٣٢٪ وصخر فوسفاتي كتلي (P_2O_5) ١٨ — ٢٤٪ . ويستثمر هذا الخام في منطقتين هما آ و ب، حيث أنشئ في كل منهما معمل تركيز بطاقة ٠ر٥ مليون طن في آ، و ٠ر٣ مليون طن في ب، ويجري العمل في إنشاء معمل تجفيف بطاقة ١ر٢ مليون طن ووحدة تركيز أخرى بطاقة ٤٥٠طن/ساعة .

إن خامات مكمن خنيفيس أكثر جودة، فنسبة خامس أكسيد الفوسفور (P_2O_5) بين ٢٨ر٥ — ٣٤٪، ولقد بدئ استثمارها في العام ١٩٧١ وتمتد الخامات إلى مسافة ٧ كم وهي مؤلفة من طبقتين، ثخانة كل منها نحو ٤م، وميل كل منهما ١٠ — ٢٠°. وفي خنيفيس معمل تركيز يعمل منذ العام ١٩٧٢ بطاقة ٣٠٠ ألف طن سنوياً، ويجري العمل في معمل آخر بطاقة ٤٥٠طن/ساعة ومجفف بطاقة ٦٠٠ ألف طن سنوياً .

• **مكمن وادي الرخيم**: وفيه ثلاث طبقات فوسفاتية قاسية، ثخانتها في السيجري ٥ر٥م وهو غير مستثمر .

• **السيجري والحباري**: ويحويان طبقات فوسفاتية قاسية، ثخانتها في السيجري ٥ر٥م وفي القسم الشمالي من الحباري ١٠ر٥م نسبة P_2O_5 فيه ١٩ر٨٣٪ وهي غير مستثمرة .

• **عين الليلون**: وفيها طبقات فوسفاتية غير منتظمة، تحوي عقداً وغلوكونيت وتميل ٨ — ١٦° نحو الغرب؛ فتتغطى بشكل سريع بصخور كلسية، مما لا يشجع على الاستثمار .

ب — خامات الصناعات الكيميائية

— **الملح NaCL**: يستثمر الملح في سورية من منجم التبني ومن الملاحات :

• **منجم التبني**: على مسافة ٤٥ كم إلى الشمال الغربي من مدينة دير الزور، العمق الوسطي للطبقة الملحية ١٤٢م وثخانتها بين ٣ر٦م — ٦ر٢م، يتم الاستثمار فيه بواسطة التفجير ومتوسط الملح فيه ٩٨ر٤٪ ولكن تتخلله بعض عروق غضارية وآنهيدريتية، لذلك فهو يحتاج إلى تنقية، يقدر الاحتياطي في المنجم ١٢ر٥ مليون طن وفي منطقة الهرموشية المقابلة لها على الضفة اليسرى للنهر بأكثر من ٨٠ مليون طن ولكن في طبقتين، متوسط عمقيهما ١٧٥م و ٢٢٠م. إن ملح هذه المنطقة هو جزء من توضعات ملحية واسعة تعود لتشكيلة

أهم مكامن الفوسفات السورية ومواصفاتها واحتياطتها

المكمن		الموقع	العمر الجيولوجي	الاحتياطي (بملايين الأطنان)				نسبة P2O5٪		سماكة الطبقة المنتجة م	معدل الاستثمار السنوي ألف طن
				مرتبة B	مرتبة C	مأمول	المجموع	قبل التركيز	بعد التركيز		
غدير الحمل	الشرقية	٤٥ كم جنوب تدمر	كامباني (كريتاسي أعلى)	٦٠	٣٥٠	—	٤١٠	٢٤ر٥٠	٢٩ر٥٠	١١ — ٢٠	١٠٠٠
	خنيفيس	٤٥ كم جنوب غرب تدمر ١٥ كم عن الشرقية	كامباني (كريتاسي أعلى)	٢٥	١٤	—	٣٩	٢٨	٣٢ر٥٠	٧	٤٠٠
وادي الرخيم		جنوب شرق جبل البلعاس ٢ر٥ كم شمال T4	مايستريختي (كريتاسي أعلى)	٢٠ر٦	١٥٣ر٥٠	—	١٧٤ر١	٢٢—٢٤	غير مستثمر	ثلاث طبقات بسماكة متر لكل منها	غير مستثمر
السيجري والحباري		بادية الحماد	الإيوسين (حقب ثالثي)	—	—	٤٠٠	٤٠٠	٢٠	غير مستثمر	٥ر٥ — ١٠ر٥	غير مستثمر
عين الليلون		قرب الحفة ٣٥ كم شرق اللاذقية	مايستريختي (كريتاسي أعلى)	—	٦ر٥	—	٦ر٥	١٨ر٥	غير مستثمر	٢م	غير مستثمر
المجموع				١٠٥ر٦	٥٢٤	٤٠٠	١٠٢٩ر٦				١٤٠٠

الفارسي الأدنى (التوروني) وسماكة الملح ضعيفة نسبياً وقد كشفت آبار النفط عن وجود طبقة أكثر عمقاً ٦٠٠ — ١٠٠٠م تعود إلى تشكيلة الديبانة (ميوسين أسفل)، تصل فيها ثخانة الملح العظمى إلى ٢٥٠م.

• **ملح الملاحات**

١ — ملاحة الجبول: تبعد ٤٠ كم جنوب شرق مدينة حلب، يتوضع الملح في قسمها الشمالي الشرقي، متوسط طاقتها الإنتاجية ١٠ آلاف طن سنوياً.

٢ — ملاحة البوارة: تبعد ١٢٥ كم شرق دير الزور على الحدود السورية — العراقية، منها في سورية ١٠ كم، أنتجت عام ١٩٨٣ نحو ٣١ ألف طن.

٣ — ملاحة الجبسة: تبعد ١٣٥ كم شمال شرق دير الزور، مساحتها ٤ كم٢ وإنتاجها حوالي ١٥٠٠ طن سنوياً.

٤ — ملاحة جيرود: على بعد ٦٥ كم شمال شرق دمشق، مساحتها ٤ كم٢ ملحها غير نقي. بلغ إنتاج الملح في سورية في العام ١٩٨٣ حوالي ٨٨ ألف طن، منها ٥١ ألف طن من منجم التبني و٣٧ ألفاً من الملاحات الأخرى.

— الكبريت: لا توجد مكامن مستثمرة للكبريت في سورية وإنما ينتج عن تكرير النفط حوالي ١٥٠٠٠طن سنوياً، كما توجد خامات قليلة الأهمية، هي:

• **الوحل الكبريتي في رأس العين**: (١٢٠ كم غرب القامشلي) يترسب كبريت غروي في قاع بركة قطرها ٧٠م، ناتجة عن عين تسمى عين الكبريت، ويجمع الغواصون منها سنوياً نحو ٧٠ طناً تستعمل في معالجة الأغنام.

• **مغارة الشجيري**: (١٨ كم شمال شرق تدمر) تظهر فيها آثار كبريت على الطبقات السطحية وتستثمر بطرق بدائية.

التنقيب عن الكبريت: إن بئري تلشمبة (تشرين) والدرُّو اخترقا طبقات ميوسينية فيها دلائل كبريت. لذلك تجري أعمال التنقيب في هذه المنطقة، حيث يوجد فيها مكمن نفطي كبير. وفي منطقة عبد السلام المجاورة لرأس العين.

ج — خامات وصخور البناء

— الرخام وأحجار الزينة: الرخام بالمعنى العلمي البتروغرافي هو الصخر الكلسي الاستحالي المتبلور، ولا وجود له إلا على نطاق ضيق في منطقة البسيط وغير قابل للاستثمار، أما الصخور الملونة التي يطلق عليها اسم الرخام في لغة المعماريين، فواسعة الانتشار ومنها صخور اندفاعية في منطقة البسيط كالأمفيبوليت ذي اللون الأخضر المائل إلى السواد، والغابرو الأخضر المزرق، ذي البلورات الكبيرة، التي تعطي انعكاساً ذهبياً، ثم الصخور الكلسية والدولوميتية، التي تتلون بفعل الشوائب كاللون الوردي في جبل الأربعين، والأسود في عفرين والبني الفاتح أو المائل للصفرة في الرحيبة وبرزة، والموشّح بالأخضر في كسب، والأبيض قرب تدمر، وقد تم في نهاية عام ١٩٨٣ إنشاء الشركة العامة لاستثمار الرخام وأحجار الزينة والجص بعد قيام معملين، أحدهما في اللاذقية والآخر في دمشق لقطع وصقل وتصنيع ألواح الرخام بطاقة ٧٠٠ألف م٢ لكل منهما وتم إنشاء معمل لتصنيع البلوك الجصي.

— الجص $CaSo_4,2H^2O$: توجد ترسبات جصية متكشفة على نطاق واسع في شرق وشمال شرق سورية وهي تعود إلى النيوجين وتكون كتلية قاسية في الرصافة والرقة، بحيث تستعمل كحجر بناء، وأوابد مدينة الرصافة بُنيت أعمدتها من هذا الجص، وفي منطقة طوال العبا والحسكة، توجد طبقتان من الجص الأولى بثخانة ٢٠ — ٤٠م في أسفل التوروني والثانية بثخانة ١٠م في أعلاه. إن احتياطي المنطقة الشمالية الشرقية من الجص، هو عملياً غير محدود ونسبة الكبريتات ٩٨٪ ونجده في:

• منطقة النهر الكبير الشمالي وعلى بعد ٣٠ كم شمال شرق اللاذقية (منطقة الزوبار). وتتكشف رسوبيات جصبية نيوجينية أيضاً، تتراوح ثخانتها بين ١٠ — ٢٥م، يقدر احتياطيها بـ ٣٧ مليون طن.

• منطقة جيرود شمال شرق دمشق، توجد كثبان رملية جصية تعود إلى الحقب الرابع وتتميز بسهولة الاستثمار ويقدر الاحتياطي فيها بنحو ١٦ مليون طن. ولم يكن يستثمر الجص سابقاً إلا لحاجة معامل الإسمنت السورية واللبنانية وهي في حدود ٥٠ ألف طن سنوياً، وقد أنشئ حديثاً في منطقة اللاذقية معمل لصناعة البلوك الجصّي، الذي يستعمل على نطاق واسع في صناعة البناء للقواطع الداخلية وهو بطاقة ٣٥٠ألف م٢ وينتظر بعد التآلف مع هذا المنتج في صناعة البناء، إنشاء معامل أخرى في دمشق وشمال شرقي سورية.

ـــ الغضار: رسوبيات وحقيات، تحوي ٥٠٪ على الأقل من السيليكات الألومينية وهي متعددة الأنواع البتروغرافية والمينرالوجية وأهمها :

• **الكاولينيت**: بيضاء ذات ملمس دهني، وهي مادة أساسية لصناعة الخزف والبورسلان .

• **المونموريونيت**: ومن أنواعه النبتونيت المستعمل كطين حفر .

• **الايليت**: وهو نوع قاسٍ . وتوجد هذه الأنواع مختلطة .

وفي سورية رسوبات تعود لأعمار جيولوجية مختلفة أهمها :

• غضار منطقة الزبداني (جديدة يابوس ـــ التكية ـــ الكفير) تغذي معمل بورسلان حماة .

• غضار منطقة تل حجار شمال حلب : ويستعمل على نطاق محدود كطين حفر بعد أن أنشئ معمل صغير لهذا الغرض في المنطقة، كما أن من أنواعه : البيلون الحلبي المستخدم كمادة قصر وتنظيف .

• غضار الرقة، لصناعة بعض أنواع الآجر .

وتجري دراسات لاستخدام الغضار في صناعة الآجر الناري وآجر البناء والقرميد والأدوات الصحية .

ـــ الرمال الكوارتزية: توجد هذه الرمال في مناطق عديدة كالسلاسل التدمرية والنبك والقريتين والزبداني والرصافة والرقة، وترتبط بأعمال مختلفة كالكريتاسي الأدنى والأوليغوسين والميوسين، ويفتش عن الرمال النقية لمصانع الزجاج والسيراميك، القائمة ولصناعة الآجر الكلسي الرملي المخطط لقيامها . ومن أجل صناعة الزجاج يجب أن تكون نسبة ثاني أكسيد السيليسيوم (SiO_2) ≦ ٩٨٪ وألا تزيد نسبة أكسيد الحديد (Fo_2O_3) على ٠٫٠٨٪ مع تجانس التركيب الحبيبي الذي يمكن الوصول إليه بالنخل . وأهم مناطق استثمار هذا الرمل **منطقة الرميلة** قرب القريتين، حيث تمتد تشكيلة رمال، تعود إلى الميوسين الأدنى بثخانة ١٥م في مساحة ١٫٢ كم٢ ويقدر الاحتياطي بـ ٥٠ مليون طن، وقد أنتج منها في العام ١٩٨٤ ما مقداره ٦٥٥ ألف طن، منها ٨٠ ألف طن لصناعة الزجاج . ويستثمر الرمل أيضاً قرب بلودان لمعمل زجاج دمشق وفي جبل أبو العطا، كما تدرس توضعات الميوسين في منطقة الرقة لهذا الغرض . وقد اختيرت منطقة النبك لإقامة صناعة الآجر السيليسي ـــ الكلسي، نظراً لصلاحية رمل غرب جبل الكودان ووجود الحجر الكلسي المناسب .

ـــ الطف البركاني والبازلت: الطف البركاني مجموعة حصى ورمال بركانية ذات فجوات كثيرة، تتميز بخفتها وقساوتها وتجانس تركيبها، وتوجد في سفوح بعض المخاريط والتلال البركانية وأهمها تل شيحان في جنوب سورية، حيث قدر الاحتياطي بـ ٣٨٫٨ مليون طن، وتبين صلاحيته لصناعة الصوف الطفي لأغراض العزل الحراري ولصب البلوك خفيف الوزن . وتستخدم الحجارة البازلتية القاسية لرصف الطرقات وأغراض البناء .

ـــ المواد الأولية لصناعة الإسمنت: تتوزع معامل الإسمنت حالياً، قرب دمشق وحلب وحمص واللاذقية وطرطوس وأكبرها معمل طرطوس المنشأ حديثاً، وهو بطاقة ٦٤٠٠ طن يومياً، ويبلغ مجمل طاقة المعامل نحو ستة ملايين طن / سنوياً .

إن تركيب خليطة المواد اللازمة لصناعة الإسمنت الأسود هي كالتالي : كلس (CaO) ٦٥٪، سيليس (SiO_2) ٢٥٪، ألومين (Al_2O_3) ١٠٪ ويكون السيليس والألومين بشكل سيليكات ألومينية، يحصل عليها من الغضار، وقد استخدم حديثاً البازلت المتفسخ، ويحصل على الكلس من الحجارة الكلسية النقية، إذ يجب ألا تزيد نسبة أكسيد المغنيزيوم (MgO) عن ٢٫٥٪، كما يجب أن تكون خالية تقريباً من الكبريتات والفوسفات، ويمكن استعمال المارن وهو مزيج طبيعي من الكلس والغضار لهذه الصناعة، شريطة خلوه من الشوائب . ويضاف إلى الخليطة نحو ٣٪ من الجص، وجميع هذه المواد متوافرة وكثيرة الانتشار في سورية . ويفتش عن الحجر الكلسي النقي لصناعة الكلس، كما تدرس الصخور الدولوميتية للحاجة إليها مستقبلاً في صناعة تعدين الحديد .

المياه الجوفية في سورية

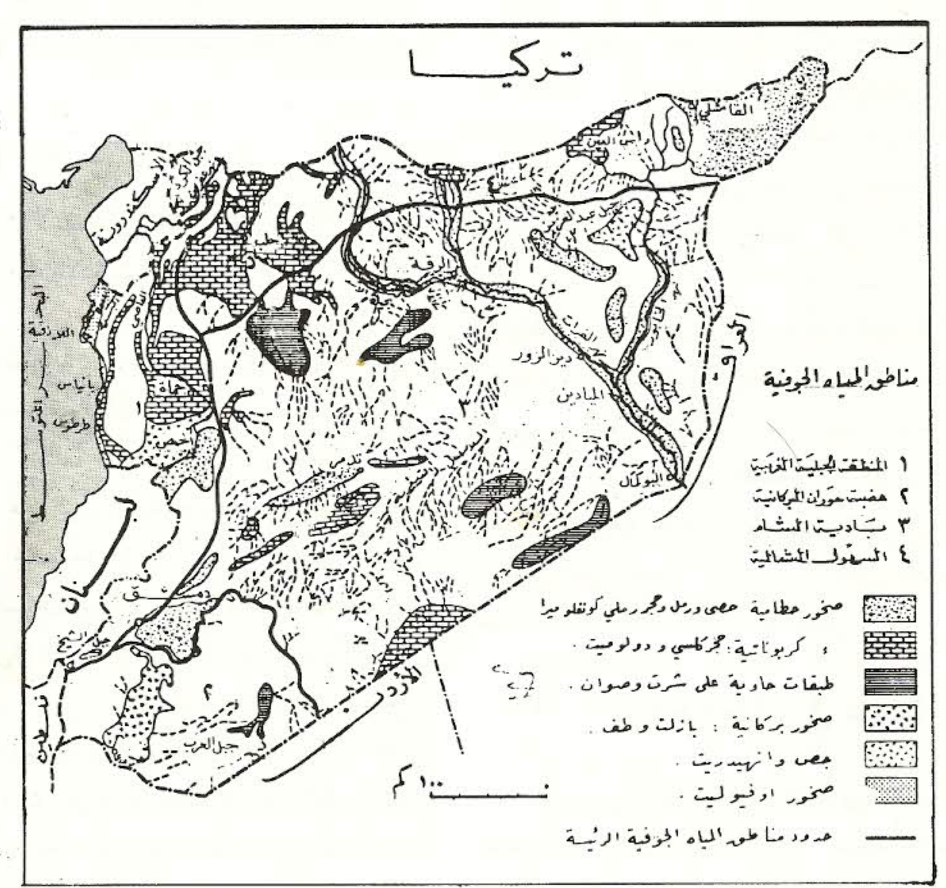
استثمرت المياه الجوفية في سورية منذ أقدم العصور، وتنتشر آثار الأقنية والفُجّارات بصورة خاصة في المناطق الوسطى والجنوبية، وقد ازداد الاهتمام بدراساتها ووسائل استثمارها في وقتنا الحاضر، حرصاً من الدولة على تأمين مياه الشرب والاستعمالات المنزلية، وتعميمها على جميع الأرياف والقرى،

إضافة إلى تزايد الحاجة إليها لمستلزمات الري والصناعة في المناطق التي تقل أو تنعدم فيها المياه السطحية .

وتستخدم حالياً إلى جانب الدراسات الجيولوجية والهيدرولوجية ، مختلف الطرائق الجيوفيزيائية وتنظم النماذج الهيدروكيميائية ، وتستخدم الحاسبات الإلكترونية في تحديد مسامية الصخور ومقدار نفاذتيها ــ أي وجود الفراغات والشقوق التي تسمح بخزن المياه ــ والارتباط فيما بينها بحيث تسمح بجريان هذه المياه ووصولها بكميات كافية إلى أقنية وآبار الاستثمار ، وبالتالي تحديد طبقات التخزين ودرجة ناقلية المياه فيها ، وبالتالي إنتاجية البئر ، ثم نسب الأملاح المنحلة في هذه المياه .

إن الخرائط المرافقة تجمل بعض نتائج هذه الدراسات وفق ما يسمح به المقياس الموضوعة به . ويبين الشكل زمر الصخور والمواصفات الليتولوجية لطبقات التخزين المائية ومناطق المياه الجوفية ، ويبين الشكل درجات ناقلية هذه المياه وبالتالي درجات إنتاجية الآبار وفق تسلسل نفوذية هذه المناطق . أما الشكل فيبين خطوط تساوي الملوحة بأجزاء المليون من المواد الصلبة المنحلة (PPM) ما بين ٥٠٠ و ٥٠٠٠٠ ؛ أي من ٠٫٥ غ حتى ٥ غ في الليتر ، علماً بأنها في المياه العذبة وبخاصة في المنطقة الغربية تنخفض حتى ١٥٠ ، أما في السبخات فترتفع إلى ما فوق PPM ٥٠٠٠٠ . وقد قسمت سورية وفق خواص المياه الجوفية إلى أربع مناطق نستعرض مميزاتها فيما يلي :

المنطقة الجبلية الغربية : معظم أراضي هذه المنطقة مشكل من صخور كربوناتية مشققة ينتشر فيها الحت الكارستي ، مما يسمح لمياه الأمطار الغزيرة (١٠٠٠ ــ ١٦٠٠مم / سنوياً) بالتسرب ومن ثم بتفجر بعض الينابيع على تماس الطبقات الكتيمة مثل عين الفيجة ونهر السن وبردى والعديد من الينابيع الصغيرة على طول الفوالق الرئيسة في عرنة والزبداني وينابيع غور (غرابن) الغاب مع بعض ينابيع حارة ، مبعث مياهها طبقات الغور العميقة كينابيع الحمة



المواصفات الليتولوجية لطبقات التخزين المائية ومناطق المياه الجوفية .

عن تقرير الأمم المتحدة رقم٩

والشيخ عيسى، أما المياه الجوفية التي تتصرف من السفوح الغربية، فتكون في القسم المركزي من السهل الساحلي، ومنها ما يتفجر بشكل ينابيع عذبة تحت بحرية بين طرطوس وبانياس.

تعود المستويات المائية إلى أعمار جيولوجية مختلفة، ففي الجوراسي يوجد مستويان، أحدهما بين الباجوسي النفوذ والبازلت البني الكتيم، كما في عرنة، والآخر بين الحجر الكلسي الإكسفوردي والمارن، كما في مجدل شمس، ويشكل رمل الآبسي وكلس الألبي المتشقق طبقات خازنة للمياه كما في الزبداني، أما في الجبال الساحلية وجبل الكرد؛ فالآبسي غضاري كتيم، مما يساعد على وجود خزان مائي فوقه، كما أن الصوان والطبقات الكلسية المرافقة له والمشققة في السينوني هي طبقات خازنة وكذلك البازلت واللحقيات الحديثة، أما صخور السربنتين في البسيط؛ فهي خزان فقير وينابيعها ضعيفة لا تتجاوز ٢ ــ ٣ل/ثا.

إن إنتاجية الآبار المحفورة في هذه المنطقة جيدة، ففي منطقة حماة أعطت الآبار المتغذية من السينوماني ــ توروني ٥٠ل/ثا ونوعية المياه عذبة ونسبة المواد الصلبة لا تتعدى ٥ر٠ غ/ل وهي من بيكاربونات الكالسيوم والمغنيزيوم، وقد لوحظ في منطقة حماة شوارد الصوديوم (Na)، الكلور (CL)، الكبريتات (SO_4) بتأثير الطبقات المارنية، الموجودة فوق الطبقة المائية، كما لوحظ أن بعض ينابيع الحد الغربي من الغاب تحوي (SO_4) بتأثير الجصية الموجودة بقربها، ويلاحظ في بعض آبار الساحل ومنطقة الحميدية، تسرب مياه البحر المالحة إلى الطبقة المائية الجوفية وبخاصة عند زيادة الضخ.

هضاب حوران وجبل العرب البركانية: إن الطبقات الواقعة تحت البازلت الرباعي والمليئة بالفواصل الناشئة عن تبرد الصبات وعن مجاري المسكوبات، إضافة إلى الشقوق التكتونية تشكل بساطاً مائياً جيداً في هضبة حوران، أما في المناطق الغربية والشرقية، حيث ينتشر البازلت النيوجيني، الذي تُسَدُّ الشقوق فيه بنواتج التحلل وحبيبات الطف الناعمة؛ فتعد فقيرة بالمياه الجوفية، وتوجد بعض حيوز تتفجر فيها ينابيع صغيرة على مستويات مختلفة في جبل العرب.

إن إنتاجية الآبار كثيرة الاختلاف وهي ما بين ٥ ــ ١٥ل/ثا.

في منطقة مزيريب وفي المنطقة المتوسطة بين جنوب ووسط سهول حوران يتراوح عمق الآبار المنتجة بين ١٢٠ ــ ٢٠٠م ولم ينجح التعميق فيها، إذ إن آباراً أخرى بعمق ٢٠٠ ــ ٣٠٠م كانت جافة.

ويغذي جبل الشيخ ومرتفعات الجولان من الغرب وجبل العرب من الشرق، المنطقة الهيدرولوجية في حوران، ويصل الهطول إلى ١٠٠٠م غرباً و ٤٥٠م في الشرق، ويتسرب قسم من المياه إلى ما تحت البازلت الرباعي وتنزح ينابيع المزيريب واليرموك في أقصى الجنوب الغربي الطبقة المائية، وللتضاريس وليتولوجية الصخور الرسوبية دور في نزح المنطقة أو ثخانة المستوى المشبَّع بالماء، فحيث يوجد المارن وغضار الباليوسين الكتيم، تظهر الينابيع ومساقط المياه، أما في الغرب حيث يوجد الحجر الكلسي، فتتعمق طبقات التخزين، مما يشكل عدة مستويات يصعب تحديد مدى إمكاناتها. ومياه المنطقة عذبة فلا تتجاوز نسبة المواد الصلبة في آبار القنيطرة PPM١٥٤، وهي في منطقة مزيريب حتى ٦٠٠، وتظهر بعض شواذات الملوحة في منطقة المسمية، حيث تصل النسبة إلى PPM٢٣٠٠ وسبب ذلك المارن البحيري الواقع فوق الطبقة المائية.

السطيحة السورية وبادية الشام: يُقصد بها من الناحية الهيدرولوجية، المنطقة الواقعة شرق خط يمر بمدينة دمشق وشرق منخفض حمص وسهل حماة وجنوب هضبة حلب وجبل عبد العزيز حتى حدود الأردن والعراق وهي تشمل الحماد وغوطة دمشق والسلاسل التدمرية والمناطق الصحراوية والسهلية شمالاً.

ــ ففي الجنوب توصلت الآبار إلى طبقة مائية جوراسية، منتجة في التنف على عمق ٤٠٠م وقد تكون رسوبيات الكريتاسي الأعلى حاوية على طبقات مائية.

ــ إن سهل الغوطة الممتد شرق دمشق، يعد أحد أهم مناطق المياه الجوفية في سورية؛ فالحصويات والكونغلوميرا والبازلت والحجر الكلسي والمارني البحيري، العائد للنيوجين والرباعي، تتميز بكونها ذات مسامية ونفوذية عاليتين، وهي تتغذى من سفوح سلاسل لبنان الشرقية وعلى اتصال هيدروليكي بنهري بردى والأعوج أو الآبار، التي لا يتجاوز عمقها ٥٠م، تنتج من ١٠ ــ ٢٥ل/ثا وما يقع منها في تشكيلات حصوية ينتج ٤٠ ــ ٥٠ل/ثا ولكن المشكلة هي

في تلوث هذه المياه، نتيجة الاتصال فيما بينها وبين المياه السطحية.

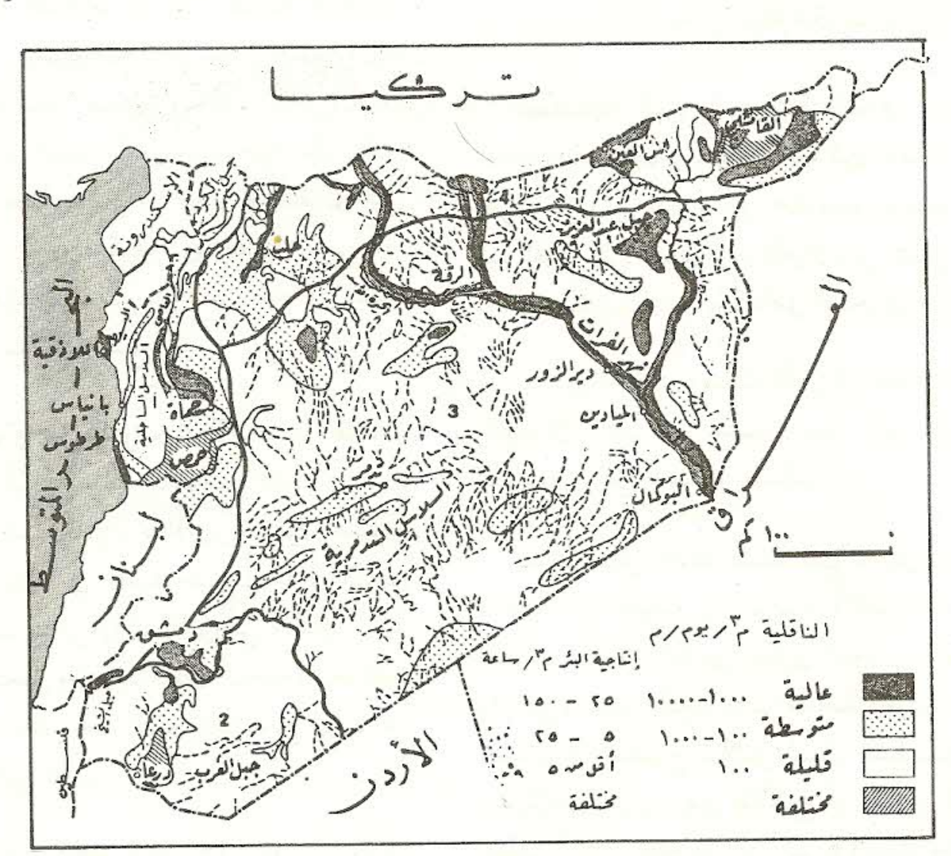
— في المنطقة التدمرية يعتبر الحجر الكلسي والدولوميتي السينوماني — التوروني، طبقة تخزين مائي محدودة تقتصر على وديان وأحواض ما بين الجبال، وقد أمكن استغلالها في منطقتي الناصرية والصوانة بآبار أعماقها بين ١٠٠ و ٢٠٠م إنتاجها ٦ — ١٢ل/ثا. وتعد الطبقة الصوانية المشققة في الكامباني طبقة مائية جيدة وهي منتشرة في وادي المياه وتدمر والباردة والأراك وحوض خناصر، وتزداد إنتاجيتها في المناطق المصدعة، أما في المناطق الواقعة إلى شمال وشرق السلاسل التدمرية؛ فتؤثر مجموعة الفوالق على الطبقة المائية السينومانية — التورونية.

تعتبر الطبقات الكلسية السيليسية، الحاوية على الصوان في الإيوسين الأسفل، مستويات مياه في منطقة السلمية ومنحدرات البلعاس والبشري ولكن إنتاجيتها ضعيفة. وفي المنطقة الممتدة جنوب نهر الفرات، توجد المياه الجوفية في الصخور الكربوناتية والتوضعات الحطامية. وتعتبر اللحقيات في الأحواض بين الجبلية تشكيلات مائية.

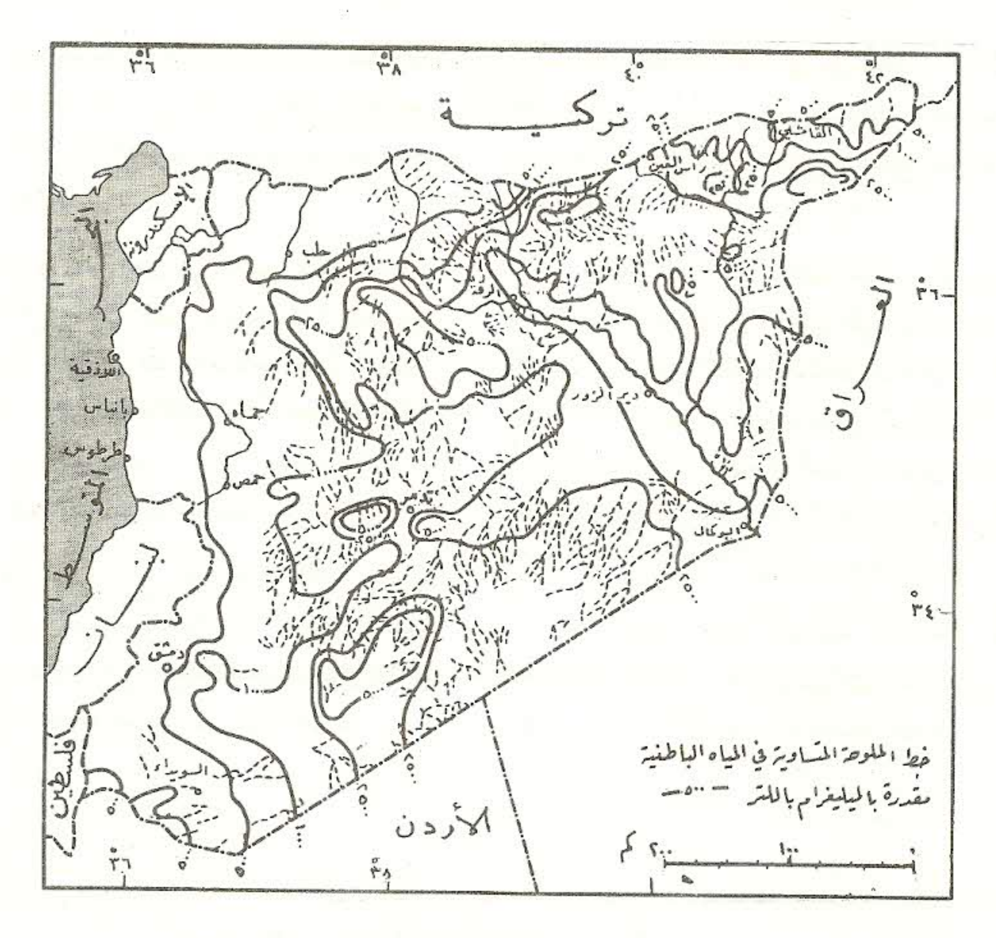
أما في شمال نهر الفرات فتظهر المياه في أسرة الوديان وتوضعات الجص الكهفية وتكون إنتاجية الآبار كثيرة التغير؛ فهي ما بين ٥ر٠ — ١ل/ثا في طبقات الباليوسين وتصل إلى ٥٠ل/ثا في اللحقيات.

— دُرس حوض الدو دراسة مفصلة، تبين أهمية معرفة الأوساط الترسيبية في إمكانات المياه الجوفية، ففي هذا الحوض يتناقص الحجم الحبيبي للرسوبيات الحطامية، بدءاً من الجنوب والشمال باتجاه مركز الحوض. وقد حددت في المنطقة الشرقية منه، عدة آفاق محتملة للتخزين المائي في الصخور الكربوناتية التورونية والسانتونية والكامبانية وهي — بخلاف الموجودة في المنطقة — مياه عذبة والمواد الصلبة فيها لا تتعدى ٣٥ر٠ — ٤ر٠ غ/ل، وكذلك فإن مياه المنطقة الجنوبية عذبة نسبياً، بينما تكون مياه المنطقة الشمالية مالحة، وبعض الينابيع ذات مآخذ مائية عميقة عبر الصدوع والفوالق وتتميز بحرارة عالية تصل إلى درجة ٥٥°، كما في حمامات أبو رباح، وهي بين ٢٥° — ٣٠° في الضمير وتدمر والسخنة.

نوعية المياه: الطبقات المائية الكربوناتية في الناصرية



إنتاجية الطبقات المائية في سورية



ملوحة المياه الباطنية في الجمهورية العربية السورية

والقريتين والأراك ووادي المياه، تعد عذبة. فالمواد الصلبة المنحلة فيها بين ٤٠٠ ــ ٦٠٠جزء في المليــون، كذلك ميــاه الرسوبيات الحطامية في غوطة دمشق وحوض جيرود وسرير نهر الفرات. أمــا ميــاه المنطقــة التدمريــة فهــي ما بين ٢٠٠ ــ ١١٠٠جزء في المليون وهي مقبولة في المنطقة، أما مياه الكامباني في خناصر ووادي المياه، فتحوي نحو ٣٠٠٠ جزء في المليون، وتشير مياه الطبقات الجصية العائدة إلى الفارس الأدنى وبعض المناطق المحصورة وبعض مناطق لحقيات النهر إلى ما يزيد على PPM٨٠٠٠.

إن المياه الجوفيـة للأحــواض المغلقــة تتصرف إلى السبخات، التـي تزيـد ملـوحتها على PPM١٠٠٠٠٠ أي ١٠٠غ/ل وزيادة النزح بالضخ من بعض الآبار، يؤدي إلى تسرب مياه السبخات إلى هذه الآبار وهذا ما لوحظ في منطقة «رمضان» شمال شرق دمشق والبيضا غرب تدمر. وفي بعض المناطق التدمرية، يحوي الكامباني مارن بيتومي وتؤدي أكسدة المادة العضويـة إلى إرجـاع الكبريتــات، مما ينتــج كبريت الهيدروجين H_2S، الذي لوحظت نسب مختلفة منه في الميـاه الحارة، الناتجة عن ينابيع هذه الطبقة في المنطقة التدمرية.

السهول الشمالية: توجد المياه الجوفية في منطقة حلب في الحجر الكلسي العائد للإيوسين، وقاعدة الطبقـة المائيـة محدودة بمارن الباليوسين والكريتاسي الأعلى الكتيم، كما يشكل كلس النيوجين المتكهف، طبقات مائية متعددة في غرب وشمال حلب وتوجد مياه جوفية ضحلة في الجبول والمطخ. تتغذى المياه الجوفية من كميات الأمطار المحلية ومن التسرب السطحي لحوض نهر قويق. وتعد السهول الشمالية الشرقية إحدى أغزر المناطق بالمياه الجوفية، فهي تتغذى من المناطق المرتفعة، الواقعة خلف الحدود والتي يتراوح الهطول فيها بين ٥٥٠ و ١٠٠٠مم سنوياً. وتشكل الصخور الحطامية والبازلت في الشرق والتشكيلات الكربوناتية في الغرب، طبقات التخزين وهي طبقة الردّ وطبقة رأس العين وطبقة تل أبيض.

ــ في الردّ تتألف طبقة التخزين من حصى وكونغلوميرا ورمل